

نقد الحضارة الغربية

(تاريخ الإغريق قبل القرن التاسع ق.م)

الجزء الثاني

مجموعة باحثين

العتبة العباسية المقدسة
المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

نقد الحضارة الغربيّة (2)

(تاريخ الإغريق قبل القرن التاسع ق.م)

نقد الحضارة الغربية. الجزء الثاني : تاريخ الاغريق قبل القرن التاسع ق.م / تأليف مجموعة باحثين.- الطبعة الأولى.- النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، 1442 هـ. = 2020.
مجلد : ايضاحيات ؛ 24 سم.-(المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
ردمك : 9789922625560
1. الاغريق--تاريخ--القرن 9-15 قبل الميلاد. أ. العنوان.

LCC : DF221.2 .N37 2020
DDC : 938
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

نقد الحضارة الغربيّة (2)

(تاريخ الإغريق قبل القرن التاسع ق.م)

مجموعة باحثين

هويّة الكتاب

نقد الحضارة الغربية (2)

(تاريخ الإغريق قبل القرن التاسع ق.م)

إشراف

السيد هاشم الميلاني

رئيس التحرير

الشيخ حسن الهادي

مدير التحرير

د. محمد مرتضى

الإخراج الفنّي

سيد علي مير حسين

الناشر

العتبة العباسيّة المقدّسة / المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجيّة

الطبعة: الأولى 2020م / 1442هـ

(إنّ جميع الأبحاث الواردة في هذا الكتاب محكّمة من قبل لجنة علميّة)

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الفصل الرابع: أخلاق، اجتماع، سياسة

الفصل الخامس: اقتصاد

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

كان علم التاريخ في السابق معنيًّا بتدوين الوقائع والحوادث البشريّة كما حصلت في وعاء الزمن الماضي، ثم تطوّر ليصبح هو المتكفّل ـ بالإضافة إلى وصف الأحداث وتدوينها ـ بتفسير الوقائع وتحليلها وتعليلها وكشف العلاقات والروابط بينها. وشهد المصطلح في العصر الحديث تطوّرًا في مدلوله، فاتّسع ليشمل كلّ شيء في الطبيعة والحضارة: «الأرض، والمعادن، والنباتات، والحيوان، والأفكار، والعلوم... وغير ذلك إلى جانب الفعاليّات الإنسانية»[1]، فلم يعد علم التاريخ منحصرًا بدراسة الوقائع البشريّة التي حدثت في الزمن الماضي فقط، بل اتّسع ليشمل ميادين المعارف والعلوم والأديان والفلسفات البشريّة، وتاريخ الأرض وما يعيش عليها من مخلوقات وتحويه من كائنات وظواهر...، وبدأ العلماء يميّزون بين أنواع من التاريخ: كالتاريخ النقلي، والتاريخ العلمي، وفلسفة التاريخ[2]... وأصبح علم التاريخ متداخلاً مع العديد من العلوم، كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والنّفس...

لذا، أصبح من الواجب على الباحث التاريخي أن يحيط بالظّواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والفنيّة والفلسفيّة...، التي تتّصل بالعصر الذي يريد دراسته، وأن يستند على منهجٍ بحثيٍّ ينسجم مع طبيعة العلم الذي يبحث فيه. وبالتحقيق والتحليل والمقارنة والنقد، يصل إلى نتائج علميّةٍ موضوعيّةٍ منسجمةٍ مع القواعد والضوابط المنهجيّة للبحث.

وبناءً عليه، إنّنا عندما نطلق مشروعًا علميًّا تحت مسمّى «نقد الحضارة الغربيّة»،

---

[1]- محمد مهدي شمس الدين، التاريخ وحركة التقدم البشري ونظرة الإسلام، ص 13.

[2]- انظر: ياسين، كاظم: منهجية البحث في تاريخ الإسلام، ط1، بيروت، مركز المصطفى العالمي للدراسات والترجمة والنشر، 1434هـ-2013م، ص49.

لا نقصد به إعادة كتابة تاريخ الغرب مرّة أخرى، فقد تكفّل الغرب نفسه بذلك، وإنّما نقصد إعادة تظهير هذا التاريخ من خلال إجراء قراءةٍ تحليليّةٍ نقديّةٍ لتاريخ الغرب بجميع حقوله؛ المعرفيّة، الثقافية، الاجتماعية، السياسية، والاقتصادية، وفي جميع أزمانه؛ الإغريق، القرون الوسطى، التنوير والحداثة، ما بعد الحداثة، وصولاً الى عصرنا الراهن. ما حتَّم علينا، ولاعتبارات منهجيّة، تقسيم العمل في هذا المشروع وفق مقتضيات التحقيب الزّمانيّ والجغرافيا المعرفيّة والثقافيّة التي شهدت على وقائعه وأحداثه.

ولمّا كان الغرب الحديث يعتبر أنّ تاريخه، الفكري على الأقل، قد بدأ مع الإغريق، أو ما أطلق عليه هو نفسه بالمعجزة الإغريقيّة، فقد ارتأينا أن ينطلق مشروعنا النّقديّ من تلك الحقبة التأسيسيّة، وتحديدًا من ما قبل القرن التاسع قبل الميلاد؛ ذلك أنّ تلك الفترة تُعدّ اللّبنة الأساسية، والعماد الذي اعتمد عليه الغرب في تكوين نفسه، كما أنّ البحث عن جذور الغرب والحفر الأركيولوجي يوصلنا لا محالة إلى هذه الفترة الزّمنيّة.

إذًا، نحن في هذا المشروع أمام تاريخ غربيّ يمتدّ لحوالي أربعة ألاف سنة، أي إلى حوالي عام ألفين قبل الميلاد. بهذا، كان لا بدّ من تقسيم العمل إلى مراحل. وقد ارتأينا أن تكون البداية من ما قبل القرن التاسع قبل الميلاد، وهي مرحلة تمتدّ إلى حوالي عام 1500 قبل الميلاد؛ حيث بالإمكان رصد معالم تلك المرحلة من نواحٍ عديدة، وحيث يمكن إيجاد بعض المصادر عنها، ومحاولة رسم معالمها وخصوصياتها.

علمًا بأنّنا ننطلق في تحليل الغرب ونقده من منطلقٍ دينيٍّ أوّلاً، وعقلانيّ معرفيّ ثانيًا، وإنسانيّ فطريّ ثالثًا.

هذا الكتاب (الجزء الثاني) هو استكمال لبحوث الجزء الأول من هذه السلسلة، ويتضمّن البحوث المتعلّقة بالمدن، والشخصيات، والحروب، والأخلاق، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد.

الفصل الثالث

مدن وشخصيّات وحروب

* ❋ الغزوات الدوريّة وتأثيرها على بلاد الإغريق خلال العصر المظلم
* ❋ طروادة
* ❋ دولة إسبرطة والنظام الأرستقراطي
* ❋ هسيود
* ❋ ملحمة الإلياذة

الغزوات الدوريّة
وتأثيرها على بلاد الإغريق خلال العصر المظلم

عبد الله السليمان[1]

مقدمة

الدوريون هم واحدة من أربع قبائل شكّلت الشّعب اليوناني (الأيونيون والأيوليون والآخيون والدوريون)، وما يميّز هذه القبيلة أنّها آخر القبائل التي وفدت إلى بلاد اليونان من جنوب روسيا في نهاية الألف الثاني ق.م، واستوطنوا في الجزء الشّمالي الغربي من الوطن الإغريقي القديم قبل سنة 1200 ق.م. وكانوا على دراية باستخدام معدن الحديد؛ فوضعوا نهاية لعصر البرونز كلّه، وأمّن لهم استخدام معدن الحديد في صناعة السّلاح تفوّقًا عسكريًّا مهّد لهم الطريق للسيادة على بلاد اليونان.

لقد كان للغزوات الدوريّة آثار ونتائج عميقة، لا على المجتمع اليوناني فحسب، بل على الشرق القديم وأوروبا الغربية. فبعد أن سيطر الدوريون على بلاد اليونان وأخضعوا بعضًا من أهلها للعبوديّة، قَبِل البعض ما آلت إليه الأمور، بينما هاجر آخرون وتفرّقوا في جزر بحر إيجة وسواحل آسيا الصغرى، ما ساهم في اتّساع بلاد اليونان بصورة لم تتّسع عليها من قبل، بينما انتقل بعض الآخيين إلى إقليم أركاديا (Arcadia) في بلاد اليونان، لكن بعضهم الآخر هاجر حتى قبرص وفلسطين. أضف إلى ذلك ما رافق هذا العصر من تراجع في مختلف نواحي الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة؛ حيث لم يعد هناك كتاب ولا نظام كتابة، واختفت الكتابة التخطيطيّة B، ولم يعد هناك ممالك تنعم بحياة البذخ والترّف كما كان عند الموكينيين، ولم يعد هناك ملوك أو موظفون ليعملوا في القصور، ولم يعد يهتمّ أحد بتشييد الأبنية الحجريّة العملاقة، ولم يكن هناك أحد يهتمّ

[1]- أستاذ التاريخ القديم بجامعة دمشق.

باقتناء الأثاث الفاخر، لا بل لم يكن هناك من يصنعه أصلا، وتناقص استيراد الذهب والبرونز والكماليات الثمينة من الشرق القديم، ولم يعد هناك أي صلات تجاريّة مع العام الخارجي بالمعنى المألوف للكلمة، لقد عاش العالم اليوناني في غزلة تامة. وكان علينا الانتظار حتى القرن الثامن قبل الميلاد؛ حيث بدأت اليونان بالخروج من عصرها المظلم (Dark Age)، وعرفت الكتابة من جديد، تلك الكتابة التي نقلها لهم الفينيقيون، وقاموا بتعديلها لإنشاء الأبجدية اليونانيّة. وهكذا اصطلح المؤرّخون على تسمية القرون الأربعة 1200 - 800 ق.م التي خضعت فيها بلاد اليونان للسيطرة الدوريّة: باسم العصور اليونانية المظلمة (Ελληνικοί σκοτεινές εποχές).

وعلى الرغم من كلّ ما تقدّم، فإنّ ذلك لا يعني أبدًا أنّ اليونان دخلت في حالة بدائيّة، بل حافظت على بعض من إرثها الحضاري، وهذا ما سنشرحه هنا.

أوّلًا: من هم الدوريون؟

1. أصل الدوريين وموطنهم:

يعود أصل الدوريين (Doriens / Δωριεῖς) إلى القبائل الهندو-أوروبيّة (Indo-European)، ومن الواضح أنّ هذه القبائل الدوريّة التي هاجمت بلاد اليونان هي من العنصر الإغريقي نفسه، وهم واحدة من أربع مجموعات قبليّة تكوّن منها الشعب اليوناني (الآخيون، والإيوليون، والأيونيون، والدوريون). الأرجح أنّ موطن الدوريين الأصلي كان في جنوب روسيا أو في حوض الدانوب الأوسط، واستوطنوا في الجزء الشمالي الغربي من الوطن الإغريقي القديم بعد قدومهم من شمال أوروبا في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ثم بدؤوا بالتّحرّك نحو الجنوب في نهاية عصر البرونز، (في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد)، أي أنّهم آخر هذه المجموعات القبليّة التي وفدت على بلاد اليونان. وقد عزى الأستاذ الفرنسي شيفر (Shaeffer) أسباب هذه الهجرة السكّانيّة إلى سلسلة من الزلازل المدمّرة التي تعرّضت لها المنطقة إبّان تلك الفترة[1]. وقد اتّخذت هذه الهجرة طابع الغزو العنيف.

[1]- سيد أحمد علي الناصري الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارات كريت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر، ط2، القاهرة، دار النهضة العربية، 1976م، ص70، 71.

2. المظهر الخارجي:

اتّصف الدوريون أنّهم ذوو جماجم مستديرة وقامات طويلة، ولون شعر بني، وكانوا ذوو روح حربيّة عالية[1]؛ حيث اتّصفوا بقسوة قلوبهم وبطشهم الشديد. وكان هذا العنصر من الناس قد اشتهر بجماله وقوّته وصحّته وأجسامه، واعتاد البرد وشظف العيش وحياة القسوة والقلّة والفاقة، فترى رجالهم ونساءهم يرتدون ثيابًا قصيرةً لا تصل إلى ركبهم[2]، مؤلّفة من سترة قصيرة وعباءة، وقد أصبحت هذه العباءة الإغريقيّة الفضفاضة والتي كانت تعرف باسم هيماتون (Himation) من أهم ملامح الرّداء الإغريقي بعد سيطرتهم على بلاد اليونان، وكانت هذه العباءة عبارة عن رداء من القماش الثقيل مستطيل الشّكل يمرّ أسفل الذّراع الأيسر وفوق الكتف الأيمن. وكان الدوريون يتكلّمون اللّهجة الأيوليّة؛ وهي واحدة من اللّهجات اليونانيّة القديمة.



رجل يرتدي العباءة الإغريقية الفضفاضة

[1]- ول ديورانت: قصة الحضارة، حياة اليونان، ترجمة محمد بدران، لا ط، بيروت، ج1، مج2، د.ت، ص118.

[2]- شارل سنيوبوس، تاريخ حضارات العالم، ترجمة: محمد كرد علي، لا ط، القاهرة، العلمية للكتب والنشر، 2012، ص66.

ثانيًا: غزوات الدوريين

1. أسباب الغزو:

إنّ معظم المؤرّخين الكلاسيكيين (هيرودوت (Herodotus) وتوكوديدس (Thucydides) وتديودور (Diodorus)) يعزون غزو الدوريين لبلاد اليونان، لحادثة ما يعرف عندهم اصطلاحًا باسم «عودة أبناء هرقل»، التي يؤرّخونها بـ 60 أو 80 سنة بعد حروب طروادة[1]؛ أي بجيلين أو ثلاثة أجيال بعد هذه الحرب. فجعلوا ملوكًا من إسبارطة من نسل البطل هرقل قد طردهم رعاياهم فجاءوا يبحثون عن الدوريين في جبالهم، فقبل الدوريون نصرتهم حبًّا بهذا البطل، ونصوبهم على عروشهم بعد أن أغاروا على السكان فاستصفوا أرضهم وديارهم[2].

وإن كان عدد من المؤرّخين المحدثين يرفضون هذه القصّة، ويرفضون اعتبارها سبب الغزو الدوري، لا بل إنّهم يعتبرونها أسطورة لا أساس لها من الصحّة، وأنّها من وحي خيال الدوريين أنفسهم، الذين نسجوها ليضفوا على غزوهم نوعًا من الشرعيّة، وحقًّا في اقتحام بلاد اليونان واستعمارها. ورغم ذلك، فليس مستبعدًا أنّ أولاد هرقل، وبعد أن تعرّضوا للطرد، أقاموا فترة في تساليا ثم ذهبوا إلى القبائل الدوريّة واستقووا بها على الآخيين، وأغاروا بها على بلاد اليونان، ووحدهم من دلّ تلك القبائل على مواضع القوّة والاستحكام في بلاد اليونان، ومهما كانت بواعث هذا الغزو، فقد كان له نتائج خطيرة على بلاد اليونان[3].

إنّ معظم الباحثين المحدثين يعزون الأحداث الكبرى في التاريخ إلى البراكين أو الزلازل، وربمّا أنّ الجفاف المناخي الذي رافق نهاية عصر البرونز، وشحّ كميات الأمطار وتراجع الزراعة، تسبب في حركة هجرة واسعة نحو حوض البحر المتوسط من شمال أوروبا. في الواقع، إنّ تراجع الزراعة يدفع الإنسان لامتهان الرعي والتنقّل مع ماشيته بحثًا عن الكلاء والماء ومنطقة رعي جديدة. ويبدو أنّ هذا ما حصل مع الدوريين في نهاية

---

[1]- Thomas, C., Found: The Dorians Archaeology and Greek Linguistics at the End of the Late Bronze Age., Volume 20 Issue 31978, Spring 1987, p.24

[2]- شارل سنيوبوس، تاريخ حضارات العالم، م.س، ص66.

[3]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري الباكر والكلاسيكي، ط4، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2002، ج2، ص37.

الألف الثاني قبل الميلاد[1]، الذين كانوا لا يزالون في طور البداوة والرعي. وإنّ عددًا من العلماء من أمثال رايز كاربينتر (Rhys Carpenter) حاولوا توضيح الأحداث في نهاية عصر البرونز باكتشاف إشارات التغيّر المناخي في اليونان التي جعلت شروط الحياة لا تطاق لفترةٍ مؤقّتة من الزمن، وفي هذه الفترة بالذات انقلب الدوريون على مراكز الحضارة الموكينيّة ووضعوا يدهم على البلاد؛ ولطالما ربط المؤرخون بين هذا التغيّر المناخي وغزو الدوريين للبلاد كقوّة ثقافيّة أجنبيّة[2].

في الحقيقة لم يكن الدوريون ليجرؤوا على انقلابهم هذا لولا إدراكهم ما يعانيه الآخيون والبلاد من ضعف وهوان، فنصر طروادة وحده استغرق عشر سنوات، وسنوات الحرب تلك أنهكت قواهم وأضعفت شوكتهم. والواقع أنّ الفراغ السياسي الذي خلفته مشاركة معظم ملوك الآخيين في حرب طروادة، وغرق الكثير من السفن في طريق عودتها، واضطرار بعض الهائمين إلى الاستيطان في مناطق شتّى من الجزر الإغريقية، والحالة الاقتصاديّة البائسة التي سبّبها انصراف عدد كبير من الرجال إلى الحرب، يسمح لنا بتكوين فكرة عن حالة الاضطراب والفوضى التي عانى منها الآخيون بعد عودتهم من حربهم ضد طروادة، كما تساعدنا تلك الحال على تصوّر التهلهل السياسي الذي شجّع القبائل الدورية على مهاجمة البلاد واستملاكها. وإنّ اختلاف المؤرخين الإغريق في تعيين تاريخ محدّد للغزو الدوري «أو عودة أولاد هرقل» يساعدنا على ترجيح ما يذهب إليه بعض المؤرّخين من أنّ الغزو الدوري لم يحدث دفعة واحدة بل على دفعات متتاليةٍ استمرّت مدة قرن من الزمن[3].

وغالبًا ما يحدّد أساتذة التاريخ غزو الدوريين وهبوطهم من الشمال بعد جيلين أو ثلاثة من سقوط طروادة، حيث يقول توكوديدس Thucydides: «في السنة الثمانين من بعد حرب طروادة غزا الدوريون البيلوبونيز Peloponnesian بقيادة أولاد هرقل» وبما أنّ عددًا من المؤرخين حدّدوا حرب طروادة بنحو سنة 1184 ق.م فبوسعنا أن نحدّد اقتحام بلاد اليونان بقيادة أولاد هرقل بسنة 1104 ق.م استنادًا إلى توكوديدس. وإن كان بعض المؤرخين قد

[1]- Martin, T. R., Ancient Greece From Prehistoric to Hellenistic Times., Second edition., New Haven & London 2013, p.50.

[2]- Dietrich, B. C., Some myth and fact about the Dorians., Acta Classica., South Africa 1958, p.51

[3]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، م.س، ص37.

توصّل بعد دراساتٍ مستفيضةٍ إلى أنّ تسرّبًا بطيئًا للدوريين إلى بلاد اليونان قد تمّ بهدوء، ويرجع إلى ستة أجيال قبل حرب طروادة، ويرجعون دخولهم إلى تساليا ووسط بلاد اليونان إلى مطلع النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد[1]. أي أنّ الدوريين منذ أن استقرّوا في الركن الشمالي الغربي من الوطن الإغريقي القديم نحو سنة 1200 ق.م بدأوا بالتسرّب إلى داخل البلاد، وإنّ ما حصل نحو سنة 1104 ق.م كان انقلابًا دمويًّا عنيفًا وشرسًا بكلّ المعايير.

2. اقتحام بلاد اليونان

لقد استقرّ هؤلاء الغزاة الجدد أوّلًا في الجزء الشمالي الغربي من الوطن الإغريقي القديم قبل أن يدخلوه، وكانوا لا يزالون في طور حياة البداوة، لا يهتمون بالزراعة، وغالبًا ما سكنوا الأكواخ البسيطة، وكانوا أشدّ بأسًا وأقوى مراسًا وأصلب عودًا وأوفر شجاعةً في القتال من الآخيين أصحاب الحضارة الموكينية؛ الذين كانوا في غالبيتهم زرّاعًا وتجّارًا، بنوا البيوت والقصور وعاشوا حياة الترف والنعيم، ولم يكونوا قد عرفوا استخدام معدن الحديد بعد في صنع آلاتهم وأسلحتهم، وبذلك سيضع الدوريون نهاية لعصر البرونز كلّه[2]. ويبدو أنّ تلك القبائل التي غزت بلاد اليونان لم تدخلها بحرًا، بل هبطت عليها من الشمال؛ حيث مرّت بمقاطعتي مقدونيّة والورية أوّلًا، ثمّ عبرت جبال البندوس وأغارت على مقاطعتي تساليا (Thessaly) وأيتوليا (Aetolia) ثانيًا، وقاموا بتخريب كلّ أثر حضاريّ لهاتين المقاطعتين، ثمّ تابعوا طريقهم فهاجموا مقاطعة ميجارا برا، ومقاطعة أليس بحرا، وسيطروا خلال فترة وجيزة من الزمن على معظم أهم المراكز الحضارية في البيلوبونيز Peloponnesian، وقتلوا واستعبدوا سكّانها من الآخيين الذين فرّ قسم منهم إلى البحر الايجي، والتجأ القسم الآخر إلى مقاطعة أتيكا[3].

كان من الطبيعي أن تتّجه أنظار عدد كبير من الآخيين الذين نجوا من الحرائق والمذابح صوب أتيكا وعاصمتها أثينا، وقد أشار توكوديدس إلى ذلك، وكذلك المؤرخ باوسانياس

[1]- Dietrich, B. C., Op. Cit., 1958, p.52

[2]- نور الدين حاطوم وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، ج1: حضارات العصور القديمة، لا ط، دمشق، مطبعة الكمال، 1965م، ج1، ص373.

[3]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، م.س، ص38.

الذي بيّن ذلك بصريح العبارة أن الآخيين الذين طردهم الدوريون اتجهوا إلى أتيكا، وقد رحّب الأثينيون بالمهاجرين، وكونوا معهم جبهة دفاعيّة مشتركة للوقوف في وجه العدوان الدوري. ويذكر أرسطو ومن بعده بلوتارخ Plutarch (46 -120م) أنّ الأثينيين كانوا كرماء مع المهاجرين فمنحوهم حقّ المواطنة الأثينية. كما تتحدّث قصص الموروث الشعبي عن هجرة أهل بيلوس إلى أثينا، وكيف أنّهم التجؤوا إلى أثينا وأقاموا فيها واختلطوا مع سكّانها عرقيًّا وحضاريًّا مكوّنين عنصرًا مزدوجًا يطلق عليه العنصر البيلو-أتيكي. كما تروي قصص التّراث الشّعبي أنّ أحد ملوك أثينا (الملك كودروس Kodros) كان أصله من بيلوس، وأنّه سقط وهو يدافع عن حريّة أثينا واستقلالها[1].



خريطة بلاد اليونان الطبيعية

لقد نجح الغزاة الدوريون في اجتياح معظم بلاد اليونان؛ حيث بينت التنقيبات الأثريّة أنّ القصور الموكينيّة خاصة في بيلوس (Plyos) ويولكوس (Iolkos) قد تعرّضت للحريق والتدمير نحو سنة 1104 ق.م[2]؛ حيث أظهرت التنقيبات الأثرية التي جرت في كثير من أرجاء بلاد اليونان عن طبقة من الدمار والحرائق تفصل بين طبقة من حياة البذخ والترف

[1]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص74.

[2]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص71.

الموكينية البرونزية، وطبقة يظهر فيها معدن الحديد، فأثبتت بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ الدوريين أتوا بهذا المعدن معهم إبان غزواتهم[1]. إلاّ أنّهم عجزوا عن دخول شبه جزيرة أتيكا، وتجدر الإشارة إلى أنّ أتيكا كانت تضمّ أثينا والضواحي والقرى والموانئ الصغيرة التي تحيط بها، والتي كانت تتّخذ منها مركزاً أساسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا[2]. بينما تعرّضت المنازل القائمة خارج سور قلعة مدينة موكيناي لتدمير مماثل، أي أنّ قلعة موكيناي صمدت أمام الحصار فترة من الزمن قبل سقوطها، ويقدّر العلماء هنا مدّة هذا الصمود بنصف قرن، كما حاق الدمار بمدينة ترينس (Triyns) وأرغوس (Argos) وإسبارطة الموكينية في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أمّا باقي المناطق الأخرى فقد استمرّت على حالها. إنّ خطّ سير قوّات الغزو الدوري قد أعفى جزر بحر إيجة من الدمار؛ بدليل أنّ الحياة الموكينيّة في بعض جزر هذا البحر استمرّت على ما هي عليه، لا بل إنّ جزيرة رودس بلغت قمّة مجدها التجاري إبان هذا الغزو؛ إذ امتدّت مناطق نفوذها التجارية من تارنتيوم (Tarntum) في إيطاليا غربا إلى هضبة الأناضول شرقًا[3].



صورة تخيلية لغزو الدوريين لبلاد اليونان والدمار والحرائق التي لحقت بالمدن الموكينية وهرب السكان من وجه الغزاة

[1]- العابد، مفيد رائف: الآثار الكلاسيكية، دراسات في الآثار الكلاسيكية، ط12، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2010م، ص60.

[2]- عبد الوهاب لطفي يحيى، الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 2، مج 38، 2009م، ص112.

[3]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص71.

3. تصدي أثينا للغزو الدوري وتطوّرات الأحداث

لقد كانت محاولة الدوريين لدخول أتيكا بواسطة جيش نظامي مدرّب تحت قيادة هيلوس (Hyllos) أحد أبناء هرقل (Herakles)، إلّا أنّ القوّات المشتركة بقيادة أثينا تمكّنت من ردّ الغزاة على أعقابهم في برزخ كورنثا (Corinth)؛ حيث قتل هيلوس من قبل البطل إخيموس الأركادي (Arcadian Ekhemos) في المعركة الوحيدة التي جرت بين الطرفين[1]، وانسحب الدوريون ولم يتابعوا القتال؛ لأنّه كان هناك اتّفاق ألّا يدخلوا إلى أتيكا إلا تحت قيادة هيلوس المنتصر، وبما أنّه قُتل، اضطرّ الدوريون للكف عن أتيكا[2]. ويروي هيرودوت (Herodotus) أنّ الفكرة كانت فكرة هيلوس نفسه، فعندما صار عند ممرّ أشموس (ممر كورنثا) لاقى القوّات المشتركة التي خرجت لصدّه، وأعلن أنّه ليس من الضروري أن يجازف الجيشان بأرواح جنودهم في قتال شامل، واقترح أنّه يكفي أن يختار جيش أتيكا أحد أبطاله ليلاقيه في معركة فرديّة وفق شروط يتّفق عليها، فقبل المدافعون، وتعهّدوا له إذا انتصر هيلوس أن يسمحوا لأسرته أن تستعيد امتيازاتها القديمة، أمّا إذا انهزم فيتوجب عليهم الانسحاب بجيشهم، وألّا يعودوا للاعتداء على أتيكا طوال 100 سنة، وقد وقع اختيار القوات المشتركة على قائدها إخيموس (Echemus)، وكان قد تطوّع بدوره للقيام بهذه المهمة، فاشتبك مع هيلوس وقتله[3].

ومهما يكن من أمر هذه القصّة، سواء أكانت أسطوريّة أم حقيقيّة، فإنّ التنقيبات الأثرية رجّحت أنّ أثينا قد تعرّضت لأكثر من هجوم وغارة، تزامنًا مع الهجمات التي تعرّضت لها مدن موكيناي وتيرنس وبيلوس، إلّا أنّ الدمار الذي أصاب أثينا انحصر في المناطق المتموضعة خارج السور، بينما لم تتأثّر المنطقة الواقعة داخل السور بشيء، وهذا يؤكّد أنّ المدينة لم تسقط في يد الدوريين، كما كشفت التنقيبات الأثرية عن متانة تحصيناتها؛ ولا سيما في منطقة الأكروبول (Acropolis)، ويبدو أنّ هذه التحصينات استعصت على جحفل الجيوش الدورية التي وقفت مكتوفة الأيدي أمامها[4].

---

[1]- Finkelberg, M., Greeks and pre-Greeks, Cambridge University Pres, Cambridge 2005, p.143.

[2]- Thomas, C., Op. Cit., 1987, p.24.

[3]- Herodotus, IX, 26- 27.

[4]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص73.

إنّ معنى اسم أتيكا (Attica) باللّغة اليونانيّة يعني: «الصخرة العالية»، وإنّ لكلّ موضع من اسمه نصيب، ولطالما عدَّ الأثينيون أنفسهم سكان أتيكا الأصليين (Autochtonous)، والمالكين دائما للبلاد بعينها؛ لأنّهم وحدهم من صمد في وجه الدوريين الذين لم يتمكّنوا من طردهم، ولطالما ذكّروا اليونانيين بذلك الأمر وافتخروا به أمامهم. وربّما كان هذا هو السبب في عدم تشابه لغتهم وعاداتهم مع لغة الإغريق الآخرين وعاداتهم، فالدوريون يتكلّمون اللّهجة الأيوليّة، بينما سكان مقاطعة أتيكا فيتكلمون اللّهجة الأيونيّة، وكان سكان أتيكا الأوائل يدعون إيوليين، ومنهم خرج الأيونيون الذين استوطنوا سواحل آسيا الصغرى، وكانوا يتكلّمون اللّغة التي تسمّى الآن أيونيّة، بمعنى أنّه لم يكن في كلّ شبه جزيرة البيلوبونيز سوى عنصرين سكانيين في مطلع الألف الأوّل قبل الميلاد هما الأيوليون والدوريون[1].

4. الاختراق الدوري لأتيكا:

رغم نجاح القوّات المشتركة في صدّ الغزاة عن إقليم أتيكا وعاصمتهم أثينا، إلاّ أنّ الدوريين نجحوا في إيجاد موطئ قدم لهم فيها واستعمار الأجزاء الجنوبيّة من هذا الإقليم؛ بعد ثلاثة أجيال من محاولتهم الأولى[2]؛ حيث أشار هيرودوت أنّ ذلك قد تمّ بعد حوالي 100 سنة[3]. وما يلفت الانتباه أنّ التنقيبات الأثريّة بيّنت وجود سور حصين تمّ تشييده على برزخ كورنثا بهدف منع تقدّم القوّات الغازية من الشمال، ويبدو أنّ هذا السور هو الذي أنقذ أتيكا من موجة الدمار الأولى نحو سنة 1104 ق.م، ولم يدخل الدوريون أتيكا من برزخ كورنثا بل دخلوها عبر نوباكتوس (Naupaktos) إلى رينو (Rhion) وقضوا على الحضارة الموكينية[4]. ثم سيطروا في برزخ كورنثا -فيما بعد- على قمة أكروكورنثوس (Acrocorinthus)، وهي قمّة عالية تشرف على ما حولها وتسيطر عليه، وأشادوا حولها مدينة كورنثا الدورية[5].

5. بناء المجتمعات وموجات الهجرة

لقد أقام الغزاة الدوريون مجتمعات لهم في مدن ميجارا، وإسبارطة، وآرغوس (عاصمة

---

[1]- سترابون: الجغرافيا، ترجمة: حسان اسحق، لا ط، دمشق، دار علاء الدين، 2017م، الكتاب8، الفصل1، الفقرة 2.

[2]- Finkelberg, M., Op. Cit., 2005, p.143.

[3]- Thomas, C., Op. Cit., 1987, p.24.

[4]- Finkelberg, M., Op. Cit., 2005, p.144.

[5]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص119.

جزيرة بلبوس)، ثم عَبَرَ فريق منهم البحر واستولى على مناطق في آسيا الصغرى وبعض الجزر في بحر إيجة[1]، حتى إنّهم سيطروا على كامل بلاد اليونان بنهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ودخلوا جزر ميلوس (Melos) وثيرا (Thera) وكوس (Cos)، وكاسوس (Casos)، ونيسيروس (Nisyros)، سيرن (Syrne)، وكرباثوس (Carpathos)، وردس (Rhodes)، واحتلّوا عددًا من الجزر الآسيويّة مثل جزيرة نيدوس (Cnidos)[2]، وأنشأ المستعمرون الدوريون في هذه الجزيرة مدينة نيدوس، وفي هذه المدينة ولد في مستقبل الأيام يودكسس (Eudoxus) الفلكي، وتسياس (Ctesias) المؤرّخ (أو كاتب الخرافات)، وسستراتس (Sostratus)، وعلى مقربة منها سيطروا على شبه جزيرة هاليكارناسوس (Halicarnassos)؛ مسقط رأس هيرودوت[3].

6. نزوح السكان الأصليين

أمام توافد موجات الهجرة الدوريّة إلى منطقة البيلوبونيز والمناطق التي احتلّوها، نزح نفر من السكان الأصليين عن مناطقهم إلى شبه جزيرة أتيكا، أو إلى خارج البيلوبونيز وبلاد اليونان كلّها، بينما بقي نفر آخر من السكان اندمجوا مع الغزاة، ونزل بعضهم إلى مرتبة العبوديّة، وقصارى القول إنّ هذه الموجة من الهجرة الدوريّة إلى بلاد اليونان قد تسبّبت في حالة من الفوضى والاضطراب في كامل بلاد اليونان من تساليا شمالاً إلى البيلوبونيز جنوبًا، واستمرّت لقرون عدّة، ولم تستقرّ تلك القبائل إلاّ عند نهاية القرن التاسع قبل الميلاد[4]، وغالبًا ما يطلق المؤرّخون على هذا العصر اسم عصر الظلام (Dark age)، أوّلاً بسبب غياب الوثائق الكتابيّة وضياع نظام الكتابة التخطيطية B [5]، وثانيًا بسبب ما رافقه من مرج سكاني وأحداث جسام

[1]- إبراهيم عبد العزيز، معالم التاريخ اليوناني القديم، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 1998-1999م، ص143.

[2]- Dierckx, H., The Dorian dilemma; Problems and Interpretations of social change in Late Helladic III C and Dark Age Greece with reference to the archaeological and literary evidence., A Thesis submitted for the Degree of Master of Arts at the University of Durham, Department of Classics., 1986, p.47.

[3]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص246.

[4]- إبراهيم عبد العزيز، معالم التاريخ اليوناني القديم، م.س، ص144.

[5]- استخدمت الكتابة التخطيطية B من قبل أبناء الحضارة الموكينية، وقد تم فك رموزها على يد البريطاني آرثر إيفانس Arthur Evans. وكانت هذه الكتابة أداة لتدوين اللغة اليونانية قبل غزوات الدوريين، وقد عثر على ألواح هذه الكتابة في أربعة مواقع يونانية: في بيلوس (Pylos) حوالي 1088 كتابة أرخت نحو سنة 1200 ق.م، وفي موكيناي Mycenae حوالي 85 كتابة أرخت نحو -1250 1225 ق.م، وفي تيرينس Tiryns حوالي 68 كتابة أرخت نحو 1200 ق.م، وفي ثابيس Thebes حوالي 400 كتابة أرخت ما بين -1300 1260 ق.م، وغالبا ما تظهر هذه الكتابات على الجرار والألواح الطينية. للمزيد انظر: Finkelberg, M., Op. Cit., 2005, p.58.

رافقت مطلعه كدمار الحضارة الموكينية وتلاشي مدنها[1]، وتراجع مختلف النواحي الفكريّة والثقافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وهذه النتائج سنأتي على دراستها بالتفصيل.

7. فوضى الغزو والتّوسّع

لقد كان بحقّ عصرًا مظلمًا؛ فما إن سقط عدد من المدن الموكينيّة تحت ضربات سيوف الدوريين، حتى انعدم الأمن وانتشرت الفوضى، وكان الرجل لا ينتقل من مكان إلى آخر إلا وسلاحه بيده لا يأمن على نفسه، وشاعت أعمال العنف بصورة وحشيّة، وتعطّلت أعمال الزّراعة والتجارة البريّة والبحريّة، وازداد الفقر والبؤس بعد الرخاء والازدهار، وما إن فرغ الدوريون من بلاد اليونان حتى انتقلوا إلى جزيرة ثيرا ثم إلى كريت ثم إلى رودس؛ حيث أصبحوا الطبقة الحاكمة فيها، ومن ثيرا أرسلوا جالية منهم استعمرت سيريني. واستقرّ عدد قليل منهم في قبرص، ولم يكن الدوريون فيها إلا أقليّة. وقد بلغت هجرتهم أخيرا ساحل آسيا الصغرى الذي غلب عليه اسم دوريس (Doris) بعد أن سيطروا على جنوبه. ويسمي هزيود Hesiod (750- 650 ق.م) هذا العصر بعصر الحديد، ويتأسّف على فساده وانحطاطه عن العصور الجميلة التي سبقته، ويقول هيرودوت إنّ كثيراً من اليونانيين كانوا يعتقدون أنّ اكتشاف الحديد قد أضرّ بالإنسان، واضمحلّت الفنون وأهمل التصوير وقنع المثالون بنحت التماثيل الصغيرة الملونة، وانحطت صناعة الفخار، لأن الصناع غفلوا عما كان يمتاز به الفن الموكيني والكريتي من نزعة طبيعية حيوية، فاتبعوا طرزا هندسية لا حياة فيها[2].

8. غزو الدوريين لجزيرة كريت

من بلاد اليونان توسّع الدوريون باتّجاه كريت؛ حيث استوطنتها ثلاث قبائل دورية (هي Hylleis وDymanes وPamphyloi) وشغلت وسط الجزيرة، بينما استمرّ السكّان الأصليون: الكيدونيون (Kydonians) في شطرها الغربي، والإيثيوكريتيون (Eteocretans) في شطرها الشرقي، محتفظين بلغتهم فترة من الزمن. وتمركز الدوريون في وسطها؛ حيث سادت لهجتهم، ومنها نشروا عاداتهم ولغتهم وثقافتهم في الجزيرة حتى بدأت كريت

---

[1]- Martin, T. R., Op. Cit., 2013, p.46.

[2]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص120.

تصطبغ بالصبغة الدورية[1]. ويتحدّث هوميروس عن الجزيرة في الإلياذة فيقول: «في عرض البحر ذو اللون القاني في لون النبيذ Vineuse توجد أرض جميلة بقدر ما هي غنيّة معزولة بالأمواج، تلك هي أرض كريت، فسيحة وخصبة، يسكنها أناس كثيرون متنوّعو الأعراق، لغاتهم مختلطة، يسكنها الآخيون (Achaeans) والكريتيون الأصليون (The genuine Cretans) والبيلاسجيونيون (Pelasgians) والكيدونيون (Cydonians) والدوريون (Dorlans) وعشائرهم الثلاثة، بها تسعون مدينة منها كنوسوس وهي مدينة عظيمة كانت للملك مينوس، الذي كان زيوس (Zeus) العظيم يوحي له بأسرارها كل تسع سنوات[2]» وهكذا يتّضح مدى ازدهار الجزيرة في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد واكتظاظها بالسكان وغناها، ما جعل هوميروس غير قادر عن غض الطرف عنها.

بينما هبطت درجة الازدهار في الجزيرة في القرن الحادي عشر بصورة حادة، وتجمع السكان في المراكز الحضارية القديمة، وفي بعض المدن التي يبدو أنّها تمتّعت ببعض الأهميّة في العصر الجديد[3]، وما إن جاء القرن الثامن قبل الميلاد حتى أصبح الدوريون يشكّلون النسبة الأعلى من سكان مدن الجزيرة وقراها وسيطروا عليها سيطرة تامّة، وفي المقابل استمرّ بعض سكان كريت الأصليين بالعيش فيها، مثل: الكريتيون الذين ينعتهم سترابون بـ «المولودين في الأرض» و«حاملي التروس النحاسية» نقلا عن هلانيكوس الليسبوسي (نسبة إلى مدينة ليسبوس Lesbos) الذي عاش في القرن الخامس ق.م نحو سنة 430 ق.م[4].

ثالثًا: نتائج الغزوات الدورية

1. على المستوى السكاني

لقد تسبّبت هجمات الدوريين بهجرة معاكسة من بلاد اليونان، فبعد حالة الفوضى التي عمّت البلاد، نتيجة الهرج السكاني الذي أدّت إليه غزوات الدوريين، وما صاحبه من تخلخل الأمن وتهلهل الحالة السياسية والاقتصادية، والاكتظاظ السكاني في منطقة أتيكا، قرّر عدد

[1]- The Cambridge Ancient History, Vol III, Part 1, Cambridge University Press1988, p.773.

[2]- Homer, Iliad., XIX., 172- 180.

[3]- The Cambridge Ancient History, Op. Cit., 1988, p.773.

[4]- سترابون، الجغرافيا، م.س، الكتاب10، الفصل3، الفقرة 19.

من السكان الهجرة سعيًا وراء الرّزق والأمان. وقد اختاروا سواحل آسيا الصغرى مدفوعين بالتّشابه الجغرافي بين هذه السواحل وبلادهم، حيث كثرة الخلجان الطبيعية التي تناسب الشعوب البحرية، وكثرة الجبال التي تتخلّل سهولها وتقسمها إلى مناطق معزولة، وتميّزها عنها بوفرة أمطارها وكثرة أنهارها[1]، كما أنّها كانت مشتّتة القوى لا يوجد فيها سلطة سياسيّة موحّدة، الفرجيون في الشمال، والكاريون في الوسط، والليكيون في الجنوب[2].

وهكذا ساهمت هجرة الدوريين في اتّساع بلاد الإغريق اتّساعًا لم تشهده من قبل؛ حيث يحدّثنا التّراث الشعبي أن الأيوليين من سكان تساليا وبيئوتيه في شمال بلاد اليونان استوطنوا مع بعض الآخيين في المنطقة الشمالية من ساحل آسيا الصغرى، وبخاصة جزيرة ليسبوس وسهل طروادة، وأقاموا بعض المستوطنات حول المدن القديمة، كما أسّسوا مدنًا حديثة كانت أشهرها مدينة ماجنيزيا، وأطلقوا على منطقة سكناهم اسم إيوليس (Aeolis) في حين استوطن المهاجرون الآخيون والاتيكيون وبعض التساليين والأيونيين، الذين لم يكن لهم من قبل شأن يذكر في المنطقة الجنوبيّة من ساحل آسيا الصغرى، وأسّسوا مستعمراتهم ومدنهم التي أصبحت أشهرها مدينة ميلتوس، وأطلقوا على هذه المنطقة اسم أيونية[3]، وما يميّز هذه الهجرة أنّها كانت هجرة عسكريّة، اقتصرت على الذكور، حيث لم يصطحب المقاتلون الأيونيون زوجاتهم معهم، مما دفعهم على سبي النساء الكاريات واتخاذهن زوجات[4].

وقد أدّت هجرة الدوريين وهجرة الآخيين والأيونيين إلى بحر إيجة وسواحل آسيا الصغرى إلى اشتداد الضغط على شعوب المنطقة الإيجية وآسيا الصغرى، فبدأت هذه الشعوب بدورها تتحرّك نحو الجنوب والجنوب الشرقي، وتعرف هذه الشعوب في التاريخ باسم «شعوب البحر» أو «رجال الشمال»، الذين تعرّضت الإمبراطورية الحثيّة والمصرية

[1]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، م.س، ص40.

[2]- إبراهيم عبد العزيز، معالم التاريخ اليوناني القديم، م.س، ص144، 146.

[3]- مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، م.س، ص40.

[4]- إبراهيم عبد العزيز، معالم التاريخ اليوناني القديم، م.س، ص144، 146.

لغاراتهم التخريبية في القرنين الثالث والثاني عشر قبل الميلاد[1]. وقد سلكت شعوب البحر في غزوها الشرق القديم طريق قبرص انطلاقًا من شبه جزيرة البلقان، فدمّرت مدينة أوغاريت السورية. بينما سلكت شعوب البحر التي غزت مصر طريق كريت فساحل ليبيا، لكنّها ردّت على أعقابها، وفشلت في مرماها[2].

2. على المستوى السياسي

بانحلال الروابط المعقّدة التي كانت تربط القرى والمستوطنات البعيدة بسلطة القصر الموكيني، والتي كانت تربطها ببعضها بعضًا في الوقت نفسه، وجدت هذه القرى والمستوطنات نفسها وحيدة ومستقلّة اقتصاديًّا وسياسيًّا، ويعتقد كثير من المؤرخين أنّ اليونان رجعوا إلى سلطة الرجال الكبار في السن؛ حيث قسّمت اليونان إلى مجتمعات صغيرة ذات حكم محلي، وهذا النّظام من ذات النوع من السلطات المحلية التي أدارت القرى الكبيرة في الفترة ما قبل الحضارة الموكينية، وهو نظام محكوم بدرجة كبيرة بالجغرافيا اليونانية. وتعدّ قرية نيشوريا Nichoria (في جنوب غرب البيلوبونيز)، والتي نقبت في سبعينيات القرن الماضي، مثالاً نموذجيًّا للنظام السياسي الذي ساد في العصر المظلم، حيث كانت هذه البلدة تتبع لمملكة بيلوس Pylos قبل غزو الدوريين، ثم هُجرت نحو سنة 1200 ق.م، ومن بعدها عاد السكان لاستيطانها نحو سنة 1075 ق.م، وقد ظهرت هذه القرية كتجمّع قرويّ صغير؛ إذ لم يزد عدد سكانها عن 200 نسمة في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد. وقد انشغلت الأربعون أو الخمسون عائلة التي كانت تقطن بها بالإشراف على سهل صالح للزراعة، كما أنّ المراعي القابلة لرعي الماشية كانت وفيرة حولهم، مما أمن لهم سُبل العيش[3].

[1]- عبد اللطيف أحمد علي علي، التاريخ اليوناني (العصر الهيلادي)، لا ط، بيروت، دار النهضة العربية، 1974م، ج2، ص787.

[2]- دونالد ب. ردفورد: مصر وكنعان في التاريخ القديم، ترجمة: علي خليل، لا ط، دمشق، دار الرأي للنشر والتوزيع، د ت، ص213.

[3]- Pomeroy. S., B., & Stanley M. Burstein, & Walter Donlan & Jennifer Tolbert Roberts., A Brief History of Ancient Greece: Politics, Society, and Culture., University Press Oxford., Oxford 2004, p.38

3. على المستوى الاجتماعي

لقد تبدّلت الحياة الاجتماعيّة انعكاسًا للحالة السياسية؛ حيث أنزل الدوريون كثيراً من السكان الأصليين من الآخيين إلى مرتبة العبوديّة، والبعض الآخر وإن نجا من العبوديّة إلاّ أنّه عاش في وضع أدنى من أبناء تلك القبائل الدورية، والبعض وجد ملاذًا في الجبال المحيطة بتساليا وأركاديا، بينما فضّل الكثير الهجرة خارج اليونان إلى جزر بحر إيجة وسواحل آسيا الصغرى[1]، ومنذ ذلك الوقت تناقص عدد سكان بلاد اليونان إلى الربع فقط[2]. وانتقلت العناصر الحضاريّة الموكينيّة من البيلوبونيز إلى أثينا ومع الأيونيين إلى سواحل آسيا الصغرى، ومنذ ذلك الوقت أصبح للحضارة الإغريقية وجهان مختلفان، الأوّل مادي واقعي قاسي ساد في غرب بلاد اليونان ولا سيما في البيلوبونيز. والثاني ذو رونق إنساني خيالي ذواق للفنون والآداب ساد في أتيكا وعاصمتها أثينا، وكذلك في أيونيا على ساحل آسيا الصغرى؛ حيث هاجر الموكينيون[3].

ورغم حرص الدوريين على نقاء دمهم وعدم الاختلاط بالقبائل التي قهروها، وعلى الرغم من الكراهية العنصريّة بين الدوريين والسكان الذين سبقوهم، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع من امتزاج دمائهم عن طريق التزاوج فيما بينهم، أوّلاً في مقاطعة لاقونية ثم في باقي المقاطعات اليونانية، مما أسفر عن ميلاد شعب جديد بعد قرنين من الزمان، شعب امتثل لكلّ العناصر الحضاريّة التي ورثها عن الحضارة الموكينية، التي لم تنقرض بل بقيت ماثلة في طرائق الحكم والنظام الاجتماعي، وأشكال العبادات وطقوسها[4]. ورغم أنّ مظاهر الحياة الحضارية الأخرى كانت في جمود تام لأجيال عدّة، لكن عندما بدأت الأمور بالاستقرار تكوّنت بيئة صالحة للتطوّر والنمو حتى عادت التقاليد القديمة إلى الحياة في شكل روح جديدة[5].

ويمكننا أن نتتبّع تفاصيل الحياة الاجتماعية في البيوت والقبور، فهما المكانان الأكثر صدقًا عن تفاصيل تلك الحياة؛ حيث كشف المنقبون في مركز نيشوريا Nichoria بيتًا

---

[1]- إبراهيم عبد العزيز، معالم التاريخ اليوناني القديم، م.س، ص143، 144.

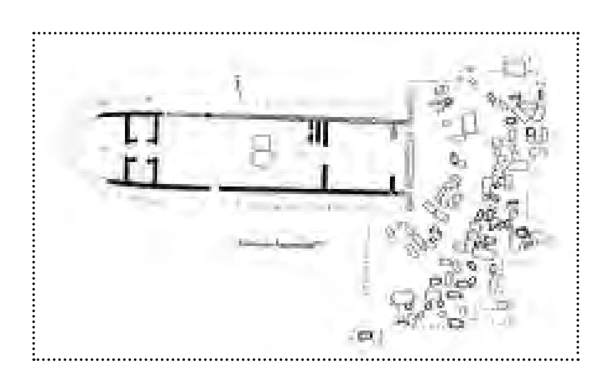
[2]- Thomas, C., Op. Cit., 1987, p.21

[3]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص72.

[4]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص121.

[5]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ط3، دمشق، دار الفكر، 1980م، ج1، ص103.

كبيراً من القرن العاشر قبل الميلاد، شمل على الميجارون Megaron وهي القاعة الرئيسية، وسقيفة صغيرة (غرفة 2)[1]. ويبدو أنّ ذلك البناء لم يكن قصًرا ملكيًّا بل بيتا لعائلة ذات مكانة اجتماعية مرموقة؛ كان ربها زعيمًا محليًا واسع الثراء[2]. وقد كشفت التنقيبات الأثرية أنّه تم إضافة غرفه في مؤخّرة البيت (غرفة 3) وفناء أكبر أمام واجهة البيت في القرن التاسع قبل الميلاد، يبلغ طول البيت 52 قدم وعرضه 23 قدم، وربّما أن بيت هذا الزعيم قد خدم كمركز ديني، وربما مكانا لتجميع محصول القرية أيضًا، وفي هذا البيت كان شيوخ القرية يتسامرون فيه ويجتمعون للتحدّث في الشؤون المحليّة والمصلحة العامّة، ورغم أنّه كان أفضل من جميع البيوت المحيطة به وأكبر منها، إلا أنّه كان مبنيًّا على المخطّط نفسه ومن المواد ذاتها التي بنيت منها البيوت المحيطة به (الطوب الطيني والسقف القشي)، لا شكّ أنّ العائلة التي عاشت في ذلك البيت الكبير قد تمتّعت بمنزلة اجتماعيّة رفيعة في القرية ذاتها والريف المحيط، لكن ذلك لم يمنع أنّ هذه العائلة عاشت مع جيرانها بالأسلوب ذاته[3]. وإن نمّ على شيء فإنّما ينمّ على تراتبيّة مجتمعيّة حقيقيّة[4].



مخطّط البيت الذي دفن به الرجل وزوجته

[1]- Pomeroy. S., B., Op. Cit., et la., 2004, p.39.

[2]- Martin, T. R., Op. Cit., 2013, p.50.

[3]- Pomeroy. S., B., Op. Cit., et la., 2004, p.39.

[4]- Martin, T. R., Op. Cit., 2013, p.50.



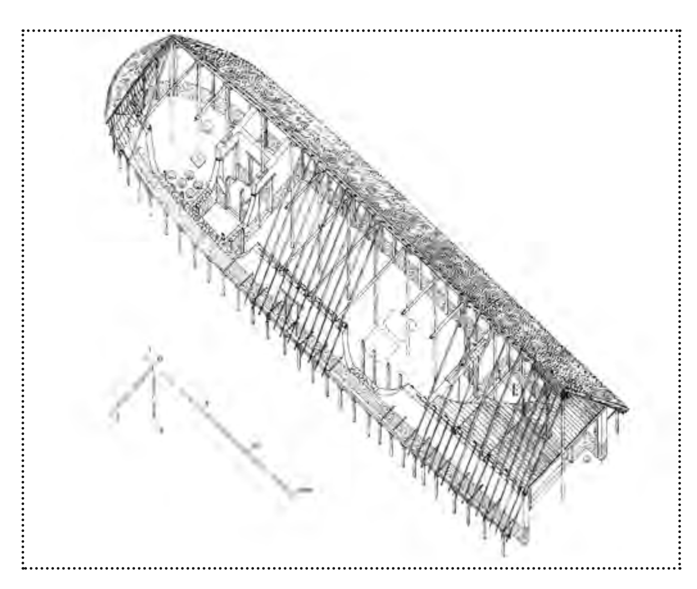
نموذج عن بيوت الدوريين في العصر المظلم

وإن كان المستعمرون الجدد قد استبدلوا القبور الموكينية التي كانت تبنى على شكل غرفة مستديرة، بقبور على شكل ضريح، إلا أنّ ثروة هذه القبور الجديدة تنمّ عن تراتبيّة اجتماعيّة دقيقة[1]، حيث بيّنت التنقيبات الأثرية أنّه منذ القرن العاشر قبل الميلاد، أشار الدفن مع الأثاث الجنائزي لرجل محارب وامرأته ذوي مكانة اجتماعية عالية قد ماتا في قرية ليفكاندي Lefkandi في جزيرة إيبوا Euboea في شمال بلاد اليونان نحو سنة 950 ق.م، وقد بيّنت تنقيبات سنة 1981م أنّ هذه القرية كانت من مجموعة القرى التي ازدهرت في العصر المظلم، حيث حوت قبورها على مواد ممتازة وغالية، ربما مستوردة من خارج اليونان من قبرص أو الشرق القديم. فقد لبست المرأة الميتة كامل حلتها الذهبيّة المتقنة الصنع، ومنها معلقات ذهبية في الصدر[2]، على هيئة أقراص كبيرة مصنوعة من الذهب الخالص، وكانت تزيّن رأسها بلفائف ذهبية جعلتها بين خصال شعرها، ولبست في أصابعها حلقات ذهبية (خواتم)، بينما طوق عنقها عقد ذهبي، ويعتقد بأنّ هذا العقد قد صمّم في الشرق القديم قبل نحو 650 سنة من موتها، وربمّا يكون هذا العقد الذهبي إرثًا عائليًّا، أو ربمّا أنّ زوجها اشتراه لها من التجار الذين كانوا يجوبون بحر إيجة، ولا شكّ أنّ هذه الحلي تشهد على مكانتها الاجتماعية الاستثنائية، وأن مكانة المرأة كانت تعادل مكانة الرجل، ولا سيما إذا نظرنا إلى الخنجر الحديدي ذو القبضة العاجية الذي وضع إلى جانب رأسها[3].

[1]- Thomas, C., Op. Cit., 1987, p.22.

[2]- Martin, T. R., Op. Cit., 2013, p.50.

[3]- Pomeroy. S., B., Op. Cit., et la., 2004, p.39.



إعادة بناء البيت الكبير في قرية Lefkandi الذي دفن به الرجل المحارب وزجته.

أمّا الرجل فقد أحرقت جثّته، ووضع رماد جثّته في قارورة برونزيّة محكمة الإغلاق، مصنوعة في قبرص قبل نحو قرن من موت هذا المحارب، وقد زينت أطرافها بمشاهد صيد، وبجانبه وضع سيفه الحديدي، وموس حلاقته، ومشحذ لشحذ الأسلحة، وصندوق عدة قتال الرجل، وقد دفن عدد من خيوله بالقرب من قبره، ربما أربعة، ويبدو أنّه قد تم التضحية بها، وتحتوي أفواهها على قطع حديدية. وقد تبادل المختصون وجهات النظر في المكانة الاجتماعيّة التي تمتّع بها هذا المحارب، فمنهم من رأى أنّه ذو مرتبة عالية في طبقة الفرسان، ومنهم من رأى أنّه زعيم محلي[1]. ومهما يكن فقد حصل هذان الميتان على تبجيل عظيم أثناء الدفن، وربما على قدسيّة بعد موتهما كنوع من عبادة الأسلاف[2]. ومباشرة بعد الجنازة تم هدم البيت، وغطي بالحجارة الضخمة، واستخدم حطام البيت لتشكيل كومة دائريّة تقريبًا فوق جذوع الحيطان، ويبدو أنّ جميع سكان القرية شاركوا في هذا العمل، وهذا ما دفع الباحثين للتساؤل هل كان هذا البناء بيت الزوج أم بني لكي يكون ضريحًا؟! [3].

[1]- Pomeroy. S., B., Op. Cit., et la., 2004, p.39.

[2]- Martin, T. R., Op. Cit., 2013, p.50.

[3]- Pomeroy. S., B., Op. Cit., et la., 2004, p.41.

4. على المستوى الديني

أما على المستوى الديني، لم يحدث أي تبدل فقد نجت الديانة الموكينية من الدمار الذي حلّ بالقصور والمعابد، لذلك علينا النّظر للغزو الدوري على أنّه غزو داخلي دون عواقب خطيرة على الدين، حتى إنّ زيوس Zeus نال القدر ذاته من الاهتمام والتبجيل عند الدوريين، ولطالما اعتبره الدوريون أنّه إلههم الخاص، ونحن نعلم أنّ الإله زيوس من أصول هندو -أوروبية، وهو أقدم من الدوريين ذاتهم، حيث يرجع تاريخ عبادته في بلاد اليونان إلى العصر الهيلادي الوسيط 1900 - 1550 ق.م[1]. مع العلم أن مهد الإله زيوس كان في قمّة إيدا Ida في جزيرة كريت[2]. وقد شاعت عادة حرق الجثث، في قرية ليفكاندي استمرّت عادة حرق الأفراد الأثرياء ودفنهم بالقرب من الطرف الشرقي للبناء الذي دفن فيه ذلك الرجل المحارب وزوجته، واستمرّت هذه العادة حتى نحو سنة 820 ق.م أي حتى نهاية العصر المظلم. ربما أن سبب حرق الميت يعود للظروف التر رافقت الغزو الدوري فبعد زيادة عدد السكان الكبير الذين غصّت بهم أثينا وظروف الحرب والحصار، ما دفع عددٌ من سكّانها الذين نزحوا إليها للتنازل عن بعض عادات دفن أمواتهم وطقوس ديانتهم في إيقاد النار المقدسة للأجداد ودفن الميت في التراب، فكانت عادة إحراق الجثث هي أهون الأمور لإخفاء جثة الميت.

5. على المستوى الاقتصادي

لقد تسبّب الدوريون في تدمير بنية الحضارة الموكينيّة، ودمّروا معها نظامها الاقتصادي التوزيعي المرتبط بالقصر؛ حيث كانت جميع الحاصلات تأتي إلى القصر، ويعاد توزيعها من قبل القصر عينه، كما ضاع نظام الكتابة التخطيطية B؛ حيث إنّه كان نظامًا كتابيًا اقتصاديًا إداريًا مرتبطًا بالقصر، وبالتالي فإنّنا لا نمتلك أيّ وثائق كتابيّة طوال العصر المظلم سواء وثائق اقتصاديّة أو غير اقتصاديّة، فالدوريون عند غزوهم لبلاد اليونان كانوا لا يزالون في طور البداوة، ولم تكن تعنيهم الكتابة في شيء[3]. ولم يعد هناك ممالك تنعم بحياة البذخ والترف

[1]- Dietrich, B. C., Op. Cit., 1958, p.51

[2]- Gabriel-Leroux, J., Les premières Civilisations de la Méditerranée, presses Universitaires de France, Parise 1941, p.10.

[3]- Martin, T. R., Op. Cit., 2013, p.48.

كما كان الأمر عند الآخيين، ولم يعد هناك ملوك أو موظّفون ليعملوا في القصور، ولم يعد يهتم أحد بتشييد الأبنية الحجريّة العملاقة، ولم يكن هناك أحد ليهتمّ باقتناء الأثاث الفاخر، لا بل لم يكن هناك من يصنعه أصلاً، وتناقص استيراد الذهب والبرونز والكماليات الثمينة من الشرق القديم، ولم يعد هناك أي صلات تجاريّة مع العالم الخارجي بالمعنى المألوف للكلمة، لقد عاش العالم اليوناني في غزلة تامة[1].

ورغم كلّ ما تقدّم لا يعني ذلك أبدًا أنّ اليونان دخلت في حالة بدائيّة، بل حافظت على بعضٍ من أرثها الحضاري؛ حيث استمرّ الفلاحون في زراعة أرضهم، وكانت قطعة أرض الأجداد (Oikos) هي المورد الاقتصادي الرئيسي للفرد، وظلّ المحصول على حاله. ورعى الرعاة قطعناهم كما في السابق، واستمرّت النّساء في نسج الصوف والكتان وصناعة الملابس، واستمرّ الخزّافون في صناعة الفخّار، واستمرّ النّجارون في صناعة الأثاث المنزلي، وإن كان بمستوى أدنى من المهارة والإتقان، واستمرّ النّاس بعبادة آلهتهم وإقامة الطقوس الدينية لها، وبالمجمل يمكننا القول إنّ الحياة الريفيّة استمرّت على حالها نوعًا ما[2]. ومع مرور الأيام امتثل الدوريون لكلّ العناصر الحضارية التي ورثها عن الحضارة الموكينية، كتقاليد الصناعات اليدوية والفنية، وأساليب التجارة وطرقها، وأشكال العبادات وطقوسها، ومهارات صناعة الفخار المزجج والرسم عليه، كما قاموا بتدريج أطراف الجبال في جزائر سكلديس وتسويتها على مهل حتى تمسك الأمطار الشحيحة وقاموا بزراعتها بأشجار الكروم واستثمارها، وورثوا في ميلوس عن أسلافهم ممن سبقهم فيها استخراج الحجر الزجاجي الطبيعي، وازدهرت التجارة في نيدوس بفضل موقعها فأمست ميناء صالحًا للتجارة الساحلية[3].

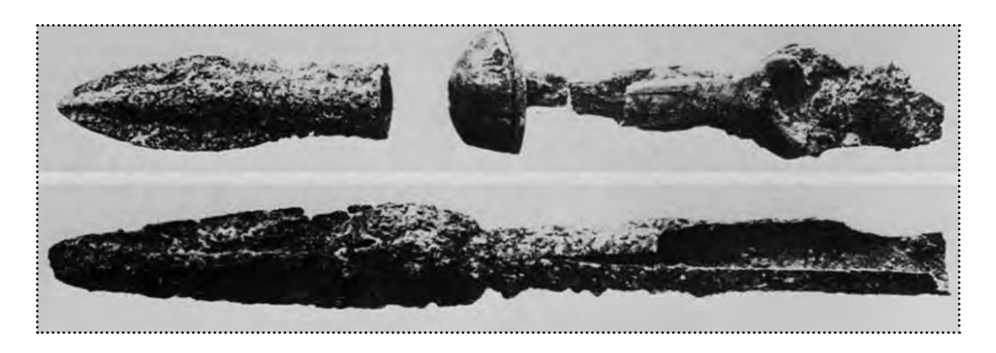
لقد أسهم استخدام معدن الحديد الذي أدخله الدوريون إلى البلاد في صنع كثير من الأدوات بعد اتقان صهره وصبه، وتجدر الإشارة إلى أنّ الموكينيين لم يستغلّوا مصادر الحديد التي كانت موجودة في بلاد اليونان؛ لأنّهم كانوا يعتمدون على صناعة البرونز التي يتقونها بشكل جيد، ولكن منذ اضطراب الأمور في بلاد اليونان، وتعطّل التجارة وبالتالي

[1]- Pomeroy. S., B., Op. Cit., et la., 2004, p.36.

[2]- Ibid, p.37

[3]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص+121 ص 245.

انعدام معدن النحاس المستورد الذي كان يعتمد عليه بصورة رئيسية في صناعة البرونز، وتحت شعار الحاجة أم الاختراع؛ شاع في بلاد اليونان صناعة الحديد لمختلف الأدوات، ومنذ سنة 1050 ق.م صار بوسعنا أن نشاهد صناعات حديدية في مختلف جزر بحر إيجة وبلاد اليونان القارية، ومنذ سنة 950 ق.م كل ما عثر عليه في القبور من أسلحة وأدوات كان مصنوعًا من الحديد[1]. عمومًا لقد أدّت صناعة الحديد إلى تطوّر عميق في أسس الحياة الاقتصاديّة[2].



نصل رمح برونزي وقبضة خنجر حديدية وكرة مقبض سيف من العظم من القبر A في قبرة Kerameikos وقد أرخت هذه الأدوات بنحو 1050 ق.م، نقلا عن: Thomas, C., 1987, p.22

ولم يقف الأمر حكرًا على صناعة الحديد، فمنذ سنة 1050 ق.م ظهرت مجموعة من التطوّرات في صناعة الفخاريات، التي قسّمت سطوحها إلى جداول زيّنت بشكل رفيع، حيث تم تطوير عجلة الخزاف وزادوا من سرعتها، ممّا أثّر إيجابًا على أشكال المزهريات الفخارية، وزينت الآنية الفخارية بأشكال هندسيّة متنوّعة كالأقواس متحدة المركز، ونصف الدائرة، ودوائر مركزية، وتم تحسين صقل الفخار فازداد الإناء لمعانًا، وتمّ شيه على النار بدرجات حرارة أعلى فازداد صلابة، هذا الأسلوب تم تطبيقه ما بين سنتي 1050 - 900 ق.م، ويبدو أنّه طبّق في أتيكا أوّلًا، ومنها انتشر إلى بقية المناطق[3]. ومنذ القرن التاسع بدأنا بمشاهدة الأصص الأثينية الفاخرة المزينة بالنماذج الهندسية، كما شاعت مناظر مثل

[1]- Pomeroy. S., B., et la., Op. Cit., 2004, p.37.

[2]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص104.

[3]- Pomeroy. S., B., et la., Op. Cit., 2004, p.37.

المحاربين وعرباتهم ومناظر جنائزية ورجالًا يجدفون سفينة حربية وصورًا لأشخاص مرسومة طبقًا للطراز السائد، وفيها خطوط رفيعة تشير إلى الأذرع والأرجل، وبقعة مستديرة تشير إلى الرأس، ومثلث يشير إلى الجذع، وأسلوبها الفني بدائي ولكنه موفق جدًا في الرسم العام[1]. عمومًا يمكننا القول إنّه منذ سنة 900 ق.م بدأت الأحوال الاقتصاديّة بالتحسن[2].



مزهرية من مقبرة Kerameikos في أثينا مؤرخة ما بين 1050- 1025 ق.م ويظهر عليها أشكال التزيين البسيطة. وإلى يمينها قارورة من ذات المقبرة تؤرخ ما بين 950- 900 ق.م يظهر عليها أشكال تزيين أكثر اتقانا؛ دوائر مركزية منفذة بأسلوب هندسي.

6. على مستوى البناء والعمارة

لقد تسبّب الدوريون في تدمير المدن الموكينيّة عند احتلالها، وظلّت هذه المدن مدمّرة فترة من الزمن، ولا سيما أنّ هذه الحجارة المدمّرة لم تجد من يعمّرها من جديد بعد التناقص الحاد في أعداد السكان، كما أنّ الدوريين لم يكن عندهم أيّ موروث ثقافي فيما يخص البناء والعمران، ولكن سرعان ما بدأ الدوريون يتعلّمون هندسة بناء الحجارة من القبائل اليونانيّة

[1]- كيتو، ترجمة عبد الرزاق يسري، مراجعة محمد صقر خفاجة، دار الفكر العربي، القاهرة 1962م، ص26

[2]- Martin, T. R., Op. Cit., 2013, p.51.

التي سبقتهم في استيطان اليونان[1]. ولقد كان لاستعمال معدن الحديد في أمور البناء فائدة كبيرة؛ إذ كان بداية ثورة جديدة في عالم البناء الحجري في العالم القديم، حيث ساعد على تسهيل عملية قطع الحجر من محاجره ونحته وتزيينه، ولمّا كان الدوريون من الأقوام الجبليّة الريفيّة ذات الأذواق البسيطة والبعيدة عن ترف الحضارات القديمة، فقد اعتنقوا نموذجًا واحدًا في فنّ البناء واتّخذوه أساسًا في كلّ ما ابتكروه ودأبوا على تحسينه وتجميله، وكانوا يصرفون في ذلك جهودًا جبّارة أنفقها غيرهم في ابتكار نماذج بنائيّة أخرى، لم يكتب لها ما كتب للنموذج الدوري من شهرة وبقاء، بحكم أنه الأقل تكلفة بين جميع أنظمة البناء. وغالبًا ما استخدم الدوريون هذه الأعمدة في بناء **الرواق** المحمول على هذه الأعمدة، والذي يتلاءم مع طبيعة بلاد اليونان المشمسة طوال فترة طويلة من السنة، ومن هنا كان ميلهم إلى الرواق، حتى إنّهم جعلوه أمام كلّ أبنيتهم الخاصة والعامة وأمام أسواقهم ومعابدهم[2]. وعند بناء الطوابق كان يتمّ وضع الأعمدة الدوريّة في الطابق الأرضي، والأعمدة الأيونيّة في الطابق الأوّل، والأعمدة الكورنثية في الطابق الثاني، بحكم أنّ الأعمدة الدوريّة ثقيلة وأكثر قوّة وسماكة، وبالتالي بوسعها أن تحمل وزنًا أكبر. وأغلب الظّنّ أنّ تصميم الهياكل الدوريّة قد أخذ عن الموكينيين، بعد أن صبغ بروح الدورية التي خلعت عليه تناسقا وقوة[3].

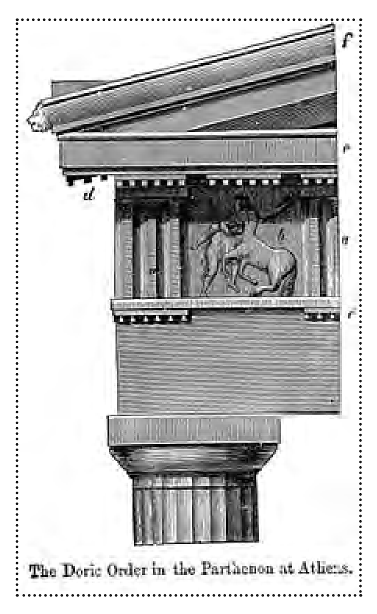
أما بالنسبة لهيئة الأعمدة الدورية فإنّها تتّصف بالتصميم البسيط والمباشر، ومع اعترافنا باتّصاف النّظام الدوري بصلابته وزهده في الزينة والمفاهيم الجمالية الرقيقة، فإنّ كثيراً من مؤرّخي الفنّ يعجبون به لدرجة أنّهم يعدّونه أجمل ابتكار أنتجته العبقريّة الإغريقية الهندسية، وهو يتألّف من العمود الحجري وتاجه، وما يحمل فوقه من (أرشيترافات) و (أفاريز) و (جباه). ولعلّ أهمّ ما يميّز العمود الدوري أنّه يستند على أرضيّة الرّواق مباشرة دون قاعدة، أو على قاعدة المعبد، أو أي بناء آخر. أما جذعه فمخدّد بعدد من الأخاديد المتوازية، وأنّ شكله مخروطي يضيق نحو أعلاه، ورغم أنّه يشبه في شكله العام أعمدة المعابد الموكينيّة والمصريّة القديمة، فإنّه في تفاصيله ونشأته ابتكار اغريقي صرف، وقد أرجع مؤرّخو الفنّ أنّ نشأة النظام الدوري

[1]- Grumach, E., The Coming of The Greeks., This is the text of a series of three lectures delivered by the late Professor Ernst Grumach at the University of Birmingham, September 1966, p.85.

[2]- مفيد رائف العابد، الآثار الكلاسيكية، م.س، ص60.

[3]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص121.

مستوحاة من الأبنية الخشبية القديمة، وأنّ العمود الدوري ما هو إلا محاكاة لجذوع الأشجار الطبيعية بشكلها المخروطي وأخاديد لحائها. أما تيجان العمود الدوري وما تحمله فوقها من أجزاء فما هي إلا محاكاة أخرى للعوارض الخشبية التي كانت تستند عليها السقوف البدائية[1].


The Doric Order in the Parthenon at Athens.

العمود الدوري وتاجه، وما يحمل فوقه من (أرشيترافات) و (أفاريز) و (جباه).

وكان طول العمود الدوري ما بين 4- 8 أضعاف قطرها، ويتألّف كلّ عمود دوري من كتل عدّة أو أقسام متتابعة، وغالبًا ما يكون سطحه أملسًا أو مخدّدًا ذو أطراف حادة؛ وقد تتراوح عدد هذه الأخاديد ما بين 16 إلى 20 إلى 24 أخدودًا مقعّرًا متوازيًا. ويبدو أنّ اعتماد الأرقام المزدوجة في عمل الأخاديد كان توخيًا للسهولة والمقابلة وكذلك تحقيقًا للتناظر والتناسق الذي أغرم به الإغريق. وتبدأ الأخاديد من أسفل العمود، ثم تصعد بانتظام حتى تبلغ ثلث جذعه وهناك تضيق صاعدة بشكل مخروطي حيث تنتهي بتاج دائري مصقول، والذي يتألّف من حلقة مستديرة ناتئة تسمى (العنق)، وفوقها بلاطة مربعة تميّزت بأنّها عريضة للغاية في النماذج المبكرة للعمود. ورغبة في منح المعابد الدورية شكلاً هرميًّا خفيفًا فقد حرص مهندسوها على جعل الأعمدة الدورية تميل قليلا عن محاورها في أروقة المعابد من

[1]- مفيد رائف العابد، الآثار الكلاسيكية، م.س، ص62، 64.

الخارج، وقد تراوح هذا الميل بين 4سم في بعض المعابد الابتدائية في العصر الباكر، و7سم في المعابد المتأخرة كما في معبد البارثيون في أثينا[1].

نتائج ومناقشة

عاشت بلاد اليونان أربعة قرون اصطلح المؤرّخون على تسميتها بالعصر المظلم، ولا شكّ أنّها تستحقّ تلك التسمية حقيقة واقعيّة، فبعد المجد والأبهة والبذخ والترف الذي عاشته بلاد اليونان، شهدت قرونًا من الجمود والتراجع؛ حيث ضاعت الكتابة، وانحلّت الدولة الموحدة التابعة للقصر، وشاع نظام السلطة المحليّة التابعة لزعيم البلدة أو القرية، وانخفض عدد السكّان وتراجعت الحياة الثقافيّة وتدهورت الحياة الاقتصادية، وتعطّلت التجارة، ودخلت بلاد اليونان نفقًا مظلمًا. وإن كان من الواجب علينا ألّا ننظر بعين المستاء لما حدث، فربّما أن هذا الأمر لا مفرّ منه؛ لتتشكّل حلقة جديدة في الدورة الحضاريّة لبلاد اليونان، لذلك علينا ألّا ننظر بعين الأسى للدمار الذي حلّ بالحضارة الموكينيّة، وضياع إرثها الحضاري ومعه الإرث الذي ورثته عن كريت، مهما كان هذا الإرث عظيمًا، فقد ساهم الغزو الدوري في ضخّ دماء جديدة في بلاد اليونان، بعد أن كادت تشيخ، وبعد أن أرهقتها حرب طروادة وكسرت شوكتها وفتّت في عضدها، فعشر سنوات من الحرب كانت ثمنًا باهضًا دفعته بلاد اليونان لقاء انتصارها على طروادة التي كانت عائقًا في تجارتها الخارجيّة. وقد أتاحت القرون الأربعة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بالعصور المظلمة الوقت الكافي لاستيعاب العناصر السكانيّة الجديدة الوافدة من الشمال، فامتزجت دماء الغزاة الجدد بالسكان الأصليين، وسيكون نتاج هذا التزاوج الشعب الذي سيعمّر بلاد اليونان ويدافع عنها، في العصور اليونانية الزاهية أو العصور الكلاسيكية كما اصطلح المؤرخون على تسميتها. وبوصول الدوريين تكون البنية العامة للشعب الإغريقي قد اكتملت، وبلاد اليونان قد اتّسعت.

[1]- مفيد رائف العابد، الآثار الكلاسيكية، م.س، ص64.

المصادر والمراجع

1. دونالد ب. ردفورد، مصر وكنعان في التاريخ القديم، ترجمة علي خليل، دار الرأي للنشر والتوزيع، دمشق.
2. سترابون، الجغرافيا، ترجمة حسان اسحق، دار علاء الدين، دمشق 2017م.
3. سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارات كريت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة 1976م.
4. شارل سنيوبوس، تاريخ حضارات العالم، ترجمة محمد كرد علي، العلمية للكتب والنشر، القاهرة، 2012م.
5. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني (العصر الهيلادي)، ج2، دار النهضة العربية، بيرت 1974م.
6. كيتو، ترجمة عبد الرزاق يسري، مراجعة محمد صقر خفاجة، دار الفكر العربي، القاهرة 1962م.
7. لطفي عبد الوهاب يحيى، الحياة الاجتماعية في أثينا القديمة، مجلة عالم الفكر، العدد 2، مج 38، الكويت 2009م.
8. محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ج1، ط3، دار الفكر، دمشق 1980م.
9. مفيد رائف العابد، الآثار الكلاسيكية، دراسات في الآثار الكلاسيكية، ط12، منشورات جامعة دمشق، دمشق 2010م.
10. مفيد رائف العابد، دراسات في تاريخ الإغريق، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري الباكر والكلاسيكي، ج2، ط4، منشورات جامعة دمشق، دمشق 2002.
11. نور الدين حاطوم وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ج1: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق 1965م.
12. ول ديورانت، قصة الحضارة، حياة اليونان، ج1، مج2، ترجمة محمد بدران، بيروت، د.ت.

المراجع الأجنبية

1. Dierckx, H., The Dorian dilemma; Problems and Interpretations of social change in Late Helladic III C and Dark Age Greece with reference to the archaeological and literary evidence., A Thesis submitted for the Degree of Master of Arts at the University of Durham, Department of Classics., 1986.

2. Dietrich, B. C., Some myth and fact about the Dorians., Acta Classica., South Africa 1958.

3. Finkelberg, M., Greeks and pre-Greeks, Cambridge University Pres, Cambridge 2005.

4. Gabriel-Leroux, J., Les premières Civilisations de la Méditerranée, presses Universitaires de France, Parise 1941.

5. Grumach, E., The Coming of The Greeks., This is the text of a series of three lectures delivered by the late Professor Ernst Grumach at the University of Birmingham, September 1966.

6. Herodotus, IX, 26- 27.

7. Homer, Iliad., XIX

8. Martin, T. R., Ancient Greece From Prehistoric to Hellenistic Times., Second edition., New Haven & London 2013.

9. Pomeroy. S., B., & Stanley M. Burstein, & Walter Donlan & Jennifer Tolbert Roberts., A Brief History of Ancient Greece: Politics, Society, and Culture., University Press Oxford., Oxford 2004.

10. The Cambridge Ancient History, Vol III, Part 1, Cambridge University Press1988.

11. Thomas, C., Found: The Dorians Archaeology and Greek Linguistics at the End of the Late Bronze Age., Volume 20 Issue 31978, Spring 1987.

طروادة

لينا محسن[1]

المقدمة

نالت طروادة شهرةً واسعةً فاقت حدود جغرافيّتها، وكان وراء شهرتها الكبيرة حربٌ شُنّت عليها، وعُرفت باسمها وتميّزت بطول أمدها واستمراريتها لعشر سنوات متتالية غير منقطعة. وارتبط بهذه الحرب حصانها الخشبي، الذي كان عنوان شهرتها وسقوطها وسببه المؤكّد.

ورغم شهرتها الكبيرة إلّا أنّ معلوماتنا عن المدينة قليلة جداً، وما وصَلنا عنها هو ما نقله لنا الشاعر اليوناني هوميروس، الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، وسرد أحداث القصّة بطريقة مشوّقةٍ دون الرجوع بأحداثه إلى زمن بعيد، بل اكتفى بالأيام الخمسين الأخيرة من عمر هذه الحرب.

استمرَّ تفاعل النّاس مع حرب طروادة في كتابات المؤرخين والشعراء اللّاحقين، واختلفت الأحداث من رواية لأخرى، لهذا سنعتمد في هذه الدراسة ما كتبه هوميروس في ألياذته، وعليها سنبني أحكامنا حول طروادة وحضارتها.

يهدف هذا البحث إلى دراسة نقديّة لتاريخ طروادة في كلّ جانب من جوانبها الحضارية، وإبراز التّناقض فيها وهل كانت حضارة متقدّمة أم بدائيّة؟ وهل ما قُدّم لنا من معلومات عن تاريخها وحضارتها هو حقيقة أم إنّه أسطوريّ ومن نسج الخيال؟ وهل تعتمد نظاماً سياسياً متطوّراً؟ وما هي طبيعة هذا النّظام، هل يعتمد المشاورة في القضايا التي تقرّر سياسة المدينة وتساهم مساهمة فعّالة في تسيير شؤونها الداخلية والخارجية وتضع خطة لسياسة المدينة أم إنّه حكمٌ فرديٌّ مستبد، ولا يعتمد على مشورة شخصيات تتّصف بالعقلانية، خاصة ما تعلّق منها بالأمور المصيرية التي من الممكن أن تكون سبباً في تدمير البلاد وقتل النفوس؟ وهل استطاعت هذه الفئة الحاكمة تعزيز الازدهار الاقتصادي وحمايته من الدمار؟ وماذا

[1]- باحثة وأكاديمية سورية.

عن الأدب في طروادة هل أنتجوا أدباً؟ وما طبيعته؟ وكيف هو حال المجتمع الطروادي؟ وما شكل الحياة التي يعيشها هل هي بسيطة أم غير ذلك؟ وما علاقته بالسلطة الحاكمة؟ سنحاول الإجابة عن كلّ تلك التساؤلات بمنهج علميّ نقديّ يعتمد المصادر للوصول إلى نتائج دقيقة.

ثانيًا: التسمية

سمّى هوميروس المدينة التي تعرف باسم طروادة باللّغة العربية في ألياذته باسم إليوس Ilios، وتسمّى طرويه Troie وهو اسم المنطقة التي تقع فيها المدينة، واشتهرت بعد عصر هوميروس باسم طرواسTroas ومن جذر الكلمة اقتبس اسم طروادة[1].

ثالثًا: موقع طروادة وأهمّيته والاكتشاف

1. الموقع والأهميّة:

تقع طروادة في إقليم ميسيا شمال غرب آسية الصغرى (الأناضول)، تشرف على بحر إيجة غرباً، وتبعد ما يقرب أربعة أميال عن مدخل الدردنيل، وجنوباً خليج أدراميتيوم، وتقع المدينة نفسها في الركن الشمالي الشرقي من هضبة مثلثة الشكل يحدّها نهران هما سكامنروس وسيموئيس، وتسمّى قلعتها برجاموس، أعطاها هذا الموقع الاستراتيجي المهم ميزة خاصّة؛ إذ تتحكم ببحر مرمرة وتشرف على مدخل المضائق.

تعود أهميّة طروادة إلى وقوعها عند استدارة الدردنيل والبسفور، التي شكّلت عقبة في وجه السفن عند اشتداد سرعة التيارات البحرية وتعرضها للخطر، فتفرغ حمولتها في الخليج المواجه لجزيرة تنيدوس، ثم تنقل البضاعة براً إلى الخليج الواقع على الجانب الآخر، وكانت طروادة تقع على تل يسيطر على هذا الطريق البري[2].

2. اكتشاف المدينة:

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني العصر الهيلادي، لا ط، بيروت، دار النهضة العربية 1984، ج2، ص423.

[2]- م.ن، 1976، ص14.

ظنَّ المؤرّخون بأنّ المدينة التي سمّاها هوميروس باسم إيليوس (طروادة) في ملحمتيه الشهيرتين الألياذة والأوديسة، أنّها من نسج خياله، وأنّه لا وجود لها إلا في الأساطير.

بدأ رحلة البحث عن المدينة الألماني هاينيريخ شليمان المولود سنة 1822 م، الذي شغف بالتاريخ القديم من خلال الروايات التي رواها له أبيه، وهو لايزال طفلاً، خاصة قصص هوميروس عن حصار طروادة، وشعر بألم شديد عندما أخبره بأنّ طروادة قد هدمت ولم يبقَ منها أي أثر يدلّ على وجودها، ولما بلغ شليمان الثامنة عشرة من العمر استقرّ رأيه على أن يكرّس حياته لاكتشاف المدينة الضائعة[1].

ابتدأت عمليات الحفر في المدينة عام 1870م في الزاوية الشمالية الغربية من شاطئ آسية الصغرى؛ حيث كانت طروادة حسب الروايات القديمة تحت هضبة تسمى حالياً حصارلك، واستمر التنقيب حتى عام 1890م، ولم تسفر تنقيباته خلال العام الأوّل عن أية نتائج، حتى ظهر فجأة إناء كبير من النحاس، ولمّا فتحه شليمان رأى كنزا مكوناً من تسعين ألف قطعة من المصنوعات الفضية والذهبية، وظنَّ أن ما عثر عليه هو كنز بريام ملك طروادة، لكن أحداً لم يصدّقه.

تابع التنقيب دوربفلد ومن بعده بليجن بين الأعوام (1932-1938)م باسم جامعة سنستاتي الأميركية، وتوصل إلى أنّ موقع طروادة المقابل حالياً لتلّ حصارلك في تركيا كان مركزاً عمرانياً سكنه الناس في فترات زمنيّة متعاقبة، وعلى وجود تسع طبقات أثرية رئيسية، وأن كل طبقة تمثّل واحدة من الطروادات التسع متموضعة فوق بعضها البعض، وأن طروادة هوميروس هي السابعة ويرجع تاريخها إلى نحو 1200 ق.م[2].

رابعًا: حرب طروادة

امتدّت مملكة طروادة أثناء تلك الحرب من جنوبي آسيا الصغرى إلى الهلسبنطس، وهو

[1]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، جذ دار الفكر الطبعة الثالثة 1980، ص 68، 70.

[2]- Carl.w. blegen, excavations at troy 1935, American journal of archaeology. vol 39. No 4 (oct – dec 1935), pp 550- 587.

وانظر أيضاً: خليل سارة: تاريخ الإغريق، لا ط، دمشق، منشورات جامعة دمشق 2012، ص191-192.

مضيق الدردنيل، يحكمها الملك بريام وعاصمتها إليون، وتقع في سفح الجبل القائمة عليه الآن قرية بونار باشي[1].

1. أسباب الحرب:

تسبّب باريس ابن بريام ملك طروادة بحرب بين الإغريق والطرواد، بقيامه بعمل غير أخلاقي، وهو خطفه لهيلين زوجة ملك مكيناي بعد زيارته لإسبرطة، وكان هذا الحدث الذي اتّخذته المدن الإغريقية ذريعة للحرب والانتقام من طروادة دفاعاً عن شرف الملك مينلاؤوس. وهذا ما بدا السبب المباشر للحرب، إلا أنّ السياسة الاقتصادية الاحتكارية التي قامت بها طروادة بالتحكم بحوض بحر مرمرة واحتكارها للتجارة عبره وفرضها مكوساً جمركية على السفن[2]. إضافة لاحتكارها تصدير القمح، فرض حالة من التنافس التجاري أدّى إلى توتّر عدواني، وجعلت من الإغريق يتحيّن الفرصة كي ينقضّ فيها على خصمه من أجل السيطرة على البحار والانفراد بالأسواق التجارية الخارجية[3]، فحفّز ذلك الإغريق للانتقام من طروادة والرغبة بالسيطرة عليها وإزالة هذا الحصن المنيع من طريقهم[4].

فكان العامل الاقتصادي المتمثّل بالرغبة في القضاء على مملكة طروادة نتيجة لصراع المصالح والتخلّص من هيمنتها الاقتصادية والسيطرة على مضيق الهلسبوت والأراضي الغنية المحيطة بالبحر الأسود، هو السبب الحقيقي لهذه الحرب، وهذا ما يعلّل قيام تحالف عسكري بقيادة أجاممنون[5]. وأن اختطاف هيلين كان الذريعة لشنّ الحرب ولم يكن السبب الرئيسي لها[6].

---

[1]- هوميروس: الألياذة، ترجمة: سليمان البستاني، لا ط، القاهرة، كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011، ص31.

[2]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني العصر الهيلادي، م.س، ج2، ص14.

[3]- الناصري، سيد على أحمد: الأغريق تاريخهم وحضارتهم من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر، ط2، القاهرة، دار النهضة العربية، 1976، ص70-71.

[4]- خليل سارة، تاريخ الإغريق، م.س، ص224.

[5]- مكاوي، فوزي: تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم عصوره حتى عام 322 ق.م، ط1، الدار البيضاء، 1980، ص52.

[6]- سيد علي أحمد الناصري، الأغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص70-71.

2. حصار طروادة:

تملّكت باريس رغبة في الذهاب إلى إسبرطة ورؤية هيلين لما سمع عن جمالها، وبدل أن يستعيد عمّته المخطوفة قام بخطف زوجة ملك إسبرطة[1].

وصل باريس إلى إسبرطة وحلَّ ضيفاً على ملكها منلاؤوس وزوجته هيلين اللذين أحسنا ضيافته، وأقاموا له مأدبة فاخرة[2] وكان مكرماً خلال زيارته، حتى إنّ الجميع في إسبرطة كانوا يدعونه باريس ابن بريام الذي يحكم قوماً مسالماً[3].

لكن الضيف وبدل أن يقابل كرم ضيافة مضيّفه وحسن استقباله له فقد أساء التصرّف وانطلق من نواياه السيئة الناتجة عن سوء أخلاقه وغروره بجماله مستغلاً غياب منلاؤوس عن إسبرطة، فتهيأت له الفرصة لإغواء الزوجة التي نجح في جذبها إليه وتمكن من إقناعها بالهرب معه إلى طروادة حاملة معها كنوز القصر.

إنّ غدر باريس بملك إسبرطة كان حدثاً ذا وقع شديد عليه، وتملّكته رغبة جامحة للثأر لشرفه، فناشد أخاه أجاممنون طالباً مساعدته واستخدام نفوذه لحشد قوات الإغريق وتجهيز حملة تأديبية ضدّ طروادة، ثم طاف بمدن بلاد اليونان مستحثاً زعماءها على الاشتراك في الحملة.

وقد غضب اليونانيون للاعتداء على شرفهم، وهبوا لنجدة مينلاؤوس ملك إسبرطة والانتقام من ابن ملك طروادة على فعلته وخيانة مضيفه وخطف زوجته التي أحبها.

وتشكّل نتيجة ذلك حلفان: الأوّل إغريقي بقيادة أجاممنون ويضمّ غالبية المدن الإغريقية ويحلمون باسترداد شرفهم المسلوب وأنّهم أصحاب الحق في الحرب، والحلف الآخر طروادة والشعوب المجاورة لها لنجدتها[4]. رغم أننا لا نسلم بنوايا أجاممنون وأنه انطلق إلى الحرب للدفاع عن الشرف، بقدر ما نعتقد أنه انطلق من رغبته بالتوسع واحتلال طروادة وقد وجد في هروب هيلين مع باريس فرصة لتحقيق أهدافه.

---

[1]- لوري ماجواير: هيلين طروادة من هوميروس إلى هوليود، ترجمة: محمد حامد درويش، لا ط، مؤسّسة هنداوي، ص28.

[2]- Lang .A, Helen of Troy, New York Charles Scribner s sons 1882, book 1, p 7.

[3]- ipid, ∫∫ XVI, p 11 .

[4]- Joachim Latacz, Troy and Homer, oxford 2003, p VII.

لحق اليونانيون بسفينة هيلين وباريس إلا أنّ باريس وبمكر ودهاء حاول ألّا تلحق به سفن الإغريق فغيّر جهة سفنه، فبدل أن تتّجه إلى طروادة أدار وجهتها إلى مصر[1].

وصل أسطول الإغريق إلى ساحل طروادة بعد أن واجهته عقبات كثيرة، ومني الإغريق فور محاولتهم النزول بأوّل خسارة نتيجة تصدي الطرواديين لهم؛ إذ لم يكد بروتسيلاوس (قائد كتيبة فيلاكي الشالي) ينزل إلى ساحل طروادة حتى لقي مصرعه على يد هكتور[2].

عاث المكينيون في بلاد الطرواد تخريباً للمدائن، يقتلون الرجال ويسبون النساء وينهبون الأموال إلى أن بلغوا إليون العاصمة فحاصروها[3].

ولم يكن حصاراً بالمعنى المألوف؛ لأنّ فنون الحرب كانت لا تزال بدائيّة، واستمرّت المناوشات بين الجانبين، وكان القتال ينشب بينهما أحياناً في السهل الواقع أمام طروادة دون نتيجة. فكان النّصر حليفاً للإغريق تارةً، وتارةً أخرى حليفاً الطرواديين، لكن لم يستطع أي من الفريقين تحقيق نصر حاسم. وتمكّن الإغريق من الاستيلاء على المدن الصغيرة المتاخمة التي لم تستطع صدّ هجماتهم، وقد دأبوا من وقت لآخر على إرسال بعض سفنهم للإغارة على المدن الساحلية، إما لنهب الأغنام والمحاصيل تلبية لحاجة جيشهم من الطعام والمؤونة أو لإرهاب هذه المدن؛ حتى تكفّ عن إرسال أي نجدات إلى طروادة[4].

استمرَّ حصار أليون عشر سنوات ساءت خلالها حال الفريقين ونفدت الأرزاق[5]، ومن السنوات العشر لم يخلد هوميروس سوى الخمسين يوماً الأخيرة من السنة العاشرة للحصار في ملحمته الشهيرة الألياذة وبنى عليها منظومته الشعرية[6].

وقد أظهرت هذه الحرب عمق المأزق الميتافيزيقي في الحياة اليونانية حيث انقسام الآلهة بين مؤيّد لإنهاء الحرب ومعارضٍ له، كذلك انقسامها بين الطرفين المتنازعين فهناك

[1]- هيرودوت: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة: محمد صقر خفاجة، دار القلم، 1966، ص232.

[2]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني العصر الهيلادي، م.س، ج2، ص483.

[3]- هوميروس، الألياذة، م.س، ص31.

[4]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني العصر الهيلادي، م.س، ج2، ص492-493.

[5]- هوميروس، الألياذة، م.س، ص31.

[6]- Quintus smyrnaeus the fall of Troy, with an English translation by Arthur. s. way, D.lit, Harvord University press London 1985, p v.

من يؤيّد حلف الإغريق، وقسم آخر يساند الحلف الطروادي. رغم كونها تنتمي لمجمع إلهي واحد، ويعبدها كلا الطرفين المتنازعين، حسب ما ظهر في الإلياذة من عقد الألهة الاجتماع الذي عقدوه للتشاور بشأن الحرب وتنازعهم، يوجد رأيان الأوّل إنهاء الحرب والثاني إبقائها مشتعلة[1]، وانتهى الاجتماع على عدم الاتّفاق بينها واستمرار الحرب وعدم إيقاع الصلح بين المتحاربين.

استمرّ القتال بين الطرفين، وانقضّ الطرواد على الإغريق، وراح أجاممنون يستحثّ همم الزعماء ويؤنّب المتقاعسين منهم، والتحم القتال من جديد، وكاد الإغريق يقضون على الطرواديين لو لم يبادر أفلّون ويستنهض الهمم وقاتل الفريقان قتالاً يائساً حتى «كسا أديم الأرض تيار الدماء»[2].

دُمّرت خلال الحرب طروادة وأُحرقت وعلا الدخان الأسود الكثيف، واشتعلت المباني وتحوّلت إلى رماد، ولم يستطع أجاممنون السيطرة على غضب جنوده، وشهوتهم الملتهبة للدم، فارتكبوا أعمال مخزية وحشية على مدى سنوات الحرب العشر[3].

لكنّهم مع ذلك لم يتمكّنوا من دخول المدينة ذات الأسوار المنيعة، وكاد اليأس يدخل قلوبهم، وباتوا راغبين بالإنسحاب بمن بقي منهم، لو لم يوافهم داهيتهم أوذيس بخدعة مكنتهم من دخول إليون؛ إذ صنعوا تمثال حصان كبير من الخشب اختبأ في جوفه مئة محارب، ثم ركبوا السفن وتظاهروا برفع الحصار والعودة إلى بلادهم، في الوقت الذي كان جيش الإغريق يعدّ مكيدته لخداع الطرواديين وتظاهروا بالانسحاب، اغترّ أهل طروادة بأنفسهم وشعروا بنشوة النّصر وفرحوا به فضيّعوا عليهم صمود عشر سنوات وأضاعوا مدينتهم الحصينة بغفلة منهم، وعندما رأوا الحصان ظنّوا أنّ الآلهة تكافئهم على بلائهم في المعركة وتهديهم الحصان احتفاءً بنصرهم، فما إن رأوا الحصان حتى خرجوا وجرّوه إلى داخل المدينة، وأقاموا المآدب والأفراح احتفالاً بانتهاء الحصار، وانتهز الجنود في جوف

[1]- The Iliad (I. 29).

[2]- هوميروس، الألياذة، م.س، ص239.

[3]- Carl Nylander, the fall of Troy, vol 37, 1963, Cambridge University press 2015, p 185.

الحصان هذه الفرصة فخرجوا وفتحوا ثلمة في السور دخل منها اليونانيون الذين حرقوا المدينة وقتلوا الرجال وسبوا النساء.

ضيّع الطرواديون مدينتهم، وكتبوا بأيديهم نهايتها بالخديعة التي انطلت عليهم، التي لولاها لما استطاع الإغريق دخول المدينة رغم كثرة عدد جيشهم.

وفشلت هذه الحرب في تحقيق أهدافها بالسيطرة الخارجية اعتماداً على القوّة؛ إذ لم تتمكن القوات الإغريقية من البقاء في طروادة بعد سقوطها والانتصار عليها[1].

وكان لآلهة اليونان دور سلبي لافت؛ إذ قامت الحرب بمعرفتهم وبمباركة منهم، ولعبت دوراً رئيسياً في تأجيج الشرور وإثارة البغض بين البشر، كما أنّها تدخّلت للدفاع عن المعتدين بما لا ينسجم مع طبيعة الآلهة الحقيقية، فكأنّ هذه الآلهة كما البشر تغضب وتنتقم وتحبّ وتكره، ومن تحبّه تسانده حتى على الخطأ، أما من تبغضه فهي من تثير ضدّه القلاقل. وكأنّنا في عالم إلهي من نوع مختلف عن الآلهة المعروفة بصفاتها المتسامحة ومساعدتها للمظلومين وإغاثتها للملهوف وغير ذلك من الصفات الحميدة التي تصدر عن الآلهة.

خامسًا: الشخصيات الطروادية في الألياذة

1. باريس الأمير الطروادي:

هو الابن الأصغر لملك طروادة، وترجع ولادته إلى قصة أسطورية تذكر أنّ أمّه رأت في نومها وهو ما يزال جنيناً، أنّها تحمل ناراً تدمّر المدينة كلّها، وخوفاً من تحقّق ذلك أرسلت وليدها إلى العراء؛ حيث تلقّفته أيدي الرعاة وقاموا بتربيته، لكنّه وبعد معرفته لنسبه عاد إلى قصر أبيه الملك بريام.

حكيت أسطورة حول نشأة هذا الصبي وإعادته لواجهة الأحداث في مملكته وبأحداث تتناسب مع شخصيته، فقد عقد حفل زواج ثيتس وبليوس، اللّذان ولدا آخيل، ودُعي إليه كل الآلهة ما عدا الإلاهة إريس Eric (وهي إلهة الصراع والنزاع) فغضبت وألقت بتفاحة ذهبيّة في حفل الزفاف كتب عليها إلى «أجمل النساء» حاولت كل من الآلهات هيرا وأثينا وأفروديتي

[1]- عبد الوهاب لطفي يحيى، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، لا ط، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1991، ص91.

الحصول على التفاحة، واحتكمن إلى باريس وسعت كل منهن لإغرائه حتى يحكم لها، ووعدته هيرا بحكم آسيا الصغرى، ووعدته أثينا بمجد المحاربين، بينما وعدته أفروديتي بأن تساعده في الحصول على أجمل نساء العالم، وجاء حكم باريس لصالح أفروديتي التي أبرّت بوعدها وساعدته على الإلتقاء مع هيلين زوجة ملك إسبرطة والهرب معه إلى طروادة[1].

وكان باريس من دعاة الحرب، وهو من دفع شعبه إليها دفعاً ولعب دوراً محرّضاً على الاستمرار بها، رافضاً مطلب الإغريق بإعادة هيلين وما حملته من ثروة.

لم يكن باريس ذاك الشاب الشجاع ذو الأخلاق النبيلة، بل على العكس ظهر في أشعار هوميروس شاباً متخاذلاً متقاعساً خائر الهمّة مستسلماً للهوى منغمساً في الغرام، ولم يجرؤ على منازلة منلاؤوس رغم تحديه المعلن له ودعوته إلى مبارزة فردية لحسم نتيجة الحرب، وخوفاً من أن يوقع باريس الظلم في أشخاص آخرين وإدراكاً من منلاؤوس بأنّ هذا الفتى لن يغيّر طباعة السيّئة، فقد تضرّع للإله زيوس لمساعدته في معاقبة (ألكسندر) باريس الذي ظلمه بلا مبرّر ويخضعه له، وقد استجاب الإله زيوس لتضرع منلاؤوس فهزمه وكاد يلاقي حتفه لولا أنّ الربة أفروديتي تقف حائلةً دون قتله[2].

2. هيكتور:

هو ابن بريام ملك طروادة وأخو باريس، تميّز بشخصيّة مناقضة لشخصيّة أخيه، فقد برز في هذه الحرب كزعيم حكيم، وجندي فتاك لا يهاب الأعداء، وقد ماثل بصفاته زعماء جيش الإغريق، حتى شبهه هوميروس بالآلهة الأرباب لحسن أخلاقه ولبأسه في المعارك.

لم يكن هكتور راضياً عن أفعال باريس التي أودت بهم إلى حرب انتقامية بسبب فعلته غير الأخلاقية، وكان يصفه بزير نساء والمغتر بالجمال، ورغم عدم موافقته لأخيه إلا أنّه تمكن من إعادته للمعركة لمنازلة منلاؤوس، ونال تصرفه استحسان المؤرخين واعتبروه دهاءً لكنه مستحسن، إذ عرف كيف يدفع بأخيه إلى المعركة بعد اعتزالها.

لكنه رغم صفات الفارس الشجاع المقدام التي تحلّى بها إلا أنّه وكقائد عسكري وسياسي

[1]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم عصوره حتى عام 322 ق.م، م.س، هامش ص51.

[2]- Maria van, the gods of the iliad and the fate of troy, p387, 388. And the Iliad (III.137,145).

يعتمد عليه والده الملك في اتخاذ القرارات كان عليه أن يختار السلم الذي يجنب البلاد ويلات القتال والتدمير، خاصّة وأنّهم هم من اعتدوا على ملك إسبرطة وأهانوا كرامته، وهو العارف بحقيقة أخيه الذي يتبع شهواته بعيداً عن العقل والإدراك، فمحاباته لأخيه على الخطأ كان الخطأ عينه الذي ارتكبه بحقّ شعبه بالكامل، وأنّه وحسب المعطيات التاريخية قد عرض على الطرواديين خيار السلم مقابل إعادة هيلين إلى زوجها، وهنا تغلّب عليه عنصر العاطفة على الحسّ العقلي وفضّل أسرته على شعبه، وسار على منوال انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، مع أن نصرة الأخ الظالم إنما يكون بمحاولة رده إلى صوابه وإلى سبيل الرشاد لا بالقتال إلى جانبه والانجرار مع أهوائه. فأضاع بذلك فرصة اتقاء الحرب، مع علمه أنّ حلفاً كبيراً من المقاتلين والقادة يتربّص به، وأن احتمال النّصر ضعيف في حال تم اختراق أسوار طروادة.

موقف هكتور غير المدروس والمنسجم عاطفياً مع شهوات أخيه دمر البلاد وقتل العباد وأسقط أسطورة طروادة وأسوارها العظيمة. وحقّق الأطماع التي كانت تسعى لها المدن الإغريقية.

لقي هكتور مصرعه على يدي آخيل انتقاماً منه لقتله لصديقه فطرقل، ولم يكتفِ بذلك بل أخذ يمثّل بجثّته، غير آبه لحرمة الجسد بعد مفارقته الروح[1].

3. بريام:

ملك طروادة التي سقطت في عهده، نتيجة الحرب التي أدخل ابنه البلاد فيها، وزعزعت ملكه، وانتهى دورها للأبد.

اتّصف بالصبور والشيخ الوقور، ولم تتعدّ شخصيّته ذلك الوصف، فقد كان ملكاً كثير الولد قوي الجند.

لكنّه لم يكن حازم الرأي، فقد أذعن لرأي ابنه باريس الرافض لطلب الإغريق بتسليم هيلين وأموالها مقابل السلم وتجنيب البلاد الحرب، ولو تمكّن من إجبار ابنه بالقبول لجنب البلاد ويلات الحرب والدمار.

---

[1]- الإلياذة، ترجمة البستاني، ص 32، 234، 308.

ولم يتّصف بصفات القائد الشجاع، ولم يقد الحرب بنفسه، بل ترك قيادة الجيش لابنه هكتور، واكتفى بأن يراقب الأحداث من بعيد دون أن يكون مشاركاً فاعلاً، أو أن يكون لحضوره تأثير إيجابي في الحرب، بل وأكثر من ذلك فقد كان شديد العاطفة تجاه أولاده، ولم يكن ليحتمل رؤية مشهد أبنائه في غمار المعارك، فقد انكفأ بعيداً عن مشهد مبارزة منلاؤوس مع ابنه باريس خشية أن تدور الدائرة على ابنه وتكون الغلبة لعدوه.

وبدا كأنّ رأيه غير مطاع حتى من قبل أبنائه، فقد استحلف ابنه هكتور أن يبقى داخل الأسوار خوفاً عليه، إلاّ أن هكتور رفض الانصياع لرغبة أبيه ورجائه له.

كذلك نستدلّ على ضعف بريام وافتقاده للحكمة تعاميه عن هفوات أبنائه واستسلامه لمطالبهم؛ إذ كان من الملفت أنّه لم يصدر من الملك أي شيء يدلّ على رأيه فيما فعله ابنه باريس لا تأنيب ورفض لفعلته، ولا عن الرضى بما جرى، فجنى بصمته ومسايرته لتهور ابنه على نفسه وعلى بلده وقومه.

لكنّه رغم عاطفته الشديدة وضعفه أمام أبنائه ، لكن البعض يعتبر أنّه كان ذا نظرة ثاقبة بما ستؤول إليه الأحداث، وأنه أحس بالخطر المحدق به واستشعر هلاك ابنه هكتور المحتوم، فكان الشاهد الأوّل على مقتله. وإن كان البعض يشير إلى أنه كان يسير برأيه خلف أحد خدام المعبد والمتنبئين.

كما أنّها باءت بالفشل كلّ محاولاته لاستعطاف آخيل واسترضائه ليهبه جثّة ابنه المقتول؛ ليتمكّن من إقامة مأتم يليق به كبطل ويقيم واجبه كأب تجاه ابنه.

فقد أصرَّ آخيل على الانتقام من هكتور بالتمثيل بجثّته، وذلك عقاباً له عمّا فعله بصديقه ورفيق عمره، ولم ينثني عن فعلته إلاّ بعد تدخل الآلهة وسعيها لإعادة الجثة لأبيه الشيخ. رغم أنّ آخيل من نسل الآلهة وما كان عليه التمثيل بالجثّة انطلاقاً مما يحتّمه عليه نسبه الإلهي.

جاءت نهاية بريام ذبحاً على يد نيفطوليم بن آخيل بعد دخول إليون، ولو كان بريام حكيماً حازماً مع ابنه لكان جنّب نفسه ومدينته وشعبه هذه النهاية.

سادسًا: النّظام السياسي والحكم

1. الملك

عرفت بلاد اليونان أوّل نظام سياسيّ عرف بدولة المدينة، كان الملك على رأس هذا النّظام، فهو صاحب جميع السّلطات من تنفيذيّة وقضائيّة ودينيّة وعسكريّة، التي شملت قيادة الجيش وإعلان الحرب والسلم واختيار القواد[1]، وكانت شخصيّة الملك تحدّ من صلاحيات زعماء القبائل والعشائر التابعين لهم، فإذا كان قويّاً فرض آراؤه عليهم وإن كان ضعيفاً فرضوا هم آراءهم عليه.

إنّ أقدم ملك حكم منطقة طروادة حسبما جاء في الأساطير هو تيوكروس، وقد ارتقى دردانوس عرش طروادة من بعده، وخلفه ابنه اريختونيوس، ثم ابنه طروس، وجاء من بعده لاؤميدون الذي أنجب ابنة هي هيسيوني وابناً هو بريام الذي خلفه على عرش طروادة وجرت في أواخر عهده حرب طروادة[2].

ظهر بريام من خلال الألياذة ضعيف الشخصية غير قادر على قيادة البلاد بحكمة، منساقاً خلف شهوات ابنه المتهور انطلاقاً من عاطفته تجاه أولاده فضحى بحياته وحياة شعبه؛ لأجل مغامرة قام بها ابنه ولم يحاول تغيير مسار الأحداث لصالحه بالضغط عليه.

لم يكن الحكم عند الطرواد شورى كما عند الإغريق بل كان حكماً استبدادياً؛ إذ نجد في الألياذة أن الإغريق يعقدون مجلساً يتشاور الزعماء بأمور تخص الحرب، أما هكتور فكان يتكلم مع الطرواديين كلام المستبد المطلق، وكانوا يعدون شعبهم بتقديم العطايا والمال الكثير مقابل خدماتهم لهم ولم يكونوا أوفياء لوعودهم ولا ينفذونها لهم.

لم يقدم بريام أي خطة عسكرية للحرب ولم يكن لديه نهجٌ محدّد يقدّمه لجيشه تساعده على مواجهة جيش الإغريق المتربّص خلف أسوار مدينتهم، كما اعتمد في نظام حكمه على العشائرية وعلى تقوية نفوذه من خلال تعدّد الزوجات وزيادة النسل وتقوية رابطة العصبية، لذلك فإنّ بريام كان يحكم بلده بطريقة بدائيّة ولم يكن حكماً سياسياً متطوّراً، ولم يعتمد على قواعد وقوانين محدّدة للحكم.

---

[1]- خليل سارة، تاريخ الإغريق، م.س، ص226.

[2]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني العصر الهيلادي، م.س، ج2، ص425، 426.

2. مجلس الأعيان:

كان ملوك اليونان مقيّدين بمجلس شورى سواء وصل أعضاؤه بالإرث أو بالانتخاب، ولم يكن الملك مستبداً بأمره ورأيه بين أصحابه وأتباعه، بل كان يشاورهم في أمور الحكم[1].

لكنّنا لم نلحظ في الألياذة وجود أيّ مجلس أعيان في طروادة، ولم يحكم الملك بالشورى بل كان حكماً استبدادياً كما ظهر، وكان المجلس فقط بين أفراد أسرته فعندما تشاور بريام بالعرض المقدّم له من الإغريق بإعادة هيلين لم نسمع بآراء لأشخاص غير رأي ولديه باريس الرافض لإعادة هيلين وهكتور الرافض لفعلة أخيه.

سابعًا: الحياة الاقتصادية

1. الزراعة وتربية الحيوان:

أمّن سهل طروادة الخصب إنتاجاً زراعياً مهمّاً، زاد عن حاجتها فصدّرت الفائض إلى الخارج كما اشتهرت بتربية الجياد الأصيلة حسب ما تذكره أشعار هوميروس[2]. ولعلّ اهتمامهم بالجياد كان وراء اختيار الإغريق للحصان لخداعهم.

2. الصناعة:

كان للصناعة دور مهم في إيجاد قاعدة اقتصاديّة مهمّة جعلت من طروادة مركزاً مهماً لصناعة النسيج، نافست البلاد الموكينية في تصدير المنسوجات[3]. وبرع أهل المدينة بصناعة الحلي[4]، والأسلحة والصوف كذلك الفخار[5].

3ـ التجارة:

كان للتجارة في طروادة خاصيتان تلازمتا معاً، فكانت نعمة ونقمة في آن واحد، فقد حقّقت طروادة أرباحاً كبيرة نتيجة تحكّمها بطرق القوافل التجارية فكانت مركزاً تجارياً مهماً

---

[1]- هوميروس، الإلياذة، م.س، ص-282 283.

[2]- The Iliad(III.59).

[3]- سيد علي أحمد الناصري، الأغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص70-71.

[4]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم عصوره حتى عام 322 ق.م، م.س، ص42.

[5]- خليل سارة، تاريخ الإغريق، م.س، ص227.

وذلك لموقعها الاستراتيجي وإشرافها على المضائق، وكان لها تجارة واسعة جدا[1][2]. وكان للتجارة البحرية نصيب الأسد من الأرباح فقد جنوا منها ثروات كبيرة نتيجة فرض المكوس والضرائب على جميع البضائع المتاجر بها[3].

يتّضح أنّه عند استعراضنا للوضع الاقتصادي في طروادة أنّها كانت تتمتّع بمقوّمات اقتصاديّة مهمّة من زراعة وصناعة وتجارة جعلتها من أهم المدن الإغريقية وأغناها، لكن الطرواديون لم يستطيعوا المحافظة على اقتصاد مدينتهم، ولا على مجدها المالي ولا على تحكّمها بطرق التجارة واحتكارها لتجارة المضيق؛ ربّما لأنّ المدينة كانت تدار بطريقة ملكيّة بدائيّة قائمة على مجد العائلة لا على مجد البلاد، الذين لم تسعفهم حكمتهم السياسية ولم يستطيعوا التمييز بين ما هو خاص وما هو عام في العمل السياسي والعسكري فلم يستطيعوا التكهن بأسباب الحرب الحقيقية، وهي رغبة الإغريق بالتوسّع خارجياً مستعينين بقوتهم العسكرية، وكسر احتكار طروادة للتجارة من جهة ثانية، فتحكّم طروادة بطرق التجارة ازعجهم وحدّ من تقدّمهم وحرمهم المكاسب المالية.

كما أنّهم لم يستطيعوا التمييز بين رغبات ابن الملك المتهوّر وأفعاله وبين مصلحة البلاد، فلم يذهب تفكيرهم لأبعد من كونها قصّة خطف امرأة، والتقت كلّ تلك الأسباب مع ملك ضعيف لا يقوى على ردع ابنه، وكانت النتيجة تدمير المدينة ودمّر معها اقتصادها الذي كان يميّزها بين المدن الإغريقية وعالم البحر المتوسط.

وكان بإمكان الأسرة الحاكمة المحافظة على ريادة المدينة اقتصادياً، لو أنّهم أدركوا حقيقة الحرب، وعرفوا أنّ السّبب الحقيقي الذي كان وراءها وأدّى إليها، هو إسقاط المدينة والتخلّص من هيمنتها الاقتصادية خاصةً وأنّها ترتبط بعلاقات اقتصاديّة وتجاريّة واسعة مع دول الجوار، وهو الهدف غير المعلن للحرب.

[1]- Jochim Latacz, Troy and Homer, University Oxford, 2003, P 17.

[2]ـ كذلك: فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم عصوره حتى عام 322 ق.م، م.س، ص83.

[3]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم عصوره حتى عام 322 ق.م، م.س، ص51.

ثامنًا: الحياة الاجتماعية

يتحدّث هوميروس في أشعاره عن مجتمع عاش في قرى صغيرة تشرف عليها قلاع.

1. السكان:

لا نعرف الكثير عن المجتمع الطروادي، فهو مجتمع غير واضح المعالم، يحكمه ملوك مستبدين. وإنّ عدم ذكر هوميروس أيّ خبر عن هذا المجتمع يدلّ على أنّه مجتمع مغيّب عن الحياة السياسية والعسكرية، وأنه لا يُشاور في أيّ أمر حتى في أهم الأمور التي تتعلّق بمصيرهم ومصير مدينتهم.

والمجتمع الطروادي لا يختلف كثيراً عن المجتمع اليوناني بالعموم، وقد أوضح ذلك هوميروس، بحيث ذكر أنّهم لا يهتمّون بالفرد ولا بشخصيّته الفاعلة في المجتمع، وينكرونها كما ينكرون أنفسهم ويجعلونهم يدينون بكلّ شيء للآلهة، حتى إنّنا نكاد لا نلحظ وجودًا للمجتمع وننساه في عالم يعطي الأهمية للآلهة والأبطال[1].

فلكي تبرز الفردية في المجتمع القديم عموماً واليوناني خصوصاً، يجب أن يكون صاحبها شخصيّة بارزة فعّالة في المجتمع، كملك أو قائد أو بطل، فلم نسمع عن أسماء في الألياذة إلا للبطل هكتور أو للملك بريام أو أجاممنون وآخيل.

ولأن أفراد المجتمع مُغيّبون تماماً عن أيّ تأثير في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لذلك فقد اتّصفوا ببساطة تفكيرهم ومعاشهم، فلا شيء يقلقهم، ولم تأتِ على ذكرهم ملحمة هوميروس. لذلك وحسب وصفه لهم بأنّهم شعب مسالم غير عدواني وغير محب للقتال كالشعب الإغريقي، واتسموا بنبلهم ولطف معشرهم[2].

2. المرأة:

يزعم الغربيون أنّ المرأة الطروادية حظيت أهميّة في مدينتها، رغم تمييز اليونان، بين المرأة قبل الأمومة، والمرأة الأم وعدَّ الانتساب إلى الأم شرف كبير ومألوف في بلاد اليونان خلال عصرها القديم، وكانت ولاية العرش تتحقّق بالزواج من الملكة.

---

[1]- خفاجة، محمد صقر: تاريخ الأدب اليوناني، لا ط، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1956، ص45، 46.

[2]- سيد علي أحمد الناصري، الأغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص 70-71.

عوملت زوجات الزعماء باحترام، وتمتّعن بحريّة الاختلاط بالرجال دون قيود ولكنّهن لايشتركن في الحرب أو السياسة أو الحكم أو الإدارة[1]. ولا تذكر الألياذة ولوج النساء معامع الحرب.

مع كل ما تمتّعت به المرأة الطرواديّة من أهميّة في مجتمعها كما يزعمون ، لكن يبدو أن لا وجود لها ولايؤخذ برأيها؛ إذ يتّضح من السيدتين اللتين ظهرتا في الألياذة وهما زوجة هكتور ووالدته اللتين يمكن عدّهما نموذجين من سيدات طروادة نستخلص منهما ما خفي عن وضع المرأة الطروادية، حيث ظهرتا في الألياذة وهنّ يتوسّلن إليه بالبقاء إلى جانبهما وعدم الاشتراك بالحرب، ولم تنفع كلّ مشاعر الود والحب التي أظهرتها زوجته أندروماخ وتذكيره بأن له طفلاً ما زال يحتاج لوجود والده إلى جانبه، ومحاولاتها اليائسة باستعطافه وثنيه عمّا عقد عليه العزم.

تاسعًا: أسوار طروادة

لدراسة أسوار طروادة لا بدّ من دراسة جانبين منها: الجانب الهندسي العمراني، والجانب الميثولوجي الأسطوري:

1. الجانب الهندسي والعمراني:

فيما يخص الجانب العمراني لن ندخل في التفاصيل، فالبناء بأجزائه كان من اللّبن والحجارة، وحرصوا على تسوير مدنهم وأزقتهم بما توفّر من مواد بناء في البيئة.

حيث أثبتت التنقيبات الأثرية بأنّ جميع المدن الطروادية المتعاقبة كانت محاطة بأسوار[2]، ولم يختلف حال المدينة عمرانياً في عهد ملكها بريام، فقد تميّزت بأسوارها الضخمة المدعمة بالأبراج[3].

2. الجانب الأسطوري والميثولوجي:

ورد في الأساطير أنّ الآلهة هم الذين بنوا أسوار طروادة، فقد حدث ذات مرة أن طرد الإله أبوللون من السماء (أي من جبل أوليمبوس) إلى الأرض بأمر من زيوس كبير الآلهة، وقضى

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني العصر الهيلادي، م.س، ج (1)، ص53، 54.

[2]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم عصوره حتى عام 322 ق.م، م.س، ص 42.

[3]- The Iliad(I.13).

أبوللون في الأرض فترة من الزمن خدم أثناءها كعبد عند بعض الملوك تكفيراً عن ذنب ارتكبه وتطهيراً من دنس لحق به، وقام بأعمال كثيرة شاقة في الأرض، واشترك مع بوسيدون إله البحر الذي كان يقضي هو الآخر مدة عقوبة في الأرض ببناء أسوار طروادة الشاهقة بتكليف من ملكها لاؤميدون، وأنجز الإلهان المهمة على خير وجه[1].

وهكذا نلاحظ أنّ الطرواديين قد اعتمدوا على الخيال في كلّ تفصيل في حياتهم، فقد نسبوا بناء أسوار مدينتهم إلى الآلهة، ونسجوا أسطورة لتخليد هذا الحدث، وهذا الأمر يرسم ملامح حياتهم الدينية، فالآلهة في نظرهم تعاقب إلى درجة أنّها تخضع لسلطان الملك. وهذا الأمر يعزز سلطة الملك وقوته، وأرادوا إعطاء مدينتهم وأسوارها من خلال هذه الأسطورة قوة إلهية لتكون بمأمن عن أطماع الجوار.

ومن جهة ثانية، إنّ الملك هو من أعطى أوامره للإله بوسيدون ببناء الأسوار، وكأنّه يقول من هذه الأسطورة بأنّه يحكم البلاد بمساعدة الآلهة، وأن كل ما يقوم من أعمال هي بمباركة الآلهة وذلك لإضفاء الشرعية على أي عمل يقوم به الملك ليعطيه هالة من القداسة.

عاشرًا: الأدب

إنّ عدم وجود المصادر التي تتحدّث عن الحياة الأدبية والفكرية لطروادة جعلت الصورة غير واضحة، واتخذ الفكر والأدب طابعًا جمعيًّا؛ حيث إنّنا نفتقر لاسم شاعر أو أديب عاش فيها وخلّد أفكارها وأحداثها. واعتمدوا على الأساطير التي هي نتاج ذاكرة شعبية جمعيّة تمجد فيها الآلهة، وجعلوها المصدر لجميع النواحي الحياتية للطرواديين. فسيّرت أحداثهم وتاريخهم حتى إنّهم لم يخلّدوا حروبهم كملحمة أدبية، وهذا دليل على ضعف الحس الأدبي لديهم وعدم قدرتهم على نقل المشهد الحسي الواقعي إلى مشهد أدبي فكري تتوارثه الأجيال.

واللافت هنا أّن حرب طروادة خُلّدت بملحمتين الألياذة والأوديسة بعد مضي أربعة قرون على أحداثها، بدلاً من أن تكون قد ولدت في طروادة نفسها. والصورة المنتَجة بعد أربعة قرون ومخلّدة من قبل شاعر يوناني قد لا تكون هي الصورة الواضحة والصريحة لحقيقة ما كان يجري في حال تمّ الأخذ بعين الاعتبار البعد الزمني والشخص الغريب عن طروادة.

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني العصر الهيلادي، م.س، ج 2، ص 433 - 434.

وبقيت هذه الروايات متواترة شفهياً وتتوارثها الأجيال حتى جاء هوميروس فخلّدهما وصاغهما بإسلوب شعري ملحمي.

الخاتمة

نخلص من دراسة طروادة من خلال ما كتبه هوميروس في ألياذته وبالمقارنة مع نتائج التنقيبات الأثرية إلى النتائج التالية:

تشكّلت مدينة طروادة من اجتماع أسر عدّة، وكان للآلهة والأبطال الدور الأبرز، وعلى رأسها الملك الذي لم يتعدَّ كونه ملكاً يحكم بفردية دون أن يكون لديه باع في السياسة، فهو الحاكم الآمر حسب أهوائه وبما يخدم مصلحته الشخصيّة ومصلحة أفراد أسرته، فكان تغليب المصلحة الشخصيّة على المصلحة العامّة، وكان الولاء لأفراد العائلة لا للمجتمع ككل.

ولا نجد أثراً لمجلس أعيان أو مجلساً للشيوخ يصوّب أراءه، ويُعنى بمصلحة البلاد ومن يحظى بالمشورة هم فقط من الأسرة المالكة. فنتج عن ذلك عدم مقدرة الملك على اتّخاذ القرار والحكم المناسبين في الوقت المناسب.

حكم الملك شعباً مسلوب الإرادة، لكنّه طيّب المعشر يعيش عيشة بسيطة على سجيّته وفطرته، تخلو من أيّ أمر ذي أهميّة في حياتهم، ولا يشاور في سياسة البلاد وينحصر دوره بتنفيذ ما يؤمر به.

كان للخيال جانب مهمّ من حياة الطرواديين؛ إذ نجد أثره في جميع جوانب حياتهم فكانت الأسطورة المشرّع والقانون، ورفعوا من قيمة الأبطال لتحاط بهم هالات التقديس، بدلاً من اعتماد العقل والمنطق في تحكيم الأمور.

ولعبت الآلهة دوراً مميّزاً ورئيسياً في حياتهم الدينيّة والدنيوية، وشكّلت المحور الذي تدور حوله الأحداث ومنه، فهي مصدر كلّ شيء في حياتهم من أبسطها إلى أعقدها.

فأسبغوا على كلّ شيء مظهر القداسة وقدّموه كأنّه عطاء إلهيّ، ونظروا إليه بهالة كبيرة، فأسوار طروادة بنتها الآلهة لهذا فإنّ هذه الأسوار اكتسبت قوّة استمدّتها من بناتها، فكانت

الأسوار سبباً رئيسياً ساعد في التصدي للغزو الإغريقي ولم يتمكّنوا من اختراقها إلا بخديعة لاحت لهم فكرتها فنفذوها وتحقّق ما أرادوا.

اختلفت آلهة اليونانيين والتي هي آلهة الطرواديين نفسها عن غيرها بكونها تتمثّل نوازع النّفس البشرية، فلا نجد صفات الآلهة المعروفة من رحمة وغيرها، إنّما نجد آلهة تفكّر كما البشر وتتنازعها عواطف متناقضة، فتارة تكون شريرة وتارة تكون خيرة، وتكيد المكائد لمن تغضب عليه، وتسير الأحداث لمصلحة من تحب، فتكون المصلحة هي التي تسيّرها وتتحكّم بها، ونجد الآلهة هي من أرادت الحرب وهي من دفعت إليها دفعاً، والآلهة التي ساعدت على استمرار الحرب، ورفضت إيقافها كما حدث في اجتماع الآلهة لمناقشة أمر الحرب وإنهائها، كما أنّ الآلهة تتصارع فيما بينها كما البشر.

ولكي تعطى الشرعيّة للملوك كانوا ينسبون أنفسهم وأبناءهم أو زوجاتهم للآلهة؛ ليكون حكمهم مستمدٌّ من الآلهة وأنّهم يحكمون بالنيابة عنها في الأرض.

شكّلت الخطيئة محور التفكير الإغريقي ومحور الملحمة؛ حيث بنيت جميع أحداثها على قصة خطف أمير متهوّر لزوجة ملك إسبرطة، وكلّ ما جرى من أحداث هي ناتجة عن هذا الفعل المنافي للأخلاق، ولم يكن أمراً مستهجناً في العموم؛ إذ لم نسمع رأي الملك على فعلة ابنه، ولم نرى توبيخاً له.

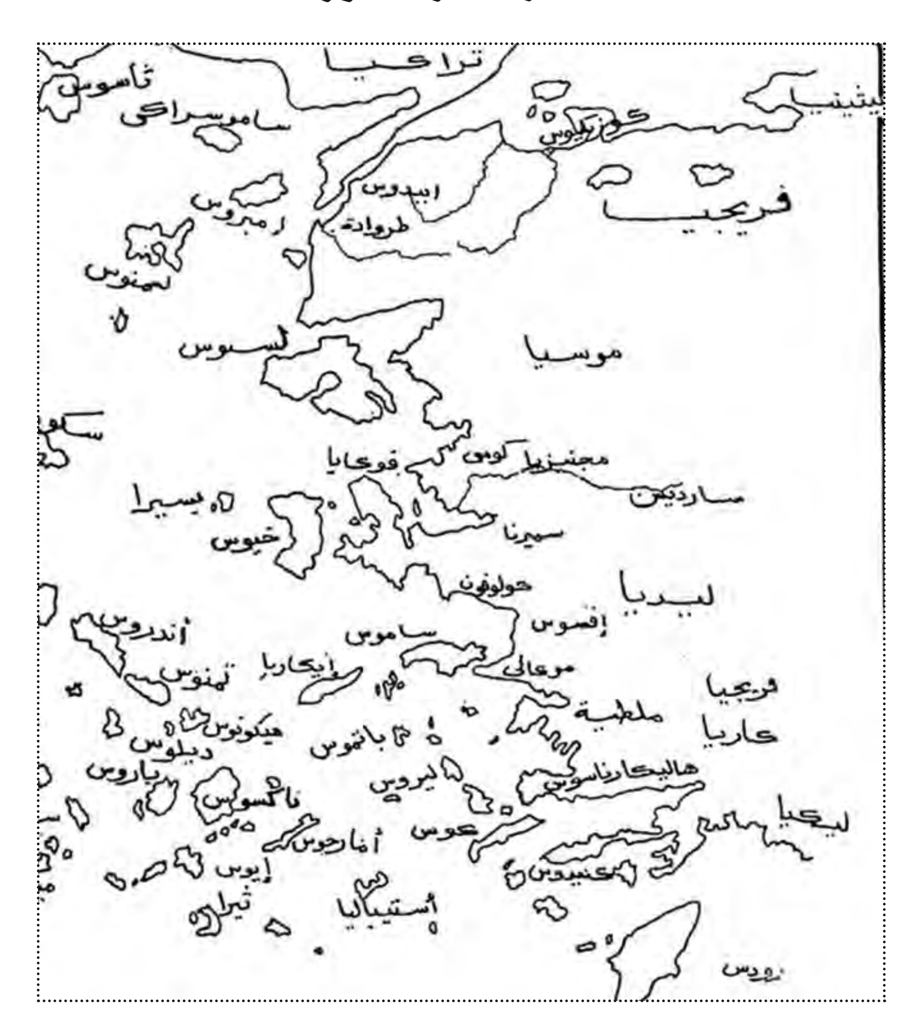
لم يُخلّف الطرواديون أدباً أو على الأقل لم يصلنا منهم أيّ مصدر يكون مضمونه أدبياً، ولم يخلّد التاريخ اسم شاعر أو أديب أو مؤرخ من طروادة، وأن ما وصلنا من أخبار عن طروادة وأسوارها وحربها وحصارها كان من مصدر يوناني لشاعر تفصله أربعة قرون عن سقوط طروادة، فقد قدّم هوميروس ملحمة تاريخيّة بقالبٍ أدبي، ونسج أحداث ملحمته الألياذة، ولا يعرف مصدر معلوماته وما إن كانت الحرب قد وقعت حقيقة أم إنّها محض خيال، ومن المرجّح أنّها كانت رواية شفهيّة تناقلتها ألسنة الناس حتى جاء هوميروس وصاغها بأسلوب شعريّ؛ إذ لم تظهر التنقيبات الأثرية أيّ أثر ذي دلالة واضحة، أو إيجاد دليل قاطع حول قيام حرب طروادة، وكل ما توصّلت إليه هو وجود المدينة التي لم تكن معروفة إلا من خلال أشعار صاحب الملحمة. كما أثبتت التنقيبات وجود تسع مدن تحمل

اسم طروادة، والسابعة منها هي طروادة هوميروس، والعثور على آثار حريق ولا يعرف ما إذا كان هذا الحريق ناتج عن زلزال أصاب المنطقة أم عن الحرب المعروفة بحصار طروادة.

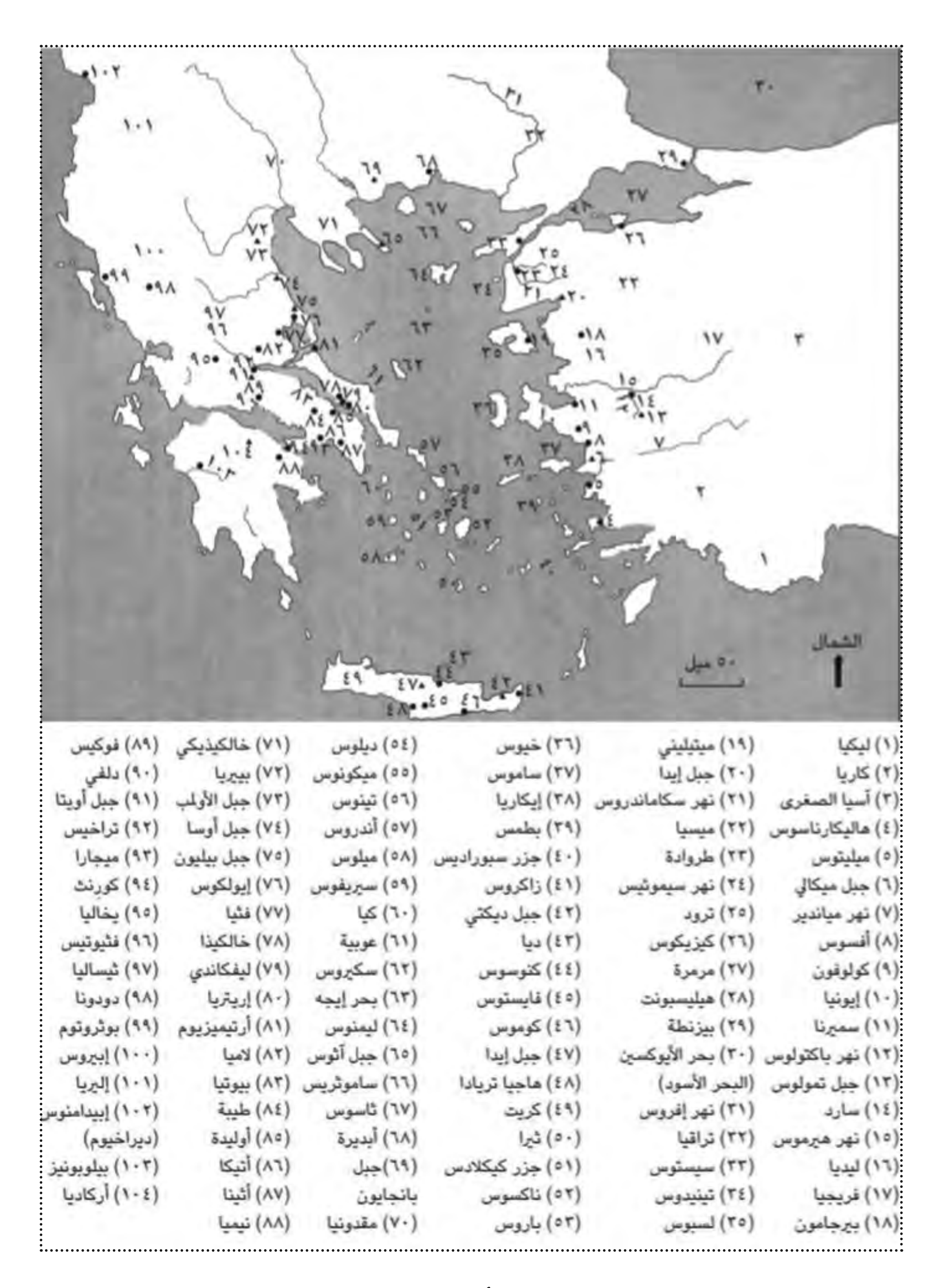
اتّصف الحكم في طروادة بقصر النّظر، فلم يستطع إدراك حقيقة الحرب والهدف الرئيس منها، وهو إزالة هذا الحصن المنيع الذي عرف باسم طروادة من أمام التوسّع الخارجي للمدن الإغريقية والسيطرة على التجارة وطرقها. ولم يستطع الحفاظ على الاقتصاد الذي تميّزت به المدينة، والذي كان عامل قوتها ومثار التّنافس لاسقاطها والتخلّص منها، فقد تميّزت بصناعة وزراعة مهمّين فضلاً عن التجارة التي كانت سبب ازدهارها وعظمتها.

من الجائز أن تكون الحرب قد وقعت فعلاً؛ لأنّ المدينة عاشت حياة رخاء وازدهار في الفترة التي حصلت فيها الحرب ذاتها، وكانت مركزاً تجارياً مهمّاً، وهذا ما يمكن أن يفسّر مجريات الحرب، إن صحّ وقوعها، واتّحاد بلاد الإغريق ضدّها وشنّوا عليها الحرب التي أنهت وجودها للأبد.

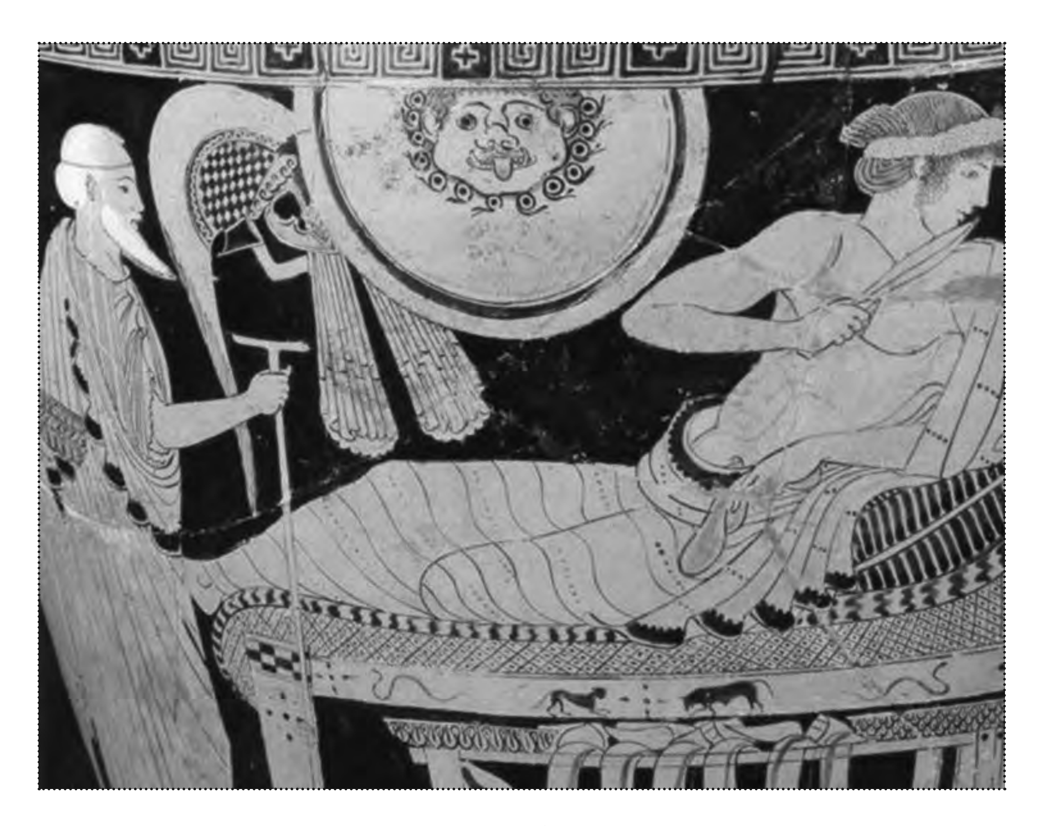
الخرائط والصور



خريطة بلاد الإغريق وأهم المدن والجزر. فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته، ص13.



خريطة للمدن والجزر اليونانية: باري بي بأول، هوميروس، ترجمة محمد حامد درويش، مؤسسة هنداوي، ص42.



رسم على آنية يعود للقرن الخامس ق.م، يصوِّر مشهد وصول بريام إلى خيمة آخيل يحمل فدية ليسلّمه جثة ابنه هكتور، ويبدو آخيل ممدداً على أريكة وتظهر تحتها جثة هكتور، الآنية محفوظة في متحف تاريخ الفن بفيينا.



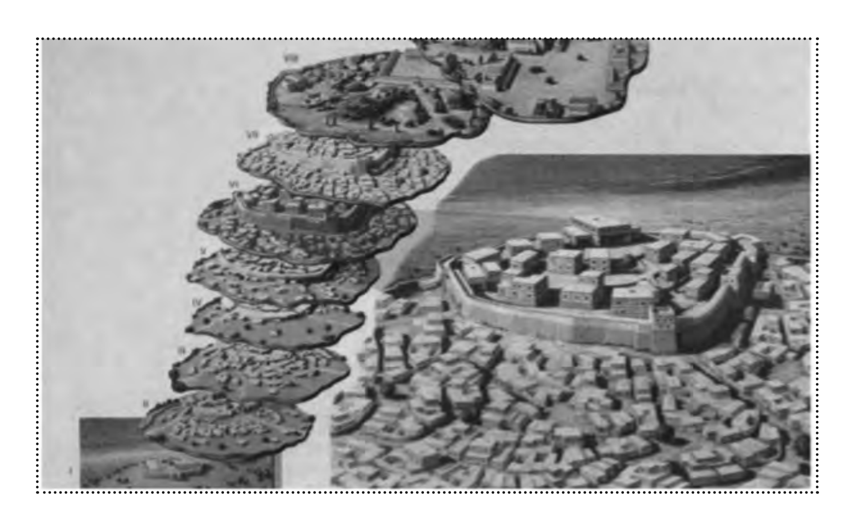
مشهد يصور صراعاً بين منلاؤوس وهكتور على آنية للسوائل (طاسة) ذات تصميم أيوني من القرن السابع ق.م وهي محفوظة في متحف اللوفر: مكاوي، ص 128.



أسوار طروادة السادسة تعود 1250 ق.م ويلاحظ ميلها باتجاه الداخل ومدعمة بدعامات منتظمة الأبعاد: باول، ص 86.



خريطة توضح الميناء في منطقة طروادة في العصر البرونزي المتأخر، ويبدو أن سفن أسطول الآخيين كانت ترسو في ثغر بحري جنوب غرب المدينة: باول، ص 108.



رسم افتراضي يوضح مستوطنات طروادة المتراكبة: (طروادة السادسة 1800-1250، طروادة السابعة 1250–1100 ق.م، الثامنة 750-133 ق.م، طروادة التاسعة 133 ق.م– 500 م) باول، ص 109.



تمثال للأمير باريس من العصر الروماني

المصادر والمراجع

1. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني العصر الهيلادي ج 2، دار النهضة العربية 1984.
2. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهللادي (1)، دار النهضة العربية بيروت 1976.
3. محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، جذ دار الفكر الطبعة الثالثة 1980.
4. خليل سارة، تاريخ الإغريق، منشورات جامعة دمشق 2012.
5. هوميروس، الألياذة، ترجمة سليمان البستاني، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة 2011.
6. سيد علي أحمد الناصري، الأغريق تاريخهم وحضارتهم من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الإسكندر، دار النهضة العربية القاهرة ط 2 1976.
7. فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم عصوره حتى عام 322 ق.م، الدار البيضاء الطبعة الأولى 1980.
8. لوري ماجواير، هيلين طروادة من هوميروس إلى هوليود، ترجمة محمد حامد درويش، مؤسسة هنداوي.
9. لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1991.
10. محمد صقر خفاجة، تاريخ الأدب اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، 1956.
11. هيرودوت، هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، دار القلم، 1966.

1. Lang .A, Helen of Troy, New York Charles Scribner s sons 1882, book 1.
2. Joachim Latacz, Troy and Homer, oxford 2003.
3. Quintus smyrnaeus the fall of Troy, with an English translation by Arthur. s. way, D.lit, Harvord University press London 1985, p v.
4. Carl.w. blegen, excavations at troy 1935, American journal of archaeology. vol 39. No 4 (oct – dec 1935).
5. Carl Nylander, the fall of Troy, vol 37, 1963, Cambridge University press 2015.
6. Maria van, the gods of the Iliad and the fate of troy.

دولة إسبرطة والنظام الارستقراطي

د. خليل سارة[1]

تمهيـد

ظهرت في بلاد الإغريق خمسة من الأنظمة السياسية وهي: (**الملكية، الأرستقراطية، الأوليجاركية (حكم الأقلية)، حكم الطغاة، الحكم الديمقراطي**)؛ ولكن يجب أن ننوّه، إلى أنّ هذه الأنظمة الخمسة لم تظهر متتابعة في جميع دويلات المدن الإغريقية، بل إنّ تطوّرها قد تشكّل طبقًا لظروفها الاجتماعية والاقتصادية التي مرّت بها، فهناك مدن قد تطوّرت من النّظام الملكي إلى النّظام الأرستقراطي فقط، وهناك مدن تطوّر النّظام السياسي فيها من النّظام الملكي إلى النّظام الديمقراطي مباشرة، بينما هناك مدن أخرى استقرّت في تطوّرها إلى حكم الطغيان إلى أن تدهورت أو بقيت على ما هي عليه، وهناك مدن لم يحدث فيها أيّ تطوّر سياسيّ نظرًا لظروف تكويناتها الاجتماعية والاقتصادية مثل مدينة (**إسبارطة**). ويؤكّد **توكوديدس** على ذلك بقوله: «.. **ومع ذلك فإنّ دستور إسبارطة كان يعود إلى عهد قديم، ولم تخضع لحكم الطغاة أبدًا، واستمرّ القوم على نظام الحكم الذي ألفوه منذ أكثر من أربعمائة عام بعد نهاية الحرب الأخيرة وهو نظام حكم الأقلية**»[2]. حيث يُعرف عن إسبارطة بأنّها كانت تناصب «**حكم الطغاة**» وتعمل على الإطاحة بحكمهم في المدن الأخرى.

---

[1]- أستاذ التاريخ اليوناني في جامعة دمشق.

[2]- انظر: **توكوديدس**: تاريخ الحرب البلوبونيزية، لا ط، أبو ظبي، ترجمة دينا الملاح - عمرو الملاح، المجمع الثقافي، 2003، الكتاب الأول، الفصل الأول، ص30.

أوّلاً: تأسيس مدينة إسبرطة

1. الوضع الجغرافي والديموغرافي

عُرِفت المدينة قديمًا باسم «لاكونيا». وقد جادت الطبيعة على (**لاكونية**) بميزةٍ فريدة، وهي ذلك السهل الخصيب في وادي نهر **يوروتاس** (**EUROTAS**) الجميل، الذي يتوسّطها مسترخيًا بين سلسلة جبل (**تايجيتوس**) ومرتفعات أركادية، وترويه جداول مائيّة عدّة تنساب من هذا الجبل، الذي يبلغ ارتفاع قمّته 8000 قدم، وتكسوه الثلوج حتى منتصف الصيف، وإنتاج هذا السهل من الحاصلات يكفي لاستيعاب عدد كبير من السكان، ولذلك لم تحتدم في (**لاكونية**) مشكلة عدم الاكتفاء الذاتي أو مشكلة الجوع التي دفعت بالسكان في غيرها من الأقاليم إلى العمل بالتجارة أو الهجرة لإنشاء المستعمرات، أو الإقدام على مغامرات سياسية خطيرة. غير أنّ لاكونيا تُعدّ من ناحية أخرى، من أكبر أقاليم بلاد الإغريق انعزالاً، وإذا كانت تقع في أقصى الجنوب، كتساليا في أقصى الشمال، فهي تبعد مسافة طويلة عن وسط بلاد الإغريق. ومع أنّ فروع نهر يوروتاس الأعلى تشقّ لها طريقًا إلى وادي نهر ألفيوس، إلا أنّ مرتفعات اسكيريتس (**Sciritis**) في جنوب شرقي أركاديا تسدّ في وجهها الطريق نحو خليج كورنثة. وتفصل سلسلة جبال بارنون (**Parnon**)، ساحلها الشرقي عن المنطقة الداخلية، وأما في الغرب فتفصلها عن إقليم ميسينيا سلسلة جبل تايجتوس الشاهقة (7800 قدم). والخليج اللاكوني أكثر تعرّضًا للرياح من خليج أرجوليس، وليس فيه سوى ميناء واحد، هو ميناء جيثيوم (**Gythheum**) الذي يقع عند رأسه. ومع أنّ الطبيعة جعلت لاكونيا إقليمًا منعزلاً إلّا أنّ دولة المدينة الإسبرطيّة التي قامت فيها لم تخرج فقط عن مألوف العادات الإغريقية، بل خرجت أيضًا على ناموس الطبيعة، تاركة بذلك أثرًا غريبًا في مجرى التاريخ الإغريقي.

وعندما جاء الدوريون في عام 1150 ق.م قاومتهم قرية أميكلاي (**AMYCLAE**) الحصينة مدّة طويلة، فاضطرّوا إلى النزول في مكان يبعد أربعة أميال، وهناك أسّسوا مدينة (**إسبرطة SPARTA**) وذلك بإدماج أربع قرى تقع في وسط السهل على الضفة الغربية من نهر يوروتاس. وقد زاد عدد هذه القرى إلى خمس بعد إدماج (**أميكلاي**)[1]. ويؤكّد توكوديدس

[1]- من البديهي أنَّ إسبرطة لم تؤسِّس إلا بعد مجيء الدوريين عام 1150 ق.م، ولم تكن موجودة زمن الحرب الطروادية حوالي عام 1200 ق.م، لكن هوميروس الذي عاش في القرن التاسع أو الثامن ق.م، أي بعد تأسيس إسبرطة، يعود بتاريخ تأسيسها إلى الوراء، ويحرّف التسلسل التاريخي، ويتصور وجودها مكان بلدة أخرى لعلها (ميكيناي) التي كانت موجودة في عصر الحرب الطروادية. وكانت -على ما يرجح- هي عاصمة مملكة منيلاوس وهيلليني. وفي الحق أن آثار العصر الميكيني عُثر عليها في (**أميكلاي**) (**فافيو الحديثة**) لا في موقع إسبرطة.

على ذلك بقوله: «**إنّ إسبارطة ليست سوى مجموعة من القرى اجتمع بعضها إلى بعض على النهج الهلليني** القديم»[1].

2. التسمية

ومن هنا يأتي اسم (**إسبارطة**) الذي يفيد معنى (**المشتتة**)، أي من اجتماع خمس قرى كبيرة اتّصل بعضها بالآخر، وتم ذلك في القرن الثامن ق.م. واعتبارًا من هذه الفترة، لم يعد اسم إسبارطة يُطلق كبديل عن (**لاكيدايمون**) بمعنى الإقليم، وإنّما أصبح يقتصر على المدينة وحدها.

وتُعدّ مدينة إسبارطة من المدن الإغريقية العريقة التي تميّزت بأسلوبها الخاص الاجتماعي والسياسي. وقد عُرفت هذه المدينة قديمًا باسم (**لاكونية LAKONIA**) أو **لاكيدايمون LACEDAEMON** وإسبارتي **SPARTE**؛ حيث استخدم الشاعر الإغريقي (**هوميروس**) الاسم الأوّل (**لاكيدايمون**) للإشارة إلى مملكة مينيلاوس زوج (**هيلليني**)، التي حدثت بسببها حرب طروادة كما هو ظاهر في الأساطير. أما الاسم الثاني (**إسبارتي**) فهو الاسم الذي ظهر تمثيلاً للطبقة المميّزة من سكان المدينة، والذين عُرفوا في فترات متأخّرة باسم (**الأسبراتياتيس**)[2].

3. تاريخ المدينة

بتأسيس مدينة (**إسبارطة**) يبدأ تاريخها الطويل الحافل بالتناقضات والمفارقات، ذلك أنّ إسبرطة على الرغم من عدم مناعتها الطبيعية، ظلّت على نقيض المدن الإغريقية الأخرى بغير أسوار أو تحصينات دفاعيّة حتى عام 200 ق.م. وكان توسّعها خارج حدود لاكونيا ينطوي منذ البداية على مفارقة أخرى، أو بالأحرى يسير في اتّجاه مضاد للجغرافية. فالحروب الميسينية التي استهلّت بها إسبرطة في آخر القرن الثامن ق.م وخلال القرن السابع ق.م دارت رحاها فوق أعلى سلسلة جبلية في البلوبونيز؛ إذ كان الوصول إلى أقصر ممرّاتها وأقلّها انخفاضًا يستلزم الصعود مسافة 4500 قدم عبر خانق وعر. وقد أثار أطماع الإسبرطيين عبر

---

[1]- انظر: **توكوديدس**، تاريخ الحرب البلوبونيزية، م.س، الكتاب الأول، الفصل الأول، ص25.

[2]- انظر: باوسنياس: وصف بلاد اليونان، الترجمة الروسية، كوندراتييف س . ب، في مجلدين اثنين، موسكو، 1940، 3، 11-20.

هذه الحدود الوعرة (سهل ميسينا) الذي كان يضارع بل يفوق سهل (يوروتاس) في خصوبته حتى أصبح الاحتفاظ به مبدأ أساسيًا في السياسة الإسبرطية. غير أنّ الاحتفاظ بالسيطرة على شعب خاضع رغم أنفه وضدّ مشيئته، وبسط هذه السيطرة عبر خط من المواصلات لا يمكن اختراقه في فصل الشتاء، كان عبئًا ثقيلاً على الإسبرطيين اضطرّهم إلى إعادة تنظيم دولتهم لتتحكم فيه السلطة المركزية في مختلف أدوار حياة جميع المواطنين الذين يدينون لها بالطاعة العمياء.

وبعد الحروب الميسينية (الحرب الميسينية الأولى (725 - 705 ق.م)، والثانية (685 - 668 ق.م) والثالثة (464 - 460 ق.م) اتّجهت حركة التّوسّع الإسبرطيّة نحو (إيليس) التي يفتح الطريق إليها وادي نهر ألفيوس، وبعدئذ اتّجهت نحو أرجوس وكورنثة، مما أدّى إلى تطاحن إسبرطة وتجيا في حرب مريرة في أوائل القرن السادس ق.م من أجل الاستيلاء على مرتفعات (اسكيريتس) في جنوب شرقي أركاديا، والتحكم في الطريق الرئيسي المؤدّي إلى أرجوس وكورنثة. غير أنّ إسبرطة لم تستطع أبدًا أن تحرز أيّ سيطرة على الطريقين الرئيسيين اللذين يمرّان عبر شمال أرجوس وجنوبها، فضلاً عن أنّ تطرّف موقعها في جنوب شرق البلوبونيز جعل من المتعذر عليها أن تحكم رقابتها على البلاد التابعة لها في أركاديا بسبب افتقارهم إلى أداة كشبكة الطرق الرومانية الرائعة، إلى الاكتفاء بفرض سيطرة على وسط البلوبونيز وشمالها أوهى بكثير من التي فرضوها على أشباه عبيدهم (**Heilotes**) في لاكونيا وميسينيا.

وكانت الزعامة المؤقّتة التي أحرزتها إسبرطة على بلاد الإغريق عقب الحرب البلوبونيزية (431 - 404 ق.م) تلك الحرب التي دارت بين أثينة وإسبرطة لمدة 27 عاماً بسبب النزاع على الزعامة على بلاد الإغريق، وكان من نتيجتها استسلام أثينا في عام 404 ق.م، وأدّت إلى (صلح الملك) في عام 386 ق.م مع الفرس، ولكن إسبرطة لم تنهزم نهائيًا إلا في عام 371 في معركة ليوكترا على يد إبامينونداس قائد طيبة الشهير. وهكذا انتقلت الزعامة في بلاد الإغريق من أثينة إلى إسبرطة، ثم إلى طيبة، وأخيراً غزتها مقدونية، قاضية على استقلال مدنها الرئيسية في معركة (خيرونية 338 ق.م).

لقد اتّضح للإسبرطيين عقب الحرب البلوبونيزية أنّ السيطرة على كلّ بلاد الإغريق

من منطقة نائية أمر شاق فوق طاقتهم، إذ أعوزتهم السواحل الملائمة، ولم يكن لديهم سوى أسطول رمزي، وكانوا يعتمدون على وحدات حلفائهم للاحتفاظ بسيادتهم البحرية المزعزعة. وهذه العقبات الجغرافية التي تعترض أي توسّع من أجل السيطرة، قد تفسّر لماذا لم تتضمّن أهداف إسبرطة فرض زعامة دائمة على كل العالم (**الهليني**) (**أي كل من ينضوي تحت لواء الثقافة الإغريقية سواء أكان إغريقياً أم لا**). ولقد قاتل الإسبرطيون قتالاً طويلاً مريراً من أجل دعم سيطرتهم على البلوبونيز مما كلفهم أعباء تحملوها على ثقلها، غير أنّهم أدركوا في الوقت نفسه أن أي توسع في دائرة السيطرة على بلاد الإغريق قد يقصيهم عن مركز قوّتهم ويشتّت جهودهم ويعرضهم للانهيار. وأمّا الحملات الإسبرطية في القرن الرابع ق.م من أجل التوسع الاستعماري، فهي لا تمثّل إلاّ اتّجاهًا مؤقّتًا نشأ عن أطماع قائدين طموحين هما ليساندر (**Lysandr**)، اجيسلاوس (**Agesilaus**)، لا عن سياسة قوميّة مرسومة. أمّا التناقضات والمفارقات التي اتّسمت بها إسبرطة تتجلّى في عاملين رئيسيين:

سياسة الانعزال: وهي التي اتبعتها (**إسبارطة**) بشكل يختلف عن سائر المدن الأيونية الأخرى، والتي كانت تميل إلى سياسة الانفتاح على العالم وتخضع للمؤثّرات الخارجية، وتظهر نشاطاً كبيراً في الأعمال التجارية والصناعية وتتقدم في طريق الحضارة. في حين كانت (**إسبارطة**) تنطوي على نفسها وتنعزل عن غيرها وتمنع كل تجدّد وتسعى إلى المحافظة على الأوضاع السائدة، وتتحكم في رقاب المواطنين بحيث لم تدع لهم فرصة الانطلاق والابتكار والخلق في مجالات الأدب والفن والثقافة عامة، فبينما كان الفلاسفة والعلماء (**الأيونيون**) يكتشفون طرقاً جديدة، وإبداعات كثيرة من طرق التفكير، مسترشدين بقدرتهم الفردية على استخدام العقل، كان (**الإسبرطيون**) يسيرون طبقاً لآرائهم ونظراتهم التقليدية الجامدة إلى الأمور، وبينما كان المهندسون والنحاتون (**الأيونيون**) ينشدون الرشاقة والتنويع في فنهم، كان أمثالهم في (**إسبارطة**) يتقيدون بنماذج قليلة، صارمة في إشكالها، جامدة في فنّها، متقشّفة في تعبيرها عن الأشياء. فهذان النمطان من الأسلوبين (**الأيوني**) و(**الإسبرطي**) كانا يمثلان فكرتين متعارضتين عن الحياة: **الانفتاح والانعزال، الفكرة المتحرّكة والفكرة الساكنة، الفكرة الفرديّة والفكرة الجماعيّة.** ويعلّل بعض المؤرخين أسباب السياسة الانعزالية التي سلكتها (**إسبارطة**) على عكس غيرها من المدن (**الأيونية**) هو شعورهم القوي بأنّهم مجتمع وثيق الارتباط بعضه

ببعض، وإنّهم جماعة (**دورية**) عظيمة التنظيم تشعر أنّها هي التي تقرّر ما تريده إذ لم يكونوا أفرادًا يريدون أن يلائموا بين أنفسهم وبين نظام موجود من أنظمة الحياة، بل كانوا مجتمعًا قد جاء ومعه نظامه الخاص الذي صُمّم على أن يحتفظ به[1].

سياسة التفريج الطبيعي لزيادة عدد السكان: حيث كانت المدن (**الأيونية**) تعبرّ عن هذه السياسة بإرسال جاليات كثيرة إلى خارج بلاد الإغريق للاستيطان وإنشاء المستعمرات، بينما (**إسبارطة**) مارست هذه السياسة، ولكن بشكل قليل جدًا، وكانت **تارنتم** (**TAREN-TUM**) إحدى مستعمراتها القليلة في الخارج، إذ عالجت إسبارطة حاجتها الملحّة إلى الأراضي بطريقة تختلف كلّ الاختلاف عن غيرها من بقية المدن الأيونية التي وجدت في البحر هو الحل الأمثل، وذلك بالغزو والاستيلاء على أراضي الغير بالقوّة. وفي هذا المجال يقول **توكوديدس**: «**إنّ إسبارطة لا تشغل من مساحة منطقة البلوبونيز سوى الخمسين، لكنّها لا تتزعّم بلاد البلوبونيز بأكملها فحسب، بل إنّ نفوذها يمتدّ إلى الكثير من الحلفاء خارج حدودها أيضاً**»[2]. ومن هنا دخلت (**إسبارطة**) في حربين مريرتين مع جارتها ميسينية (**MESSENIA**) مرة في القرن الثامن (725 - 705 ق.م) ومرة في القرن السابع (685 - 668 ق.م) بغرض الاستيلاء على هذه المنطقة وهي أخصب مناطق شبه جزيرة البلوبونيز، إذ يضارع سهل (**ميسينية**) في خصوبته سهل (**يوروتاس**) وعُرف باسم الأرض المباركة (**MA-KARIA**) حتى أصبح الاحتفاظ به مبدأ أساسياً في السياسة الإسبرطية. وكان من نتيجة السيطرة الإسبرطية على هذا السهل الخصيب، أن خضع كلّ سكّانه للإسبرطيين وتحولوا إلى العبودية، وأصبحوا أقنان دولة (**HELOTAI**). ولما كان هذا المكان ملائمًا لقيام مدينة حصينة، فقد نشأت عنده عاصمة باسم **ميسيني** (**MESSENE**). وبعد ذلك تمّ تحرير هذا الإقليم كلّه على يد (**إبامينونداس**) قائد طيبة الشهير في عام 370 ق.م.

ونتيجة لهذه الظروف التاريخيّة والاقتصاديّة وسياسة التوسّع الإسبرطية، أن أصبح الإسبرطيون أقليّة حاكمة وسط محيط من السكان المعادين لهم أو المتحفّزين ضدّهم أو على الأقل الساخطين عليهم، حتى يمكن القول، إنّهم أصبحوا أقليّة مهدّدة من ذي قبل. وفي ضوء

---

[1]- انظر: **كيتو**: الإغريق، ترجمة: عبد الرزاق يسرى، مراجعة: صقر خفاجة، لا ط، القاهرة، دار الفكر العربي، 1962، ص114.

[2]- انظر: **توكوديدس**، تاريخ الحرب البلوبونيزية، م.س، الكتاب الأول، الفصل الأول، ص 25.

هذا الوضع نجد الإسبرطيين يتبعون نظاماً اجتماعياً وسياسياً من شأنه أن يمكنهم المحافظة على تماسكهم وسيطرتهم وسط هذه الأغلبية المعادية، ويؤهّلهم لأن يكونوا ذوي أهميّة خاصة عند الإغريق، حتى أصبح يُنظر إلى (**إسبارطة**) منذ نهاية القرن السابع حتى نهاية القرن الرابع ق.م، باستثناء فترات قليلة، على أنّها أقوى المدن الإغريقية، ولا سيما بعد استيلائها على إقليم (**ميسينية**) وسيطرتها على مساحات شاسعة من الأرض عكس غيرها من المدن الأخرى.

ثانيًا: طبقات المجتمع الإسبرطي

لم يكن المجتمع الإسبرطي مجتمعًا غير طبقي، بل كان ينقسم إلى طبقات عدّة يمكن الحديث عنها وفق التقسيم التالي:

1. طبقة المواطنين الإسبرطيين SPARTIATES:

وهي الطبقة الحاكمة من (**الدوريين**)، أي، الإسبرطيون الحقيقيون الذين يسكنون في مدينة إسبرطة. وكانت هذه الطبقة تشكّل أقليّة عدديّة بالنسبة للطبقتين الأخريين، إذ لم يتجاوز عدد أفرادها اثنين وثلاثون ألفًا (32000) ويتمتّعون بكثير من الامتيازات، ولكنّهم يكرّسون كلّ وقتهم للتدريب العسكري. وكانت الدولة ترعى شؤونهم المادية والأسرية، وذلك عن طريق إعطاء كلّ مواطن إسبرطي مساحة كبيرة من الأراضي الصالحة للزراعة، سميت هذه الأراضي (**بالأراضي الأميرية**) التي تقع حول مدينة إسبرطة مباشرة، والحصة في هذه الأراضي لا يجوز تقسيمها أو بيعها، فهي في الحقيقة ليست ملكاً خاصاً، وإنما كانت ملكاً للدولة تعطيها لرئيس الأسرة ليعيش من محصولها هو وزوجته وأولاده، وفي حال وفاة رب الأسرة دون أن يكون له ابن يرثه تعود الأرض للدولة.

ولأجل أن يتفرّغ المواطن الإسبرطي لأعمال التدريب العسكريّة، فقد وزّعت الدولة على كلٍ منهم عدداً من العبيد **HELOTAI** للعمل في الأراضي الزراعية. وكان على هؤلاء أن يعطوا المواطن الإسبرطي الذين يعملون في أرضه نصف العائد من هذه الأرض، كما كان عليهم أن يقوموا على خدمته المنزلية، سواء في أوقات السلم أو في الحرب. وهذا القسم من العائد الذي يقدّمه العبيد لسيدهم الإسبرطي، كان جزء منه يذهب لتغطية نفقات المعيشة بالنسبة لأسرته، والجزء الآخر لتغطية نفقات عضويته في النادي الذي ينتمي إليه

(كما سنرى لاحقاً). ولهذا السبب كان ممنوعاً على جميع المواطنين الإسبرطيين العمل في الأعمال الاقتصادية: كالصناعة والتجارة، حتى في أراضيهم الزراعية؛ لأجل التفرغ للأعمال العسكرية. ومما هو جدير بالذكر أن إسبرطة، في ظلّ هذا النّظام الإقطاعي، كانت بحاجة ماسّة إلى مزيد من الأراضي الزراعية؛ ولذلك كانت تحاول دائماً أن تجد مخرجاً لهذه الأزمة، بالتوسع على حساب جيرانها؛ مثلما حدث عندما غزت (**ميسينية**) إلى الغرب منها، واستولت على أراضيها وأنزلت أهلها إلى مرتبة العبودية كما ذكرنا سابقاً.

2. طبقة البريكوي PERIOEKOI:

تُعدّ هذه الطبقة هي الوسطى في المجتمع الإسبرطي، ويقدّر عددها بمئة وعشرين ألفاً (120.000)، وأفراد هذه الطبقة كانوا في نظر الشرع أحراراً، وإن لم يعدّوا مواطنين، ولكن حالتهم ما لبثت أن صارت أقرب إلى حال الأرقاء منها إلى حال الأحرار. وكانوا يعملون في الأعمال الاقتصادية، ويدفعون الضرائب، ويقومون بالخدمة العسكرية في الجيش الإسبرطي في صفوف المشاة ذوي العتاد الثقيل، ممن كانوا يُعرفون في الجيوش الإغريقية باسم **الهوبليت HOPLITES**. ولكن هذه الطبقة لا تتمتّع بأيّ حقّ من الحقوق السياسية، ولا يجوز لهم التزاوج مع أفراد الطبقة الحاكمة، وكانت تسكن الأراضي الزراعية التي تؤلف حاجزاً يحمي (**إسبرطة**) من أي غزو، ولذلك أطلق على هذه الأراضي اسم (**الأراضي المحيطة أو الدائرة**) وكانت الملكية في هذه الأراضي فردية (**خاصة**) يمكن تقسيمها وانتقالها.. وثمة وضع معيّن أفادت منه هذه الطبقة، وهو أنّه كان محظوراً على أفراد الطبقة الأولى ممارسة أي نشاط آخر إلا الخدمة العسكرية والاستعداد للحرب، فاحتكرت هذه الطبقة مثل هذا الوضع، ومارست العمل بكل حرية في الأعمال الاقتصادية وأحرزت ثراءً عظيماً جراء ذلك.

3. طبقة المستعبدين HELOTS:

وهي طبقة (**الهبلوتس**) أي الأقنان الذين يبلغ عددهم 224 ألفاً، وتأتي هذه الطبقة في نهاية السلم الطبقي للمجتمع الإسبرطي. ويقول المؤرخ (**سترابون**) أن كلمة (**هيلوت**) مشتقة من (**هيلوس**) وهو اسم أول مدينة فرض الإسبرطيون على أهلها العبودية. لذلك فإنّ مصدر هذه الطبقة هم السكان الأصليون الذين خضعوا للدوريين، أي كلّ من خضع لهم تحت الاحتلال،

ولا سيما بعد أن سقطت (**ميسينية**) والهبوط بأغلب سكانها إلى مرتبة الرقيق بعد أن فقدوا حريتهم الشخصية، وقامت الدولة بتوزيعهم على المواطنين الإسبرطيين من الطبقة الأولى للعمل في إقطاعاتهم الزراعية، والقيام بالخدمات المنزليّة مقابل نصف المحصول. فلذلك كانوا (**أرقاء دولة**) أي ملكاً للدولة لا للأفراد، وهذا مما يبتعد بوضعهم قليلاً عن صفة العبيد بالمعنى الكامل لهذه الكلمة. وكان أفراد هذه الطبقة يشكّلون أغلبيّة ساحقة في إسبرطة، وزاد عددهم زيادة كبيرة عقب إخضاع (**ميسينية**) في أواخر القرن الثامن ق.م. وفي هذه الحالة، أصبح خطر الثورة من جانبهم قائماً وبالغ الخطورة على إسبرطة الذي يُعد مثل هذا الأمر بالنسبة لها أكبر من طاقتها. ولهذا كان على الإسبرطيين القليلي العدد، كما يقول أرسطو، «.. **أن يكونوا على أهبة الاستعداد دائماً، لأن الهيلوتس أعداء لهم يتربصون بهم الدوائر.. ويحكى أنهم على عهد ملوكهم الأوائل كانوا يشركون الأجانب بالجنسية، كي لا يبتلوا بقلة السكان، ويضيف البعض إن الإسبرطيين كانوا يعدوّن إذ ذاك عشرة آلاف مواطن، وكان شرعهم يعفي من الخفارة من يلد ثلاثة أبناء، ويحل من كل ضريبة من يُنجب أربعة أبناء**»[1].

وكانت معاملة الإسبرطيين لهذا النّوع من الرقيق تتسم في الغالب بالقسوة، رغم العقود التي كانوا يبرمونها معهم عند استسلامهم للرق[2]. إضافة إلى أن قوانين إسبرطة لم تكن تضمن لهم أية حماية، وتسمح للشبّان الإسبرطيين أن يقتلوا (**الهيلوتس**) دونما أي سبب لأجل التدريب على القتال من جهة، وحتى لا يتكاثر عددهم فيصبحوا خطراً على الدولة من جهة أخرى. لذلك وضعتهم الدولة تحت رقابة صارمة، وأنشئ لأجل هذا الغرض نظامٌ عُرف باسم **كريبيتيا KRYPTEIA** وهو يشبه إلى حد ما نظام الشرطة السرية. وهذا يفسّر لنا كون إسبرطة في حالة استنفار دائم حتى تواجه أعداءها في الداخل والخارج معاً. ولذلك كانت الدولة أشبه بمعسكر ضخم متأهب دائماً للقتال، فأخضعت كل النّظم التربوية والاجتماعية والاقتصادية لمقتضيات الحرب[3].

وأيًّا كان الأمر، فإنّ ثمّة مفارقة أخرى نلحظها في المجتمع الإسبرطي، وهي أنّ السلّم

[1]- انظر: **أرسطو**: السياسة، ترجمة: أوغسطينس بربارة البوليسي، لا ط، بيروت، إصدار اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (الأونيسكو)، 1957، 2، 6، -12 13، 1270 ب.

[2]- انظر: **إمام، عبد الفتاح إمام**: أفلاطون والمرأة، لا ط، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1966، ص44.

[3]- انظر: م.ن.

الطبقي فيها قد بني على أسس سياسية في بناء المجتمع، لا على أسس اقتصادية لامتلاك الثروات مثل باقي المجتمعات القديمة.

ثالثًا: ليكورجوس والتشريعات الإسبرطية

لقد ذكرنا سابقاً، أن الاستيلاء على منطقة (**ميسينية**) والهبوط بسكانها إلى منزلة العبودية، ترتّب عنه أن المواطنين الإسبرطيين أصبحوا أقلية شديدة في بلدهم، ولا سيما أن ثورة (**ميسينية**) التي قامت في عام 640 ق.م كانت أمراً بالغ الخطورة بالنسبة لإسبرطة، ولم تستطع إسبرطة القضاء على هذه الثورة إلا بعد سنوات عديدة ومضنية، فلذلك وجد الإسبرطيون أنفسهم بأنهم بحاجة ماسة لنظام سياسي واجتماعي يمكنهم من المحافظة على تماسكهم وسيطرتهم في الحكم وسط هذه الأغلبية الساحقة من (**البريكوي**) و(**الهيلوتس**)، ووجدوا في المشرّع (**ليكورجوس LYCURGUS**) ملاذهم الأخير، لأن يسن لهم قانوناً يضمن سيطرتهم على الحكم، ويؤمن تماسكهم ورباطة جأشهم تجاه مثل هذا الوضع الخطير.

وإزاء الأخبار التي تتضارب في الفترة التي عاش فيها ليكورجوس تتراوح بين (900 - 600 ق.م) إلا أنّ الأقرب إلى الصّحة، كما يبدو في رأينا، أنّ ليكورجوس عاش في القرن السابع ق.م بسبب التغييرات الهائلة التي حدثت في الحياة الإسبرطية في هذه الفترة، والتي لا بدّ أن تكون قوانين (**ليكورجوس**) هي السبب الأساسي في مثل هذه التغييرات، التي أدّت فجأة إلى اختفاء كلّ مظاهر اللّطف والجاذبيّة من الحياة الإسبرطيّة، التي بدأت تلوح في مظاهرها الثكنات العسكرية وقرع طبول الحرب والاستعداد الدائم للقتال. ومما يؤكّد وجهة نظرنا، هو أنّ احتلال (**ميسينية**) واستعباد سكّانها الذي كان سببًا رئيسيًّا لظهور مثل هذا النّظام العسكري الإسبرطي حدث في القرن السابع ق.م، والثورة الميسينيّة التي وقعت بنتيجة هذا الاحتلال وعجّلت من قيام الثورة كانت أيضًا في القرن السابع ق.م.

ويذكر هيرودوت على لسان الإسبرطيين أنفسهم؛ حيث أكّدوا له: «أن ليكورجوس قد أتى بتلك القوانين، يوم كان وصيًّا على ابن أخيه خاريلاوس ملك إسبرطة من جزيرة كريت، وآيتهم في ذلك أن ليكورجوس عمد بعد توليته إلى سن قوانين ووضع أعراف جديدة بدلاً

من القديمة، ثم حرص على أن يتّبعها الرعايا جميعهم سواء بسواء تحت مراقبته الدقيقة»[1]. ويذكر أيضًا المؤرّخون الإغريق، أن ليكورجوس عندما زار جزيرة كريت أبدى إعجابه بقوانينها ومؤسّساتها وقرّر أن يقتبس بعضها وينقله إلى إسبرطة. وقد قبل الملوك والقسم الأعظم من النبلاء قوانين ليكورجوس لإدراكهم بأنّه لا غنى عنها في سبيل مصلحتهم وسلامتهم هم أنفسهم؛ إذ إنّ تلك القوانين ضمنت للبلاد القوّة العسكرية والعظمة والسيادة.

وهناك من الفلاسفة والمؤرخين من ينسبون قوانين إسبرطة إلى الآلهة، إذ يعتقد أفلاطون أن قوانين إسبرطة التي سنّها (**ليكورجوس**) جاءت وحيًا من أبوللون[2]. أما هيرودوت نفسه فيقول: «إن ليكورجوس زار ذات مرّة معبد دلفي طلبًا لنبوءة العرافة.. وقد ذكر البعض أنّ الكاهنة أعطت ليكورجوس بعد تلك النبوءة، كلّ ما يلزم الإسبرطيين من الشرائع والقوانين»[3]. ويعود السبب الحقيقي، في أن ينسب الإغريق القدماء قوانينهم إلى الآلهة، من أنّ المشرّعين في تلك العصور كانوا يشعرون أن أحسن طريقة لإلغاء بعض العادات والتقاليد القديمة وفرض قواعد جديدة، هي أن ينسبوا القوانين التي يؤيدونها إلى الآلهة. ومن هنا فإنّ هذه القوانين ظلّت أربعة قرون بلا تغيير، وكان هذا الاستقرار الطويل نفسه موضع إعجاب أفلاطون ومعاصريه من ذوي النزعة المحافظة.

ويهدف الشقّ الاجتماعي في نظام ليكورجوس التشريعي، إلى تنشئة الإسبرطيين تنشئة جماعيّة خشنة تجعل من المجتمع الإسبرطي مجتمعًا عسكريًّا في المقام الأوّل، بحيث يشكّل الإسبرطيون جيشًا قائمًا مستعدًّا للقتال في أي لحظة، وعلى وجه التحديد، مستعدًا لقمع أي تمرد يقوم به (**البريكوي**) و(**الهيلوتس**)، إذ يؤكّد هيرودوت على مثل هذا الأمر بقوله: «إنّ ليكورجوس عمد إلى تنظيم قدرات الدولة لخوض الحرب وكل ما يتصل بها، فأنشأ نظام الفيالق ونظمها في فرق ميدانية وأفواج وكتائب، ثم أقام مجلسين أحدهما للشيوخ، والآخر للعامة، وهكذا تحوّل الإسبرطيون إلى شعب منضبط حسن التنظيم. وكل ذلك على عكس المدن الإغريقية الأخرى التي تعتمد في قوتها العسكرية على التعبئات

[1]- انظر: **هيرودوت**: التاريخ، ترجمة: عبد الإله الملاح، لا ط، أبو ظبي، إصدار دار الثقافة، 2001، الكتاب الأول، ص 45.

[2]- انظر: **أفلاطون**: الترجمة الروسية، يغونوف آ. ن في كتاب أفلاطون في ثلاثة مجلدات، المجلد الثالث، الجزء الثاني، موسكو 1972. القوانين 635 - 696 آ.

[3]- انظر: **هيرودوت**، التاريخ، م.س، الكتاب الأول، ص 45.

المؤقتة من بين المدنيين حين تدعو إلى هذه التعبئات ظروف الدفاع أو الهجوم»[1].

نستنتج من كل ذلك، أن ليكورجوس بنى نظريته الأساسية في القوّة العسكريّة على أن حماية الدولة لا تكون بإقامة أسوار عالية حولها، بل بإعداد سور من الرجال الأشداء وتدريب المواطنين تدريبًا عسكريًّا، يصبحون بموجبه آلات حربيّة ممتازة، يتّصفون بقوّة الأجسام والمهارة في استعمال السلاح، ويتفانون في الإخلاص للدولة والدفاع عن الوطن، ويحافظون على شرف الجندية ويتمسكون بالنظام ويطيعون القانون. ومن هنا كانت (**إسبرطة**)، وعلى الرغم من عدم مناعتها الطبيعية، ظلت على نقيض المدن الإغريقية الأخرى بغير أسوار أو تحصينات دفاعية حتى عام 200 ق.م.

ومن المفارقات الأخرى في نظام (**ليكورجوس**) أنّه منع المواطنين الإسبرطيين من الاتّصال بالخارج دون موافقة الحكومة، ومنع استيراد الأفكار والعلوم مهما كلّفهم ذلك من ثمن باهظ. ولهذا نرى أنّ (**إسبرطة**) لم تنجب مفكرًا ولا عالماً ولا فيلسوفًا، مثل ما أنجبته أثينة وما قدمته من تراث اعتبر أحد أروع التراث الإنساني العالمي، كما منع هذا النظام المواطنين من العمل في الأعمال الاقتصادية خشية نشوء طبقة من التجار الأغنياء قد تطمع في انتزاع السلطة كما حدث في (**كورنثة**) و(**أرجوس**) و(**ميجارة**) ولم يسمح باستيراد الفضة والذهب.. وظلّت العملة النقدية في (**إسبرطة**) عملة حديدية قديمة سيئة الشكل، محدودة المكان. على عكس (**أثينة**) التي كانت عملتها متداولة ومقبولة في كل مكان. فضلاً عن ذلك أنها كانت تتبنى نظام مصرفي أهلّها إلى الانفتاح على العالم الآخر. وبشكل موجز وبسيط يمكن القول إنّ (**ليكورجوس**) توخّى من وراء نظامه التشريعي أن لا ينصرف المواطنون الإسبرطيون إلى أي عمل غير الحرب وإدارة الحكومة.

أما الشقّ السياسي في نظام **ليكورجوس** التشريعي أثار الدهشة ووضع الكتّاب الإغريق في حيرة من أمرهم، حيث استطاع هذا النظام الجمع بين أشكال الحكم الثلاثة أي: **الملكية، والأوليجاركية (حكم الأقلية)، والديموقراطية**، بصورة متناسبة، ولم يترك مجالاً لتغلب أحد العناصر على الآخرين، ولم يترك مجالاً لهؤلاء الكتّاب فيما يسمونه هذا النظام **ملكياً أم أوليجاركياً أم ديمقراطياً**. لقد كان بالفعل هذا النظام برأيهم نظاماً وصل إليه الإسبرطيون دون

[1]-انظر: **هيرودوت**، التاريخ، م.س، الكتاب الأول، ص45.

إلغاء أي نظام قديم (**كالنظام الملكي**) ودون التوسّع في شيء جديد إلى نتيجته المنطقية. حقاً كانت (**إسبرطة**) مدينة المتناقضات العجيبة، التي لا يسهل للعقل الحديث إدراكها، وأبرز هذه المتناقضات التي تثير الاستغراب أكثر من كلّ شيء، أن هذه المدينة التي ثبت خواؤها بشكل بارز بين المدن الإغريقية في الشؤون العقلية والعلمية، كانت تأسر دائماً لب فلاسفة الإغريق. وهذا ما سنلاحظه من خلال دراستنا للنظام السياسي في دستور (**ليكورجوس**).

رابعًا: النظام السياسي

لقد ذكرنا سابقًا، أن دستور ليكورجوس أثار دهشة الكتّاب الإغريق المتأخرين من أمرهم، من حيث أنّ هذا الدستور استطاع الجمع بين ثلاثة من أشكال الحكم **الملكي، والأوليجاركي، والديمقراطي**، من دون إلغاء لأيّ شكل حكم من هذه الأشكال الثلاثة، ودون التوسّع في شيء جديد إلى نتيجته المنطقية على الرغم من كلّ التطوّرات السياسية التي حصلت في بقية المدن الإغريقية.

وقد تجسّدت هذه الأشكال السياسية الثلاثة من الدستور الإسبرطي في أربع دعائم سياسية تتمثّل في هيكليّة النّظام السياسي لإسبرطة، وهذه الدعائم هي: **الملكان ويأتيان على رأس الجهاز الدستوري، ومجلس الشيوخ، ومجلس العامة، والمراقبون الخمسة.** ومن هنا يجدر بنا الحديث عن أهميّة كل من هذه الدعائم السياسية الأربعة ودورها، وكيف استقطبت هذه الدعائم الأشكال السياسية الثلاثة من الحكم في الدستور الإسبرطي وفي الحياة السياسية العامة في إسبرطة.

1. الملكان:

كانت الملكيّة في إسبرطة غريبة من نوعها، فقد كان هناك ملكان ينافس أحدهما الآخر، ويبدو أنّ أصل هذه الملكيّة المزدوجة يرجع إلى وجود قبيلتين رئيسيتين قامت مدينة إسبرطة نتيجة لاتّحادهما، وهما قبيلة (آجيداي **AGEDAE**) وقبيلة (يوروبونتيداي **EURYPONTI-DAE**)، وإنّ شرط اتّفاق هاتين القبيلتين على الاتّحاد هو أن يكون على رأس المدينة ملك من كلٍّ منهما. وقد كانت النتيجة المنطقيّة لهذا الازدواج هي أن السّلطة لم تكن مركّزة في يد ملك واحد، وإنّما كانت موزّعة بين الملكين اللذين يرجع نسبهما إلى هيراكليس. ولا

يمكن لأحد الملكين أن يباشر حقوقه إلا مع الآخر، كما لا يعدّ ملكًا إلا معه. ويقول أرسطو: «لقد حافظ الإسبرطيون على هذا النّظام لمعرفتهم بأنّ التّنافس الدائم بين الملكين يضعفهما ويمنعهما من الاستئثار بالسّلطة، ويرون أنّ سلامة الدولة تكمن في نزاع ملوكهم»[1].

وكانت السلطات التنفيذية للملكين واسعة جداً في بادئ الأمر؛ إذ تتركّز في أيديهما السلطة المطلقة في كلّ شيء، وكأنّهما صاحبا حقّ إلهيّ في العرش، وكأنّ الآلهة هي التي تساندهم، وكبير الآلهة هو الذي يمنحهما صولجان الملك.

إلّا أنّه منذ نهاية القرن السابع ق.م، بدأت تتقلص سلطة الملكين إلى حد كبير؛ لأنّ النّظام الأرستقراطي المتحالف مع النظام الأوليجاركي، أخذ يسعى بكلّ ثقله ليستأثر بقسط كبير من النفوذ ويعمل على تجريد الملكية من سلطاتها بسبب عاملين اثنين[2]:

العامل الأوّل: هو أنّ الصّفة الغريبة التي لازمت النظام الملكي في إسبرطة جعلتها مختلفة عن غيرها من المدن الإغريقية من البداية، ونعني بهذه الصفة وجود ملكين على رأس الدولة بدلاً من ملك واحد.

العامل الثاني: تقليص السلطة الملكية في إسبرطة بفعل التطور الطبيعي الذي رأيناه في بلاد الإغريق عامة، والذي شهد ازدياد قوّة الطبقات الأرستقراطية والأوليجاركية التي زحفت بالتدريج على سلطات الملك أو صلاحياته.

وبعد قرن من الزمان في نهاية القرن السادس ق.م، ازداد ضعف الملكية أمام الطبقة الأرستقراطية وانتزعت منها السلطة التنفيذية، أي جميع الصلاحيات **العسكرية، والقضائية، والسياسية**، ولم يبقَ للملكين إلا السلطة الدينيّة (**الكهنوتية**) فقط، بحيث لم يعد في أيديهما إلا الفصل في عدد من القضايا البسيطة مثل حالات التبنّي وزواج الوريثة التي مات والدها قبل أن يزوجها. ويشرح لنا المؤرّخ كسنوفون وظائفهم بعد هذه الضربة الموجعة بقوله: «يقوم الملوك بالقرابين العامة، ولهم خير نصيب في الأضاحي، وإذا كانوا لا يقضون في المسائل المدنية والجنائية، فإنه كان يُحتفظ لهم على الأقل في بعض القضايا التي تتصل

---

[1]- انظر: **أرسطو**، السياسة، م.س، 2، 6، 20، 1271 آ.

[2]- TOYNBEE; A. J. SOME PRABLEMS OF GREEK HISTORY 1969.P 152.

بالدين. ففي حالة الحرب يسير أحد الملكين دائماً على رأس الجيوش ويقدم القرابين في كل يوم، ويستشير الآيات المنبئة، وعلى مشهد من العدو ينحر الأضاحي، وعندما تكون الآيات موافقة يعطي إشارة المعركة، وعند القتال يحيط به المتكهنون الذين يبينون إرادة الآلهة. ويقول الإسبرطيون، إن الملك هو صاحب الأمر لأن في يديه الديانة والاستخارات، لكن المراقبون وقادة الجيش هم الذين يديرون كل حركات الجيش»[1].

وهذا ما يدفعنا إلى القول: إنّ الملكية في إسبرطة أصبحت قبل كلّ شيء سلطة كهنوتيّة لا غير، وإن الثورة نفسها التي قضت على سلطة الملك السياسية في جميع المدن الإغريقية قضت عليها في إسبرطة أيضًا. وبكلّ الأحوال، فإنّ السّلطة الحقيقيّة في إسبرطة، على الرغم من أنّ النّظام الملكي ما زال قائمًا، كانت في يد مجلس الشيوخ الذي يديرها والمراقبون الخمسة. لذا نرى أرسطو يقول في موضع حديثه عن الانقلابات السياسية: «أن السياسة في إسبرطة تحولت إلى حكم الأقلية الأرستقراطية»[2].

2. مجلس الشيوخ (GEROUSIA)

ويتجلّى العنصر الأرستقراطي في مجلس الشيوخ الذي منحه الدستور أعلى السلطات، فقد كان يتكوّن من ثلاثين عضواً من بينهم الملكان بحكم منصبهما، وفيما عدا الملكين فقد كان سن الأعضاء الثمانية والعشرين يجب أن يكون فوق الستين عاماً وأن يمتازوا بالفضيلة، وكان الأعضاء يُنتخبون من قبل الجمعية العامة لمدى الحياة.. وقد انتقد أرسطو هذه الطريقة بقوله: «.. لأنّه على الرغم من فضيلتهم ورزانتهم وتربيتهم التربية الوافية، إلا أن إشرافهم مدى العمر على المحاكمات المهمّة قابل للجدل والانتقاد؛ لأنّ الفكر يشيخ كما يشيخ الجسد.. ومما لا يحمل الثقة أيضاً كونهم ينشؤون تنشئة تجعل المشترع نفسه يرتاب في أمرهم ارتيابه بأناس غير منصفين»[3].

وكانت طريقة انتخاب مجلس الشيوخ كما يصفها **بلوتارخوس**، من أغرب الطرائق، فعندما يشغر مكان في المجلس بموت أحد الأعضاء يُطلب إلى المرشحين أن يمروا

---

[1]- انظر: **كسنوفون**، دستور الإسبرطيين، م.س، ص13-15.

[2]- انظر: **أرسطو**، السياسة، م.س، 5، 10، 2، 1270 ب.

[3]- انظر: م.ن، 2، 6، 17، 1270 ب.

صامتين الواحد بعد الآخر أمام الجمعية العامة، وكان أنصار كل مرشح يصفقون له ويحييونه بأصوات عالية، ويُعدّ ناجحاً المرشح الذي يصفق له أكثر من غيره[1]. وبما أنّ تقدير ذلك يعود إلى لجنة من كبار الموظفين تستمع إلى أصوات التصفيق والهتافات في بناء مجاور دون أن ترى شيئاً، فإنّه لم يكن يُنتخب بالفعل لمجلس الشيوخ إلا رؤساء الأسرات النبيلة القوية، على الرغم من أنّه يحقّ نظرياً لكلّ مواطن إسبرطي بلغ الستين ويملك أرضاً في لاكونية وقام بالخدمة العسكرية أن يرشح نفسه.

كان مجلس الشيوخ ينظر بالدرجة الأولى في شؤون السياسة الخارجية، كما يهيئ المشاريع التي تُعرض على الجمعية العامة.. وفي الأدوار المتأخّرة أصبح يحقّ له أن يعترض على مقرّرات الجمعية العامة ويفسخها.. ومجلس الشيوخ هو الذي ينظر في الحوادث المهمّة والقضائيّة الجنائيّة والجرائم التي تتعلّق بسلامة الدولة ويحكم بالإعدام وتُعد أحكامه قطعية.

وبالإجمال فقد كان لهذا المجلس سلطة واسعة وتأثير كبير في إدارة الحكومة.. ويقول الخطيب الإغريقي الشهير **ديموسيثنيس**: «**إنه في اليوم الذي يدخل فيه رجل إلى مجلس الشيوخ يصبح مستبداً في نظر الجمهور**»[2]. وكان من الطبيعي أن تكون سياسة هؤلاء الشيوخ الطاعنين في السن محافظة، بل رجعيّة.

3. الجمعيّة العامّة (APELLA)

ويتجلّى العنصر الديمقراطي الضعيف في دستور إسبرطة في الجمعية العامة التي هي أقرب إلى مجلس الشعب، وتتألّف من جميع الإسبرطيين الذين بلغوا الثلاثين من العمر واجتازوا مراحل التدريب التي يفرضها القانون، وكانت تجتمع في منتصف كلّ شهر قمري بدعوة من المراقبين الخمسة القائمين على إدارة الحكومة، فتعرض عليها جميع الأمور المتعلّقة بالحياة العامة والقوانين والأنظمة الجديدة لتصوّت عليها فتقرها أو ترفضها ولكن دون أي مناقشة.. والجمعيّة العامّة هي التي تنتخب جميع الموظفين وأعضاء مجلس الشيوخ والمراقبين الخمسة. ولكن هذا من الوجهة النّظرية فقط؛ لأنّ طريقة الانتخاب لا تترك لها مجالاً للانتقاء

[1]- انظر: **بلوتارخوس**، سيرة الرجال العظام، ف 26، وينعت أرسطو هذه الطريقة في الانتخاب بأنها صبيانية وغير لائقة. انظر: أرسطو، السياسة، م.س، 2، 6، 18، 1270 ب.

[2]- انظر: ديموسيثنيس ضد ليبتس، الترجمة الروسية، ديموسيثنيس، أحاديث، رادتسيغ س . ي، موسكو، 1954، ص107.

وتسلبها حقّ الاختيار، كما أنّ قراراتها لا تصبح نافذة إلا بعد موافقة الشيوخ والمراقبين عليها وإعلانها رسمياً. وهكذا فقد كانت سلطة الجمعية التي تمثّل الشّعب الإسبرطي اسميّة ليس لها من شأن كبير في توجيه السياسة. وعلى الرغم من أن الجمعيّة العامّة كانت في الواقع تحت وصاية الشيوخ والحكام، فإنّ النبلاء الذين كانوا يرتابون في أمرها قاموا فيما بعد يسعون إلى التّخلّص منها، فأسّسوا لجنة تشريعيّة تسمّى (**الجمعيّة الصغرى**) تضمّ غير الملكين والشيوخ والمراقبين أبرز الشخصيات في الدولة من أصحاب الحلّ والربط، وتعقد اجتماعاتها بصورة سريّة فتبحث في جميع المسائل المهمّة وتقرّر ما تريد بشأنها.

وهناك أمر ينبغي أن ندخله في حسابنا قبل أن نطلق صفة الديمقراطية بشكل مطلق على هذا المجلس، هو الحق الذي كان يتمتّع به أعضاء الهيئة التنفيذية وأعضاء مجلس الشيوخ، وقد كانوا يحضرون جلسات الجمعية العامة، وكان لهم (**حق الانسحاب**) من الجلسة إذا رأوا أنّ القرار الذي توصّل إليه أعضاء الجمعية العامة قرار منحرف، وقد كان هذا الانسحاب من الجلسة يعطّل إصدار القرار الذي توصّل إليه المجلس (**حق الفيتو**)؛ إذ إنّ قرار المجلس كان لا يُعدّ نافذاً إذا تم هذا الانسحاب قبل أن يعلّق منظّمو الجلسة انفضاضها بشكل رسمي، وهكذا كان (**حق الانسحاب**) المذكور يشكل في الحقيقة ضغطاً على الممارسة الديمقراطية الكاملة لأعضاء الجمعية العامة[1]، التي لم تكن سوى سمة شكليّة لإضفاء العنصر الديمقراطي على الدستور الإسبرطي.

4. المراقبون الخمسة

تتميّز إسبرطة عن غيرها من النّظم السياسيّة في دويلات المدن الإغريقية الأخرى بوجود نظام (**المراقبون الخمسة**)[2]. ويبدو من المرجّح أنّ هذا العدد كان مرتبطاً بعدد القرى الخمس التي قامت إسبرطة نتيجة لاتّحادها أو توحيدها.

وقد أُحدث مثل هذا النظام ـ**كما رأينا سابقاً**ـ نتيجة الصراع بين الأرستقراطية والملكية،

[1]- انظر: **عبد الوهاب لطفي يحيى**، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، لا ط، بيروت، 1979، ص144.

[2]- لم يرد ذكر لهذه الوظيفة في دستور (**ليكورجوس**)، ربما لأنها لم تكن في بادئ الأمر تلعب دوراً خطيراً، على أن المراقبين الخمسة عظم شأنهم مع مرور الزمن، حتى أصبحوا في منتصف القرن السادس ق.م يضاهون الملوك في السلطة. ثم توصلوا بعد الحرب الفارسية - الإغريقية، أي في القرنين الخامس والرابع ق.م إلى الانفراد بالسلطة العليا.

والذي أدّى إلى تقليص سلطة الملوك التنفيذية وانتقالها تدريجياً منذ نهاية القرن السابع ق.م إلى هؤلاء المراقبين الذين أطلق عليهم لقب (**EPHORES**)[1]. ولكن اعتباراً من القرن السادس ق.م استولوا على كلّ السّلطات التنفيذيّة التي كان يتمتّع بها الملوك سابقاً الذين لم يترك لهم سوى السلطة الكهنوتية. وأصبح المراقبون الخمسة يمثّلون أعلى السلطات التنفيذية في الدولة، وليست هناك أيّ سلطة تعلو على سلطتهم حتى سلطة الملوك أنفسهم، باستثناء فيما يتعلق بالمسائل الدينية فقط[2]، إذ تمثّلت وظيفتهم الأساسيّة في جميع المسائل المدنية كالنظر في المعاهدات التجارية، واستقبال السفراء والوفود الأجنبية، والفصل في جميع الوسائل المتعلقة بالحقوق العائلية والملكية والإرث والزواج، وتصنيف المواطنين حسب أوضاعهم الحقوقيّة وسلوكهم الأخلاقي[3]. أمّا المسائل السياسية التي يقضون فيها فكانت على جانب كبير من الأهمية، كإقرار الحرب والسلم والرقابة على تصرفات الملوك؛ إذ كان اثنان منهم يرافقان ويراقبان الملك في الحملات العسكرية، وهما اللذان كانا يحددان خطط الحملة ويديران جميع العمليات، وتوجيه الاتّهام إلى أي ملك، واستدعاؤه للمثول أمامهم إذا بدا في تصرفاته ما يبرّر ذلك. كذلك كانوا مسؤولين عن المحافظة على النظام العام والتطبيق الصارم للقانون في الدولة، ويشرفون على حفظ النظام الاجتماعي وتدريب الشبّان على حمل السلاح والاستعداد للحرب، ومن اختصاصهم إدارة شؤون طبقة (**البريكوي**) وتعيين الشرطة السرية (**KRYPTTEIA**) لمراقبة (**الهيلوتس**)[4].

وكان المراقبون يُنتخبون سنوياً من قبل الجمعية العامة، وطريقة انتخابهم هي نفسها طريقة انتخاب مجلس الشيوخ[5]. ولكن في الواقع مجلس الشيوخ هو الذي يختار المراقبين الذين لم يكونوا هم أنفسهم من أفراد طبقة النبلاء؛ إذ كانوا يُنتخبون من عامة الشعب ويصفهم أرسطو: «أنّهم مع كونهم من السوقة يشرفون على المحاكمات الكبرى، ولذلك

[1]- ومعنى الكلمة، الحارس، الرقيب، الملاحظ.

[2]- انظر: **فوستيل دي كولانج**: المدينة العتيقة، ترجمة: عباس بيومي، لا ط، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1950، ص336.

[3]- انظر: أرسطو، السياسة، م.س، 3، 1، 7، 1275 ب.

[4]- حول أهمية السلطات التنفيذية التي كانت بيد المراقبون الخمسة انظر: كسنوفون، دستور الإسبرطيين 8، 11، 15 ثم الهيللينيات 2، 4، 36 حيث كان للمراقبين رئاسة الجمعيّة العامة. انظر: توكوديدس 1، 87 وكانوا يقررون تجنيد الشعب في الجيش، وكان من حقهم محاكمة الملوك وسجنهم والحكم عليهم بالغرامة، انظر: هيرودوت 6، 82، 85؛ بلوتارخوس، أجيلاوس، 10، 17، 23، 28.

[5]- انظر: أرسطو، السياسة 2، 6، 16، 1270 ب.

فمن الأفضل أن لا يستقلوا برأيهم في القضاء، بل أنْ يتقيّدوا بالسنن والشرائع»[1]. ويباشر المراقبون وظائفهم في مبدأ السنة عند الإسبرطيين، أي في منتصف الشهر القمري الذي يعقب الاعتدال الخريفي، وأوّل عمل يقومون به هو إصدار بيان إلى المواطنين يدعونهم (**إلى حلق شواربهم وإطاعة القانون**)[2]. ومما هو جدير بالملاحظة، أنّه على الرغم من أنّ هؤلاء المراقبين كانوا يُنتخبون من عامة الشعب كما يقول أرسطو، إلا أنّ معيشتهم كانت تختلف كلياً عن معيشة بقية السكان، وبعيدة عن أجواء إسبرطة الخشنة ويقول أرسطو في هذا الصدد: «إن عيش الرقباء (المراقبون) لا يجاري مشيئة الدولة؛ لأنّه مسترسل في الرخاء، وأما عيش الآخرين فهو متناه في الشظف»[3].

وهكذا نرى أنّ السلطات التنفيذية قد انتزعت نهائياً من يد الملوك نتيجة انتصار الطبقة الأرستقراطية، ولم يبق لهم سوى السلطة الكهنوتية، وبقيت مشيئتهم السياسية خاضعة لمجلس الشيوخ وإلى سلطة المراقبين التنفيذية.

خامسًا: النّظام الاجتماعي الإسبرطي

كان الهدف من دستور إسبرطة هو المثل الأعلى للقوّة والشجاعة، ولذلك كان الإسبرطيون يفرضون على كلّ فرد نظاماً صارماً ودقيقاً منذ الولادة.

1. الأولاد:

فهم لم يقتصروا على السماح للوالد بقتل أطفاله المشوّهين، بل كانوا يحتّمون على كل مواطن أن يعرِض مولوده الجديد أمام لجنة من المراقبين، فإذا تبيّن ضعفه أو وجدت فيه نقصاً كان يُقذف به من ذروة الجبل ليموت جوعاً أو قتلاً، أما إذا كان سليماً أعيد إلى بيت أهله ليقضي السنوات السبع الأولى ثم تتولى الدولة تربيته، وفي سن السابعة يُفصل الصبي عن أسرته ويربى من قبل الدولة. ويمتدح أرسطو مثل هذه الطريقة الإسبرطية في التربية الجماعية من قبل الدولة؛ لأنّها تربية عامة، ويدعو إلى سن الشرائع والقوانين من أجل جعل

---

[1]- انظر: أرسطو، السياسة 2، 6، 16، 1270 ب.

[2]- انظر: محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ط1، دمشق، 1969، ج1، ص184.

[3]- انظر: **أرسطو**، السياسة، م.س، 2، 6، 16، 1270 ب.

هذه التربية عمومية[1]. وكان الصبيان يُقسّمون في زمر تحت إشراف مدرّب يتولىّ تدريبهم الشجاعة والصلابة والقدرة على القتال وقبول العقاب الذي يفرضه عليهم، والإشراف على التمارين والمبارزات الرياضية وهم عراة الأجسام، ويقول **توكوديدس**: «إن الإسبرطيين أول من مارس الألعاب الرياضية وهم عراة، فكانوا يخلعون ملابسهم أمام الجميع ويدلكون أجسادهم بزيت الزيتون بعد الانتهاء من تمارينهم الرياضية»[2].

وعندما يبلغ الصبي الثانية عشرة من العمر، يمُنع عن ارتداء شيء من الثياب عدا رداء واحد في كل الفصول، ويؤكّد على ذلك **توكوديدس** بقوله: «أما الإسبرطيون فهم أوّل من بدأ باللباس البسيط الذي يتّفق وذوقنا الحديث، حيث يسلك الأغنياء سلوكاً أقرب إلى حياة الناس العاديين»[3]. ويظل الشبّان يعيشون بعضهم مع بعض حتى سن الثلاثين في أكواخ لا تعرف شيئاً من أسباب الراحة والسعادة. ويقتصر تعليم الإسبرطيين على القراءة والكتابة حتى لا يبقوا أميين، ولكنّهم لا يتجاوزون ذلك إلى دراسة شيء من العلوم والآداب، ولذلك لم يكن هناك مكتبات أو مدارس علمية في إسبرطة، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ كيان الدولة يقوم على صلاح التربية الأخلاقية وليس الفكرية، إنّ الخلق في نظرهم أهم بكثير من العقل. والشبّان الذين يمتازون بسلوكهم ويمتازون تدريباتهم بنجاح يُسمح لهم بحضور اجتماعات المواطنين ليستمعوا بانتباه إلى ما يجري في هذه الاجتماعات العامة من أحاديث، ويتعرفوا إلى المسائل السياسية ويعتادوا على أساليب المناقشة، وإذا بلغوا الثلاثين من العمر يصبحون في عداد المواطنين ويتمتعون بجميع الحقوق المدنية.

2. الفتيات:

أما الفتيات، فإنّهن رغم بقائهن في البيوت يخضعن أيضاً لمراقبة الحكومة وتعليماتها، وكان يُفرض عليهن أن يشتركن في الألعاب الرياضية والمباريات من ركض وصراع ورمي ليصبحن أقوياء يتمتعن بصحّة جيدة ويقمن بوظيفة الأمومة على أحسن وجه، ويُفرض عليهن أن يسرن في مواكب الاحتفالات والرقص وهن عاريات الجسم، ولو كان ذلك على مرأى

[1]- انظر: : **أرسطو**، السياسة، م.س، 8، 1، 3، 1337 آ.

[2]- انظر: **توكوديدس**، م.س، الكتاب الأول، ص 22.

[3]- انظر: م.ن.

من العامة، حتى يضطررن إلى العناية بأجسامهن؛ إذ يقول **بلوتارخوس** في هذا الخصوص: «إن الإسبرطيين لم يكونوا يجدون في عري الفتيات أي شيء يدعو إلى الخجل».. وكانت الفتيات ينشدن أثناء الرقص قصائد في تمجيد الشجعان الذين يخوضون غمار الحرب، بينما تسخر هذه القصائد من الجبناء الذين يهربون من المعركة. وكان الإسبرطيون يسمحون لشبّانهم بمقدار كبير من الحرية في المسائل الجنسية قبل الزواج، ولذلك لم يكن هناك أثر للبغاء عندهم، ولم يكن يُسمح للفتاة المريضة الزواج، لأن النسل لا بد أن يأتي مكتمل الصحة، إذ كان على الفتاة المريضة أن تحجم هي نفسها عن الزواج. والأمر نفسه كان يُطبق على الفتيات القصيرات الطول والضئيلات في الحجم[1].

3. الزواج:

وكانت الحكومة الإسبرطية تحدّد موعد الزواج للرجال في الثلاثين من العمر وللفتيات في العشرين.. وكانت العزوبة تُعد جرماً في إسبرطة، فيحرم العزّاب من مخصّصات الإعاشة ويمنعون من مشاهدة الاحتفالات العامة التي يرقص فيها الفتيان والفتيات عراة الأجسام، وكثيراً ما كانت جماعات من النساء يمعنَّ في ضرب الرجال العزّاب وإيذائهم.. والرجال الذين يزوجون ثم لا يُرزقون أولاداً يصبحون أيضاً عرضة للنقمة، فإن أمثال هؤلاء لا يستحقون في نظر الإسبرطيين شيئاً من الاحترام.

وكان الزواج يمهد له عادة من قبل الأبوين، ولم يكن يُدفع شيء من المهر، على أنه بعد اتفاق الأسرتين كان يُنتظر من الشاب أن يخطف خطيبته بالقوة، وأن تبدي هذه من جهتها أشد المقاومة، وكان اللفظ الذي يعبر عن هذا الزواج هو (**الاغتصاب**)[2]. وإذا لم يتم الزواج بهذا الشكل، فإنهم كانوا يجمعون عدداً من الرجال غير المتزوجين ومثلهم من النساء ويدفعونهم جميعاً إلى غرفة مظلمة ليخطف كل واحد زوجة له[3]. والطلاق كان نادراً

[1] انظر: محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص186. ويحبذ أرسطو مثل هذه الطريقة في الزواج، ويشجع المشرّعين على أن يوحدوا الأساليب التي تنجب منذ البداية خير الأجسام (ولكن غير الأساليب الإسبرطية) كالتقارب في العمر بين الزوجين، وعدم التباين في قواهما وهذا ما يؤدي إلى عدم التنافر والشقاق بين الزوجين. انظر: أرسطو، السياسة، م.س، 7، 14، 1، 1334 ب.

[2]- انظر: إمام، عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، م.س، ص49.

[3]- انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة، حياة اليونان، ترجمة: محمد بدران، لا ط، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1953، مجلد 6، ص157 - 158.

وغير مستحب، والجمع بين الزوجات كان ممنوعاً أيضاً إلا لظروف استثنائية ونادرة جداً كما حصل مع ملكها (**أناكساندريس**) الذي تزوج من ابنة شقيقته ولم تُنجب أولاداً، فاضطر إلى الزواج من امرأة ثانية بأمر من المراقبين الخمسة (**الإيفورات**) كي لا تنقرض أسرته، وتلك كانت سابقة لم تُعرف في إسبرطة مثلها من قبل[1]. ولم يكن للفتاة في جميع الأحوال رأي خاص في اختيار زوج المستقبل.

4. حقوق المرأة:

ولم يقتصر عمل المرأة الإسبرطية على أعمال المنزل، بل كانت تخرج إلى الأسواق وتعمل بالتجارة، ولما كان الكثيرون من الإسبرطيين الذين يحصلون بمختلف الوسائل غير المشروعة على ثروات طائلة، ويخافون من افتضاح أمرهم، كانوا يودعون أموالهم عند الرهبان ويسجلون أملاكهم باسم زوجاتهم، وكان النساء هن اللواتي يقمن بشراء هذه الأراضي أو بيعها أو استثمارها، ولذلك يقول أرسطو: «إن النساء في إسبرطة كن يملكن على وجه التقريب خمس البلاد»[2].

5. نظام الطعام والشراب:

وكان يفرض على كل إسبرطي من سن الثلاثين حتى الستين أن يتناول طعام العشاء على المائدة المشتركة (**PHIDITIA**) أو (**SYSSIDITIA**)[3]، مع أفراد جماعته، والطعام في منتهى البساطة، وقليل الكمية؛ لأن كثرة الطعام والعناية بتنويعه والتفنن في تهيئته يفسد الجسم والعقل معاً. وكانت كل جماعة تتألف من خمسة عشر شخصاً يشتركون في مائدة واحدة، ويقدم كل منهم في كل شهر مقداراً معيناً من الطحين والخمر والجبن والتين المجفف ومبلغاً صغيراً من المال لشراء اللحم، ويحق للجماعة أن تفصل عنها كل من يتخاذل في القتال أو يعجز عن تقديم الأرزاق المطلوبة... إلا أنّه ينتقد طريقة الموائد

---

[1]- انظر: **هيرودوت**، التاريخ، م.س، الكتاب الرابع، ص389.

[2]- انظر: **أرسطو**، السياسة، م.س، 2، 6، 11، 1270 آ. ويشير أرسطو إلى التفاوت في الثروات في إسبرطة، إذ وفق البعض إلى إحراز ثروة طائلة، وأوتي غيرهم ثروة زهيدة جداً، ولذا وقعت البلاد في حوزة أناس قلائل انظر: م.ن، 2، 6، 10، 1270 آ.

[3]- أي الأكل الزهيد المتسم بالقناعة والتقشف، والموائد العامة عندهم نظام حكومي كأن يُفرض على المواطنين أن يتناولوا طعامهم على موائد عمومية، حيث يُقدم لهم أكل زهيد كانوا يساهمون في نفقات إعداده، وغاية ذلك النظام كانت حمل المواطنين على القناعة والاقتصاد وتعويدهم شظف الحياة الحربية.

الإسبرطية؛ لأنّ الإنفاق على هذه الموائد برأيه: «يجب أن يكون من صندوق الدولة كما يُفعل في كريت، وليس من جيوب أعضائها، وكأن السياسة في إسبرطة ممنوعة على كلّ من لا يستطيع تحمل تلك الضريبة»[1].

وقد ظلّت عادة التّقشّف والبساطة في إسبرطة سائدة عصوراً طويلة، إذ كان من النادر مشاهدة رجال مفرطين في البدانة، وإذا ما وجِدوا كانت الحكومة تقوم بتوبيخهم، وربّما تقرّر طردهم من البلاد، كذلك لم يكن يُسمح بالإكثار من شرب الخمر ومخالفة ذلك تعرّض مرتكبيها للعقاب.

هذه الجماعات هي الخلايا الأساسيّة في تكوين المجتمع الإسبرطي، فقد كانوا أفراد خيمة واحدة ويؤلفون في جبهة القتال صفاً واحداً.

ولم يكن يُسمح للأجانب بالدخول إلى إسبرطة ولا الإقامة فيها إلا في بعض الظروف الاستثنائية، كذلك حالت دون سفر الإسبرطيين إلى خارج البلاد إلا بعد موافقة الحكومة. والهدف من ذلك، أنّ إسبرطة كانت تسعى دوماً إلى إثارة الغرور والإعجاب بالنفس بين المواطنين وتجعلهم يعتقدون بأنهم أفضل من غيرهم ولا يحتاجون إلى اقتباس شيء من الآخرين.

فلذلك كانت إسبرطة في حالة استنفار دائم، لكي تواجه أعداءها في الداخل والخارج معاً، فكانت الدولة أشبه بمعسكر ضخم متأهب دائماً للقتال، فأخضعت كل النظم التربوية والاجتماعية والاقتصادية لمقتضيات الحرب. إذ يقول أرسطو: «**إن قوانين إسبرطة لا ترمي إلا إلى الشطر الحربي من الفضيلة، إذ هو مفيد للسيطرة، ولذلك كانوا يفوزون بالسلامة بمزاولة الحروب، ويصيرون إلى الهلكة بفرض سيادتهم على الآخرين، لأنهم لا يعرفون الخلود إلى السكينة، ولا الانصراف إلى رياضة أرقى من التمارين الحربية**»[2].

فالنّظام الإسبرطي لم يكن ليستطيع الدفاع عن كيانه إلا باستخدام مثل هذه الوسائل البعيدة عن اللطف، وكان القائمون على هذا النظام يعرفون جيداً بأنّهم إذا سمحوا للسكان

---

[1]- انظر: أرسطو، السياسة، م.س، 2، 6، 21، 1271 آ.

[2]- انظر: م.ن، 2، 6، 22، 1271 ب.

باستنشاق نسيم الحرية والرخاء والأدب والفن السائد في المدن الإغريقية الأخرى، فلا بدّ أن ينهار البناء المصطنع لهذا المجتمع الغريب الذي كان ثلثا الشعب فيه أقناناً، وجميع الحكام أنفسهم عبيداً لفكرة النظام المطلق والطاعة العمياء، ولا سيما أن المجاورين لإسبرطة -**كما يقول أرسطو**- كلهم من الأعداء **كالأرجوسيين والميسينيين والأركاديين**[1].

سادسًا: النظام العسكري وقيام الحلف البلوبونيزي

كان الجيش هو الذي يمثّل قوّة إسبرطة ومجدها، وكانت سلامة الإسبرطيين متوقّفة على شجاعة جنودهم وما يتّصفون به من المهارة وروح النّظام والتضحية، ويقضي الدستور الأخلاقي في إسبرطة أن يكون المواطن جندياً قوياً وشجاعاً، وأعظم شرف وأسمى سعادة للمواطن الإسبرطي أن يموت في ساحة الوغى، وأشنع عار يلحق الجندي هو أن يبقى على قيد الحياة بعد هزيمة الجيش، إن والدة الجندي نفسها لم تكن لترضى بذلك، وكانت الأم الإسبرطية تودع ابنها عندما يذهب إلى الحرب بقولها: «لا تعد إلا وأنت حامل درعك أو محمولاً عليه» ذلك أن الدرع الإسبرطي كان ثقيلاً لا يمكن للجندي أن يهرب إلا إذا تخلّى عنه.

1. الخدمة العسكرية

كانت الخدمة العسكرية مفروضة على الإسبرطيين كافة منذ سن العشرين حتى الستين، وكان يجب على كل مواطن أن يكون متأهباً للحرب دوماً، وقد كانوا جميعاً ينامون في الثكنات إلى أن يبلغوا سن الثلاثين، وعندما يعلن النفير العام يعرف كل مواطن السرب الذي ينبغي أن ينضم إليه في الحال، وكان كل سرب يتألف من أربعين[2] مقاتلاً وتتألف الكتيبة من أربعة أسراب والفرقة من أربع كتائب. وكان الجيش الإسبرطي في بادئ الأمر يتكوّن من خمس فرق تضاف إليه في وقت الحرب فرقة سادسة من الكشافة والحرس عدا الجنود المساعدين من طبقة (البريكوي) و(الهيلوت)، ثم أصبح عدد الفرق سبعاً في القرن الخامس وبعد سنة 425 ق.م قُسّم الجيش إلى فيالق يتألف كل واحد من فرقتين تضم الأولى المواطنين الإسبرطيين، والثانية جنود البريكوي والهيلوت.

[1]- انظر: أرسطو، السياسة، م.س، 2، 6، 3، 1269 ب.

[2]- انظر: **محمد كامل عياد**، تاريخ اليونان، م.س، ص194.

2. الحلف البلوبونيزي

بفضل هذا النّظام وهذه الروح استطاع الجيش الإسبرطي أن ينال شهرة واسعة ومكانة عظيمة رغم قلّة عدده؛ إذ لا تذكر الأخبار أنّه زاد في يوم من الأيام على عشرة آلاف جندي... وكان الإسبرطيون بعد الاستيلاء على مقاطعة ميسينية والقضاء على الثورة التي قامت فيها نحو عام 640 ق.م، يحتاجون إلى الجيش للاحتفاظ بسيطرتهم على السكان المستعبدين، ولذلك كانوا لا يستطيعون إرسال حملات عسكريّة إلى خارج الحدود وفتح بلاد جديدة، ويعزو المؤرخون الإغريق هذه السياسة الجديدة إلى خيلون (**CHILON**) الذي كان أحد المراقبين في منتصف القرن السادس ق.م، وأدّى دوراً مهماً في تاريخ بلاده، وقد أدرك (**خيلون**) أن قلّة عدد الإسبرطيين لا تسمح لهم بتوسيع حدود بلادهم أكثر مما كانت عليه. كما لاحظ في الوقت نفسه أن الحكم الأرستقراطي أخذ ينهار في أكثر الدول الإغريقية حتى في البلاد المجاورة لإسبرطة في شبه جزيرة البلوبونيز؛ ليقوم مكانه الحكم الدكتاتوري. وكانت الحكومات الدكتاتوريّة تسعى إلى تأسيس حلف بينها، الغاية منه أن يساعد بعضها بعضاً على دعم نظام الحكم السائد فيها، ثم توحّد جهودها لدرء الخطر الفارسي الذي كان يهدّد بلاد الإغريق كلّها. وقد قام (**خيلون**) يعارض هذه السياسة؛ لأنّه كان يريد أن تبقى إسبرطة بعيدة عن هذا الحلف، تعيش منعزلة في شبه جزيرة البلوبونيز، ولكن على شرط أن تكون محاطة بحكومات أرستقراطية مثلها، ولهذه الغاية أسّس (خيلون) الاتّحاد البلوبونيزي الذي يستند إلى هذين المبدأين:

ـ الاستقلال المطلق للدول الداخلة في الاتّحاد، فهي ليست مكلّفة بدفع أيّ ضريبة أو قبول ثكنات عسكريّة في أراضيها، بل أنْ يُترك لكلّ واحدة منها الحرية التامة في علاقاتها الخارجية مع جميع الدول الأخرى، على شرط ألاّ يكون في ذلك ما يهدّد الاتّحاد البلوبونيزي.

ـ إذا نشبت حرب بين الاتّحاد ودولة أخرى، فإنّ القيادة العليا تكون لإسبرطة، ويتعهّد جميع أعضاء الاتّحاد بتقديم الفرق العسكريّة التي تُطلب منهم عند الحاجة[1].

وقد تمّ الاتّفاق على أن يعقد مجلس الاتحاد في إسبرطة، فترسل كلّ دولة مندوباً عنها

[1]- انظر: كيتو، الإغريق، م.س، ص119.

وتتخذ القرارات بأكثريّة الأصوات. وفي الواقع، إنّ السيطرة الحقيقية ضمن هذا الاتحاد كانت في يد إسبرطة، ولم تكن الدول الأخرى تستطيع مخالفة إرادتها، وقد انضمّ إلى الاتّحاد الدول التالية: تيجية، كورنثة، آبيدوروس، ميجارة، أجينة.

كانت الحكومات الأرستقراطية في كلّ مكان تلجأ دوماً إلى إسبرطة وتطلب مساعدتها إذا شعرت بخطر الثورة، وبذلك أصبحت إسبرطة أقوى دولة في بلاد الإغريق كلّها، واتّجهت إليها الأنظار لتتولّى قيادة العالم الإغريقي في درء الخطر الفارسي. وقد استنجدت بها الدول الأيونية في آسية الصغرى عندما بدأت الجيوش الفارسيّة تزحف عليها. ولكن إسبرطة التي لم تفكر إلا في أنانيتها ومصلحتها الذاتية الضيقة والمحافظة على نظامها الخاص وسيطرتها على السكان المستعبدين، رفضت التحالف ومساعدة المدن الأيونية، فكان ذلك من حسن حظ الإغريق؛ لأنّ مدينة إغريقيّة أخرى مندفعة في طريق التّقدّم متّجهة نحو المستقبل، تطوّعت لتوليّ القيادة عوضاً عن إسبرطة ونعني بذلك أثينا.

سابعًا: معركة ليوكترا وسقوط إسبرطة 371 ق.م

جاء صلح (كالياس)، نهاية لتاريخ طويل من الحروب بين أثينة وإسبرطة؛ حيث استعادت أثينة قوّتها وسيطرتها، بعد هزيمتها في الحروب البلوبونيزية على حساب أخطاء إسبرطة، التي أرهقتها الهزائم المتعدّدة في البر والبحر، وكانت هزيمة كوركيرا مع الفرس آخرها، كما أنّ نضب مواردها أعاقها عن تحقيق أحلامها. لقد كان صلح (كالياس) اعترافاً من جانب إسبرطة بفشل سياستها في تحقيق مطامع سياسية، على حساب (صلح الملك) مع الفرس عام 387 ق.م، وتخيلها لأحلام تحقيق إمبراطورية شاسعة.

وفي وجه هذا الخطر والعزلة، سارعت طيبة إلى التحالف مع ياسون طاغية مدينة فيراي (**pherae**) في تساليا، وكان هذا الطاغي يأمل في توحيد تساليا تحت زعامته، مستخدماً الدبلوماسية والقوة العسكرية في آن واحد. واستطاع ياسون أن يكوّن فرقة عسكرية قوامها ستة آلاف جندي، تمكن بها من فرض سيطرته على منطقة شاسعة من شمال بلاد الإغريق، تمتدّ من مقدونية شرقاً إلى أبيروس غرباً، ووحّد هذه المنطقة وعيّن نفسه حاكماً عليها وحمل لقب تاجوس (**Tagus**). لقد كان هدف ياسون، هو إضعاف إسبرطة من أجل الاستيلاء على بعض أراضيها، ومن أجل ذلك، تحالف مع طيبة ضد إسبرطة، ليحصل على نصيب من

الأسلاب في حالة هزيمة إسبرطة، وقبلت طيبة هذا التحالف لكسر العزلة السياسية، التي فرضت عليها بعد صلح (كالياس).

وصدرت الأوامر إلى القائد الإسبرطي كليومبروتوس بالتّحرك نحو طيبة، وهناك وجد جيوشها محصنة في مرتفعات ليوكترا. وقد لعب التكتيك العسكري، الذي أدخله إبامينونداس وبيلوبيداس دوراً كبيراً في تحقيق النصر على الإسبرطيين، الذين كان جيشهم يقارب الأحد عشرة ألف رجل، بينما كان جيش طيبة لا يتعدّى ستة آلاف رجل، إلا أنّ سرعة التّحرّك واستخدام الفرسان لتفريق مؤخّرة العدو، أمكنها من إيقاع الجيش الإسبرطي في كمين قاتل، سقط فيه ما يقارب من ألف إسبرطي، وكاد كليومبرونوس نفسه أن يسقط قتيلاً. وإزاء هذه الهزيمة غير المتوقّعة، طالب قائد الجيش الإسبرطي بعقد هدنة، بحجّة دفن قتلاه، بينما كان يطمع في الحصول على نجدة تساعده على تغيير ميزان المعركة لصالحه. وانسحب الإسبرطيون إلى خنادقهم، بينما أرسل أهل طيبة إلى حليفهم ياسون يطلبون منه النجدة. وما أن وصلت الدعوة، حتى انطلق ياسون مخترقاً المناطق، التي كان يتمنّى الاستيلاء عليها، وبعد سبعة أيام وصل إلى مكان المعركة، وهناك دعاه أهل طيبة إلى الهجوم والإكمال على ما تبقى من الجيش الإسبرطي، ولكنه راوغ أهل طيبة حتى لا يفقد صداقة إسبرطة إلى الأبد، وحتى لا يحقّق أهل طيبة نصراً على حسابه. وبدلاً من الهجوم على الإسبرطيين، توسّط بين الأطراف المتحاربة واستطاع أن يقنع الإسبرطيين بترك بيوتيا كلّها، ويعودوا إلى بلادهم. بينما عاد ياسون إلى بلاده، مستولياً على مدينة (**هيراكلية**) في طريقه، وأخذ يستعد لاستعراض قوته عند حضوره الألعاب الأولمبية، طمعاً في ترأس المجلس (**الأمفكتيوني**)، ولكنّه اغتيل على يد سبعة من الشبّان، وانهارت كل أحلام مدينة (**فيراي**)، في أن تصبح قوّة اتّحادية في شمال بلاد الإغريق، بينما سر ذلك طيبة جداً؛ لأنّه أزاح إحدى القوى المناوئة لها في بلاد الإغريق عن طريقها، لتنفرد على مسرح السياسة في بلاد الإغريق، وتصبح زعيمته الأولى بلا منازع أو منافس.

أما الإسبرطيون، فقد حاولوا تنظيم صفوفهم، تحت قيادة أرخيداموس ابن أجيسلاوس، ولكن الوقت كان متأخّراً. وكان تأثير هذه الهزيمة على نفسيّة الإسبرطيين مدمّراً؛ لأنّه قصم ظهرها، وأنهى قيادتها للعالم الإغريقي[1].

[1]- سيد أحمد **علي الناصري**، **الإغريق تاريخهم وحضارتهم**، ط3، القاهرة، دار النهضة العربية، 1981، ص388.

ثامنًا: نهاية إسبرطة

لقد مرّت إسبرطة بفترةٍ من الازدهار، كما شملتها حركة أحياء، وذلك إبّان عصر الإمبراطورية الرومانية، خاصّة إبّان حكم الإمبراطور هادريان في القرن الثاني الميلادي؛ لأنّ ذلك الإمبراطور كان عاشقاً للحضارة الإغريقية وثقافتها، كما تشهد بذلك الآثار والنقوش التي تركتها إسبرطة. كذلك حاول الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس، أحياء قوانين ليكورجوس، من باب الرومانسية والخيال، وبالفعل أعيدت هذه القوانين، ولكن لم تكن بالصورة التي كانت عليها قديماً. وظلت إسبرطة مدينة جميلة هادئة، حتى تعرضت لهجوم القبائل البربرية عام 167 م، ونجت من هذا الدمار المهلك، ولكنها لم تنج عام 395 م من الدمار الشامل، الذي ألحقه بها القوط، تحت قيادة الآريك Alaric ، حيث وضع هذا الهجوم البربري نهاية مأسوية محزنة لمدينة عتيقة لعبت دوراً عظيماً في تاريخ الإغريق بل وفي تاريخ الإنسانية[1].

تاسعًا: إسبرطة الحديثة

إسبرطة الحديثة هي مدينة وبلدية في مقاطعة لاكونيا، وتقع على موقع إسبرطة القديمة نفسها، حيث تم دمج إسبرطة الحديثة مع 6 بلديات قريبة منها عام 2011 م بحيث أصبح التعداد السكاني أكثر من 35 ألف نسمة يعيشون في مدينة إسبرطة نفسها وهذه البلديات هي:

فارس، كاربي، ميستراس، أونيناتاس، بيليانا، إسبرطة، تيريانتيس. وتشغل هذه البلديات مساحة تقدّر بأكثر من 84 كم^2 وعلى ارتفاع من سطح البحر 210 م، ويبلغ عدد سكان إسبرطة تحديداً أكثر من 16 ألف نسمة حسب إحصاء 2011، وتقدر الكثافة السكانية 192 نسمة كم^2.

عاشرًا: أشهر ملوك إسبرطة

- خيلون حكم في منتصف القرن السادس ق.م
- ديماراتوس مولده ووفاته مابين القرنين السادس والخامس ق.م

[1]- سيد أحمد **علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم**، ط3، القاهرة، دار النهضة العربية، 1981، ص396.

ـ كليومنيس الأوّل مولده ووفاته 560 - 490 ق.م

ـ ليونيداس مولده ووفاته 530 - 480 ق.م

ـ ليوتيخيدس حكم بين 491 - 476 ق.م

ـ أجيسلاوس الثاني مولده ووفاته 444 - 360 ق.م

ـ أرخيداموس الثاني مولده ووفاته 476 - 427 ق.م

ـ أرخيداموس الثالث حكم بين 360 - 338 ق.م

ـ آجيس الرابع حكم بين 244 - 241 ق.م

ـ كليومنيس الثالث حكم بين 227 - 219 ق.م

ـ نابيس حكم بين 207 - 192 ق.م

حادي عشر: تقويم النتائج الأساسية للنظام الإسبرطي

يتبيّن من خلال دراستنا للنّظام الإسبرطي، أنّ هذا النّظام الغريب من نوعه في التاريخ القديم يتميّز بخصائص إيجابيّة وأخرى سلبية:

1. الخصائص الإيجابيّة:

أ. القوّة الجسمانيّة

من إيجابيات هذا النّظام أنّه ذو فضل كبير في تكوين شعب يمتاز أفراده بقوّة الأجسام وتحمل المشاق والمهارة الحربية. إذ اعتاد الإسبرطيون على الحرمان، وكانوا يعيشون في منتهى التّقشّف والبساطة، بحيث لو خُيّر الرجل الحديث في معيشة النّظام الإسبرطي لفضّل أن يعيش كالرقيق لا كالمواطن الإسبرطي. وتتحدّث في هذا المجال قصص كثيرة لا تحصى عن إسبرطة والإسبرطيين، غير أنّ جميع هذه القصص تعالج أسلوب الحياة الإسبرطية كلّها في اتّجاه واحد، فعندما دعي أحد الأغنياء من أهالي (**سيباريس**) بجنوبي إيطالية إلى تناول الطعام علناً في إسبرطة مع الإسبرطيين، ولمّا رأى من عجائب مائدة الطعام ما لم تستطع أن تتذوّقه النّفس البشرية قال: «إنيّ أفهم الآن لماذا لا يخشى الإسبرطيون الموت». وعندما

سئل الملك (**أجيسلاوس**) عن أعظم فائدة قدمتها قوانين (**ليكورجوس**) للإسبرطيين، أجاب (**احتقار السرور**)، وعندما رأى (**ديوجينس**) الزاهد وهو في أولمبية بعض شبان (**رودوس**) في ثياب جميلة جداً قال من فوره (**هذا تكلف**)، فلما رأى بعض الإسبرطيين في ثياب بالية قال (**تكلّف أعظم**).

ب. الإعجاب بالنفس

وكأنّ المثل الأعلى للحياة الإسبرطية هو إثارة الغرور والإعجاب بالنفس بين المواطنين، والشعور بالافتخار بأنّهم (**إسبرطيون**)، وأفضل من غيرهم من الشعوب الأخرى. ويصف لنا بلوتارخوس وصفاً جميلاً لإحدى القيم والمثل العليا عند الإسبرطيين بقوله: «عندما كان هناك رجل مسن أثناء الألعاب الأولمبية يتجوّل هنا وهناك باحثاً عن مقعد والجمهور يسخر منه، فلما انتهى إلى حيث يجلس الإسبرطيون وقف كل شاب منهم احتراماً له، وكثيرون ممن تخطوا مرحلة الشباب وعرضوا عليه مكاناً للجلوس، فهتف الجميع للإسبرطيين، وعندها قال الرجل المسن وهو يتنهد «إنّ الإغريق جميعاً يعرفون الصواب، غير أن الإسبرطيين وحدهم الذين يفعلونه»[1].

وهكذا يتبيّن لنا أنّ المغزى الحقيقي من قوانين (**ليكورجوس**) لم تكن تهدف فقط إلى مجرد إخضاع الرقيق للدولة، وإنّما إلى خلق المواطن المثالي، وهذا هو المثل الأعلى للحياة الإسبرطية التي فرضت نمط أسلوبها على الحياة، وليس العكس بأن فرضت الحياة أسلوب نمطها المتغير والمتجدّد على المجتمع الإسبرطي المحافظ. هذا المجتمع الذي اتّصف بشجاعة نادرة قلّ مثيلها في جميع المجتمعات القديمة؛ حيث كانوا في كثير من الظروف يفضلون الموت على تحمّل عار الهزيمة، ولو كانت هذه الهزيمة تشكّل نصراً لهم من خلال المناورة في المعارك المقبلة. ويجمع المؤرخون القدماء ومن بينهم **هيرودوت** على إعجابهم بهذه الصفة، ويذكر جميعاً المقاتلين الإسبرطيين الثلاثمائة الذين عُهد إليهم المحافظة على ممر (**ترموبيلي**) في الحرب الفارسية - الإغريقية بقيادة ملكهم (**ليونيداس**)، والذين لم ينسحبوا من المعركة رغم مخاطرها المؤكّدة، ورغم كلّ ظروف النجاة المتوافرة لهم. ويصف هيرودوت لنا تلك الشجاعة المنقطعة النظير بقوله: «وفي احتدام القتال سقط ليونيداس بعد

[1]- انظر: **هيرودوت**، التاريخ، م.س، الكتاب السابع، ص576.

أن قاتل قتالاً مشرّفاً، وقُتل معه الكثير من الإسبرطيين المبرزين - وقد بلغتني أسماؤهم كما تستحق أن تُذكر أسماء الجديرين بالتخليد، والحق أنّ ما بلغني من تلك الأسماء ثلاثمائة.. وقد صمد أولئك الرجال حتى سقط آخرهم، وقاتلوا بكل ما ملكوا باليدين والأسنان حتى تمكن الفرس منهم حين هجموا عليهم، بعدما تعدوا خرائب الجدار، وأطبقوا عليهم من ورائهم وتغلبوا عليهم أخيراً بفضل أسلحتهم التي كانوا يرمونها بهم من بعيد»[1]. ويتابع هيرودوت روايته حول تفاصيل هذه المعركة إذ يروي: «إنه كان هناك رجل نجا من الثلاثمائة، يدعى بانتيتس، وتفصيل ذلك أنّه كان في مهمة في تسالية - ففاتته المعركة، ولما عاد هذا إلى إسبرطة قابله الناس بالتنديد، فلم يقوَ على احتمال العار وانتحر بأن شنق نفسه»[2]. وذلك تنفيذاً لوصية كلّ أم إسبرطية لولدها أثناء ذهابه للقتال بقولها -كما ذكرنا سابقاً- «لا تعد إلا وحامل رمحك أو محمولاً عليه». وقال أحد التراجيديين لأحد أبطال إسبرطة يدعى دينسيس قبل المعركة: «إن الفرس حين يرمون سهامهم يغطون الشمس كلها، ولكن دينيسيس، قابل ذلك الوصف لقوة جيش فارس بجنان ثابت من أحد الإسبرطيين الشجعان وعلق بقوله: قد جاءنا هذا الغريب من تراخيس بأخبار طيبة، فسوف نخوض معركتنا تحت الظلال»[3].

ج. طاعة القوانين

وتُعد إطاعة القوانين عند الإسبرطيين أفضل الفضائل في كل الحالات، وتُعد نموذجاً للامتياز البشري بالنسبة لهم؛ إذ لا يمكن أن نجد في التاريخ شعباً آخر يفوقهم في احترام القانون والخضوع له. فالطاعة عند الإسبرطيين لم تكن حادثاً نفسياً ونتيجة قرار إداري ينبجس عن شخصيّة الفرد، بل مفهوم ميتافيزيقي، تفيد الخضوع الاضطراري لقانون مقدّس تفرضه الإرادة الإلهيّة. وليس أدلّ على ذلك النصب التذكاري **(نصب تمثال الأسد)** الذي أقامه الإسبرطيون بعد انتهاء الحرب الفارسية في المكان الذي قُتل فيه ملكهم **(ليونيداس)** وجنوده لتخليد ذكرى هؤلاء الأبطال في معركة **(ترموبيلي)**، حيث كُتب عليه ما يلي: «أيها الغريب، إذا مررت بإسبرطة فقل للذين هناك إننا راقدون في هذا المكان امتثالاً للقوانين التي فرضوها»[4].

---

[1]- انظر: **هيرودوت**، التاريخ، م.س، الكتاب السابع، ص579.

[2]- اظر: هيرودوت، التاريخ، م.س، ص577.

[3]- انظر: م.ن.

[4]- انظر: إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، م.س، ص48.

ولا ريب في أن هذه الصفة (**إطاعة القانون**) كانت من أهم العوامل في قوة إسبرطة، التي ظلت الدويلات الإغريقية الأخرى جميعاً تجابهها مدة قرنين من الزمان، ولا سيما بعد أن أرغموا جميع الدول المجاورة لهم على الدخول في الاتحاد البلوبونيزي، الذي خضع لسيادتهم طوال هذه المدة في شبه جزيرة البلوبونيز.

2. الخصائص السلبية

أ. الشجاعة على حساب المهارة

من سلبيات هذا النّظام أنّ الخلق الإسبرطي يتّصف بأنانيّة ضيّقة، وخشونة جافّة، وقسوة عظيمة، وإن كان هذا النظام يخرّج جنوداً أقوياء شجعان، إلا أنّه كان يقتل جميع الاستعدادات والمواهب الأخرى ولا سيما العقلية. فمن جهة أن كلّ التدريبات العسكرية للشبّان لم تكن منها اكتساب الرشاقة أو المهارة في الحركة، كما هو عند الأثينيين، بل الشجاعة والصلابة والقدرة على القتال.

ب. إهمال التعليم

ومن جهة أخرى، إنّ الذي يُثير الاستغراب في هذه التدريبات الكثيرة، التي تبدأ في سن مبكرة، لم يكن هناك إلا الحد الأدنى من الاهتمام بالقراءة والكتابة، وكذلك الأمر في الموسيقى، بل كل ما هنالك الأغاني والأناشيد التي تمجّد الماضي وتحثّ على القتال.

ج. العزلة وإهمال الأسرة

وهذه من بين النقاط التي عابها أفلاطون على النّظام الإسبرطي، وعلى موائده المشتركة التي تقتصر على الرجال دون النساء، والتي لم يُسمح لأحد من أعضائها بتناول وجبة الغذاء مع أسرته ولو ليوم واحد، فالملك أجيس عندما عاد منتصراً من إحدى غزواته ضدّ الأثينيين في الحرب البلوبونيزية، لم يستطع الحصول على إذن بتناول عشائه في منزله مع زوجته، وكل مواطن يتخلّف عن الاشتراك أو الحضور يجرّد من جنسيّته ويفقد حقوقه[1]. ولذلك لم يظهر في إسبرطة أي فيلسوف أو شاعر أو كاتب أو فنان، فالإسبرطيون الذين قُطعت كل صلة

[1]- انظر: **محمد كامل عياد**، ص 196- 197.

بينهم وبين العالم الخارجي ومُنعوا من السفر إلى البلاد الأخرى والاختلاط بغيرهم، وظلوا يجهلون العلم والأدب والفلسفة، قد أصبحوا مجرد آلات حربية[1].

د. إهمال الأمومة والأنوثة

ومن خلال استقراء نتائج النظام الاجتماعي في إسبرطة، يتبيّن أنّ المرأة في إسبرطة كانت تعوزها الرقّة والأنوثة، ويغلب عليها طابع الرجولة، ولم يكن يُسمح لها بإظهار أي شعور يعبر عن العطف أو الضعف أو الخوف عندما تفقد زوجها أو ابنها في الحرب[2]. فالمرأة الإسبرطية لم تقم بواجب الأمومة كما هو معروف في أطرها الأخلاقية والتربوية، كما تقول سيمون دي بوفوار. فإذا كانت النظم الإسبرطية توجب إعدام المولود الضعيف، فإنّ الأم نفسها كانت تلجأ إلى وسائل مختلفة لتحقيق هذه الغاية وحدها، ودون أن تشعر بأيّ قدر من حنان الأم أو عاطفتها تجاه وليدها «فقد كانت تغمس المولود عقب ولادته في دن من النبيذ وتتركه مغموساً لحظات فإن عاش دلّ على قوّة بنيته واستحق التربية، وإن مات تكن الأم قد أدّت واجبها تجاه المجتمع بأن خلّصته من كائن ضعيف لا يستحق الحياة»[3]. ثم يُعرض الوليد بعد ذلك على لجنة من المراقبين -**كما ذكرنا سابقاً**- فإن رأته صالحاً أعادته إلى أمه كي ترضعه وتقوم على تربيته حتى سن السابعة، لكن ماذا تفعل الأم أثناء التربية؟

«كان عليها أن تسير على نظام نصحت به الدولة في تربية الطفل، فكان عليها ألّا تقيّد نموه وحركاته بكثرة الأغطية واللفافات والأقمطة، كما كان عليها أن تقسو في معاملته وأن تمنعه من البكاء، ولا تستجيب لمطالبه، وأن تتركه في الظلام حتى يشّب على الشجاعة والصبر والقدرة على الاحتمال»[4].

وفي جميع الحالات، فإنّ هذه المظاهر من الأمومة المتوحّشة لا تشعرنا أنّنا أمام (أم) بالمعنى الدقيق للكلمة. ولسنا نجد في القصص التي تروى عن شجاعة الأم التي ذبحت ابنها بيديها، لأنّه هارب من المعركة، أي قدر من الأمومة ولو كان الهروب جبناً يستحق

[1]- انظر: **وهيب سمعان**، الثقافة والتربية في العصور القديمة، دائرة المعارف بمصر، ص 194.

[2]- انظر: **علي عبد الواحد وافي**، الأدب اليوناني القديم، القاهرة 1977، ص 34.

[3]- انظر: **فتحية سليمان**، التربية عند اليونان والرومان، دار الهنا للطباعة والنشر بمصر، ص 194.

[4]- ROUSSEU. J: EMILE TRANS BY BARBRA FOXLE EVERYMANIS LIBERARY. N. 518. p. 8.

العقاب من الدولة.. إنّها (أم) متوحّشة تلك التي تلجأ إلى ذبح ابنها ولو كان السبب وطنياً؛ لأنّ شعورها وعاطفتها نحوه لا بدّ أن تجعلها تتردّد ألف مرّة.. ويقول جان جاك روسو: «لقد فقد المواطن الإسبرطي هويته تماماً، حتى إنّه لم يعد يعاني من أي صراع داخلي، وأصبحت الفضيلة الوطنية تأتيه على نحو طبيعي»[1]. فالأم الإسبرطية التي كان لها خمسة أبناء في الجيش خرجت تستطلع أنباء المعارك عندما التقت بعبد سألته -وهي ترتجف- عن الأخبار فأجابها «أبناؤك الخمسة قتلوا»، لكنّها ردّت عليه بحنق «وهل سألتك عن ذلك أيها العبد الحقير»؟.. فعاد يقول «إن كنت تسألين عن الحرب فقد انتصرنا» عندئذ أسرعت الأم إلى المعبد لتقدّم الشّكر إلى الآلهة[2]. وتقول الأم وهي تدفن ولدها «إنّه لمصير عظيم حقاً.. ألست أدفنه لأنّه مات من أجل إسبرطة». هذه هي الأمومة الحقّة المتعارف عليها في إسبرطة، تلك الأمومة المتميزة بخصائص الوحشية والتربية البدائية القاسية التي لا يعادلها سوى قسوة الرجل الإسبرطي.

هـ. الزواج الاشتراكي

أما فيما يخص الزواج في إسبرطة، فنحن لا نعرف في الواقع إن كان هذا الزواج أحادياً أم جماعياً؟ وقد فسّر ذلك فريدرك أنجلس بقوله: «كان في إسبرطة نوع من الزواج الفردي عدّلته الدولة حتى يتماشى مع الأداء السائد، وهو زواج يحمل الكثير من خواص الزواج الجماعي»[3]. فقد كان الكثير من الأزواج يقبلون أن يشترك معهم غيرهم، وخاصة أخوتهم في زوجاتهم[4]. وكان **ليكورجوس** يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج ويقول: «إن من أسخف الأشياء أن يُعنى الناس بكلابهم وخيلهم، فيبذلوا جهدهم ومالهم ليحصلوا منها على سلالات جيدة، ثم تراهم مع ذلك يبقون زوجاتهم في معزل ليختصوا بهنّ في إنجاب الأبناء»[5]. ولقد امتثل الإسبرطيون لنصيحة مشرّعهم، فكان يمكن لعدة أخوة أن يتخذوا

---

[1]- ROUSSEU. J: EMILE TRANS BY BARBRA FOXLE EVERYMANIS LIBERARY. N. 518. p. 8.

[2]- انظر: **فريدرك أنجلس**: أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، ترجمة: الياس شاهين، لا ط، موسكو، دار التقدم، 1986، ص79.

[3]- انظر: **ول ديورانت، قصة الحضارة**، م.س، مجلد 6، ص158.

[4]- م.ن، ص145.

[5]- انظر: **فريدرك أنجلس**، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، م.س، ص79.

زوجة مشتركة لهم[1]. وكان الشخص الواحد يستطيع مشاركة صديقه في زوجته إن كانت له رغبة فيها. وهناك فقرة في **بلوتارخوس** يروي فيها أن المرأة الإسبرطية كانت ترسل الحبيب الذي يلاحقها بملاطفاته ومغازلاته كي يتباحث مع زوجها في هذا الشأن[2].. فلذلك يقول أنجلس إنّه لم يكن في إسبرطة الزنا بمعناه الحقيقي[3]. ومن كل ذلك يستنتج أنجلس «لكل هذه الظروف تمتّعت المرأة في إسبرطة بمركز محترم بين كل نساء الإغريق الأخريات»[4]. ويروي «**جيمس دونالدسون**» أن رجلاً حاول استمالة امرأة إسبرطية ليقضي منها وطراً فقالت: «عندما كنت فتاة تعلمت أن أطيع والدي ولقد أطعته، وعندما أصبحت زوجة أطعت زوجي، وبالتالي إذا أردت مني شيئاً كهذا فعليك أن تستأذنه أولاً»[5].

إن الذين يتحدثون عن انعدام الزنا في إسبرطة، ويعتقدون أنّ المرأة حظيت لهذا السبب (بمركز محترم) أمثال (أنجلس) وغيره ينسون أن الزوجة كانت في وضع أشدّ سوءاً وانحطاطاً من حالة الزنا، فهي تمارس العلاقات الجنسية مع من يوافق عليهم الزوج أو من يرسله لها من الأصدقاء لما يجده فيه من «فحولة وشباب وقدرة على إنجاب أطفال أقوياء»، وهذا باعتراف أنجلس نفسه عندما يقول: «وكان من اللائق عندهم أن يضع الرجل زوجته تحت تصرف (فحل) قوي، وإن لم يكن هذا (الفحل) من عداد المواطنين»[6].

نستنتج من هذا القول، إنّ المرأة الإسبرطية كانت تُعامل كما تُعامل الماشية التي يرغب مربيها في تحسين نسلها، وكانت الزوجة تستسلم راضية لهذا الوضع المتدهور.. كل ذلك دليل على تخلف المجتمع الإسبرطي من ناحية، وعلى الوضع السيئ للمرأة من ناحية أخرى. فالمرأة الإسبرطية في هذه الحالات تحولت إلى حيوان، وربما حيوان بريء يختص بالإنجاب وتحسين السلالة، إذ يمكن أن يضاجعها القوي بعلم زوجها ورضاه لينجب أطفالاً أقوياء. وهي برية بمعنى «أنها فقدت ما للأنثى من صفات». ولقد كان ليكورجوس ينصح

[1]- انظر: **فريدرك أنجلس**، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، م.س، ص79.

[2]- انظر: م.ن.

[3]- انظر: م.ن.

[4]- DONALDSON, James WOMAN. HERPOSITION AND INFLUENECE IN ANCIENT GREECE AND ROME EARLY CHISTIAANS PRESE 1937 N. y, P 32.

[5]- انظر: **فريدرك أنجلس**، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، م.س، ص79.

[6]- **انظر: ول ديورانت**، قصة الحضارة، م.س، مجلد 6، ص157.

صراحة أن تتخلص الفتيات من كل صفات الأنوثة المكتسبة كالحياء والخجل، وذلك حتى تتمكن من الرقص عاريات أمام الرجال. كما أنّها فقدت حنان الأم -وكما ذكرنا سابقاً- ماذا نقول في امرأة لا تتورع عن ضرب الرجال العزّب لتؤذيهم أشد الأذى كما يقول ديورانت[1]. والحق أنّ المرء لا يملك أن يمنع نفسه من الدهشة عندما يقول أحد علماء التربية: «وقد اشتهرت الأم الإسبرطية بمهارتها في رعاية أطفالها، وفي منعهم من البكاء والتعبير عن أنفسهم بالغضب أو الخوف، وكانت تقوم بتعويدهم منذ الصغر على تحمل الجوع والألم بدون شكوى أو تذمر»[2].. أهذه مهارة ورعاية في التربية أم بدائية وتوحش؟ ألسنا نجد هنا ضرباً من القسوة البدائية التي لا تليق بمشاعر الأم.

ذلك كلّه يؤكّد ما سبق أن ذكرناه، من أن النظام في إسبرطة كان أقرب إلى المجتمعات البدائية، فلا اهتمام بالثقافة أو التعليم أو الأدب، وهو قصور عابه أفلاطون على هذا النظام، بل لم تكن تدّرس الموسيقى التي عدّها أساسية لتهذيب الروح إلا لتمجيد الأبطال أو الحث على القتال. وباختصار «كانت الشرائع الإسبرطية تخرّج جنوداً أشدّاء ولا شيء غير ذلك، إلا أنها جعلت قوة الجسم وحشية مرذولة لأنها أماتت الكفايات العقلية كلها تقريباً»[3]. ولهذا كان إيسوقراط محقاً عندما قال عنهم: «إنهم أشد تخلفاً من البرابرة».

يمكن أن نستنتج من كل ما سبق أن الملكية في إسبرطة جماعية، والتربية جماعية، والزواج جماعي أيضاً. وهناك عيوب أخرى يأخذها أفلاطون على النظام الإسبرطي، بأنّ المرأة طالما وصلت إلى هذه المرحلة، فما الذي يمنع من اشتراكها في التنظيمات السياسية؟. ولماذا لا يكون لها موائد مشتركة للعشاء أو تشارك الرجال موائدهم، ومما يلفت النظر حقاً، أنّه لم تكن هناك امرأة واحدة في مجلس الشيوخ ولا في الجمعية العامة ولا بين المراقبين الخمسة.

[1]- يروي البعض أن العروس الإسبرطية ليلة زفافها كانت ترتدي ملابس الرجال وتقص شعرها مثلهم، ولا يعرف فيما إذا كان ذلك أيذاناً بدخولها حياة جديدة؟ أم أن الشباب الإسبرطي الذي اعتاد الجنسية المثلية كان أقدر على التعامل مع عروسه أو أنها استرجلت. انظر: POMEROY. SARAH: WOMEN IN CLASSICAL. ANTIQUITY SCHOCKEN. BOOKS N. Y .1957. P 73

[2]- انظر: **ول ديورانت، قصة الحضارة**، م.س، مجلد 6، ص 163.

[3]- انظر: **أرسطو**، السياسة، م.س، 2، 6، 11، 1270 ب.

و. الميراث

وفيما يخص الميراث في إسبرطة، فالبنت لا ترث إلا بموافقة الأب، فالميراث أصلاً للأبناء، فإذا لم يكن هناك أبناء فمن حق الأب أن يتبنى أبناء بموافقة الملكين، من شخص آخر أو أن يورّث الابنة ويقوم بتزويجها لأي شخص يشاء أو يوصي بذلك لمن يشاء، ويمكن للأب أن يتبنى، كما قلنا أو يترك التركة إلى صديق. وما يقوله أرسطو: «إن خمس الأراضي في إسبرطة كانت في أيامه مملوكة للنساء لأن عدداً كبيراً منهنّ كن الوارثات الوحيدات»[1]. وكانت المهور تدفع من قبل أهل الفتاة، وتبقى في حوزة الزوج يستخدمها دون أن ينفقها أو يبيعها ما بقيت معه الزوجة، فإن طلّقها عادت إلى بيت أبيها أو الوصي مع بائنتها، ولهذا كانت المهور كبيرة.. وهذا هو السبب الذي جعل أرسطو يطالب بإلغائها عندما قال: «من الأفضل ألا تكون هناك مهور على الإطلاق أو أن تكون مبالغ ضئيلة أو معتدلة»[2].

خاتمة

استنادًا إلى ما سبق، ومن خلال دراسة تحليليّة لكلا النّظامين السياسي والاجتماعي في إسبرطة، نستطيع أن نستنتج أفكاراً تفصيليّة عن طبيعة هذا النّظام، الذي ظلّ لمدّة أربعة قرون في حالة جمود دون تغيير في نمط حياته وقوانينه، التي لم تعد تتلاءم مع الظروف والمتغيّرات الجديدة ومع كبر الدولة واتّساعها. وهذه هي أبرز سلبيات النّظام الأرستقراطي الإسبرطي الذي تمسّك بالعادات والنّظم القديمة، وأحال دون تطوّرها بما يتلاءم مع الظروف الجديدة والانطلاقة الحضارية التي حدثت في أثينة في القرن الخامس ق.م، حيث نراها رغم ما رافق نظامها الديمقراطي من أخطاء ومفاسد، تبني حضارة جديدة تتحرّر فيها العقول وتنطلق المواهب وتبلغ الحركة الفكرية فيها أقصى درجة من النشاط يسودها جوّ التسامح والإبداع والحرية.

وثمّة عوامل أخرى، غير عاملي الجمود والعزلة، أدّت إلى تضاؤل شأن إسبرطة وتدهورها على مرّ الزمن. وفي مقدمة هذه العوامل تركيز الدولة على الجانب العسكري دون سواه من الجوانب الاجتماعية والثقافية وحالت بين المواطنين، وبين فرص الإبداع والابتكار كما هو

[1]- انظر: **أرسطو**، السياسة، م.س، 2، 6، 11، 1270 ب.

[2]- انظر: م.ن، 2، 6، 23، 1271 ب.

في أثينة، يضاف إلى ذلك سياستها التي تتسم بالتحفظ الشديد والجمود والقسوة البالغة المجردة من الإنسانية في معاملتها للغير عندما تكون في مركز القوّة، وإغلاق الدائرة على المواطنين مما أدّى إلى انكماش عددهم بالتدريج وتناقصهم بصورة واضحة، ثم اتّساع الفجوة في المساواة بين المواطنين الأحرار أنفسهم في الملكية الزراعية نتيجة إقراض البعض منهم الديوان للفقراء مقابل رهن أراضيهم الزراعية، التي تحوّلت في معظمها إلى ملكيات زراعيّة إضافيّة لهؤلاء المقرضين عمّا كانوا يملكونه سابقاً من قبل الدولة، نتيجة عجز الفقراء عن الوفاء بديونهم. إضافة إلى ذلك أنّهم كانوا لا يدفعون شيئاً كضرائب على هذه الأراضي، وكانت هذه الحالة موضع انتقاد شديد من أرسطو حين قال: «أن خزينة الدولة لا تحوي شيئاً مع أنّهم مضطرون إلى خوض غمار حروب كثيرة، وفضلاً عن ذلك فهم يسيئون دفع الخراج؛ لأنّهم لا يتقاضون الجزية بعضهم من بعض إذ يملكون هم أنفسه معظم الأراضي، وهكذا اتّفق للمشرّع خلاف ما توخّى من النّفع، فلقد جرّد الدولة من الثروات وأولع الأفراد بها»[1]. ومن ثم إصرار إسبرطة على تحريم التعامل بالنقود المسكوكة، وإباحة التصّرف في الحصص الزراعية بعد أن كان محظوراً. ومن ثم فإنّ إسبرطة لم تنهض أبداً من كبوتها بعد هزيمة ليوكترا عام 371 ق.م واستقلال ميسينية عنها نتيجة لذلك.

وصفوة القول، إنّ النّظام الإسبرطي كان قاسياً جداً في نواح عديدة، ووحشياً في نواح أخرى. إلاّ أنّ هذا النّظام كان يكنز في طياته صفات البطولة؛ لأنّ إسبرطة وإن كانت مجدية من ناحية الفن، والفن هو الخلق والإبداع، وإن لم تكن خلقت شيئًا من الكلام أو الصياح أو الحجر، إلاّ أنّها خلقت رجالاً أبطالاً صنعوا معجزات حقيقية وكتبوا التاريخ بدمائهم، هذا التاريخ الذي سطّر أمجادهم وبطولاتهم ما زال يدين لهم هذه الصفة في البطولة والشجاعة إلى أبد الآبدين.

[1]- **سيد أحمد علي الناصري** ، الإغريق تاريخهم وحضارتهم ، الطبعة الثالثة منقحة ومزودة 1981 ، دار النهضة العربية ، القاهرة، ص 388 .


تراقيا
بحر مرمرة
اليريا
مقدونيا
تيساليا
ميسيا
بحر إيجة
أركاديا
لاكونيا
كريت
العالم الإغريقي
خلال الحروب الفارسية (500-479 ق.م)


GRECE
Thessalonique
Chalcidique
Thasos
Samothrace
Korçë
Vlorë
Gjirokastër
Sarandë
Çanakkale
Troie
TURQUIE
Edremit
Balikesir
Bandirma
Ioannina
Larissa
Thessalie
Volo
Sporades septentrionales
Skyros
Mytilène
Lesbos
Bergama
Lamia
Thermopyles
Delphes
Eubée
Chalcis
Manisa
Izmir
Chios
Cesme
Éphèse
Iles Ioniennes
Céphalonie
Zante
Patras
Thèbes
Marathon
ATHÈNES
Andros
Samos
Corinthe
Mycènes
Le Pirée
Égine
Olympie
Arcadie
Tripolis
Argos
Épidaure
Tinos
Mykonos
Péloponnèse
Sparte
Mistra
Calamata
Hydra
Naxos
Paros
Délos
Syros
Kythnos
Sérifos
Milo
Cyclades
Santorin (Théra)
Dodécanèse
Cythère
Rhodes
Bodrum
Kos
MER


Aetolian League
Thermopylae
Chalcis
BOEOTIA
Dyme
226
Achaean League
Elis
Corinth
ARCADIA
Argos
Mount Lycaeum
227
Megalopolis
Sellasia
Sparta
MYRTOAN

المصادر والمراجع

1. أرسطو، السياسة، ترجمة أوغسطينس بربارة البوليسي، إصدار اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (الأونيسكو)، بيروت 1957.
2. أفلاطون، الترجمة الروسية، يغونوف آ. ن في كتاب أفلاطون في ثلاثة مجلدات.
3. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، القاهرة، مكتبة مدبولي 1966.
4. باوسانياس، وصف بلاد اليونان، الترجمة الروسية، كوندراتييف س . ب، في مجلدين اثنين، موسكو، 1940.
5. بلوتارخوس، سيرة الرجال العظام، ترجمة ميخائيل بشارة داود، دار النهضة المصرية العامة للكتاب، 2002.
6. توكوديدس، تاريخ الحرب البلوبونيزية، ترجمة دينا الملاح - عمرو الملاح، أبو ظبي، المجمع الثقافي 2003.
7. ديموسيثنيس ضد ليبيتس، الترجمة الروسية، ديموسيثنيس، أحاديث، رادتسيغ س . ي، موسكو 1954.
8. سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، الطبعة الثالثة منقحة ومزودة 1981، دار النهضة العربية، القاهرة.
9. علي عبد الواحد وافي، الأدب اليوناني القديم، القاهرة 1977.
10. فتحية سليمان، التربية عند اليونان والرومان، دار الهنا للطباعة والنشر بمصر.
11. فريدرك أنجلس، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو 1986.
12. فوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة عباس بيومي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1950.

13. كسنوفون، دستور الإسبرطيين، لترجمة الروسية، سوبولوفسكي س.ي، في كتاب كسنوفون الأثيني، موسكو ولينغراد 1935.

14. كيتو، الإغريق، ترجمة عبد الرزاق يسرى، مراجعة صقر خفاجة، دار الفكر العربي، القاهرة 1962.

15. لطفي عبد الوهاب يحى، اليونان، بيروت 1979.

16. محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دمشق 1969.

17. هيرودوت، التاريخ، ترجمة عبد الإله الملاح، إصدار دار الثقافة، أبو ظبي، 2001.

18. ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة 1953.

19. وهيب سمعان، الثقافة والتربية في العصور القديمة، دائرة المعارف بمصر.

20. TOYNBEE; A. J. SOME PRABLEMS OF GREEK HISTORY 1969.

21. ROUSSEU. J: EMILE TRANS BY BARBRA FOXLE EVERYMANIS LIBERARY. N. 518.

22. DONALDSON, James WOMAN. HERPOSITION AND INFLUENECE IN ANCIENT GREECE AND ROME EARLY CHISTIAANS PRESE 1937 N. y.

23. POMEROY. SARAH: WOMEN IN CLASSICAL. ANTIQUITY SCHOCKEN. BOOKS N. Y 1957.

هسيود

محمد الزين[1]

مقدمة

هسيود (واسمه بالإغريقية هسيودوس (Hesiodos) وبالانكليزية (Hesiod)، هو أحد كبار شعراء الإغريق وثاني أشهر شعراء الملاحم عندهم بعد هومير (Homeros)، ويعدّ أوّل شخصيّة تاريخيّة معروفة في الأدب الإغريقي والآداب الأوربية.

نسعى، من خلال هذا البحث، للتعرف على هذا الشاعر الإغريقي، والتعرف على الأثار التي تركها لنا، وقيمتها العلمية والأدبية.

أوّلاً: الولادة والنشأة والنهاية

1. الولادة

لا يُعرف على وجه الدقة زمن ولادته ووفاته؛ لذلك تعدّدت الآراء حول تاريخ حياته ومدى ارتباطها بهومير، وهل كان سابقاً له أو متأخراً عنه أو معاصراً له؟ فالمؤرخ هيرودوت (Herodotos) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (485-425 ق.م) يرى أنّ هسيود وهومير عاشا قبله «بنحو 400 سنة ولكن لا أكثر[2]»، أي أنه جعل الشاعرين الكبيرين متعاصرين، ولكن يستدلّ من الإشارات الواردة في أعمالهما أنهما عاشا غالباً في النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد (أي قبل هيرودوت بنحو 300 سنة) وهذه المعاصرة شكّلت منطلقًا لمباراة شعرية مفترضة بينهما. وفي العصر الهلنستي أثبت العالم اللغوي الكبير أريسترخوس (Aristarchos) منذ القرن الثاني قبل الميلاد أولوية وأسبقية الشاعر

---

[1]- أستاذ اللغة اللاتينية والتاريخ الكلاسيكي بجامعة دمشق

[2]- Hdt 2,53: وغالباً ما اقترن الاثنان في المصادر القديمة بوصفهما الممثلين الرئيسين للشعر الملحمي وأثيرت مسألة أيهما أقدم من الأخر منذ القرن الخامس ق.م.

هومير التي جرى الاعتراف بها في العصور القديمة[1]. ويسود اليوم بين معظم الباحثين الرأي القائل بأن تاريخ ازدهار هسيود وذروة نشاطه يتمحور حول العام 700 ق.م.

2. النشأة

إنّ جلّ ما نعرفه عن هسيود وحياته وأعماله جاء ضمن مؤلفاته الشعرية، بالإضافة إلى بعض الأخبار المتفرّقة لدى المؤرخين: هيرودوت، وبلوتارخوس، وباوسانياس، وفي قاموس سودا وأقصوصة المباراة الشعرية بينه وبين هومير وغيرها.

على أنّ هسيود بنفسه يشير، في ديوانه الأعمال والأيام، إلى أن أصل عائلته من مدينة كومى (Kyme) الإيولية الواقعة على الشاطئ الشرقي لبحر ايجه في غربي آسيا الصغرى، وكيف أن والده كان يمارس التجارة البحرية هناك، ولكنّه مني بالخسارة، فترك مدينته وتوجه إلى بلاد اليونان ليستقر في أقليم بويوتيا[2] في قرية صغيرة تدعى أسكرا (Askra).

وقد اكتسبت هذه القرية المغمورة، القائمة على سفح جبل هليكون (Helikon) المقدس لربات الفنون، شهرتها بأنّها كانت موطن الشاعر هسيود. ويبدو أنّها كانت كذلك مسقط رأسه كما يستدل من إشارته عندما ذهب للمشاركة في المباراة الشعرية في خلقيس بأنها «المرة الأولى التي عبر فيها البحر بسفينة[3]».

يستهل هسيود قصيدة أنساب الآلهة بقصة تعميده شاعراً من قبل ربات الفنون (1-115). فبينما كان في أحد الأيام يرعى الماشية على سفح جبل هليكون المقدس تراء له وكأنه يسمع ربات الفنون (Mousai)[4] وهي تناديه بأن يغني للآلهة وقدمت له «غصناً من شجر الغار

[1]- كان أريسترخوس (نحو-217 145 ق.م) أمين مكتبة الإسكندرية. ومن كبار الباحثين ومحققي النصوص القديمة (هومير، هسيود والشعراء التراجيديين).

[2]- بويوتيا (Boiotia) منطقة في وسط بلاد اليونان القارية إلى الشمال من مدينة أثينا يحدها جنوباً خليج كورنثة وشرقاً جزيرة أوبويا أهم مدنها طيبة وأورخومينوس وثيسبياي وقد أنجبت بالإضافة إلى هسيود الشاعر الغنائي بيندار والمؤرخ والكاتب الكبير بلوتارخوس.

[3]- قصيدة الأعمال والأيام (البيت 650): أي أن هسيود لم يسبق له أن عبر البحر مع والده من آسيا الصغرى إلى بويوتيا وهذا ينفي ولادته في كومى الايولية.

[4]- كان هسيود أول من تحدث في الادب الإغريقي عن ربات الفنون (واسمها بالإغريقية Mousai) وحدد عددهن بتسع موسات وأنهن بنات كبير الألهة زيوس من إلهة الذاكرة مينموسيني.

الأخضر الغض» كصولجان ورمز لإمارة الشعر[1]، ونفخت في صدره صوتا إلهيًّا وأمرته أن ينشد الشعر للآلهة الخالدة (الأبيات 2-35)، وهكذا بدأ هسيود مسيرته الشعرية وأصبح من زمرة المنشدين الجوالين الذين عرفوا عند الإغريق آنذاك باسم رابسوديس (Rhapsodes) الذين ينشدون الملاحم في الاحتفالات والأعياد الشعبية[2].

يذكر هسيود في ديوان الأعمال والأيام (الأبيات 650- 662) أنه أبحر من مدينة أوليس Aulis البويوتيه إلى مدينة خالقيس Chalkis الواقعة في جزيرة أوبويا؛ ليشارك في الاحتفالات الجنائزية التي جرت لملك المدينة وأنه فاز في المبارة الشعرية –من غير أن يذكر هومير- وأهدى جائزته لربات الفنون في هليكون.

وقد نشأت من هذه الإشارات في القرن الثاني الميلادي أقصوصة اغريقية تعود أصولها إلى السفسطائي الكيداماس (Alcidamas) من القرن الخامس قبل الميلاد تتحدث، عن مباراة شعرية بين الشاعرين هومير وهسيود وعرفت باسم: (Agon Homerou Kai Hesiodou)[3] فاز فيها هسيود على هومير لأن أشعاره تتغنى بالزراعة والسلام وهي أعظم قيمة من أشعار هومير عن الحرب والقتال وقد أهدى هسيود الجائزة التي حاز عليها لربات الفنون في هليكون بالكلمات التالية:

«هسيود يدشن هذه الطرابيزه لربات الشعر والفنون في هليكون بعد أن تغلّب على هومير الإلهي في خلقيس في مباراة الانشاد».

ويذكر الكاتب باوسانياس (Pausanias) الذي عاش في القرن الثاني الميلادي في وصفه التاريخي لمعالم بلاد اليونان أن السائحين في أيامه الذين يزورون جبل هليكون ومغارة ربات الفنون المقدسة كانوا يشاهدون هذه الطرابيزة المصنوعة من البرونز[4].

---

[1]- بدأ مع هسيود تقليد الشاعر المتوج باكليل الغار (Poeta Laureatus) في العصور الكلاسيكية الذي جرى إحياؤه في عصر النهضة الأوربية بتتويج الشاعر الإيطالي الكبير بتر
اركا (Petrarca) عام 1341م. وفي الادب العربي الحديث بويع أحمد شوقي بامارة الشعر والشعراء.

[2]- أي انهم كانوا يشبهون شعراء التروبادور (Troubadour) الفرنسيين في أواخر العصور الوسطى الاوربية.

[3]- وقد صدرت بنصها الإغريقي مع ترجمة إنكليزية بعنوان: Contest of Homer and Hesiod عام 1914 في طبعة LCL لمؤلفات هسيود.

[4]- باوسانياس في دليله السياحي (Descriptio 9,38,3) وقد اختفت فيما بعد.

ومن الأحداث المهمة التي يرويها هسيود قصة خلافه مع أخيه المدعو برسيس، والتي تشكل أحد المواضيع الرئيسة في ديوانه الموسوم بالأعمال والأيام.

3. النهاية

أما عن نهاية هسيود فيذكر المؤرخ توكوديديس (Thoukydides)/ الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد أنه مات في منطقة لوكريس المجاورة لإقليم بويوتيا (Thuk. 3,96)، ولكن قبره كان يشار إليه في مدينة أورخومينوس (Orchomenos) البويوتية، كما جاء في أحد أبحاث الفيلسوف أرسطو من القرن الرابع قبل الميلاد.

وتقول الروايات إنّه ذهب إلى مركز العرافة في دلفي (Delphi)؛ يريد الحصول على نبوءة عن مصيره، وليهدي ثمار فوزه إلى الاله أبولون (Apollon)، ولكنه ما كاد يقترب من المعبد المقدس حتى بادرته الكاهنة المتنبئة، التي جاءها الوحي في الحال، قائلة:

«مبارك هذا الرجل الذي يخدم بيتي، أنه الذي كرمته ربات الشعر الخالدات. بالتأكيد ستكون شهرته بعيدة كبعد ضوء الفجر عندما ينتشر. ولكن كن على حذر من الغابة المقدسة لزيوس النيمي لأنه هناك حدد القدر نهاية حياتك[1]».

وعلى إثر سماعه هذه النبوءة تجنب هسيود الذهاب إلى شبه جزيرة البيلوبونيز ظناً منه أن إله دلفي يعني منطقة نيميا المقدسة للاله زيوس الموجودة هناك. وقد استقر به المقام في بلدة أوينويOinoe في لوكريس التي عاش فيها وتزوج وأنجب ابناً. وفي أحد الأيام كما يذكر بلوتارخوس التقاه شابان اتهماه بإغواء أختهما فقاما بقتله وألقياه في البحر (وهكذا تحققت النبوءة لأن تلك المنطقة كانت أيضاً مقدسة للاله زيوس النيمي) ولكن في اليوم الثالث كانت المفأجاة عندما ألقت الدلافين جثته على الشاطئ، وصادف ذلك في الوقت الذي كان يحتفل فيه بأحد الأعياد المحلية فهرع الناس إلى الشاطئ وتعرفوا على جثة هسيود فبكوا عليه ودفنوه، ثم بدأوا يبحثون عن قتلته. ولكن هؤلاء خوفاً من أهل بلدتهم ركبوا قارب صيد وأبحروا باتجاه جزيرة كريت، ولكنهم ما كادوا يقطعون نصف المسافة حتى لقوا حتفهم؛ إذ ضربتهم صاعقة أرسلها الاله زيوس كما يذكر الشاعر الكيداماس Alkidamas

[1]-زيوس النيمي نسبة إلى بلدة نيميا (Nemea) في شمالي شبه جزيرة البيلوبونيز حيث كانت تقام الألعاب النيمية انظر: Agon ...12.

في كتابه عن ربات الفنون (Mouseion)، وهكذا جرى دفن هسيود في أونوي في الحرم المقدس لزيوس وتكريمه كأحد الأبطال المؤلهين. ولكن ثمة رواية أخرى تقول إنّه جرى دفن الشاعر وتقديسه في بلدته الأم أسكرا، ولكن بعد تدميرها قام اللاجؤون من أبنائها بنقل رفاته إلى حرم مقدس جديد في مدينة أورخومينوس، كما ذكر الفيلسوف أرسطو في أحد أبحاثه عن دستور هذه المدينة[1]. وهناك رواية ثالثة تقول إنّ أهالي أورخومينوس بناء على إحدى النبوءات ـ نقلوا جثمانه من أسكرا ودفنوه في أراضيهم ووضعوا النقش التالي على ضريحه:

«أسكرا بحقول قمحها الوفيرة كانت موطنه، ولكن في الموت فان بلاد المينيان سائقي الخيول تضم عظام هسيود الذي غدت شهرته بين البشر أعظم من كل من حكموا له بمباراة الذكاء».

ويستدلّ من هذه الروايات شبه الأسطورية على مكانة هسيود من بني قومه التي وصلت إلى مرتبة التقديس.

ثانيًا: أعماله ومؤلفاته

لقد نُسبت إلى هسيود مجموعة كبيرة من الأعمال الشعرية الحقيقية والمنحولة، ولكن أشهر هذه الأعمال التي لا يرقى شك في نسبتها إليه هي: الملحمتان الشعريتان: «أنساب الآلهة» و«الأعمال والأيام» وغالباً ما يضاف إليهما قصيدة «درع هركليس».

1. أنساب الآلهة

وتدعى باللغة الإغريقية تيوغونيا (Theogonia) المؤلفة من كلمتين:(Theos إله وgonia بمعنى نشأة، أصل). نظم هسيود ملحمته، التي تزيد عن ألف بيت باللهجة الأيونية وبالوزن السداسي[2]، مثلما فعل هومير في ملحمتي الإلياذة والأوديسة؛ وهي من أقدم أشعاره، ويعتقد أنّها نشأت نحو عام 700 ق.م.

[1]- أرسطو Arist. frg.565..

[2]- ويدعى بالإغريقية هكساميتر Hexamrter ويتألف هذا البحر من ست تفعيلات تدعى داكتولس Daktylos على وزن فاعِلُ. وقد أصبح هذا البحر تقليداً لازم الملاحم الشعرية عند الإغريق والرومان ثم في الاداب الاوربية.

يستهلّ هسيود هذه الملحمة بنشيد مطول (الأبيات 1-115) مهدى إلى ربات الفنون مطلعه: «لنغني في البداية لربات الفنون الهليكونيات، ملكات الجبل العظيم المقدس هليكون».

ثم يقص حادثة تعميده شاعراً عندما كان فتى يسرح بخرافه على سفوح جبل هليكون؛ حيث صوّر له خياله أنّه يكاد يرى ربات الشعر «ترقص بأقدامها الدقيقة على قمة الجبل وتغسل جسمها الغض» بنبع هيبوكرين (نبع الفرس[1]) المقدس، وكيف أهدته غصنًا من شجر الغار ونفخت فيه روح الشعر الإلهية طالبة منه أن ينشد لجنس الآلهة الخالدة. وكان شرطها الوحيد أن يشيد بهن (أي بربات الشعر) في بداية ونهاية كل قصيدة من أشعاره.

وبعد هذه المقدمة يبدأ هسيود حديثه الشعري عن الكون ونسب الآلهة (الأبيات 116 ت) فيصف نشأة الكون (كوسموجينيا Kosmogenia)، وكيف كان في بادئ الأمر عماء وفوضى عارمة يسميها خاؤس (Chaos)، تمخض عنها آلهة أولية بدائية تتمثل بالأرض (جايا Gaia)، والشهوة أو الحب (إروسEros)، والعالم السفلي (ترتاروس Tartaros)، والظلام (إريبوس Erebos)، والليل (نوكسNyx)، وهكذا ولدت جايا وهي تغط في نومها من خلال إروس ابنها أورانوس (Ouranos) أي السماء، وكذلك الجبال (أورياOurea)، والبحر (بونتوس Pontos)، «ثم كانت الأرض العريضة الصدر، القاعدة الوطيدة لكلّ الأشياء. والأرض الجميلة أنجبت السماء المتلألئة بالنجوم التي تساويها لتغطيها في جميع الجهات، ولتكون بيتاً أبدياً للآلهة المباركة»[2]، وبدأ التزاوج بين الآلهة فولد من الظلام والليل: الهواء (أثير Aither)، والنهار(Hemera (. ونشأ من تزاوج السماء والأرض جنس من الجبابرة (تيتان Titanaes)؛ ولكن أباهم أورانوس كرههم وأخفاهم في باطن الأرض، وهذا ما أثار نقمة جايا فحرضتهم على قتل أبيهم. وانبرى كرونوس (Kronos) أعظم هؤلاء الجبابرة لتنفيذ هذه المهمّة. فابتهجت جايا بذلك «وأخفته في كمين وأعطته منجلاً حاد الأسنان» ثم جاء أورانوس، السماء الواسع وأحضر معه الليل (Erebus) وكان السماء محباً وإلهاً فاحتضن

[1]- ينبثق هذا النبع الشهير المسمى (Hippokrene) من سفح جبل هليكون (Helikon) المقدس ويعني «نبع الفرس» وتقول الأسطورة إنه نشأ من ضربة حافر الحصان المجنح بيغايوس (Pegasos) وكانت تستحم فيه ربات الفنون وتجري بقربه أعيادهن المسماة موسيا (Mouseia) التي يحتفل بها الحلف البويوني كل أربع سنوات.

[2]- انظر ول ديورانت قصة الحضارة الجزء السادس ص 184.

الأرض وامتدّ حولها في جميع الجهات» فلمّا رأى كرونوس ذلك بتر قضيب أبيه وألقى به في اليم[1]. وأصبح سيد الجيل الثاني من الآلهة.

وقد نشأ من قطرات دم أورانوس التي سقطت على جايا جيل من العمالقة (Gigantes) ومن آلهات الانتقام (Erinyes)، أما نطف أورانوس التي سقطت في البحر فنشأت منها الآلهة أفروديت (Aphodites) والتي يعني اسمها (Ophros) زبد البحر (الابيات 154- 210).

ويلي ذلك الحديث عن أنساب أخرى وسلالات إلهية كثيرة الأبيات (211-616)؛ ويتزوج كرونوس من أخته ريا (Rhea)، وينجب منها ثلاثة أبناء وثلاث بنات، وكان أبوه أورانوس قد تنبّأ بأنّ أحد أبنائه سيقتله؛ لذلك بدأ يبتلع أبناءه الواحد تلو الآخر ما عدا زيوس (Zeus)، الذي ولدته أمّه سراً في جزيرة كريت وخدعت كرونوس بأن قدمت له بدلاً منه حجراً ملفوفاً قام بابتلاعه. فلما شب زيوس خلع أباه عن عرش الأولمب، وارغمه على إخراج أولاده الذين ابتلعهم من بطنه (وهم: بوسيدون وهادس وهيرا وهستيا وديمتر)، ونفاه مع الآلهة التي تناصره إلى العالم السفلي. كما قام بمعاقبة بروميثوس (Prometheu)، الذي قيده على جبال القوقاس؛ حيث يأتيه نسرٌ كلّ صباح ينهش كبده الذي يتجدّد كلّ يوم وذلك عقاباً له؛ لأنّه حاول خداعه في قربانه وسرق النار ليعطيها للبشر. بعد ذلك يروي هسيود معارك زيوس وإخوته مع التيتان والعمالقة (Gigantomachia) التي ستصبح من المواضيع المحبّبة في الأدب والفن في العصور الكلاسيكية، والتي انتهت بانتصاره وتتويجه ملكاً على آلهة الأولمب. ثم تتبع مغامرات زيوس مع النساء وخاصة ميتيس (Metis)، ربة الذكاء، التي يبتلعها وهي حامل فتخرج الآلهة أثينه (Athene) من رأسه. وأخيراً يروي هسيود مغامرات الآلهة الأخرين مع نساء من البشر والتي سينشأ عنها جيل من الأبطال أنصاف الآلهة في قصيدة ملحمية تدعى سجل النساء (Gynaikon Katalogos)، المعروفة أيضاً باسم إهوياي (Ehoiai)، والتي شكّك عدد من الباحثين في نسبتها لهسيود، مع أنّ كبار الكتّاب القدماء وعلى رأسهم أرسطوفان البيزنطي (أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الثاني قبل الميلاد) كانوا

[1]- انظر عبد اللطيف أحمد علي: العصر الهلادي (بيروت 1971) ص 362 الذي يصف قصة كرونوس وأورانوس بالبشاعة ويرجح اقباسها من مصدر حثي. ومن رأي أفلاطون (Repullic 377E) أنه لا يجوز تلقينهن إلا لقلة قليلة من الناس ضمن طقوس سرية غير عادية (Mysteria (وأنه يجب حجبها عن صغار السن بكل الوسائل وفي العصر الكلاسيكي كان يضرب المثل بأسطورة كرونوس على عقوق الابن وتمرده على أبيه.

يرون أنّها من تأليف هسيود. والمقصود بالنساء هنا البطلات اللواتي كن على علاقة بالآلهة، وأنجبن منهم أبطال الميثولوجيا الإغريقية. وبينما تركز الإلياذة والأوديسة على وصف هؤلاء البطلات، فإنّ كتالوج هسيود يتمحور حول نظام الأنساب الناجم عن تلك الصلات.

ورغم الشكوك حول أصل هذه الملحمة ونسبتها إلى هسيود، إلاّ أنّ هذه الشكوك لم تقلّل من أهميتها لدراسة المصطلحات والمواضيع الأدبية والاجتماعية والتاريخية؛ بحيث يمكن اعتبارها مرجعاً أساسياً للميثولوجيا البطولية. وكانت الأوساط الأرستقراطية الإغريقية، والنخب الحاكمة، تتباهى بذلك وتفخر بإعادة أصولها وأنسابها إلى أبطال هذه الملحمة الشعرية التي استحوذت أيضاً على إعجاب الشعراء والفنانين، وألهبت خيالهم عبر العصور الكلاسيكية حتى الحديثة.

كانت أنساب الآلهة أوّل أسطورة إغريقية متكاملة عن خلق الكون، وهي تضم مجموعة كبيرة من الروايات المحلية حول الآلهة ونشأتها وسيطرتها الكونية؛ وتُعدّ، مع الالياذة والأوديسة، أقدم مصادر الميثولوجيا الإغريقية. ويؤكّد المؤرخ هيرودوت (Herodot 2,52) أنّ نظام الآلهة عند الإغريق يعود إلى الشاعرين هومير وهسيود بقوله: «لم يعرف الإغريق حتى البارحة أو أول البارحة ـ كما يقال ـ من أين جاء كل واحد من آلهتم، وعمّا إذا كانوا كلّهم موجودين دائماً وكيف كان مظهرهم... لقد وضعوا نسب الآلهة في بلاد الإغريق ومنحوهم ألقابهم ووزعوا وظائفهم وأمجادهم ووضحوا هيئاتهم».

إنّ من يتمعّن بهذه الأساطير التي أوردها هسيود في أنساب الآلهة يلاحظ التشابه الكبير، بل وحتى التطابق أحياناً، بينها وبين أساطير الشرق القديم، مع بعض التحوير والإضافات، وفي مقدمتها ملحمة الخلق البابلية المعروفة باسم إينوما إيليش (Enuma Elish = عندما في الأعلى[1]) التي تتحدث عن خلق الكون من محيط الماء الأزلي، والصراع بين الآلهة والأجيال القديمة والشابة، كما تتحدث عن خلق الإنسان وتنتهي بتمجيد الآلهة مردوك.

---

[1]- جاء اسم أسطورة خلق الكون البابلية (إينوما إليش) من الكلمتين الأوليين فيها والتي تعني: عندما في الأعلى: وقد اكتشفت عام 1849 في مكتبة آشور بانيبال وتعود إلى القرن الثامن عشر ق.م وهي مدونة على سبعة ألواح بالكتابة المسمارية واللغة الأكادية وتتألف من أكثر من ألف ومئة سطر. انظر:

W.Lambert, Enuma Elis, The Babylonian Epic of Creation (Oxford 1966).

في البداية تظهر تيامات (Tiamat أي البحر[1]) إلهة الماء المالح بوصفها رمزاً للعماء والفوضى، وقد صورتها الرسوم البابلية على شكل وحش هائل له صدر امرأة وذيل أفعى أنجبت باتحادها مع ابسو(Apsu) إله المياه العذبة أجيال عدّة من الآلهة، ولكن الجيل الثالث كان محبًّا للصخب والضجيج فغضب عليهم أبسو وقرّر تدميرهم، إلا أنّ تيامات لم توافقه على ذلك وصرخت نادبة في وجهه: «كيف يمكننا القضاء على ما خلقناه»، وعندما عرف الإله انكي بهذا الأمر اتّفق مع إخوته على التخلص من أبيهم أبسو فعمد إلى تنويمه ثم قام بقتله وجعل مقرّه وقصره على جثته في أعماق الأرض.

تيامات الغاضبة قرّرت الانتقام وجمعت الوحوش والتنينات التي ملأت أجسامها بالسموم بدلاً من الدماء، وجعلت ابنها وزوجها الثاني الجديد كينجو (Kingu) قائد جيوشها، وخاضت معركة رهيبة ضدّ الآلهة الشابة بزعامة الإله مردوك ابن إنكي الذي تمكن من قتل تيامات وقسمها إلى نصفين وشكّل منهما قوس السماء والأرض، وخلق من أعضائها الطبيعة والجبال والأنهار، ومن عينيها نهري دجلة والفرات. كما قتل ابنها كينجو واستخدم دمه لخلق الكائنات البشرية، واستولى على ألواح القدر التي جعلت منه سيد الآلهة والبشر بلا منازع. ويصف الشاعر البابلي المعركة قائلاً:

«نهضت تيامات ونهض مردوك الحكيم من بين الآلهة

وسارا للمعركة وتواجها للصراع.

ومد الاله مردوك شباكه....

وفتحت تيامات فمها بأوسع ما تستطيع.....

وأطلق سهماً ومزق بطنها، مزق أحشاءها

ونزع قلبها وجعلها خائرة ودمر حياتها

وأسقط جثمانها ووقف فوقه»[2]

[1]- تعني تيامات كما فسرها المؤرخ البابلي بيروسوس (برحوشا) بالإغريقية Thalatte أي البحر، يقابلها بالسريانية تيهوما وبالأوجاريتيه تهمت وبالعبرية تيهوم انظر عيد مرعي: معجم الالهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم(2018) رقم 118/ ص208.

[2]- عبد الله فيصل، المدخل إلى تاريخ الحضارة، لا ط، دمشق، جامعة دمشق، 2008/2007، ص245.

وهكذا يتجلى في هذه الأسطورة الرافدية العديد من العناصر والأفكار التي وجدت سبيلها إلى ملحمة أنساب الآلهة الهسيودية.

كما أنّ أسطورة إخصاء كرونوس لأبيه أورانوس لها ما يماثلها في أنشودة كوماربي[1] في أسطورة الملكية في السماء الحورية الحثية؛ حيث يقوم كوماربي بإخصاء أنو (Anu) آله السماء والاستحواذ على عرشه. والإله كوماربي (kumarbi) هو كبير آلهة الحوريين وإله الحبوب والري الحوري الحثي. تقول أنشودة كومباربي العائدة إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد إنّ إله السماء آنو Anu -وهو في الحقيقة إله السماء في بلاد الرافدين- عزل ألالو بعد أن خدمه تسع سنوات عن ملكيّة السماء كما قام كومباربي بدوره بعد خدمة تسع سنوات لدى آنو بعزله أيضاً وذلك بأن قضم أعضاءه التناسلية، وأصبح نتيجة لذلك حاملاً منه بالآلهة تيشوب (Tessub) وارانزخ (Aranzaheh) وتشميثو (Tasmisu)، وعندما بصق كومباربي نطاف آنو على الجبل كنزورا ولد على هذا الجبل إلهة النهر أرانزخ (نهر دجلة). أما تيشوب فانبثق من رأس كوماربي وعندها طلب كوماربي أن يفترس ابنه تيشوب فأعطى حجراً بدلاً منه. مما أدّى إلى كسر أسنانه. وبعد معارك عديدة شارك فيها كبار الآلهة انتصر تيشوب أخيراً على أبيه كومباربي ونفاه مع أنصاره إلى العالم السفلي، وتربّع على عرش الآلهة[2]. وهكذا فالتّشابه بين كرونوس وكوماربي واضح لا لبس فيه، ويدلّ على أنّ هسيود قد اقتبس هذه الأسطورة وأدخلها في ملحمة أنساب الآلهة، وكذلك التشابه بين الإلهين تيشوب وزيوس بوصفهما أحدث أجيال الآلهة، مثلما أيضاً التشابه بين إله السماء البابلي آنو والإله أورانوس.

وإذا نظرنا إلى الميثولوجيا الأوجاريتية فإنّنا نجد أيضًا تتابع أجيال الآلهة، ونرى أنّ الإله إيل خسر عرشه بعد أن تقدّم به العمر وفقد قوّته الإخصابيّة وتقاسم السيادة على الكون ثلاثة آلهة، هم: الإله بعل الذي سيطر على السماء والأرض، والإله موت الذي ساد على العالم السفلي وعالم الأموات، أما الإله يم فأصبح سيد عالم البحار. وهذا التقسيم يشبه تماماً اقتسام السيادة على العالم بعد الانتصار على كرونوس بين زيوس وإخوته؛ حيث تسلّم زيوس حكم السماء، وهادس العالم السفلي، وبوسيدون عالم البحار.

[1]- كان مركز عبادته الأساسي في مدينة أوركيشUrkesh (تل موزان الأثري في الشمال الشرقي من سورية. انظر: مرعي، عيد: معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، (دمشق 2018)، رقم 242 كوماربي ص 376.

[2]- انظر: عبدالله، فيصل، المدخل إلى تاريخ الحضارة، م.س، ص242ت.

2. الأعمال والأيام

أما عن ديوان هسيود الثاني، الذي يحمل عنوان (Erga Kai Hemerai)، فهو قصيدة تتألف من (828) بيتاً شعرياً من البحر السداسي، كان الدافع لنظمها نزاع قام بينه وبين أخيه برسيس (Perses) على إرث أبيهما. يستهل هسيود ملحمته -مثلما فعل في أنساب الآلهة- بمناجاة ربات الفنون «يا ربات الشعر في بيريا، أنتن وأغانيكن ستبقى خالدة! هلمي ومجدي أباك زيوس العظيم الذي أنجبتكن وانحدر منه كل البشر المغمورين والمشهورين....».

ثم يصف نفسه كوريث لمزرعة آلت إليه وإلى أخيه من أبيهما؛ ولكن يبدو أنّ برسيس بدّد ثروته وماله على حصة أخيه الذي لجأ إلى القضاء، ولكن القضاة الفاسدين حكموا ظلماً للأخ المعتدي؛ لأنّه رشاهم. وهنا أحسّ هسيود بالظلم وصبّ جام غضبه على أولئك القضاة المرتشين، الذين يقبضون ثمن أحكامهم الظالمة على حساب الحق والعدل. أما عن أخيه فتوجّه إليه بالنّصح والإرشاد: بأن الوصول إلى الثراء لا يكون إلا بالعمل وتوخي العدالة، أما من يسلك طريق الظلم بلا حدود أملاً بالربح السريع فإنّه سيفقد كلّ شيء.

ويظهر هسيود معارفه الواسعة بالأعمال الزراعيّة المختلفة والفصول والأيام المناسبة لها، فهو يحدّد أوقات البذار في شهر كانون أوّل، وأوقات الحصاد في شهر أيار، وينصح الفلاحين أن يبذروا أراضيهم ويحصدوها وهم عراة؛ لكي تأتي الآلهة ديميتر لتبارك الزرع في حقولهم مع نصائح عملية مفيدة تعبر عن معاناة وهموم العمل الزراعي الشاق، وصعوبات الحياة اليومية البائسة المليئة بالتعب وخيبات الأمل. فقط اعتقاد الفلاحين الذي لا يتزعزع بالعدالة الإلهية كان يعين الناس على تحمل مصاعب الحياة الأرضية.

«إن العدالة العذراء هي ابنة زيوس (كبير الآلهة) الذي تمجده وتحترمه الآلهة جميعاً.... وإن زيوس لن يشن الحرب القاسية على من يسير في طريق العدالة، ولكن أولئك الذين يمارسون الظلم ويتجبرون فلن يفلتوا من عقابه... وسيصيبهم الجوع والوباء، ويهلك رجالهم وتعقم نساؤهم، وتتقلص أعداد بيوتهم، وسيحطم زيوس جيشهم الكبير، وجدران مدينتهم وسفنهم في البحر» الأبيات (238-247)[1].

[1]- نقلاً عن خليل سارة: تاريخ الإغريق (جامعة دمشق 2006/2007) ص128.

لقد كان هسيود أوّل شخصية إغريقية ظهرت في صفوف صغار المزارعين رفعت صوتها عالياً بالشكوى من بؤس الحياة وظلم الأقوياء، يحدوها الأمل بالعدالة الإلهية. لقد عاش في زمن اشتدت فيه الأزمة الزراعية والاجتماعية التي دفعت الناس للهجرة، وتأسيس المستعمرات في شتى بلدان البحر المتوسط.

كما تتطرّق هذه الملحمة لمواضيع أخرى أهمّها قصّة بروميثوس وباندورا والعصور التي مرّ بها تاريخ الإنسان. يصف هسيود أوّلاً (الأبيات 60 - 105) أسطورة بروميثوس (Prometheus) وصندوق باندورا (Pandora)[1] التي كانت أوّل امرأة في الكون أوجدها الإله هفايستوس بناء على أوامر رئيس الآلهة زيوس (Zeus)، ومنحتها الآلهة كل سمات الجمال والإغراء. ورغم تحذيرات بروميثوس بألّا يتقبّل أيّة هدية من زيوس، فإنّ أخاه إبيمثوس لم يستطع مقاومة الإغراء وتزوّج باندورا التي دفعها الفضول لفتح الصندوق الذي أرسله زيوس، فانطلقت منه الشرور والأمراض لتملأ الأرض والبحار، ولم يبقَ فيه سوى شيء واحد هو الأمل (Elpis). وينهي هسيود القصة بحكمة تعبّر عن تقواه (البيت 105):

«وهكذا لا يمكن الهرب من تدبير زيوس» الذي أراد معاقبة بروميثوس؛ لأنّه سرق النار من جبل الأولمب وأهداه لبني البشر، كما عاقب الرجال بأن خلق لهم باندورا وجنس النساء مصدراً للشرور والآثام. وبذلك يرسم هسيود معالم نهاية العصر الذهبي، وهو يتحدث في الحقيقة عن الجنس الذهبي (Chroseon Genos) للإنسانية الذي وضعه على رأس خمسة أجناس أسطورية للبشر (الأبيات 109- 126)، الذين عاشوا في الزمن الأول عندما كان يحكمهم الاله كرونوس (أبو زيوس)، حيث ساد السلام والوئام والربيع الدائم:

«لم يكن الناس يحتاجون للعمل الشاق لتأمين غذائهم؛ لأن الأرض كانت تعطيه بوفرة، وكانوا يعيشون عمراً مديداً كله شباب لم يعرفوا الشيخوخة وكان الموت نوماً هادئاً.

لقد عاش الرجال كالآلهة بلا حزن في القلوب بعيدين وأحراراً من كل كدح وأسى، لم يلق عمر التعاسة بظلاله عليهم....».

[1]- يرى بعض الباحثين أن أسطورة باندورا عند هسيود تقدم الدليل على التحول من نظام الأمومة Matriarchy إلى نظام الأبوة Patriarchy في الحضارة الإغريقية وهكذا اختفت باندورا الالهة التي تجلب الحياة لتحل محلها باندورا التي تجلب الشرور للبشر. ويؤكد روبرت غرافس أن باندورا هسيود ليست أسطورة أصلية وإنما هي قصة معادية للمرأة وعلى الأرجح من ابتكاره.
Pandora is not a genuine Myth, but as anti – feminist Fable, Probaly of his own invention
R.Graves, The Greek Myths (1955) p.148.

ولكن هذه الصورة الوردية المثالية للجنس الذهبي تحت حكم كرونوس، بوصفه الحاكم المثالي، تتناقض تمامًا مع صورة ذلك الابن العاق في أنساب الآلهة الذي سلب والده أورانوس رجولته وعرشه ليتربّع عليه.

ثم أعقب ذلك الجيل الفضي؛ حيث بدأ حكم زيوس، فكان الناس أقل سعادة من سابقه؛ ولكن ساد فيه الترف، وتلاه الجيل البرونزي؛ حيث بدأ الخصام والنزاع بين الناس الذي مهّد لجيل البطولة مثل أخيل وأوديسوس؛ وهو عصر الحرب الطروداية. وأخيراً جاء الجيل الحديدي، وهو شر الناس كلهم، إنّه الحاضر الذي عاش فيه هسيود؛ حيث اختفت التقوى والورع بين الناس ودمرت العدالة وابتلي الإنسان بالآلام والهموم والشرور، وساد الجشع والطمع وانهارت القيم والأخلاق. لقد ساءت طبيعة الإنسان كما انحدرت ظروف الحياة بصورة شديدة، ولا ينتظر من المستقبل سوى الأسوأ. ويقول هسيود متحسّرًا «ألا ليتني لم أولد في هذال العهد بل ولدت قبله أو بعده».

ثالثًا: تحليلات وخلاصات

كان الاعتقاد السائد بين الباحثين حتى أواخر القرن التاسع عشر، أن تعاليم هسيود وأفكاره عن أجناس النّاس وعصور العالم تعكس أوضاعًا واقعيّةً في تاريخ الإغريق الباكر. ولكن في القرن العشرين ظهرت معطيات جديدة مع نشأة الدّراسات الدينية والميثولوجية المقارنة، التي كشفت عن الأصل الشرقي لهذه الرواية، وبدأت تسود القناعة بأن مفهوم أسطورة «الأجيال المعدنية» ذات أصل شرقي مغرق في القدم.

1. الأصول الشرقية بين الاختلاف والاقتباس

فالروايات الشرقية المتأخرة، مثلها مثل الإغريقية، تربط موضوع العصور التاريخية بالمعادن وانحدارها؛ ولكنّها لا تتعلق بماضٍ أسطوري متخيّل تماماً كما هو الحال عند هسيود، وإنّما بأوضاع تاريخيّة معروفة زمنيًا منذ القرن السادس ق.م.

ففي سفر دانيال[1] يجري الحديث في بابل عن حلم رأه الملك نبوخذ نصر (609- 567 ق.م)

[1]- هو أحد أسفار العهد القديم ومع ان زمن تأليفه يعود الى القرن الثاني قبل الميلاد الا انه يتحدث عن أوضاع تاريخية من القرن السادس والسابع ق.م (دانيال -2,31 40).

يصف تمثالاً ضخماً مصنوعاً من معادن مختلفة؛ حيث تتضاءل قيمة المعدن من الأعلى إلى الأسفل فالرأس من ذهب والصدر والذراعان من فضة والبطن من نحاس والقدمان من حديد وصلصال. هذه المعادن ترمز لأربع ممالك متتالية كانت أولاها وأهمها الذهبية أي مملكة نبوخذ نصر البابلية الحديثة، والفضية تمثل المملكة الميدية، والبرونزية الفارسية الأخمينية، والحديدية مملكة الاسكندر والممالك الهلنستية. إنّ رؤية هسيود تظهر بعض التحوير عن الأسطورة البابلية الأم خاصة فيما يتعلق بنظام العصور المعدنية الأربعة الأساسي، فهو يجعله خمسة عصور بإضافة عصر الأبطال والذي يأتي زمنياً قبل الأخير ويظهر كجسم غريب في النظام، كما أن تدمير الأجيال وإعادة خلقها في كل مرة من قبل الآلهة يمثل تجديداً جاء به هسيود، مثلماً أيضاً لربطه بين أسطورة المعادن مع التصورات السائدة في بلاد اليونان عن عصر كرونوس وعصور الإله زيوس.

لقد انتقلت تصورات هسيود عن العصر الذهبي إلى الرومان[1]؛ حيث اقترنت بسيادة الإله ساتورن (Saturnus) بدلاً من كرونوس، وانتشرت مع الشاعر أوفيد (Ovidius) على نطاق واسع الذي مجد العصر الذهبي (aurea aetas) في مطلع ديوانه المسمّى التحوّلات (150-Metamorphoses I,89) ولكنّه اختصر العصور الخمسة إلى أربعة وأطلق عليها تسمية العصور بدلاً من الأجناس، وهي الذهبية والفضية والبرونزية والحديدية. وعن طريق أوفيد وجدت أسطورة العصر الذهبي سبيلها إلى الأداب الأوربية فيما ما بعد.

إنّ تصوّرات العصور الإنسانيّة ما هي في الحقيقة إلا تعبير ميثولوجي عن التشاؤم الثقافي في فلسفة التاريخ، والتي تفهم التطوّر التاريخي على أنّه في المقام الأوّل انحدار للثقافة والحضارة بحكم الطبيعة، وهو بالتالي يمثّل النقيض من فكرة التقدم والتطوّر.

كما يشير هسيود في حديثه عن أجيال البشر إلى أسطورة الطوفان الإغريقي، التي جاءت عقابًا من كبير الآلهة أنزله بالجيل البرونزي الذي استبدله بجيل الأبطال. وتقول الأسطورة

---

[1]- تجدر الإشارة إلى أن مفهوم العصر الذهبي Aurea saecula قد استغل في الدعاية السياسية الرومانية حيث مجد الشعراء عهد الامبراطور أوغسطس (31 ق.م-14 م) الذي أعاد السلام والأمان إلى ربوع الإمبراطورية بعد ويلات الحروب الأهلية على أنه يعني العودة للعصر الذهبي.

إنّ زيوس غضب من شرور الجيل البرونزي فقرّر إغراقهم بطوفان كبير[1]. وعندما عرف بروميثوس بالأمر حذّر ابنه ديوكاليون (Deukalion) وأمره أن يصنع سفينة (صندوقاً).

وعندما بدأت الأمطار تنهمر بغزارة شديدة صعد هو وزوجته بورا (Pyrrha) إلى السفينة، وغمر الطوفان بلاد اليونان. وبعد تسعة أيام وتسع ليال انحسرت مياه الطوفان ورست السفينة على جبل برناس (Pernassos)، وكان وزوجته الناجين الوحيدين ويسأل ديوكاليون عرافة ثيميس كيف يمكن إعمار الأرض، فقيل له: «عليه أن يرمي عظام أمه وراء ظهره» فعرف أنّ المقصود بأمه هي إلهة الأرض جايا وبالعظام الحجارة، وهكذا تحوّلت أحجار ديوكاليون إلى رجال وأحجار بورا إلى نساء ونشأت الإنسانية من جديد.

وهذا يذكرنا بالطوفان الوارد الرافدية وبطلها أوتنابيشيتم البابلي[2] (وزيوسودرا السومري) والعامل المشترك بينهما هو غضب الآلهة من سلوك بني البشر ورذائلهم واختيارها بطلاً صالحاً ليقوم بإنقاذ الجنس البشري، ولكن بينما ينقذ هذا البطل معه أزواجا من الكائنات الحية التي تضمن استمرار الحياة الإنسانية. فإنّ الأسطورة الإغريقيّة تلجأ إلى الخيال الذي يجعل من الحجارة رجالاً ونساء يشكلون الجنس البشري.

وثمة اختلافات أخرى بين الأسطورة الإغريقية وأساطير الشرق القديم والكتب المقدسة تجعل من الصعب الاعتقاد بوجود اقتباس أو تأثير مباشر، وإذا ما وجد مثل هذا التأثير فإنّ أسطورة الطوفان الإغريقية خضعت لتحوير كبير أبعدها عن الأصل الرافدي.

إنّ هذا التشابه في الأفكار والتصوّرات والأحداث بين التراث الميثولوجي الإغريقي المتمثّل في ملاحم هسيود والتراث الميثولوجي الشرقي المتمثّل في أسطورة الخلق البابلية وأساطير الطوفان والعصور التاريخية والملكية في السماء الحورية الحثية وغيرها، لا يمكن أن يكون وليد الصدفة، بل هو أعمق وأكثر من أن يقتصر على مثل هذا التعليل أو التفسير المتحيّز الذي يصب في المحصلة في أسطورة الأعجوبة الإغريقية. فالتأثير والاقتباس من

[1]- وردت قصة الطوفان كاملة لدى الشاعر الروماني أوفيد في الكتاب الأول من ديوانه التحولات (Metamorphoses) وكذلك لدى أبولودوروس المنحول في كتابه (المكتبة Library) وتجدر الإشارة إلى أن لوقيان السمياطي يتحدث في بحثه عن الالهة السورية (Dea Syria) عن ديوكاليون الإغريقي حيث يسميه سيسيثوس الذي يأخذ أولاده ونساءه وأزواجاً من الحيوانات في سفينته وبالتالي فان روايته أقرب إلى أساطير الطوفان الرافدية.

[2]- وردت أسطورة الطوفان البابلي في ملحمة أترخاسيسAtharchasis البابلية وفي ملحمة جلجامش الشهيرة.

حضارات الشرق القديم العريقة حقيقية لا يمكن نكرانها، ويعتمد على وثائق ثابتة يأتي على رأسها اقتباس الأبجدية الكنعانية الفينيقية، التي شكّلت الرافعة الأساس للنهوض الحضاري الإغريقي.

2. طرق انتقال الأصول الشرقية

ولكن تبقى كيفية وطرق انتقال هذه الأفكار الأسطورية إلى الإغريق من الأمور الإشكالية التي تحتاج إلى توضيح. وهنا ينبغي التذكير ببعض الحقائق التاريخية المرتبطة بالنهضة الفكرية الإغريقية، التي بدأت إرهاصاتها في القرن الثامن ق.م، وما رافقها من تطورات كبيرة في مختلف مجالات الحياة، وفي مقدمتها ظهور دولة المدنية، وبدء انتشار الأبجدية والكتابية الإغريقية، وانطلاق موجة الهجرة الكبرى، وتأسيس المستعمرات والمستوطنات، وازدياد العلاقات والصلات بين العالم الإغريقي وشعوب الشرق القديم. ومع هذا الانتشار الإغريقي نشأت بعض المحطات التجارية على الساحل السوري، مثل: بوسيدون عند رأس البسيط، والمينة قرب مصب نهر العاصي، وكذلك نقراطيس في دلتا النيل بمصر. وبالمقابل كان هناك علاقات مع أتيكا وأوبويا ومحطات تجارية فينيقية في عدد من جزر بحر أيجه وخاصة في قبرص. أما من الناحية السياسية، فقد ظهرت في تلك الفترة الإمبراطورية الآشورية التي سادت المنطقة وبسطت سيطرتها على كيليكيا وعاصمتها طرسوس وعلى جزيرة قبرص والسواحل الشرقية للبحر المتوسط، وأصبحت على اتصال مباشر بالإغريق الايونين، الذين تسميهم المصادر الآشورية يمان أي يونان. كان الآشوريون حملة التراث الرافدي العريق الذي كان قد أصبح تراث المنطقة، وقد صانوه وحفظوه في مكتبة آشور بانيبال الشهيرة، وقد أتاح كلّ هذا إمكانيّة التواصل وانتقال الأفكار في عموم المنطقة. إنّ كلّ هذه المدن والأماكن شكّلت قنوات اتّصال مهمّة للعلاقات التجارية والثقافية وانتشار الأفكار بين الإغريق والشعوب المجاورة. هذا بالإضافة إلى التجار والرحالة والبحارة الفينيقيين الذين كانوا يرتادون الموانئ الإغريقية وينقلون أيضاً كثيراً من المؤثرات الثقافية والقصص والروايات الميثولوجية إلى بلاد الإغريق.

وهكذا انتقل التراث الثقافي والديني والأسطوري عن طريق الروايات الشفهية (Oral Tradition) من الشرق إلى بلاد اليونان، وشكلت الميثولوجيا الرافدية والأوجاريتيه والحورية الحثية المنهل الذي استقى منه هسيود مادة ملاحمه وصاغها بأشعاره.

كما يتضمّن ديوان الأعمال والأيام حكاية رمزيّة خرافيّة عن الصقر والعندليب صور فيها هسيود أصدق تصوير القضاء الطبقي في زمنه المتحيز للنبلاء، الذين سيطروا على كلّ مجالات الحياة في بلاد اليونان. إنّ بؤس صغار الفلاحين في بويوتيا الذين لا ينالون حقوقهم ينعكس في صورة الملوك الذين «يفترسون الهدايا»[1] وهذه الخرافة لها جذور شرقيّة أيضاً.

وثمة شواهد في هذا الديوان تعبرّ عن رأي هسيود في المرأة، وهو في الحقيقة رأي متشكّك متذبذب فمرّة يقرن الزوجة بالبيت والمحراث والثور عندما يعدّد الأشياء التي ينصح الفلاح في بويوتيا باقتنائها، ومرة أخرى يتحامل على المرأة فيصفها بأنّها «هدية من زيوس إلى البشر في ساعة من ساعات غضبه» وهسيود هو كذلك صاحب أسطورة باندورا (Pandora) الشهيرة التي تجعل من المرأة أصل كلّ الشرور على هذه الأرض، كما ورد في أنساب الآلهة. ونجده يقول في موضع آخر بأنّه «ليس هناك ما هو شرّ له من الزوجة الخبيثة[2]. وينصح أخاه ألاّ يأخذ امرأة لنفسه لأنّها فقط تطمع بحظيرته ويحذّره من النساء لأنّهن خادعات وعليه ألاّ يفكر بالزواج إلا عندما يكون جاهزاً وهو في عمر الثلاثين[3] وأن يتأكّد أن المرأة غير متزوجة من قبل وتستطيع المساعدة في الحقل والبيت كما ينصحه بالاكتفاء بولد واحد فقط (البيت 376). وهكذا فإنّ صورة المرأة عند هومير التي تعكس صورة مجتمع ارستقراطي بطولي لا يخلو من المثالية.

ومن الأعمال التي تغلب نسبتها لهسيود قصيدة إغريقية قديمة تدعى «ترس هرقل» (Herakleous Apsis) في 56 بيتاً شعرياً تتحدث عن إحدى مغامرات هرقل ضدّ كيكنوس (Kyknos) ابن آريس(Ares) إله الحرب عند الإغريق وهذه القصيدة تشبه الوصف الشهير لترس البطل أخيل.

---

[1]- يقصد هسيود بالملوك الذين يفترسون الهدايا القضاة أو الحكام الذين نظروا في قضيته انظر: H.Bengtson Griechische Geschichte s.106.

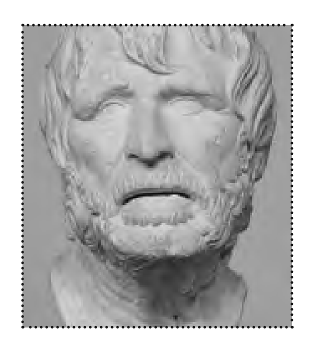
[2]- انظر: عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني. العصر الهلادي، لا ط، بيروت، دار النهضة العربية، 1971، ص57.

[3]- بالنسبة لتأخير سن الزواج عند الإغريق فان هسيود سبق في ذلك المشرع الأثيني صولون وكلاً من الفيلسوفين أفلاطون وأرسطو في الدعوة إلى عدم الزواج قبل الثلاثين على الأقل ويكمن خلف هذه النصائح والدعوات الاقلال من الانجاب ما أمكن وكيلاً تتبعثر الملكية الزراعية الصغيرة بحد ذاتها خاصة وان بلاد اليونان كانت تعاني من زيادة السكان التي نجم عنها موجة الهجرة الكبرى (منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن السادس ق.م) انظر:
H. Bengtson, Griealissh Geschi chve s 89.

خاتمة

لم يكن هسيود أحد كبار الشعراء عند الإغريق والمصدر الرئيس لمعرفتنا بالأساطير والميثولوجيا الإغريقية وبالحياة اليومية والواقعية في عصره فحسب، وإنّما كان أيضاً مؤسّس الملحمة التعليمية ومبدع الشعر التعليمي. لقد مجّد العمل بوصفه أعظم واجب للإنسان، وحثّ على أخلاق العمل والقيم الإنسانيّة وثار على الظلم والاستغلال ودعا إلى العدالة والاعتدال. وقد بلغت مكانته عند بني قومه مرتبة القداسة التي حظي بها الأبطال و«أنصاف الآلهة».

إنّ أهميّة هومير وهسيود لدى الإغريق لا تنبع من الحقائق التاريخية المعروفة عنهما، وإنّما من حقيقة تأثير أشعارهما على الأجيال والعصور اللاحقة التي شكلت منظومة القيم العامة لكلّ الإغريق على الرغم من الاختلافات العميقة والصراعات بين دولهم ومدنهم. وقد ترسّخ تراثهما الشعري في الحياة الثقافيّة والروحيّة الهيلينية. وكانت أهم وسيلةً لنقل الأشعار الهوميرية والهسيودية في العصور الباكرة قبل انتشار الكتابة، هي الإلقاء الشعري في الأعياد والمناسبات الهيلينية القومية من قبل المنشدين (رابسود Rhapsodes). وهكذا فإنّ انتشار أشعارهما لم يكن مرتبطاً بالقراءة والكتابة، وإنّما يعتمد على إلقاء أولئك المنشدين. لقد كان تعميد هسيود على يد ربات الشعر، التي منحته الصولجان ليكون صوتها في تمجيد الآلهة، ولذلك أراد من أشعاره أن يسمعها كلّ الهيلينين (Panhellenes) فكانت كذلك وتردّد صداها في الآداب الكلاسيكية والأوربية. أقيمت له التماثيل بعد موته على جبل هليكون المقدس وفي أولمبيا، وقد وصلتنا صورة وحيدة له من العصور القديمة على لوحة فسيفسائية من القرن الثالث الميلادي محفوظة اليوم في متحف مدينة ترير(Trier) الألمانية.



صورة كان يُعتقد أنها لسنيكا، لكنّه الآن يُعتبر شكلاً تخيّلياً لهسيود.

المصادر والمراجع

نشرت أعمال هسيود ومؤلفاته في الكثير من الطبعات المحققة مع ترجماتها باللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية ومنها:

- G.W. Most: Hesiod: The Theogony, Works and Days, Testimonia in Loeb Clasical Library, Cambridge 2006.

النص الإغريقي مع الترجمة الإنكليزية.

- Lexikon der Antike, VEB Leipzig. Wiesbaden 1997.

- The Oxford Classical Dictionary 2nd Edition 1970.

- H.Bengtson, Griechische Geschichte, HAW Munden 1965.

- W.Lambert, Enuma Elis, The Balylonian Epic of Creation.

1- خليل سارة: تاريخ الإغريق (جامعة دمشق 2006).

2- عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ اليوناني (العصر الهللادي) دار النهضة العربية بيروت 1971.

3- عيد مرعي: معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم (دمشق 2018).

4- فيصل عبد الله: المدخل إلى تاريخ الحضارة (جامعة دمشق 2007).

5- ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء السادس (القاهرة 1966).

ملحمة الإلياذة
تحليل ونقد

وليد السراقبي[1]

مقدمة

برزت في مطلع الألفيّة الثانية قبل الميلاد وفي شبه جزيرة البلقان قبائل يونانيّة تُدعى «القبائل الآخيَّة»، فتشكّلت منها دولاً لا تعدو أن تكون حصونًا صغيرةً تتبع لها بعض الأراضي، ونظام الحكم فيها نظام عبوديّ في قمّة هرمه حاكم يحيط به المقرَّبون، أمّا غيرهم من تجّار وحرفيين فمكانهم عند أسفل السّور الذي يلفّ الحصن.

ولم تكن بين هذه الدويلات القبليّة علاقات سلام ووئام، وتنعُّم بالهدوء والاستقرار، بل كثيراً ما كان أُوار الصّراع يشتدّ فيما بين حكّامها سعيًا إلى أن تكونَ لكلّ منهم المكانة العليا واليد الطولى.

المطامع الآخيّة

ومنذ بدء القرن الخامس عشر قبل الميلاد اشرأبّت أعناق الآخيين وتطلَّعت أنظارهم إلى ما وراء أسوار دولهم، فكانت جزيرة «كريت» على الشاطئ المقابل لدولتهم هي محطّ أنظارهم، فكان أن تحقّق وجودهم فيها في القرن الثالث عشر. وكذلك امتدّت أنظارهم أبعد من ذلك، فظهروا في مصر في القرن نفسه؛ فكانوا في «مصر» قراصنة غير ناجحين، وكانوا في «كريت» فاتحين عابرين[2].

الآخيون وجزيرة كريت

كانت «كريت» قبل أن يحطّ الآخيون رحالهم فيها دويلات يسود فيها النّظام الطبقي،

---

[1]- أستاذ اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة حماة-سوريا.

[2]- ديورانت، ول: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، كتبت المقدمة 1953 م، لا ط، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1988، ج6، ص104.

وعُرِف عن أهلها براعتهم في ميادين البناء، والتجارة، والإبحار، وغير ذلك، فكان لهذا أن ترك بصماته في الحضارة الآخية، فصارت قِسْمةً بين اليونانيين والكريتين، ولذا سمِّيت هذه المرحلة بـ «الكريتية ـ الميكينية»[1].

طروادة: الموقع والأهميّة

ثم رأوا أن يوجّهوا أنظارهم ومطامحهم إلى مدينة «طروادة» التي تقع إلى الشمال الغربي من آسيا الصغرى، وتمتاز بموقع جغرافيّ يجعلها محطّ الأنظار التوسُّعيّة، وذات أراضٍ شديدة الخِصب، فجهّزوا (100) ألف جندي محارب، وأسطولاً حربيًّا ضخمًا مؤلّفًا من (1000) سفينة، وقصدوها بسهولها وتلالها[2] وحاصروها سنة 1194 ق.م.

فـ «طروادة» مدينة حقيقيّة وليست من صنع خيال «هوميروس»، فإجماع المؤرِّخين والآثاريين معقود على وجودها ومحاصرتها، فقد كشف علماء الآثار بقايا المدينة المخرَّبة، وعثر على نقش مصري عائد إلى عهد «رمسيس الثالث» وفيه إشارة إلى اضطراب وقع في جزر اليونان قريبًا من سنة 1196 ق.م، وكان سقوط المدينة زمن رمسيس الثالث. ففي سنة 1870 م اكتشف الآثاري هنريخ شليمان آثار «طروادة»، وعثر على «ميكينا» ذات الثروة الذهبيّة الفنيّة، وهي مدينة «آجممنون» زعيم المحاربين اليونان عند أسوار «طروادة».

وفي سنة 1900 نقّب «أرتور إيفانس» في جزيرة «كريت» ووقف على اكتشافات مذهلة. وفي سنة 1939 م عثر الأميركي «بليدجن» واليوناني «كورونيوتيس» على عاصمة «نسطور» صاحب الصوت الرخيم والحكمة الجياشة، واسمها «بيلوس»[3].

غروب شمس الآخيين

وبعد أفول نجم «الآخيين» ظهرت قبائل يونانيّة توازي الآخيين في تخلُّفهم، فبسطت نفوذها على تلك البلاد التي كان الآخيون لحمتها وسَداها، وأتوا على حضارتها وتركوها أثرًا

[1]- فؤاد مرعي، مرشحة، محمد: الأدب والنقد في الغرب، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حلب، 2000 م، ص24.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ج6، ص104.

[3]- م.ن، ج6، ص106.

بعد عين، وكانت حربُ «طروادة» أشدّها ضراوةً، وأكثرها علوقًا بذاكرة اليونانيين.

امتدّت هذه الحرب عشر سنوات، فكانت بمآسيها وانتصاراتها موضوعًا جوهريًّا لأولى الملاحم في التاريخ الأدبي، هي ملحمة «هوميروس» المسمَّاة «الإلياذة»، وهي تسرد حوادث الشهرين الأخيرين من آخر أعوامها، بل لا تغطي أكثر من خمسين يومًا منه، فكانت هذه الحرب نقطة تحوّل في التاريخ والأدب معًا.

أوّلًا: الملاحم: التاريخ والمفهوم

لكلّ شعبٍ من الشّعوب التي ظهرت على مسرح التاريخ ملاحم بطوليّة تروي سيرة أبطالها حتى تصير أشبه بالحدث الأسطوري، فكان للفرس ملحمتهم «الشاهنامة» وللهند ملحمة «المهابهارتا»، ولليونان ملحمتان هما: «الإلياذة» و«الأوديسة»، و«الإنيادة» للرومان، وللشعوب السامية ملحمتهم الأولى ومعلّقتهم الأقدم «جلجامش».

1. الملحمة لغة واصطلاحًا:

يحسن بنا أن نستشير معجمًا لغويًّا لتحديد المعنى اللّغوي لـ«الملحمة»، ثم ندلف من بعد إلى معناها المصطلحي.

أ. الملحمة لغة

الملحمة «Epic» لغةً مأخوذة من الأصل الثلاثي (ل ح م) الدّال على التّداخل، قال ابن فارس: «اللام والحاء والميم أصلٌ صحيح يدلُّ على تداخلٍ، كاللحم الذي هو متداخلٌ بعضُه في بعض، من ذلك اللحم. وسميت الحربُ ملحمةً لمعنيين: أحدهما تلاحم الناس: تداخلهم بعضهم في بعض. والآخر: أن القتلى كاللَّحم الملقى»[1].

ب. الملحمة اصطلاحًا

ولعلّ دلالة التّداخل هذه هي ما يربط بين المعنى اللّغوي للملحمة والمعنى الاصطلاحي

[1]- أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (ت 395 هـ)، حققه: عبد السلام هارون، طبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1423هـ/ 2002 م، ج5، ص238، جذر (لحم).

لمصطلح «ملحمة»؛ إذ يراد بها القصيدة القصصيّة الطويلة التي تحكي مآثر الأبطال والمقاتلين الأسطوريين، دامجة البطولي بالأسطوري، والواقعي بالخرافي، والخيالي بالتاريخي، وهي في الغالب مطامح أمّة من الأمم بأسلوب راقٍ[1].

وربّما أشير بمصطلح «الملحمة» إلى كلّ عمل بطوليّ يتجاوز قدرات البشر، ويمزج بين الرّوعة والجلال، ما يفضي النّظر إلى أنّ الملاحم كانت، ومن زمن مغرق في القدم، أعمالاً رائعة «تداعب مخيّلة الشّعوب المختلفة، وتعبر عن آمالها بصرف النّظر عن مستواها الثّقافي، فطابع (البطولي) هو العنصرُ الأساسيُّ المميّز للملاحم أو لمعظمها على الأقل، والعامل المشترك والمستمرّ في أغلبها على الرغم من فوارق الزّمان والمكان»[2]، وهذا الطابع البطولي يُفصح عن اعتناء الإنسان بقضايا غير رفاهه المادي المجرَّد، وعن استعداده للتضحية بحياته كلّها من أجل ذلك. وهذه القضايا تتراوح بين مجد شخصي، وبين توفير الأمن والسلام الرّوحي للجماعة التي يعيش بين ظهرانيها، بغضّ النّظر عن أنّه ينتمي إلى جماعة هي القبيلة، أو الأمّة، أو البشريّة جمعاء[3].

2. اتّساع المدلول

وقد اتّسع مدلول هذا المصطلح[4] في المصادر الأدبيّة الحديثة ليطلق على بعض الأعمال الروائيّة مثل رواية «الحرب والسلم» لـ«تولستوي»، وبعض الأعمال السينمائيّة مثل فيلم «إيفان الرهيب»، وهذا ما جعل المصطلح غير مقصور استخدامه على الأعمال الشعريّة القصصيّة التي عرفتها العصور الأدبية الكلاسيكية، بل اتّسع مدلوله ليعمّ الشّعر الملحمي الحديث، والمسرح الملحمي أيضًا.

وحدَّد (pualmerchant) في كتيِّب له يحمل عنوان «The Epic» المصطلح بطريقتين متباعدتين، تعتمد أولاهما على تضييق مدلولها واستعمالها في الإشارة إلى القصائد الشعريّة الطويلة المنظومة على الوزن الخاص بها، وهو الوزن السّداسي أو ما يماثل هذا الوزن، ويكون قطب رحاها بطلاً من الأبطال، مثل «أخيل» في الإلياذة، أو حضارة ما كالحضارة البابلية،

[1]- CADDON .J. A: Adictionary of literary term, penguin Book, revised Edition, 1977 – 1979 k p 225.

[2]- “PIC” in cassell, s Encyclopaedia of literatey. vol. 1. Co. London 1953. p. 193.

[3]- أحمد أبو زيد، الملاحم كتاريخ وثقافة، عالم الفكر، مج16، ع1، 1985 م، ص4.

[4]- م.ن، ص4.

ويُسمَّى هذا النّوع اسم الملاحم البدائيّة أو الأوّليّة أو ملاحم المستوى الأوَّل (Primary)، وذلك انطلاقًا من اعتمادها على الرّواية الشّفويّة وعلى بدائيّتها، ويتمثّل هذا النّوع في ملاحم (جلجامش) و(الإلياذة) و(الأوديسة) و(بيولف) وما شابهها. وإما أن يطلق هذا المصطلح إطلاقًا أكثر سعة وشموليّة فيعمّ المدوّنات الملحميّة، وقد سمَّاها «ميرشانت» ملاحم المستوى الثاني (Secondary) أو الملاحم الأدبية، ويمثلها «الإنيادة» لفرجيل، و«فرساليا» لـ«لوكان»، و«الفردوس المفقود» لـ«ميلتون»، وقصة «القرون» لـ«فيكتور هيجو[1]».

3. خصائص الملحمة

ولا بدّ في الملحمة من توفّر جملة من السّمات المميزة، منها:

أ. تشعّب الموضوعات وتعدّدها، وامتزاج الحقيقي بالأسطوري، والحكائي بالخرافي، وكلّها تصبُّ في مجرى البطولة مقرونة بالتهويل والمبالغة، مع طبعها بميسم ديني من جهة، والإشارة إلى بعض من البعد المجتمعي والفلسفي، والأخلاقي.

ب. امتزاج القوى الإنسانية بالقوى الإلهية، ولا سيّما أنّ البطل ربمّا يكون حصيلة تمازج البشري بما فوق البشري، وهذا يعني دخول عنصر خارق للعادة في الطبع البشري.

ج. تجاوز الواقع المشاهد لتسمو في التعبير عن «أحاسيس وآراء ونظريات أكثر تجريدًا وشمولاً... كما أنّها تعكس بعض القيم والمبادئ والمثل العليا التي ترتفع عن الحياة اليوميّة المألوفة»[2].

د. الحياد أو اللاّ شخصانيّة أو اللاّ ذاتيّة، ويعني ذلك أن ينحِّي الشّاعر عواطفه جانبًا ليقترب أكثر فأكثر من الصّدق الفنّي، ولكنْ لا يعني هذا «أنّ الشاعر لا يعبّر عن عواطفه وأحاسيسه ووجداناته إزاء البطل وما يحدث له»[3]. وقد استنَّ «هوميروس» في «الإلياذة» هذا المسلك وتابعه عليه الشّعراء الخالفون[4].

---

[1]- “EPIC” in Encyclopedia Britannica. vol. 6. p. 906.

[2]- أحمد أبو زيد، الملاحم كتاريخ وثقافة، م.س، ص8.

[3]- أحمد أبو زيد، الملاحم كتاريخ وثقافة، م.س، ص9.

[4]- م.ن، ص9.

ثانيًا: المشكلة الهوميريّة

1. هوميروس بين النفي والإثبات

وهوميروس شخصيّة مشكلة من جوانب عدَّة، منها: وجوده الواقعي، واسمه، وعلاقته بالإلياذة؛ ففي أواخر القرن الثامن عشر شاع رأي «وولف» في ألمانيا ثم تسرَّب إلى أقطار أوروبا[1]، ومفاده أنَّ «هوميروس» شخصيّة لا وجود لها في الحقيقة التاريخيّة. وعمد «وولف» إلى تقويض المكانة السامقة التي احتلَّها «هوميروس» على امتداد الأحقاب، فجعله «راويةً لم تلدْه أنثى» وإنّما هو شخص ولَّدته قصائد الشعراء الذين درستْ أسماؤهم وامَّحت، فكان «هيَّ بن الإغريق»[2].

وخلص «وولف» إلى أنَّ «هوميروس» لم يكتب إلا جملةً من القصائد التي قام هو نفسه بجمعها. وهذا الرأي الذي تبنَّاه «وولف» ودافع عنه هو في حقيقة أمره أثر من آثار العصر الذي يرنو إلى التّشبّث بكلّ جديد، وهدفه تقويض أيّ مذهب مرَّ عليه زمن من القدم بدءًا من أصول الدّين وانتهاء بأصول التّاريخ[3]. وقد وجد «وولف» هذا غير واحد يرمي عن قوسه وينفخ في بوقه.

ولكن هذا المذهب «الوولفي» لم يطل به المقام، ولم يجد له مرتعًا يقيم عليه ثوابته، فقد تلاشت أمواجه مع بداية العقدين الأوّلين من القرن التاسع عشر، فقد انبرى «فلّر» لهدمه وتقويضه، فكتب صفحات مطوّلة في تأريخ الأدب اليوناني وقدَّم من الأدلّة والحجج ما يؤكّد الوجود الواقعي لـ«هوميروس» وأنّه هو شاعر «الإلياذة».

ثمَّ تولّى «وولكر» متابعة ما بدأه «فلّر» من التأريخ للأدب اليوناني، والدّفاع عن الشّعر الهوميري وأفاض في ذلك، فتداعت على أيدي هذين الأخيرين دعائم الشكّ «الوولفي» في هوميروس ووجوده. ومن ثَمَّ لم يعد في نظر «المحقّقين شكٌّ في أنّ شاعرًا يلقَّب بـ»هوميروس» نبغ في القرون الغابرة، ونظم الإلياذة والأوديسّة، وقد أجمعت النصوص

[1]- البستاني، سليمان: إلياذة هوميروس، مطبعة الهلال، مصر، 1904 م، ج1، ص48.

[2]- م.ن، ج1، ص48.

[3]- م.ن، ج1، ص48.

التاريخية والآثار العادية على أنّه بمنزلة يقصر عن إدراك شأوها سائر الشّعراء، فما بقي مِنْ ثَمَّ سبيل إلى إنكار وجوده»[1].

ومردُّ هذا الإنكار لوجود «هوميروس» واقعيًّا ما تلمَّسه بعض الدّارسين من تناقض في جوانب كثيرة من الملحمة المنسوبة إليه «الإلياذة»، ومنها: التناقض بين وجود حكم استبدادي يرعاه ويقوم عليه حكّام مستبدّون، في مقابل حكم مهلهل يتولّاه حكّام ضعفاء، ووجود سلاح مصنوع من البرونز وآخر مصنوع من الحديد، فدفعهم هذا التناقض الذي يعتقدون به في الإلياذة إلى جعلها نتاجًا جماعيًّا يشبه ما تبدعه الذّاكرة الجمعية من أغان شعبية[2].

وما قيل عن التناقض لا يثبت أمام التحليل الداخلي لأسس «هوميروس» وأصوله التي اكتنفت جهده في أثناء كتابة «الإلياذة» والوقوف على الوسائل التي اصطنعها وتوسَّل بها في صياغته إلى جانب إحساسي حيٍّ متدفّق يمتازُ به، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بوجود وحدة فنيّة يستشعرها قارئ «الإلياذة»، وبذلك تكون وحدة العمل الفنّي فوق أي ريب.

ولكن بعض النقّاد جنحوا إلى التحفُّظ تجاه ما اعتقد به غيرهم من إنكار وجود «هوميروس»، ورأوا أنّه ليس هو مبدع «الإلياذة»، ولكنّه راوية مِفَنٌّ عمل على جمع أغان شعبية قصيرة نسبيًّا في نَظْم واحد تمثِّله «الإلياذة»[3].

2. هوميروس ومشكلة الاسم والنسب

أمّا القضيّة المشكلة الثالثة التي توقَّف عندها الدّارسون فهي اسمه ونسبه، فلفظ «هوميروس» ليس هو اسمًا لصاحب الإلياذة، وهي لفظة تعني معانٍ عدّة في اليونانية؛ فهي تعني -فيما تعنيه- «الرهينة»؛ ولذلك ذهبوا إلى أنّه من كان من جملة رهائن وقعت في الأسر، فغلب عليه هذا اللقب. وهي تعني كذلك «المتكلّم في المجلس»؛ إذا ارتدّوا بها إلى النّحت من كلمتين يونانيتين. وذهب آخرون إلى أنّها تعني «التّابع» أو «اللاحق»، تعويلاً على قول «فلوطرخوس»: إنَّ «هوميروس» لحق «الليديين» من مدينة أزمير. وثمة رأي يذهب إلى

[1]- سليمان البستاني، إلياذة هوميروس، م.س، ج1، ص50.

[2]- فؤاد مرعي، مرشحة، محمد، الأدب والنقد في الغرب، م.س، ص28.

[3]- فؤاد مرعي، مرشحة، محمد، الأدب والنقد في الغرب، م.س، ص29.

أنّ لقب «هوميروس» أطلق على صاحبه لاعتنائه بتنظيم أشعار سابقيه[1]. والرأي الأخير، وهو الأرجح الآراء، أنّها تعني «الكفيف البصر»، وثابت «أن بصره كُفَّ، وهو لم يكد يتجاوز سن الشباب»[2].

أمّا حياته فقد كانت بعد حرب طروادة بوقت قصير، وأطال بعضهم زمن وجوده إلى ما قبل حرب طروادة بخمسة قرون. ولكن أفضل الآراء وأرجحها أنّ هوميروس عاش في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد[3].

فإذا كان الخلاف قد وقع في اسم الشاعر ونسبه فإنّه وصل إلى الإلياذة نفسها وعلاقة «هوميروس» بإبداعها، فكان الخلاف الأهم في ذلك: أناظم الإلياذة شاعر واحد أم أكثر؟

3. موقف النقّاد من الإلياذة

انقسم الدّارسون من جرّاء ذلك بين قائل: إنّ ناظمها شاعر واحد هو هوميروس، وبين قائل: إنّهما شاعران يفصل بينهما ردح من الزّمن يصل إلى مئة عام.

فمن القائلين بأنّ نظمها شاعر واحد (إي -ف- ريو) في كتابه «هوميروس»، وس. م. بارود في كتابه «الأدب اليوناني القديم»، ومن أنصار هذا الرأي الكاتبان الألمانيان: هيرمان ولخمان[4].

ومن القائلين: إنّهما شاعران نظما الملحمة (م. آي. فينالي)[5]، ونصر هذا الرأي الكاتب الإنكليزي R.R. Knighnet . وذهب المؤرخ الإنكليزي (G.grote) إلى التوفيق بين الرأيين. فقد كان بين يدي «هوميروس» تراث من الأغاني الشعبية والمقطوعات والأناشيد، فأفاد هوميروس من ذلك كلّه في نسج ملحمته[6] وزاد على ما بين يديه، وربمّا اقتصر دوره على نقل

---

[1]- انظر: تفصيلاً للآراء في ذلك: سليمان البستاني، إلياذة هوميروس، م.س، ج1، ص2-11؛ خضرة، حلمي: خصائص التشكيل في إلياذة هوميروس، مجلة عالم الفكر، مج16، ع1، 1985، ص48.

[2]- حلمي خضرة، مجلة عالم الفكر، م.س، ص48.

[3]- Plutarchus: the par llel byes, with English translation, 1900, p.5.

[4]- عبد الوهاب لطفي يحيى، عالم هوميروس، مجلة عالم الفكر، مج 12، ع 1، ص17 و18؛ ج1، ص3.

[5]- The world of odessus, p. 36.

[6]- عبد الوهاب لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، ص21.

المادة الأدبية التي كانت موجودة متراكمة حتى عهده من دون تدخل في محتواها، فاكتفى بترتيبها وإخراجه على الصورة التي وصلت إلينا[1].

4. منزلة هوميروس

لقد كان «هوميروس» بالنسبة إلى اليونانيين المعلم والرسول الذي جمع شملهم، وتغنّى بتاريخ أجدادهم، وبعث نهضتهم، وجعل منهم أمّة ذات شأن، تؤمن بدين واحد ولها لغة واحدة، ولهم أعيادهم القوميّة الجامعة[2]؛ فـ«هوميروس» لدى أكثر اليونانيين تلتقي فيه سمات الفيلسوف والشاعر والمربيّ، والعالم، لا الشاعر فحسب[3].

أكّد أسخيلوس أنّ تراجيدياته ليست إلا فُتاتٍ من مائدة هوميروس الفخمة[4]. ووسمه «أفلاطون» بأحكم الحكماء، والمعلم الأوّل لليونانيين. وأطلق عليه «أرسطو» لقب أمير الشعراء[5].

ومهما يكن من أمر، الأقوال المتضاربة المتشكّكة في وجوده أصلاً، أو في شاعريّته المتبدِّية في «الإلياذة»، فقارئها لا يمكنه إلّا الإقرار بجاذبيّة هوميروس الآسرة لقارئه وتغلغله في حنايا ذاته، ولعلَّ هذه الجاذبية الآسرة للملحمة ما سمح بطرحها دليلاً على أنّ مؤلّفها واحد، وحدا بـ«أفلاطون» إلى أن يقول: إنَّ من استطاع فهم «هوميروس» هيمن على أساليب الفنون جميعها[6]. فهو أحد الشعراء الذين خلّد لهم أعمالهم الفنية، ونظرته إلى العالم نظرة حقيقية تتحدّى الزمن، وتتّسم بالشمول لمرادها استيعاب الجوانب المختلفة للحياة[7].

فإذا كان غير اليونانيين تتقاذفهم أمواج الشّكّ في هوميروس وجودًا، وشاعريّة، فإنّ اليونانيين لم يخطر لهم على بالٍ تطرّق الشّكّ فيه وفي شاعريّته، بل كان في نظرهم «سيدهم

---

[1]- عبد الوهاب لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، ص21.

[2]- م.ن، ص321.

[3]- فؤاد مرعي، مرشحة، محمد، الأدب والنقد في الغرب، م.س، ص23.

[4]- م.ن، ص37؛ خفاجة، محمد صقر: الإلياذة لهوميروس، مجلة تراث الإنسانية، ص322.

[5]- فؤاد مرعي، مرشحة، محمد، الأدب والنقد في الغرب، م.س، ص37؛ محمد صقر خفاجة، الإلياذة لهوميروس، م.س، ص321.

[6]- عبد الوهاب لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، ص14.

[7]- م.ن، ص14.

بلا منازع، وهو شاعر فيه صدق المعلم وأكثر من لمسةٍ من الوحي الإلهي»[1].

وَحَدَت هوميروس في نفوس اليونانيين أن جعل بعضهم «شخصيات الملحمتين أو حوادثها مادة لما كتبوه مِنْ بَعْدُ مسرحيات» فكانت خلفيات تاريخيّة استمدّت من الواقع والحقيقة[2].

ثالثًا: الإلياذة، المفهوم والبنية

الإلياذة (Iliad) هي ملحمة شعريّة، ومعناها قصّة (إليون)[3] (Ilion) و(Ilios) وهذا الاسم الأخير أحد أسماء مدينة «طروادة»، ومعناه: قصّة الحرب التي دارت ثمَّة. والملحمة -في الأصل- كانت شعرًا يُلْقَى على مسمع الجمهور[4].

1. البنية العروضيّة للإلياذة

كتبت «الإلياذة» على الوزن السّداسي أي من أبيات مردَّدة ومكرّرة على طريقة الشّعر غير المقفَّى[5]. وهذا الوزن له لغة خاصَّة به، فقد اخترع مبدعو هذا الوزن صيغًا لغويّة مناسبة له، ما جعل هذه اللغة نموذجًا يحتذيه الخالفون من الشعراء، فقد قلَّد هوميروس كثير من الشعراء الغنائيين الذين خلفوه، وهذا ما جعل اللّغة الشعريّة غير لغة الحياة اليومية[6]. وعمدة هذا الوزن التقسيم الكمي، فلا يعتمد على النبرة، بل على المقاطع والحروف، بحسب طولها وقصرها، فلا اعتماد له على الوزن الذي تستغرقه المقاطع والحروف نطقًا. وهذا الوزن يتّسم باللّيونة والطواعيّة، ومبدؤه دائم لا يتغيّر، فكلّ من الحرف أو المقطع الطويل يستغرق غير ما يحتاجه ضدّه من الوقت[7].

[1]- Platon: Ion, p: 539.

[2]- فؤاد مرعي، وزميله، الأدب والنقد في الغرب، م.س، ص14.

[3]- لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، ص4.

[4]- م.ن، ص59.

[5]- لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، ص59.

[6]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي تراثًا إنسانيًا، عالم المعرفة، ص70.

[7]- م.ن، ص69.

2. مكوّناتها

وتتألّف «الإلياذة = Iliad» من ألف وخمسمئة وسبعة وثلاثين بيتًا شعريًّا، وزِّعتْ على أربعة وعشرين نشيدًا. وليس هذا العدد من قبيل المصادفة فيما أعتقد، وإنّما هو متطابقٌ وعددَ أحرف الهجاء في اليونانية، فكأنَّ كلّ حرف من حروفها يقابله نشيد من الأناشيد. وقد وصلت إلينا أيضًا على أربع وعشرين لفافة من لفائف البَرْدي[1]، وهي والأوديسَّة مصدران أساسيان للوقوف على جوانب من معالم حضارة اليونان وفكرهم في زمن مبكر[2].

تروي «الإلياذة = Iliad» بعض أحداث العام الأخير من حرب الآخيين مع طروادة[3] المدى الزمني الذي لا يتجاوز أحداث خمسين يومًا من أحداث العام الأخير للحرب، حرب طروادة. وقطب الرحى في الإلياذة «غضبة أخيل» لا حرب طروادة؛ فقد ترتب على هذه الغضبة مآسٍ ووقائع حربية كثيرة، ولعل في تحميل غضبة أخيلوس كل هذه المآسي إدانة من «هوميروس» لذلك، إذْ كانت هذه الغضبة سبباً في اتقاد الحرب عشر سنوات[4].

وسبب هذه الحرب أن «باريس بن بريام» راعي الأغنام فوق جبل «أيدا» قد التقى بالربات الثلاث: أفروديت، وأثينا، وهيرا، وحكّمْنه فيمن تستحقّ منهنَّ «التفاحة الذهبية» التي تركتها لهنّ إلهة الصراع «أريس»، وقد كتبت على التفاحة كلمة «لأجملهنّ». فتنافست الربات الثلاث في قطع المواثيق والوعود المغرية لـ«بريام» ليحكم لإحداهنَّ في أحقيتها بالتفاحة تلك، فحكم للربة «أفروديت» التي وعدته بالزواج من أجمل امرأة في العالم آنئذ فنصحته بالتوجه إلى (أسبارطة) حيث تقيم «هيلينا» زوج «منيَلاوس» أخي «آجممنون» زعيم الآخيين.

وأضرمت «أفروديت» نار الحب في قلب «هيلينا» تجاه «باريس» لدنْ زيارته زوجها «منيلاوس» وشجعتها على تركه وابنتَها «هيرميرني» لتهرب مع «باريس».

كان لهروبها ذاك أن ترك ثُلْمة كبرى في شرف الملوك اليونانيين، ووجه إليهم إهانة

---

[1]- لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.ن، ص49.

[2]- م.ن، ص13.

[3]- طروادة: منطقة واقعة قرب مداخل البحر الأسود في القسم الغربي لآسية الصغرى. والراجح أن هذه الحرب وقعت في الربع الأول من القرن 12 ق.م. وقد أكدت الحفائر الأثرية صدق هذا الرأي. ديورانت، ول: قصة الحضارة، م.س، ج6، ص106.

[4]- لطفي يحيى،: عالم هوميروس، م.س، مج15، ج3، ص20.

عظيمة أوقدت في نفوسهم نيران الغضب، فاستعدّ القادة للثأر من الطرواد، وجهزوا حملة بحرية مؤلفة من (1000) سفينة يقودها «آجممنون» يراد منها إعادة «هيلينا» إلى زوجها وابنتها، وإبادة طروادة على بكرة أبيها، فعَلا أوار الحرب التي استمرت عشر سنوات، وصف هوميروس منها الشهرين الأخيرين فحسب كما ذكرنا من قبل.

وفي استطاعة الدّارس للإلياذة أن يجمع الأحداث الأساسيّة المهمّة فيما يأتي:

أـ وصف غضب «آخيل = أخيلوس» أقوى أبطال اليونان بعد أن أهانه «آجممنون» زعيم «الآخيين» وقيصر «ميكينا»، وهو قطب الرحى في الملحمة كما أشرنا من قبل.

ب ـ إحجام «آخيل = أخيلوس» عن المشاركة في المعركة فترجّح كفّة الطرواديين، ويُهْزَمُ الآخيون، وكاد الطرواديون يحرقون سفنهم.

ج ـ سماح «آخيل /أخيلوس» لصديقه «باتروكليس» بالاشتراك في القتال.

د ـ مقتل «باتروكليس».

هـ ـ رجوع «آخيل = أخيلوس» عن قَسَمه والحنث به وغضبه لموت صديقه «باتروكليس» والثأر له بقتل «هكتور» بطل الطرواد وابن قيصرها «بريام».

والذي نميل إليه أنَّ جعل هوميروس اختطاف «هيلانة» سببًا لتلك الحرب التي اشتعل أوارها واتّقدت نيرانها مدّة عشر سنوات ليست بسبب هروب امرأة سبَّبت طعنة في شرف أبناء قومها هو سبب دبلوماسي واهٍ ومباشر ومعلَن لتسويغها هذه الحرب، فالأسباب أشدُّ عمقًا وأكثر بعدًا[1]، وإنمّا هي حربٌ «اقتصاديّة» بالدرجة الأولى؛ فلطروادة موقع جغرافيّ مهمّ تُسيطر به على مضائق الدردنيل والبوسفور، وبهذا الموقع تتحكم بالطرق التجارية التي تربط الشرق بجنوب أوربا. ولعلَّ في حرب «البسوس» ما يعضد ما ذهبنا إليه، فلم تقم هذه الحرب إلا لسبب اقتصادي[2] هو الاعتداء على حمى معينّ، هو حمى مهلهل بن ربيعة، يضاف إليه ما كان يمارسه كليب من ظلم على بني بكر[3]. أما ناقة البسوس فليست

[1]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً، م.س، ص23.

[2]- خشبة، دريني: الإلياذة، دار العودة، بيروت، د.ث، ص5.

[3]- يؤكّد ذلك قول الشاعر عمرو بن الأهتم:

فـإن كليبـاً كان يظلـمُ رهطَـه فأدركَـهُ مثـل الـذي تريـان

أكثر من مسوِّغ ظاهري. وحرب طروادة -في حقيقة الأمر- هي المحاولة المنظمة للانتشار والتّوسّع اليوناني على شواطئ آسيا الصغرى، وهي ممثلة للهجرة التي انطلقت في بداية حركة الانتشار اليوناني[1]».

3. أهمّيتها

تربَّعت الإلياذة على سُدّة الأدب الغربي، ولقيت من الاهتمام أن تلقّفتها الآداب الأخرى.

وقد أكد ديورانت ذلك بقوله: «فإن الذي لا شك فيه أن حقيقة أمرها -يعني حرب طروادة- وجوهرها لم تكن إلاّ نزاعاً بين طائفتين تتنازعان السيطرة على مضيق «الهسنت» والأراضي الغنية المحيطة بالبحر الأسود»[2].

4. ترجماتها

تُرجمت إلى أكثر لغات العالم[3] قديمًا وحديثًا، فنقلها الرومان إلى لغتهم وتغنَّوا بها، وكذلك فعل الهنود والفرس، حتى إنَّ الفردوسيَّ استمدَّ منها كثيراً من معاني الشهنامة، وجعل الملحمة مثالاً احتذى به، ونقلها «ثاوفيلس» الرّهاوي إلى السريانية، وجيزارتي مُنْتي إلى الإيطالية، ومُنْبيل إلى الفرنسية، وفوس إلى الألمانية. وترجمت إلى الإنكليزية وحدها أكثر من خمس عشرة مرة، فقد ترجمها كل من «بوب» و«جايمن» و«كوبر»، ومالكولم، وريشموند لاتيمور «وأصدق هؤلاء النقلة «مِنْتي» وهو و«بوب» أبلغهم شعرًا»[4].

وأما نقلها إلى العربية فقد تأخّر لأسباب ثلاثة هي: الدين، وعدم معرفة العرب باليونانية، وعجز النَّقَلة عن نظم الشعر العربي[5].

فلما سقاه السمَّ رمحُ ابن عمه	تذكرَ ظلمَ الأهل أيَّ أوان
وقال لجسّاس أغثني بشربةٍ	وإلا فنبِّئْ من لقيتَ مكاني
فقال: تجاوزتَ الأحصَّ وماءَه	وبطنَ شُبيثٍ وهو غيرُ دفان

[1]- لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، ص136؛ أحمد عتمان، الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً، م.س، ص23.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ج6، ص106.

[3]- سليمان البستاني، الإلياذة، م.س، ج1، ص63.

[4]- سليمان البستاني، م.س، ص63. وذهب مقدم ترجمة دريني خشبة إلى أن ترجمة «جورج تشابمان» في القرن السابع عشر هي الفضلى بين الترجمات.

[5]- م.ن، ج1، ص63.

ثم تتالت ترجماتها إلى العربية، وفق السرد الآتي:

أـ ترجمة سليمان البستاني (1856-1925)، وكان الرائد في ذلك. وقد استغرقت ترجمتها نظمًا خمسة عشر عامًا، وجاءت في مجلّدين كبيرين يقعان في 1257 صفحة، صدرت عن مطبعة دار الهلال سنة 1904 م.

ب ـ ترجمة أمين سلامة، القاهرة، بلا تاريخ.

ج ـ ترجمة أنطوان عبد الله، دار الأنوار، بيروت، وتقع في (180) صفحة، وهي تلخيص فحسب.

د ـ ترجمة عنبرة الخالدي، وقدّم لها طه حسين، وصدرت في (312) صفحة عن دار العلم للملايين، ط1، سنة 1974 م، وهي مترجمة عن النص الإنكليزي «قصة الإلياذة»، لـ«ألفردتشرش»، أستاذ اللغة اليونانية في جامعة «لندن».

و ـ ترجمة دريني خشبة، دار العودة، بلا تاريخ، وهي تلخيص بتصرف.

هـ ترجمة علي ملكي، دار صوت الشرق، بيروت، وأطلق عليها عنوان «حصار طروادة»، وهي ترجمة مختصرة جداً للإلياذة.

ز ـ ترجمة ممدوح عدوان، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط2، 2009 م، بالاشتراك مع دار ممدوح عدوان، دمشق، وجاءت في (778) صفحة. وهي ترجمة نثرية عن اللغة الإنكليزية، وجعلت على هيئة أسطر أقرب إلى الشعر الحديث.

ي ـ ترجمة جماعية قام بها د. أحمد عثمان وزملاؤه، وصدرت عن المشروع القومي للترجمة، القاهرة، سنة 2008 م، وتقع في (767) صفحة.

5. أناشيدها

أما الأناشيد[1] المكوِّنة لـ «الإلياذة» فهي:

أـ النشيد الأوَّل

يستمدّ فيه «هوميروس» العَوْن من ربة الشعر فيستنزل إلهامها ووحيها ليستطيع نظم ملحمته وإنشادها، بل زاد على ذلك بأن جعلها هي المنشدة فكأنّها هي صاحبة الفضل، وهو إنّما كان ناقلاً يملي على الملأ ما يتلقّفه من فيض روحها»[2]، وفي ذلك دليلٌ على أنّ اليونان كان على مستوى عالٍ من الورع والإخلاص في الاعتقاد والجنوح إلى استمداد العون من آلهتهم في شؤونهم كلّها[3].

يبدأ النشيد بقوله:

ربَّةَ الشعرِ عن أخيلَ بن فيلا أنشدينا واروي احتداما وبيلا

ويأخذ في سرد مسألة اغتصاب الآخيين ابنة «وبيلا» كاهن الإله (أبوللون)، ورفض القائد أغاممنون ردّ الفتاة، فسلَّط الإله (أبوللون) وباءً على الجيش اليوناني، ولمّا سئل عن سبب الوباء طلب إعادة الفتاة إلى والدها، فأثار ذلك أغاممنون وأشعل نيران غضبه، لكنّه أذعن للأمر وقبل بردّ الفتاة على أن يحظى بغيرها، فاختار هذا الأخير، وانسحب من أرض المعركة محتجًّا على ذلك وحزن حزنًا شديدًا دفعه إلى الانزواء في خيمته وشكا لأمّه «تينيس» من سوء معاملة الجيش اليوناني له، وتنكّرهم لجليل مواقفه. فما كان من أمّه الحورية «تينيس» إلّا أن رفعت المسألة إلى الإله «زيوس» فأنزل هزائمه بالجيش اليوناني.

ب ـ النشيد الثاني

يُري «زيوس» أغاممنون حلمًا كاذبًا بأنّه انتصر على جيش طروادة إذا هاجمه، وفي الصباح أخذ بالتّظاهر بأنّه ينهي القتال ويعود إلى وطنه، فإذا بالجنود يتّجهون نحو السّفن

---

[1]- عوّلت في نقل أناشيد الإلياذة على ترجمة سليمان البستاني لنقلها المباشر عن اليونانية. وأفدنا في المواضع الأخرى من ترجمات أخرى.

[2]- سليمان البستاني، الإلياذة، م.س، ج1، ص203.

[3]- م.س، ص203.

وهم يهلّلون من فرحهم ويحملون أمتعتهم، إلاّ أنّ القادة -وهم على علم بحقيقة الأمر- يمنعونهم من إخلاء أماكنهم، ويدعونهم إلى مواصلة القتال.

يقول هوميروس:

دجا الليل والأربابُ نومٌ ولكنّ زَفْساً نابذٌ سنة الكرى
بإعزاز آخيلٍ وإهلاك جملةٍ لدى سفن الإغريق ظَل مفكّرا
فعنّ له إرسالُ رؤيا خبيثةٍ لأتريذَ تغريه بأمرٍ تصوّرا

انتُقِد تصرُّف هوميروس لجعله «زَفْس» بمنزلة غير لائقة به، وهو رَبُّ الآلهة والبشر، فحكم عليه بعض شرَّاح الإلياذة بالكفر؛ لأنّه جعل «زفس» ربّ الأرباب يخدع «أغاممنون» بهذه الرؤيا الكاذبة، وبرّأه بعضهم من ذلك وشرحوا الوقائع التالية للحلم بأنّ الحرب قد وضعت أوزارها وأسفرت عن نصر للجيش اليوناني. وذهب البستاني إلى أنّ ذلك من قبيل حسن الربط وقوّة التسلسل[1]. ثم إنَّ أكثر الأديان تذهب إلى أنّ الخير والشر من الله.

وقد سرد البستاني غير مثال على مثل ذلك، ومنها تسلّط الرّوح الخبيثة على نفس أيوب ليبلوه بها ربّه. ثم انتهى إلى شاهد توراتي أكّد فيه أنّ هوميروس ليس بدعًا من القول وإنّما هو «يتناص» مع هذا النّصّ التوراتي، فهو ليس مستنبطًا بل ناقلاً، وهو «فقال الرب من يغوي آجاب ملك إسرائيل حتى يصعد ويسقط في إموت جلعاد. فقال: هذا كذا أو قال ذاك كذا. ثم خرج روح وقف بين يدي الرب وقال: أنا أغويه؛ فقال له الرب: بماذا؟ فقال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه فقال: إنك تغوي وتقتدر فاخرج واصنع هكذا». [2 آي 18: 19].

قال البستاني: «فهذا كلام رمزي قاله ميخا النبي على سبيل المجاز ردًّا على كذبة الأنبياء فصاغه هوميروس بقالب الحقيقة يجاري عادة اليونان في تجسيم ما وراء الطبيعة[2]».

ت ـ النشيد الثالث: تحدي باريس الجيش اليوناني

ملخّصه: يدعو باريس منيلاوس لمبارزته مبارزة منفردة واحدًا لواحد، فإذا انتصر هو

---

[1]- سليمان البستاني، الإلياذة، م.س، ج1، ص245.

[2]- م.ن، ص250.

احتفظ بهيلينا، وعاد الجيش أدراجه من غير «هيلينا»، فإذا انتصر خصمه «منيلاوس» استرد «هيلينته» وعوض الجيش اليوناني خسائره كلّها، واتّفق الطرفان على ذلك، ووقعت المبارزة، وكاد الفوز يكون حليف «منيلاوس» لولا تدخّل أفروديت وفاء بما وعدته.

ثم ينتقل الشاعر في نهاية النشيد الثالث إلى مجلس الآلهة كاشفًا ما حلَّ بين الآلهة من انشقاق: قسم مع الطرواديين، وآخر يؤيّد اليونان.

ث ـ الأناشيد 4، 5، 6 حتى السابع

يحتدم أوار المعركة، ثم تضع الحرب أوزارها في النشيد السابع.

ج ـ النشيد الثامن: استئناف القتال

وفيه يمنع «زيوس» الآلهة جميعًا من الاشتراك في القتال، فيكون رجحان كفّة النّصر في جانب الطرواديين.

ح ـ النشيد التاسع

يعمد «أغاممنون» بعد وقوفه على رجوح كفّة النّصر لمصلحة الطرواديين إلى عقد مجلس تشاور في الاستعداد للرحيل والرجوع إلى اليونان، ولكن «أغاممنون» يلقى معارضة من قادة الحرب، ويأخذون قرارًا بإرسال وفد إلى «أخيلوس» المنزوي في خيمته لمحاولة استرضائه وزجّه في القتال، فيلقى هذا الاقتراح رفضًا منه.

خ ـ الأناشيد 10-16

يصوِّر اشتداد لهيب القتال، وإصابة أغاممنون بالجراح، ومحاولة «باترومكوس» ثَنْي أخيلوس عن انزوائه في خيمته ليزجَّ به في القتال، فقد غدا الجيش اليوناني في موقف صعب، فيرفض أخيلوس مرة أخرى، ولكنّه يعطي صديقه «باترومكوس» عدّة القتال ويسمح له بالنزول إلى ساحة القتال، فيكون ذلك سببًا في ميل كفّة القتال إلى جيش اليونان، ويلاحق هكتور باترومكوس ويرديه قتيلاً.

د ـ الأناشيد 17–21

يقصرها هوميروس على الحديث عن أمجاد أخيل، فقد أثَّر مقتل صديقه «باترومكوس» في نفسه كثيراً، فيستأذن أخيلوس أمّه الحوريّة تينيس في تهيئة سلاحه والنّزول إلى ساحة المعركة باحثًا عن جثّة صديقه الحميم «باترومكوس» وآلى على نفسه عدم القيام بمراسِم الدفن ما لم ينتقم له ويقتل هكتور.

ذ ـ النشيد 22 (اللقاء بين أخيلوس وهكتور)

يحتدم الصراع بين أخيلوس وهكتور، ويتمكن «أخيلوس» من الظّفر بمنافسه هكتور ويجندله بدمائه. وهنا يرسم هوميروس لوحتين متناقضتين، فطروادة يلفّها الحزن على مقتل بطلها هكتور، وتملأ السعادة قلوب الجنود اليونانيين لمقتل غريمهم.

ر ـ النشيد 23 (مراسم جنازة باترومكوس)

ز ـ النشيد 24 (أخيلوس وجثة هكتور)

يصوِّر هوميروس في هذا النشيد «أخيلوس» وقد سحب جثة «هكتور» وأخذ يدور بها حول الكومة التي سيَحرق عليها جثة صديقه الحميم «باترومكوس»، ويهدّد بإلقاء جثّة «هكتور» للطيور الجارحة تنهش منه ما تشاء، فيتضرّع الأب «برياموس» لتسليمه جثة ولده «باترومكس» رحمة لشيخوخته، وتقديرًا لمكانة ابنه البطل، فينصاع أخيلوس لتضرع «برياموس»، ويأخذ الطرواديون جثّة بطلهم ليقوموا بدفنها بعد مراسم تليق بها.

وهذا النشيد يغطي 23 يومًا من أيّام القتال منها 12 يومًا في أثناء إقامة جثّة هكتور في خيمة أخيلوس، و11 يومًا مدّة الهدنة[1].

س ـ الخاتمة: (مشهد أم هكتور وزوجته)

ختم هوميروس النشيد الرابع والعشرين بمشهد تأثر أندروما في زوجة هكتور وأمه هيكوبا لمقتله وبكائهم الشديد المؤثر، فيقول[2]:

---

[1]- سليمان البستاني، الإلياذة، م.س، ج2، ص1105.

[2]- م.ن، ج2، ص1143.

ولولــت والدمــوع مــلء المآقــي ... ثــم حــدَّتْ تصيــح في الأســواق
إن تكونــوا حييتــمُ هكطــورا ... وهــو حــيٌّ بعــوده منصــورا
وجَذلتــم بملتقــاه جميعــاً ... فانهضــوا رحِّبــوا بــه ترحابــا
وأمــام الجميــع زوج حليلــهْ ... أعظمــت خطبــه وأم جليلــه
بعويــل وقطــعِ شــعرٍ ونَــدْبِ ... جاءتــا النعــش تلمِســان النِّطابــا
وأقامــوا حَوَليــه ندَّابينــاً ... بشــجيِّ الأنغــام تــوري الشُّــجونا
يُنشــدون الرثــاء بــين نســاء ... وفــق ذاك النشــيد نحــن كئابــا
وانــبرت أولاً فعــمَّ العويــلُ ... أندرومــاخُ والدمــوع تســيلُ

6ـ البنية العامة

جعل هوميروس ـ في المستوى البنائي العام للإلياذة ـ وكده ومحطَّ اهتمامه التوافق الكلي العام للملحمة من دون التفصيلات الجزئيّة. فما في الملحمة من انسجام ووحدة في الإطار الكلي يمكّن الدّارس من جعل «الملحمة» تُكأة له في درس الحضارة آنئذ، إذ إنَّ الملحمة تصوِّر حقبة من حقب المجتمع اليوناني. وقد أعيد ذلك إلى وقوف «هوميروس» على الحياد، فلم يقحم نفسه في قضايا هذه الحرب ومواقفها، مقتصرًا على «عين المصوِّر حاولت أن ترسمها»، على حدِّ تعبير بشارة الخوري[1]. وكان لهذه الحيادية التي التزم بها هوميروس سُهْمة كبيرة في ترك الحرية المطلقة للجمهور للتلبّس بالمشاعر، وهذا مفضٍ بالجمهور إلى أن يكون أكثر تركيزاً وانتباهًا[2] وإذا كانت الصورة الكلية منسجمة فإنَّ تناقضات كثيرة تفترش التفاصيل.

وهذا الحياد الذي اتّسم به موقف «هوميروس» سمة مهمّة كانت محطّ ثناء «أرسطو» ومدحه له؛ إذ رأى ذلك من «هوميروس» وعيًا بأنّ دور الشّاعر ألاّ يقحم نفسه في المواقف والتعليق عليها، وألاّ يتحدّث عن نفسه إلاّ في حدود دنيا[3]؛ ولهذا عُدَّ ما قدّمه «هوميروس»

---

[1]- من قصيدته التي يقول فيها:
نم إن قلبي فوق مهدك كلما ... ذُكِر الهوى صلى عليك وسلما
[2]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً، م.س، ص37.
[3]- أرسطو، فن الشعر، م.س، ص13.

بالنسبة إلى اليونانيين هو التاريخ الحقيقي لأحداث ووقائع حدثت في زمن ما من حياة بلادهم[1].

و«الإلياذة» ليست نصًّا شعريًّا يُتَغَنَّى به فحسب، ولكنّها تعدُّ معرضًا فنيًّا وفكريًّا لحيواتٍ كثيرة، ومصدرًا ثريًّا لدراسة الأبعاد الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والعسكرية، والصناعية، والفكرية، والفنية لليونان آنئذٍ.

فالأشعار الهوميرية تعود إلى المرحلة الثانية من الحياة اليونانيّة، تلك المرحلة التي غَرب فيها نجم النّظام الملكي، وأسلست الملكيات الآخية قيادها للغزاة الدورانيين، وأطلقت العائلات الغنيّة في «ثيسالي» و«بليونيز» أقدامها للريح واتّجهت صوب آسيا الصغرى وهي تحمل معها إرثها الثقافي، ونشأت ممالك جديدة تتمثّل في دول زراعيّة صغيرة الملك فيها هو مالك الأراضي ليس إلاّ، وهذا هو الذي جعل المغنين ينكصون على أعقابهم، ويعودون إلى القيم المثالية للماضي، يتغنّون بها، ويعلون من شأنها؛ لأنّ واقعهم لم يعد فيه انتصارات تكون موضوعًا للإنشاد والتغنّي.

فقد كانت عادة الإنشاد الجماعي وراء القصيدة الملحمية، وكان نشوء سلالات عسكريّة جديدة مرحلة مهمّة في ازدهار القصيدة الملحمية؛ فقد زوّدت هذه السلالات العسكريّة فنّ الغناء الجماعي بموضوعات جديدة هي حروب الفتح. وكان الأسلوب الجديد للتعبير هو القصّة الشعريّة البسيطة التي ينشدها قوّال ذو دربة في الولائم التي كان الملك يقيمها على شرف ضيوفه وأتباعه....، فالقصائد الهوميرية «لا تنتسب إلى هذه المرحلة، ولكنّها تشير إلى أنّها كانت أساسًا لها»[2].

7ـ الإلياذة والتطوّر الفنّي

وكان لهذه البيئة الجديدة أثر عظيم في نضج الشعر الملحمي اليوناني، وكانت هذه المرحلة هي العامل الرئيس في تطوّر بناء الملحمتين الهومريتين الإلياذة والأوديسة، فقد مكّنته هذه المرحلة الهادئة من التركيز على عدد من الموضوعات الفنية[3]، فقد جاء

[1]- لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، ص64.

[2]- جورج تومسن، إسخيلوس وأثينا، تر: د. صالح جواد طعمة ويوسف عبد المسيح ثروت، د. ت.

[3]- ديورانت، ول: قصة الحضارة، م.س، ج41، ص88.

هوميروس في نهاية طور تطوّر الشعر الملحمي لا في بدايته[1]، وهي نهاية عهد طويل من الإبداع[2]. فهوميروس لم يكن هو صاحب الملحمة الإغريقية الأولى، بل ثمة مراحل بدائيّة سابقة على زمن هوميروس؛ وقد عُلِّل ذلك بجملة من الأمور، منها[3]:

أ- رصانة اللّغة الهومرية.

ب- مرونة الأسلوب.

ج- براعته في النظم على الوزن السداسي.

د- السَّرْد الشائق.

ه- تفرُّده باستعمال صفات خاصة تلقَّفها الأدباء من بعده.

و- سحرها وروعتها.

ز- مناظرها المتنوّعة.

ح- وحدة الموضوع المفضي إلى التماسك النصي فيها.

ط- الفخامة لأنّه وضع نصب عينيه مثالاً أعلى في كلّ ما يصفه.

ي- واقعيّته على الرغم من توخي المثل العليا. وتأتي هذه الواقعية من تصويره حياة الناس البسيطين، وجعله الإنسان محور هذه الأشعار، ومشاركته الإنسان في عواطفه وعطفه عليه لضعفه ووقوفه معه ضد التجبّر، ويسعد لرؤية فرحة الأطفال عند برء أبيهم من المرض، ويُسرّ لرؤية الفلاح الذي غمره الفرح عند رؤيته إزهار أشجاره، ويألم للعامل الجائع ولتألّم الملاّح الذي أنهكه التجديف، ويمقت الأغنياء المترفين، وينفر من جشعهم، ويحزن لحزن العجوز الذي يرى أبناءه يموتون أمام ناظريه[4].

ك- العواطف الجيّاشة التي تأسر قارئها.

ل- الفكر الواضح فيها.

---

[1]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص22.

[2]- فؤاد مرعي، مرشحة، محمد، الأدب والنقد في الغرب، م.س، ص27.

[3]- محمد صقر خفاجة، تاريخ الأدب اليوناني، م.س، ص39؛ مجلة تراث الإنسانية، ص 326.

[4]- مجلة تراث الإنسانية، م.س، ص320– 328.

م- دقّة الوصف الناتجة من شدّة الملاحظة وحب الاستطلاع. دليلنا على ذلك دقّة وصفه مظاهر الطبيعة، وتفصيل الأدوات الحربية، والجروح وآلامها وسبل معالجتها، ووصف الحدائق والبساتين. ونتيجة هذه الدّقّة الوصفيّة وسم بالفنيّة وأنّه كان جرَّاحًا، وقائدًا[1].

فالإتقان الذي تتّسم به الإلياذة جعل النقّاد والدّارسين ينظرون إليها على أنّها الصورة النّهائيّة للرقي الفني الذي بلغته الملاحم اليونانيّة، يؤيّد ذلك قول هيرودوت: «إنّ هوميروس نظم أشعاره قبل ذلك بأربعة قرون»[2].

8ـ أثر هوميروس فيمن بعده

تسنَّم هوميروس وإلياذته مكانة مرموقة لدى الخالفين أدباء وقادة[3]؛ فكانت كتاب الإسكندر المكدوني المفضل، ولمكانتها السابقة عنده جعل لها صندوقًا مرصَّعًا بالجواهر تُحفظ فيه.

وأُطلق اسم شاعرها ومبدعها «هوميروس» على كثير من الشخصيات الأدبية، فسمِّي «أفلاطون» هوميروس الفلسفة، ودُعي «سوفوكليس» هوميروس الشعر التمثيلي، إلى جانب ذلك ترك هوميروس بصمة واضحة المعالم في شعراء الرومان التالين له، مثل: فرجيل، وهوراس، وأوفيد.

قال هوميروس في وصف حجر عند أسوار طروادة: «... وكان هناك أمام الباب حجر عظيم، متسع القاعدة، مسنون الرأس، لا يكاد اثنان من أقوى رجال هذه الأيام، ومع كل منهما نحلٌ يقدران على رفعه إلى العربة..... وقد كان في الباب فتحتان مغلقتان بمزالج ومفتاح»[4].

نلاحظ أنّ هذا الوصف لم يكتفِ بالحديث عن ضخامة الحجر، ولكن بالغ في التدقيق،

---

[1]- مجلة تراث الإنسانية، م.س، ص326.

[2]- ديورانت، ول: قصة الحضارة، م.س، ج41، ص88.

[3]- مجلة تراث الإنسانية، م.س، ص320– 328.

[4]- هوميروس: الإلياذة، ترجمة: عنبرة الخالدي، ط4، مصر، دار العلم للملايين، 1979، ص175.

فوصف قاعدته المتّسعة، ومسنّناته، وتأتي مبالغته هذه ليثبت قوّة هكتور بعد ذلك، فقد «رفعه بيسرٍ، كما يرفع راعٍ جزّة من الصوف»[1].

وقال في موضع آخر يصف خوذة: «وخوذة من الجلد تحيطها أسنان خنزير بري بيضاء... وخوذة من جلد ذئبٍ قبيح»[2].

وقال يصف سيف «آجممنون»: «وتدلّى من كتفيه سيفه الفتّاك المرصَّع بالفضّة»[3]، و«ثمَّ استلَّ مانيلاّ سيفه المرصَّع بالفضة»[4]. وفي موضع آخر يوظّف خمس صفات للفظ واحد، فيقول: «... ولكن أثينا أخذت بيدها حجرًا كبيراً من السهل أسود قاسيًا عظيم الحجم»[5].

9ـ المضامين

يستطيع قارئ الإلياذة أن يرى فيها حيوات لا حياة واحدة، ومحتويات لا محتوىً واحدًا؛ فهي ليست مقصورة على وصف المعارك، ولكن يتخلَّلها على نحو بارزٍ أحاديث شتَّى مرتبطة بالجوانب السياسية، أو الاقتصادية، أو العَقَدية، أو الأخلاقية، أو الحربيّة وهي الجوهر فيها، وغير ذلك، وهذا تأكيد لمقولة العمل الفني محاكاة للطبيعة[6]؛ فالشاعر يحاكي في قصائده قصائد أخرى، وهو يعمل بصفةٍ عقليّةٍ معيَّنة تسمَّى «ظُرفًا»، والظُّرف هو الطبيعة وقد كُسيت على نحو يظهر مزاياها[7]؛ فـ«فرجيل» حاكى الطبيعة في «الإنيادة»، ولكنّه من المؤكَّد أنّه حاكى هوميروس، وهذا مؤكّد أنّه حاكى الطبيعة. والطبيعة ذات مستويين أوّلهما: مستوى الحياة الجسديّة العادية التي تقع في الخطيئة من وجهة نظر الدين. وثانيهما: المستوى الأعلى وهو النّظام الذي وضعته الشرائع قبل الوقوع في الخطيئة، والمنعكس في الأسطورة الكلاسيكية. والوصول إلى هذا المستوى يكون بتهذيب المستوى الأوّل من طريق العلم،

[1]- هوميروس: الإلياذة، ترجمة: عنبرة الخالدي، ط4، مصر، دار العلم للملايين، م.س، ص175.

[2]- م.ن، ص146– 147.

[3]- م.ن، ص44. وانظر: ص66، و69، و61.

[4]- هوميروس، الإلياذة، م.س، ص61، 66، 237، 242.

[5]- م.ن، ص242.

[6]- نورثورب فراي، الماهية والخرافة، ترجمة: هيفاء هاشم، مراجعة: عبد الكريم ناصيف، لا ط، دمشق، وزارة الثقافة، 1992 م، ص61.

[7]- م.ن، ص61.

واحتذاء القانون، أو سلوك طريق الفضيلة، ويتمثَّل هذا المستوى في الفن، والفن في نهاية المطاف محاكاة للطبيعة[1]، كما أشرنا آنفًا.

أ- المضمون الاجتماعي

فالإلياذة -على المستوى الاجتماعي[2]- تقدِّم صورة للمجتمع اليوناني زمنَ الأبطال، وفي عصر الإقطاع، فالملوك يدّعون أنّهم من سلالة الآلهة، ويحكمون بموجب الحق الإلهي المقدَّس، وينعمون بالغنى والثراء والحكمة، وبها يتفوّقون على عامة الشعب التي من واجبها الانصياع الأعمى.

أ. الإقطاع:

فأصحاب الأراضي هم أصحاب السطوة والسيطرة والتحكم في سياسة المجتمع، وبيدهم كذلك صنع القرار العسكري والسيطرة العسكرية كانت بيد مجموعة من الفرسان الصغيرة من الأرستقراطيين الذين لديهم قدرة على اقتناء الخيل، ولديهم الوقت الكافي لممارسة التدريبات القتالية؛ إذْ لم تعرف الدّولة اليونانيّة آنئذ قضيّة تولي الدولة شؤون الدفاع.

- **الطبقيّة:**

أمّا الطبقة العامّة فمؤلّفة من أصحاب الحرف الصغيرة، وتجمعهم في محيط الأسواق، وليس لهم أرض البتة، وأكثرهم يتّكئ على أصحاب الأراضي أو هم عمّال بأجرٍ مجحف عندهم، وليس لهم شيء من الحقوق السياسية. وهوميروس لم يكن يقصد بحديثه أيًّا من مجتمع الدوريين أو الأيونيين أو الآخيين، فحسبه أنّه يصف الجنس البشري اليوناني عامّة.

وهوميروس -في حقيقة الأمر- وإن وصفناه بالواقعيّة فليس يصف الواقع الذي يعيش هو بين ظهرانيه، ولكنّه يهتمّ بالعالم القديم حتى ليبدو أنّه عالم خياليّ، وأبطاله يمثِّلون الماضي البعيد لا الواقع المعيش، ومن ثَمَّ يبتعد الشاعر نتيجة ذلك عن واقعه وحاضره، ولذلك عُدَّ

[1]- نورثورب فراي، الماهية والخرافة، ترجمة: هيفاء هاشم، مراجعة: عبد الكريم ناصيف، لا ط، دمشق، وزارة الثقافة، 1992 م.س، ص62.

[2]- انظر: د. أحمد عتمان، الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً، م.س، ص61؛ عالم الفكر 13: 7، 40.

هوميروس محلِّقًا بالملحمة في السماء[1]. يقول على لسان «آجممنون»... أما أمر قسمتك فاعلم أنّني سآخذ سبيّتك خريسا، وأستولي عليها بنفسي إذا اضطررت إلى ذلك، لكي يعلم الجميع، بأنّني الحاكم الآمر هنا في جيوش الإغريق»[2].

- **نظام الحكم:**

ومع كلّ ما تقدَّم من ملامح الدكتاتورية والانقسام الطبقي في المجتمع اليوناني نقف على ملامح ديمقراطيّة متمثّلة بترداد انعقاد مجلس شورى، ولو كان خاصًا بالآلهة[3].

- **ملامح من الفكر الاجتماعي:**

ـ قيمة المرء ما يحسن:

بثَّ «هوميروس» في إلياذته كثيراً من الأفكار الاجتماعية الإيجابية، نحو: التعاون وأهميته، وأثر الهديّة في وأد الضغينة، وعدم التعويل على المظهر فحسب، فقيمة المرء ما يحسن، وإكرام الوفادة. يقول على لسان هكتور موبّخًا فاريس: «إنك جميل الصورة يا فاريس، ولكنّك تافه القيمة»[4].

إنّ الإغريق سيهزؤون بنا ولا ريب إذ يحسبونك أشجع مقاتلينا الأبطال لسناء طلعتك، غير أنّك جبان رعديد، وقد جرؤت مع هذا على قطع البحار، واختطاف هيلانة الحسناء... كل هذا قليلاً ما ينفعك، عندما تصرع معفرًا بالتراب، ولو لم يكن أبناء طروادة قومًا جبناء لرجموك قبل هذا». فأجابه فاريس: «لقد نطقت صدقًا يا هكتور، ووبخت حقًا. فلك قلب قُدَّ من الحديد، ولأنت أقسى من قُدِّم لقتال، وأمّا الجمال والحب، فهما من عطايا الإله أيضًا، فلا يُكرهان، والآن دعوني ومانيلا في الوسط، لنتنازل رجلاً لرجل في سبيل هيلانة

[1]- محمد صقر خفاجة، تاريخ الأدب اليوناني، م.س، ص19.

[2]- هوميروس، الإلياذة، م.س، ص32.

[3]- م.ن، ص40-52.

[4]- هوميروس، الإلياذة، م.س، ص55.

الحسناء وما تملك، وإذا تغلّب علي فليأخذها وما معها، وليرجع الإغريق معه»[1]. وقال: «اختر منهم يا ديوميز خير رجل، بغض النّظر عن مولده ومقامه»[2].

ـ التعاون:

وأبان عن أهميّة التعاون والحكمة فقال: «وحقًّا إنّ اثنين من ذوي النّهى أصلح من رجل بمفرده في الرأي وبعد النّظر»[3]. وقال في استقبال «أخيلوس» وفدًا جاء يستعطفه وإكرامه إيَّاه:

«ثم قال أخيلوس: على الرحب والسَّعة أنتم... إنّكم أعزاء لديَّ، رغم كل غضبي... قال أخيلوس هذا وقرَّبهم، وطلب إليهم أن يجلسوا في مجالس مكسوَّة بالأرجوان، وقال لفطرقُل: أحضر لنا أكبر وعاء، وامزج من الشراب أقواه، واجعل لكلّ رجل قدحًا، فليس ثمَّة أصدقاء أحبّ إلي وآثر عندي من هؤلاء الذين يستظلون اليوم بظل سقفي»[4].

- **الهدية:**

والإهداء ـ وهو عادة اجتماعية راقية ـ تخفِّف من غلواء النفس، وتهدِّئ من جاحمها، فـ»الأبطال في غابر الأيام كانوا يتحوَّلون بالعطايا عن غضبهم الشديد إذا ألمَّ، كما كانوا يقنعون بالرجاء»[5].

- **قيم الصداقة:**

وللصداقة قداستها، يفتدي كلّ صديق صديقه، فقد وقفت أثينا مخلصة لـ«أوديسيوس» حين يكشف عن مكنونات نفسه وجوامح عواطفه، وهي تقابله حبًّا بحب وفداء بفداء، وبذلت ـ بتأثير علاقة الصداقة بينهما ـ كل ما في وسعها لإنقاذه لدى وقوعه في مأزق[6].

---

[1]- هوميروس، الإلياذة، م.س، ص55 و56.

[2]- م.ن، النشيد12، ص146.

[3]- م.ن.

[4]- هوميروس، الإلياذة، النشيد 11، ص128.

[5]- م.ن، النشيد 11، ص138.

[6]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص60.

- **عادات اجتماعيّة:**

وتلقانا في المستوى الاجتماعي عادات أخرى[1]، مثل عادة غسل الأيدي بعد تناول الطعام، أو عادة غسل الثّياب على الأنهار العامّة، وعادة الزّواج وتقديم المهر، وطبيعة هذا المهر، وعادة التبنِّي، وتوزيع الطعام في صحاف، وغسيل الميت وتطييبه، وتقديم الطعام للأضياف، وأدوات النّظافة، وجمع رماد الميت في قارورة بعد إحراقه، وطريقة تزيّن النساء، وعادة اللّطم على الميت، وعادة معالجة الإغماء، وغير ذلك.

- **الحب:**

والحبُّ العائلي حبٌّ سامٍ، فكلّ من هكتور وأندروماخي يهيم كلٌّ منهما بحب الآخر حتى إنّها تقول له: أنت يا هكتور بالنسبة إليَّ أبي وأمي الجميلة... ويأتي جواب هكتور: «لا طروادة ولا أبوه وأمه يرتفعون إلى مستوى الأهمية التي تمثلها أندروماخي له»[2].

ويبقى هذا الحبّ ـ على أية حال ـ حبًّا ضَحْلاً ـ ناجمًا عن العلاقة الزوجيّة، حبًا جسديًّا عنيفًا، تراق من أجل ملذّاته سيول الدّماء، وتزهق الأرواح، وتتّقد نار الحروب، وطروادة واحدة من خير أمثلتها، حبًا يتحرَّق إلى الاغتصاب والقسر والأسر، حبًا ناجمًا عمًّا بثَّته آلهة الخصب بين ضلوع المحبين. وأين هذا الحب من الحب عند العرب؟ الحب العف الإنساني الذي يحرِّض على النّبل والوفاء والنجدة. الحب الذي عرفته بوادي نجد، ولم تعرفه أوربا إلاّ بعد اتّصالها بالعرب، ولم نجد له تعبيراً في الشعر الأوربي إلا منذ ذلك الحين[3].

وهذا ما دفع «بريفو» إلى القول: «ليس هناك خطأ أفدح من الخطأ الذي كثيراً ما وقع فيه النقاد، وهو تصوُّرهم أنّ العرب لم يعرفوا الحب إلا الحب الجسدي الشهواني، فالمثاليّة وتبجيل المرأة هما من تقاليدهم التي ترجع إلى ما قبل ظهور الإسلام، وهما عندهم في مقام ولائهم للقبيلة، وفي فروسيتهم التي كرَّسوها للمرأة، وتناولتها موضوعات شعرهم التقليدي»[4].

---

[1]- انظر ذلك في: الخالدي، عنبرة: الإلياذة، م.س، ص127، 128، 137، 156، 172، 218، 253، 261، 263، 264.

[2]- الإلياذة: الكتاب السادس، ب 429 و430، عن: [عتمان، د. أحمد: الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً، م.س، ص55].

[3]- الشوباشي، محمد مفيد: رحلة الأدب العربي إلى أوربا، دار المعارف، رقم (47)، 1968، ص 160 وما بعدها.

[4]- م.ن، ص164.

- **المرأة:**

وتبدو المرأة في الإلياذة كغيرها من القصص الإغريقي شيمتها الغدر والخيانة، وتستسلم للرذيلة دون الفضيلة دون مقاومة، أو ترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأحط النزاوت، وخير مثال صارخ على ذلك «هيلانة» التي تخون زوجها وتهرب مع عشيقها من غير تردّد أو وخز الضمير، وتكون هي ـ ولو ظاهريًا أو في مخيّلة الشّاعر ـ سببًا في حرب ضروس دمَّرت بلادًا فجعلتها كأنْ لم تغنَ بالأمس[1].

ب. المضمون الثقافي:

وتفصح الإلياذة عن المستوى الثقافي لمجتمع اليونان آنذاك؛ إذْ هو مجتمع لا يعرف الكتابة، وتطغى عليه الأميَّة، فالأبطال يتناقلون فيما بينهم الرسائل مشافهة، وليس في الإلياذة إلاّ مثال يتيم تدلُّ به على تسرُّب الكتابة إلى مجتمع هوميروس وفي حدود ضيقة[2]. وهذا المثال هو الرسالة التي حملها «بللورفونتيس» من «أرجوس» إلى ليقية، وزوجة بروتيوس أرادت الانتقام من «بللورفونتيس» لسبب عاطفي، فحمّلته رسالة إلى والد زوجته تحضّه فيها على قتله؛ لأنّه رغب في مضاجعتها بلا رغبة منها.

ت. المضمون الاقتصادي:

ويُستشفُّ ـ في المستوى الاقتصادي ـ أنّ المجتمع في عصر هوميروس كان يعتمد اقتصاديًا على مصدرين هما الزراعة والرَّعي، فهما الموردان الرئيسان للمجتمع آنئذ. والمحاصيل الزراعيّة هي الحبوب والكرمة؛ فالحبوب لصنع الخبز، والكرمة لصنع النبيذ.

ويرتبط بالزراعة حديث عن طريقة حفظ المحاصيل أساسيةً كانتْ أم فائضة، فالحبوب كانت تحفظ في أكياس جلدية، أما النبيذ فكانت الدنان مصيره.

- **التجارة والزراعة:**

ومن المنطقي أن ترتبط التجارة بالزراعة، فلا بدّ أن يكون ثمة حاجات تنقص المجتمع

---

[1]- انظر: الشوباشي، محمد مفيد: رحلة الأدب العربي إلى أوربا، م.س، ص215.

[2]- كان جهل الكتابة في المجتمع الهومري آنذاك دليلاً اعتمد عليه الناقد الألماني فردريك وولف في إنكار نظم هوميروس الإلياذة. انظر: خفاجة، محمد صقر: تاريخ الأدب اليوناني، م.س، ص40- 42.

اليوناني وأخرى تفيض عنه، فلا بدّ في الفائض من حاجة إلى التصدير إلى مجتمعات أخرى بحاجة إليها، فكانت حركة التبادل التجاري تقوم على المقايضة سلعة بسلعة، أو عن طريق المقايضة بأخذ المواشي أو المعادن.

ولكن الزراعة والرعي لم يكونا كافيين لسدِّ حاجة المجتمع اليوناني، فاضطرّ اليونانيون إلى التطلع خارج حدود بلادهم، ومالوا إلى الهجرة باتّجاه الشرق والجنوب والغرب لما في ذلك من سهولة التواصل عن طريق خوض غمار البحار. وقد شجَّعهم على ذلك هدوء البحر المتوسط وتقارب شواطئه، وتقارب جزره، فانتشر اليونانيون على شواطئه، فكان الشرق أكثر المواطن التي اتّجهوا إليها.

- **الاقتصاد والاغتراب:**

فالهجرة كانت وراء شعور اليوناني بعدم كفاية الموارد المبذولة بين يديه[1]، فجعله ذلك يتطلع إلى مجالٍ حيوي، وكانت فترة حرب طروادة ممثلة هذه الهجرات في بدء انطلاقها. وقد وصف هوميروس المجال الحيوي الجديد من خلال قول «أخيلوس» لـ«آجممنون»:

«ألا ما أبعدك عن الحياء أيُّها الأنانيُّ، كيف تنتظر أن يتكبَّد يوناني من أجلك مشقّة السّفر والحروب؟!

إنّك تعلم أنيّ لم آت إلى هنا لمحاربة أبناء طروادة الشجعان من أجل نفسي؛ فهم لم يسيئوا إليَّ قط، إنّهم لم يسلبوا بقربي ولا خيلي، ولم يخرِّبوا محاصيلي في حقول «فِثْية» الخصبة، فبيني وبينهم يقول بحر صاخب وجبال تحجب الشمس»[2]، فلقد كانت «طروادة» ذات موقع تجاري واقتصادي وعسكري، إذ هي تسيطر على مضائق الدردنيل والبوسفور التي تصل البحر الإيجي بسواحل البحر الأبيض المتوسط الخصبة[3]، وهو ما رجّحنا أنه السبب الحقيقي المضمر وراء الحرب.

---

[1]- لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، ص13، 3، 39.

[2]- الإلياذة، م.س، النشيد الأول، ص149– 152.

[3]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص23.

واللّافت لنظر الدّارس اختفاء الحديث عن الرحلة البحرية باتّجاه طروادة، فهوميروس اقتصر على جعل مسرح الأحداث الشواطئ الآسيوية عقب انتقال اليونانيين إليها؛ وهذا يدفع إلى الاستنتاج أنّ اليونانيين في بدء نشوء دولتهم، وليس لهم خبرة بحرية؛ إذ البحر بالنّسبة إليهم عالم مجهول، دونه أهوال ومصاعب، فكان ذلك دافعًا لليونانيين نحو الرّكون إلى ما يعرفون من نتاج تجود به بلادهم عليهم[1].

وكان لهذه الهجرة والغياب أنْ قوّيا من مشاعر الحنين إلى الأرض التي عرفت طفولتهم، فلما «عاد» أغاممنون «عانق أرض بلاده وقبّلها، وذرفت عينه الدّمع السخين»[2]، ولعلّ هذا المسلك يجد صداه في عصرنا هذا عند كثير من القادة الذين يسجدون ليقبلوا الأرض التي درجوا عليها.

ث. المضمون الصناعي:

ويتبع المستويين الزراعي والتجاري حديث عن المستوى الصناعي، فـ«الإلياذة» تبين عن وجود مواد أوليّة للصناعة، فقد ذكر فيها الحديد، والقصدير، والبرونز، والذهب. وأشير فيها إلى وجود صناعات جلدية وأخرى معدنيّة. ففي وصف لأُمة «آجممنون» وما فيها من أربطة قال هوميروس: «ولهذه اللأْمة اثنا عشر رباطًا من الحديد الأسود، ومثلها من الذهب الإبريز، وعشرون رباطًا من القصدير الأبيض... وقد تدلّى من كتفه سيفه اللّامع، بمساميره الذهبية، وغمده الفضيِّ، ووضع على زنده مجنَّه الذي طال فبلغ كعبيه، وله في وسطه رأس غول يخيف الناظر»[3]، فكثيرًا ما كان الفعل «يصنع» أو ما اتّفق معه في الجذر يتردّد في ثنايا الإلياذة، نحو وصف «المجنّ» بقوله: «... إذا أصاب الرّمح قلب المجن المصنوع من جلد الثور»[4]، وقوله: «... ثم التقى بابن لفريام يُدْعى ليقارن، كان قد أسره قبلاً، حينما وجده في كرمة لأبيه، يصنع من جذع تينةٍ بريَّة إطارًا لمركبة»[5].

[1]- لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، 13 /3 /36.

[2]- ديورانت، ول: قصة الحضارة، م.س، ج6، ص112.

[3]- عنبرة الخالدي، الإلياذة، م.س، ن 13، ص 152 و153.

[4]- م.ن، ص179.

[5]- م.ن، ص 234.

ج. المضمون العسكري:

وفي المستوى العسكري تلقانا قضايا متعدِّدة؛ فالحرب ليست اختيارًا إنسانيًّا وإنّما هي قدر[1] حكمت به الآلهة، فهي «لا أنت، هي التي جلبت كل هذا البلاء»[2]. ولا بدّ للمقاتلين أن يستعدّوا للقتال، وذلك بعلف الخيول التي ستشارك في المعركة، وتهيئة العتاد النافع، وتفقّد الآلات الحربية قبل انخراطها في القتال، يقول: «عندها قام الملك آجممنون وقال: قوموا الآن إلى طعامكم ثم نمضي بعد ذلك إلى القتال. وليشحذ كلّ رجلٍ سيفه، وليُعدَّ درعَه، وليسخُ على جواده بالطعام، وليتفقّد مركبته، فقد نقضي النَّهار بطوله مقاتلين»[3]. أمّا الذين ينكصون على أعقابهم، ولا ينخرطون في القتال «فلن ينجّيهم شيء من أن يصبحوا طعامًا لكلاب البر وطيور السماء»[4].

ولم يكن هذا القتال الذي تظهره «الإلياذة» يمثِّل روحًا وطنيّة أو قوميّة، لكنْ يقف وراءه المجد الشخصي للجندي، فقد وصل المجتمع مرحلة من الانصهار ذاب فيها الفرد في المجتمع[5].

ولم يكن القتال دفاعًا عن قيم اجتماعيّة محضة يؤمن بها أصحابها، ولكنّها العوامل العائليّة أو الشخصيّة، ولهذا كانت استعادة «هيلانة» سببًا كافيًا -ولو في الظاهر- لاشتعال الحرب[6].

يضاف إلى ذلك أنّ القتال قد يكون دافعه مسألة الملكية للأرض، فـ«أخيلوس» قرَّع «آجممنون» عن سبب اندفاع الأخير إلى القتال مع أنّ الطرواديين لم يفتئتوا عليه، ولم يخربوا محاصيله أو يستولوا على خيوله[7].

---

[1]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة عنبرة الخالدي، م.س، ص104.

[2]- م.ن، ص58.

[3]- م.ن، ص51.

[4]- م.ن، ص52.

[5]- لطفي يحيى، عالم هوميروس، م.س، 13/ 3/ 49.

[6]- م.ن.

[7]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة عنبرة الخالدي، م.س، ص320– 328.

إنَّ الحرب -كما يصوّرها هوميروس- آثارها واحدة، فالذي «يتقدّم في القتال والذي يتخلَّف وراء الصفوف لهما المصير نفسه، والخير والشرُّ يعطيهما الناس في القدر من الاحترام. فالموت هو النهاية المحققة سواء للمتقاعس الذي لا يعمل شيئًا، أو للبطل المقدام الذي ينجز الكثير»[1].

ويقف الدارس للإلياذة على كثير من القيم الإيجابية والسلبية التي يبثّها هوميروس في أناشيد ملحمته، فمن القيم الإيجابية: العلاقة الإيجابية بين القائد وجنده[2]، وأثره في شحذ هممهم، والتضحية من أجل المجموع[3]، ومآسي الحرب والاحتلال[4]. ومن القيم السلبية: سبي النساء، ومعاملة الأسرى[5]، وحرق جثث القتلى، وأثر الجيوش في تخريب الحضارة، والآثار السلبية للحرب، فالحرب تفرق بين الزوج وزوجه، وتبعد الأب عن أولاده، وتنشر القلق، وتَسبى النساء، ويُرْمى الأطفال من شاهق، وجثث القتلى يُنَكّل بها.

إنَّ هوميروس الذي يصوِّر المجد الحربي يطمح إلى عالم تسوده الطمأنينة، فالحرب ليست خيراً كلّها ولا شرفًا، فمآسيها كثيرة، وآثارها وخيمة، والعلاقات الاجتماعية لا يمكن أن تحكمها الوحشية فلا بدّ من مساع إلى الصلح وحقن الدماء.

فإذا كانت الحرب عند قدماء الإغريق هي القاعدة، وأنَّ لهم بالبداهة حقَّ ذبح الرجال جميعًا، وسبي جميع النساء والأطفال حين يتمكّنون من فتح أية مدينة، وأنّ الحرب هي العلاقة الصحيحة، وأنّهم مُنِحوا هذا الحق بالتفويض الإلهي المقدَّس، وأنّ غزو الآخرين واسترقاقهم بعض ما يؤمنون به = فإنّ السلم هو الاستثناء، لاحتياجه إلى معاهدة تضمنه[6].

ومع كلّ ذلك، نجد هوميروس يعظّم الحياة البشريّة ويقدِّر لها قيمتها، فينطق على لسان «أخيلوس» بطل أبطال الإغريق ما ينبئ عن كراهية الحرب ولو كانت مجلبة للملكيّة والمنافع الشخصيّة. يقول أخيلوس: «إنيّ لأوثر أن أكون على ظهر الأرض عاملاً أجيراً في

---

[1]- الإلياذة، 273– 282، وترجمة عنبرة الخالدي، ص 131.

[2]- الإلياذة، 12: 145.

[3]- الإلياذة، 12: 146.

[4]- الإلياذة، 11: 141.

[5]- الإلياذة، 148 و149.

[6]- العوا، د. عادل: الأخلاق والحضارة، مطبوعات جامعة دمشق 2، 1408/ 1409 هـ- 1988– 1989 م، ص 32.

خدمة أحد من البشر الأحياء، وأن أكون بلا ملكيّة، إنسانًا معدِمًا على أن أكون ملكًا لأرواح الرجال الفانين»[1].

فالحرب بشعة على أية حال، وإله الحرب في اعتقاد اليونان لا ضابط لقلقه من جهة، وليس له مقرَّبون يسلمون من الاكتواء بنار حربه، ولكن تبقى الإلياذة نصًّا جميلاً، والفن «إذا عكسنا قول أرسطاليس قد يجمِّل الرعب، ويظهر -تبعًا لذلك ما يخلعه عليه من معنى جميل وشكل ظريف»[2]. فهوميروس وشعراء اليونان يروون أحداثًا حربيّة، وهذا الذي يروونه يندرج تحت الأدب أكثر من اندراجه تحت التاريخ، ولهذا كان ما يروونه بعضًا من قصّة الحضارة اليونانيّة[3].

ح. المضمون الفني:

- **مفهوم الشعر والإلهام:**

على المستوى الفني الأدبي نقف على مفهوم «هوميروس» عن الشعر؛ فالشعر هو إلهام خالص تفيض به ربات الفنون[4]، فمن مطلع الملحمة يقول[5]:

ربَّـة الشـعر عـن أخيلوس بـن فيلا ... أنشـدينا واروي احتدامـاً وبيـلا

فقد استمدَّ «المعونة من ربَّة الشعر لتبثَّ فيه روح النظم والإنشاد، بل زاد على ذلك بأن جعلها هي المنشدة فكأنّها صاحبة الفضل، وهو إنّما كان ناقلاً يملي على الملأ ما يتلقفه من فيض روحها»[6].

فهوميروس ليس مؤرِّخًا يسجِّل وقائع المعركة، ولكنّه شاعرٌ مِغنّ، ينتقي من جملة الأحداث وعامتها ما يخدم فكرته، ذلك أنّه يتغيّا التغني بحادثة ملكت عليه

[1]- هوميروس: الأوديسة: ب 489- 491 [عن: أحمد عتمان، الشعر الإغريقي تراثًا إنسانيًا، م.س، ص53].

[2]- ديورانت، ول: قصة الحضارة، م.س، ج6، ص106 و107.

[3]- م.ن، ج6، ص106 و107.

[4]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص56؛ أحمد عتمان، أغانٍ نقدية من هوميروس حول طبيعة الشعر ووظيفته، مجلة الثقافة، ع 38، نوفمبر، 1976، ص 62- 66.

[5]- الإلياذة: ترجمة سليمان البستاني، م.س، ج1، ص203.

[6]- م.ن، ص203.

جوارحه، وكانت وراء كتابته هذه الملحمة، وهي غضبة أخيل[1]، فكانت بيت القصيد في الملحمة، وسعى إليها مبدعها سعيًا حثيثًا مستثمرًا كلّ قدراته الإبداعية[2].

- **هوميروس ومبدأ قلب الأشياء:**

وضع هوميروس نُصب عينيه -في المستوى الفنّي- مبدأ فنيًّا ما يزال مستمرًّا حتى يوم الناس، وهو مبدأ «قلب الأشياء»، فعلى المبدع أن يحدِّد ما يريد قوله ويسير نحوه منذ خطوته الأولى[3]، وبذلك استحق هوميروس تقدير الإغريق فجعلوه أستاذًا لهم في كلّ شيء، فمن خلال البناء[4] الفني والموضوعاتي للملحمة تعرَّفوا سبل معالجة ما يخطر على بالهم من مسائل.

خ. المضمون العقدي:

على المستوى العقدي، تطفح «الإلياذة» بالفكر الوثني، وتنتشر فيها أسماء آلهة متعدّدة، مثل «أثينا» و«زيوس، آريس، أفروديت»، حتى إنّ الإغريق ورثوا من «هوميروس» تصوّر علاقة بين الآلهة والبشر، وهذه المسألة تُعدُّ مَوْلجًا مهمًّا لدراسة التراجيديا الإغريقية. وهذه الآلهة -عندهم- تتحلَّى بقدرات تفوق قدرات البشر، ولها شكل البشر وطبيعتهم، لكن الخلود رفيقها فلا تموت. ولكنّها ذات طبيعة بشريّة، فهي تقضي معظم أوقاتها في المتعة والضحك والغرام، ويسخر بعضها من بعض، ويكثرون من الطعام، ويسرفون في الشراب. وهي آلهة ذات قسوة في القلب وغلظة، ولا تقيم لأحد وزنًا، وتتخاصم فيما بينها، وتنقسم إلى معسكرات وأحزاب، ومعروفة بالخداع والمكر، ولكنّها تتمتّع بأمان عام. ومن جهة أخرى نجد فيها القويَّ الباطش، والضعيف الواهن، والجبان والشجاع. ومن مؤكّدات خصائص الآلهة البشريّة أنّها ليست محيطة علمًا بكلّ شيء، فهي تجهل مثلاً آخر أنباء حرب طروادة، وأحدها لا يعلم بموت ابنه. وهذا الفكر الوثني لدى اليونان على النقيض مما كان شائعًا عند عرب الجاهلية، فهم مؤمنون بوجود إله واحد، ولكن أشركوا معه أصنامًا جعلوا عبادتها قربة إلى إله واحد، وهذا يشير إلى المستوى العقدي لدى اليونان في أن التوحيد هو

---

[1]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص33 و34.

[2]- م.ن، ص34.

[3]- م.ن، ص34.

[4]- م.ن، ص33.

الأصل، وأما الشرك جاء بعد أن عجزوا عن الوصول إلى معرفة بالذات الإلهية.

وقد تظهر الآلهة في الإلياذة بمظهر ساخر، نحو وصف مضاجعة «آرسي» لـ «أفروديت»، وضبط زوج أفروديت واسمه «هيفايستوس» لها بجرمها المشهود، فما كان منه إلا أن ألقى غلالة شفافة عليهما، ولكنّه دعا بقية الآلهة ليروا هذا المشهد ويسخروا من الاثنين معًا. ومن ذلك مشهد جذب «هيرا» لـ «زيوس» إلى فراشها، وهذا يعد بمنزلة «ترويح كوميدي» في ثنايا الملحمة، وداعم للإيمان بأنّ الآلهة كالبشر. فهذا الموقف السّاخر نتيجة شعور بالارتياح والمتعة في متابعة ما تقوم به الآلهة، وهذه القضيّة مما ورثه المسرح الإغريقي عن «هوميروس»، وبات موضع جدل بين الفلاسفة والعقلانيين[1].

وليس يعني وجود حديث عن الآلهة في الملحمة أنّها ملحمة ذات طابع ديني، لكن هوميروس كان يريد أن يتغنَّى بأمجاد البطل الإنسان والبطولة مكافأة للإنسان عليه أن يسعى إليها ويجعلها غاية[2]، فـ«الإنسان» هو قطب الرحى وبؤرة الاهتمام، مع إدراك أنّ ذلك التغنّي مصدر وحي ربات الفنون وإلهامها[3]، فقد كان هوميروس وهو يعالج مخلوقات خرافيّة وحشيّة يحاول إضفاء لمسة إنسانيّة عليها، مريدًا بذلك هدم حاجز الخوف والرعب من هذه المخلوقات الخرافية إبان العصر الموكيني[4].

10. شخصيات الإلياذة

تنقسم شخصيّاته الملحمة قسمين: شخصيات بطوليّة، وأخرى خياليّة، وهي شخصيات مقنعة في تصرُّفاتها، وتتمتّع بالأحاسيس الأساسية الإنسانيّة، وتعكس موقعها الحياتي، وظروفها المعيشيّة.

أ. أبطاله:

أبطاله موزّعون بين الملوك والأمراء، ولكن لا يعني ذلك أنّ «هوميروس» ضرب صفحًا

---

[1]- انظر: أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص57– 59؛ الإلياذة، ترجمة: عنبرة الخالدي، م.س، ص105، 111، 202، 230، 231، 235، 239، فلا تكاد تخلو صفحة أو نشيد من حديث يخص إلهًا أو إلهة.

[2]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص34.

[3]- م.ن، ص51 و52.

[4]- م.ن، ص53.

عن «عامة النّاس»، بل صور حتى أحاسيس الحيوان، كتصويره مثلاً حصان «أخيل» المنذر بموته وهذا يذكرنا بحصان «عنترة» فيما بعد، وناقة المنخِّل اليشكري، كما هو معروف في تراثنا الأدبي.

- بين هوميروس وأبطاله:

و«هوميروس» على وعي تام في تعامله مع شخصياته، ويحس بها إحساسًا عميقًا، ويعدّل من أحداث القصّة في ضوء إحساسه هذا. وهو يقدِّم شخصيّاته بأنفسهم من غير أن يتدخّل بتعليق، وهذه صفة الحيادية التي مرّت معنا من قبل. وهو لا يتعاطف معها ولا يبدي نحوها أية مشاعر، فهي تتحرّك في فضاء الملحمة بحرية لتشكل نماذج إنسانية يرسمها بدقّة، بما فيها من قوّة أو ضعف[1]. فشخصياته ذات جاذبية تتغلغل في نفس قارئها لما تبديه من انغماس في الموقف الدامي الذي هو جزء من المصير الإنساني عامة ودراميته[2].

- كيف يقدم أبطاله:

⇐ التجسيم:

يتوسَّل «هوميروس» بطرائق فنيّة عدّة في تقديم شخصياته وأبطاله، آلهةً وأناسيَّ. فهو يتكئ على التجسيم الحسيّ، فيجعل المجرَّد مجسَّمًا، فكلّ شيء عنده مجسَّم، والحسيَّة والتجسيم صفتان واضحتان في الإلياذة»، وعنهما نجم «تشييء» الآلهة. والحسيَّة تلك هي المرحلة الطفوليّة في الفكر، لذلك كان لها تأثيرها في خفض مستوى التصوير الفني، وفخامة اللّهجة. وحتى يحقّق «هوميروس» هاتين الخاصيّتين عمد إلى استعمال لغة خاصة غير مألوفة من جهة ولغة رفيعة المستوى من جهة ثانية.

⇐ التشبيهات:

أمّا الوسائل الفنيّة الأخرى التي كان يعتمد عليها في تصويره فمنها التشبيه، فقد عمّت تشبيهاته الإنسان والحيوان أليفها وغير الأليف، زاحفها وطائرها، وانتهى به الأمر إلى التشبيه

[1]- للتوسع في ذلك انظر: أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص42– 52.

[2]- م.ن، ص50.

بالهوام والصراصير[1]، والذباب، والنمل، وغيرها. وكان هذا النّزول بمستوى التشبيه مطعنًا على «هوميروس»، و«لكنّك إذا نظرت إلى كلّ ما قال فيها علمت أنّه إنّما يذكر الشيء الحقير ليستخرج منه الأمر الخطير، وتلك عبرة يجب أن يُنظر إليها بعين الإعظام والإكبار»[2].

⇐ حضور الطبيعة:

وتبوّأت الطبيعة بعناصرها المختلفة مكانة واضحة في وصف «هوميروس» فوصف النار قَبَسها وحريقها، والأنواء من النسيم العليل إلى العواصف، والرياح بأنواعها، ثمَّ تحوَّل إلى وصف أحوال البشر ومقابلته وجهًا لوجه، وبحث في حياة الإنسان شابًا، فشيخًا، فكهلاً، وهو في كلّ ذلك نفور من الشّر ميال إلى الخير، قال يصف طفلة احتمت بأمّها[3]:

شـهقت كطفـل جـرت تـسرعُ	ومـن دونهـا أمُّهـا تُهْـرَعُ
فتعلَـق في ذيـل أثوابهـا	ومقلتهـا صبيـاً تهمـعُ
وترسـل طرفـاً بليـلاً إليهـا	عسـاه بذلَّتهـا يشـفع
وتجذبهـا وهـي ضارعـةٌ	لتحملهـا فتكـف البـكا

⇐ تقنيات التشبيه:

وتقنية التشبيهات عنده نوعان: قصيرة جدًا وعابرة، أو مطوَّلة، وهذه تتصف بالاستطراد، وتبدو كالمفكَّكة، فهو يطلق العنان لخياله فيسرح به، ولا يقف حتى يقف خياله، فقد يتناول تشبيهه أبياتًا وتندرج في طيَّه تشبيهات أخرى، وقد يشبه في "سطر أو بعض سطر"، وهو في هذا شبيه بما سار عليه شعراؤنا الجاهليون. وهو كذلك مثلهم في كثرة تشبيهاته بَلَهَ استعاراته وكناياته[4]. وهو لا يسعى إلى المجاز سعيًا، ولا يقصد إليه قصدًا يدفعه إلى التكلّف، ولا يتجنّبه إذا جاء متّفقًا وفكره، وهو من نوع المجاز المرسل، نحو قوله:

---

[1]- الإلياذة، ترجمة عنبرة الخالدي، م.س، ص58.

[2]- الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، ج1، ص177؛ انظر ثمة نماذج مماثلة من الشعر العربي.

[3]- الإلياذة، ترجمة البستاني، م.س، ج2، ص813؛ انظر: ج2، ص574؛ ج1، ص179.

[4]- الإلياذة، ترجمة البستاني، م.س، ج1، ص179؛ انظر مثالاً على ذلك قوله:
فأهوى وعن ظهره انخرقت وفي الأرض غرثانة وقفت. النشيد 8، ص 523.
وقوله:
ومن ناشب في التّرب قبل بلوغهم وإنْ طار غرثاناً على العظم واللحمِ
انظر: النشيد 15، ص790؛ النشيد 20، ص790.

ومــن ثَــمَّ أخمــد أنفاســه وأغمــض عينيــه سَترْ المنــونِ

و«كثيراً ما يستعمل هوميروس أمثال هذه الاستعارة[1] للتعبير عن الموت ولها في العربية أمثال من أرقّها قول بعضهم:

ورنَّقَــتِ المنيــة فهــي ظــلٌّ عــلى الأبطــال دانيــة الجنــاحِ

قال في (أساس البلاغة)[2]: فيه بيانٌ جليٌّ أن ترنيق المنية مستعار من ترنيق الطائر، أي رفرفته وخفقته بجناحيه، حيث جعل المنية كبعض الطير المرنقة بأن وصفها بوصفه من التظليل ودنو الجناح»[3].

وتعتمد تقنية التشبيه في الأعم الأكثر على استعمال أداة التشبيه الأساسية (الكاف)، ومن ذلك قوله يشبه «باريس» بالمهر العتي:

كمهـر عتــيٍّ فـاض مطعمـه عـلى ربائطــه يبتُتْهــا وهــو جامــحُ

و«إذا بدت له الشدَّة قبل النّزالِ وحب البروز من الاعتزال، رأى أنّ الجواد العتيَّ المنقطع على مربطه أقرب إلى تلك الصفة من الليث فحلَّه من عقاله وأجراه مجرى جواد امرئ القيس:

وهَــبَّ الطــراود والتصقــوا وهكطــور في القلــب مندفــقُ

كجلمــود صخــر قــد انتزعــا مــن الشــمِّ ســيلٌ بــه اندفعــا

وقد علَّق سليمان البستاني على هذين البيتين بقوله: «لو قرأت هذين البيتين في الأصل اليوناني لظننت أنّك تسمع هدير ذلك السيل المتدفّق والصخر المتحدر فوقه ترتجف لانحداره الغاب، ولسمعت صوت اندفاعه الدفعة الأخيرة ووقوفه فجأة وصدى صوته بعد

[1]- الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، م.س، ص839.

[2]- الزمخشري، محمود بن عمر: أساس البلاغة، ط2، مصر، دار الكتب المصرية، 1972، جذر (رنق).

[3]- م.ن، ص481.

ذلك الوقوف... أما التشبيه بحد ذاته فلا يفوقه تشبيه في كل إلياذة هوميروس[1].

والتشبيه وليد الموقف وليس زينة فائضة مفتعلة، ففي وصفه كلاًّ من «منيلاوس» و«باريس»، وقد دلَّ أحدهما للآخر لم يجد صورة تعبرِّ عن ذلك من صورة ظبي أمام ليث هصور[2]:

كالليـث يضـوره السَّـغبُ	والظبـي لديـه يضطـربُ
فعليـه منتفضـاً يثـبُ	ولـو القناصـون اقتربـوا

بضراء تقبل للصد

وإذا تساوى الفارسان شدَّة وبأسًا كانا كليثين يقف أحدهما ندًا للآخر[3]:

وهكطـور مـن خيلـه نـزلا	وفي طلـب الجثـة اقتتـلا
كليثـين بينهـما ظبيـةٌ	بهـا فتـكا فـوق طـود عـلا

ومعلوم أن عِراض الأشباه والنظائر مما يكشف الأوهام والمقربات للأفهام، فجاء هوميروس مكثراً من التشابيه والمقابلات. «وإن أحسن شيء في تشبيهاته حلولها جميعًا محلّها. فإذا تجلَّت له الصورة رسمها بصراحة واتساق غير مداجٍ ولا محاذر، وأوجز وصعد وهبط على ما يقتضيه الموقف[4]».

ب. الصورة الفنيّة:

ـ أقسامها:

التصوير الفني سرّ عبقرية الشاعر، فيه يناشد الأحاسيس من خلال الألفاظ، أو هو رسم بالكلمات[5].

---

[1]- الإلياذة، ترجمة البستاني، م. س، ص699.

[2]- م.ن، ص699.

[3]- الإلياذة، ترجمة البستاني، م. س، ص314.

[4]- م.ن، ص176؛ انظر: أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص37.

[5]- Shirley A. Barlom, the emage of Euripids, London, 1971, P.4. And Burton S.H, The Criticisn of Peotry, London, 1967, P.97.

عن [عالم الفكر، مج 16، ع 1، 1985 م، ص 52].

وصور هوميروس في إلياذته تقسم إلى مجموعات، فمنها الصّور البسيطة (العادية)، ومنها الصّور المركّبة، ومنها الصّور الصوتيّة ـ اللونيّة ـ ومنها الصور الرمزيّة، وهي أرقى هذه الأنواع[1].

ـ مصدرها:

ولصوره مصدران أساسيان هما: الموروث الملحمي القديم، وحياة البشر العاديين، وهو بهذا المصدر الأخير تخفّف صوره من العنف الذي يعمّ أحداث الملحمة[2]. أما صوره الرومانسية فهي بمنزلة خلفية للأحداث الكبرى في الملحمة[3].

لقد جنح هوميروس إلى الرسم بالكلمات من غير تكلُّف أو ميل إلى التأنُّق الذي يضيع جماليّة الصورة ولا يخدم وضوح الفكرة، وكان هوميروس في تصويره عن طريق اللغة يتغيَّ الصدق ودليله البداهة والفطرة، وبذلك يكون قد سار في سبيل عدلٍ لا أَمْتَ فيه، فلم يعثر في هذا الطريق، ولم يجنح عن القصد.

رابعًا: خاتمة المطاف:

وفي ختام البحث لا بدّ من الإشارة إلى النّقاط التالية:

1. ليست ملحمة هوميروس هي الملحمة الأولى في التاريخ؛ فهي مسبوقة بأقدم ملحمة هي «ملحمة جلجامش» درة النتاج الأدبي في حضارة وادي الرافدين، الملحمة المكتوبة بالخط المسماري واللغة البابلية التي يعود زمن استنساخها إلى القرن السابع قبل الميلاد، وبطلها ملك سومر (جلجامش) سادس ملوك (الوركاء) الذي حكم في حدود سنة 2650 ق.م. وقد عُثر على أجزاء منها في منطقة قريبة من ميدان الإلياذة هي منطقة (بوغاز كوي) في تركيا. ولعلّ ما ذكرناه من إيراد هوميروس للعدد (7) ما يؤكّد تسرّب أثر ما ـ مهما كانت ضآلته ـ إلى ملحمته، هذا العدد هو من أخص خصائص الفكر السومري، فمنذ عصور موغلة في القدم، وعلى

[1]- انظر: دراسة مفصَّلة لذلك: خضرة، حلمي عبد الواحد، خصائص التشكيل الأسلوبي في إلياذة هوميروس، مجلة عالم الفكر، م.س، ص62.

[2]- أحمد عتمان، الشعر الإغريقي، م.س، ص36.

[3]- م.ن، ص36.

عتبة الحضارة بدت آلهة السومريين وورثتهم البابليين تأتمر بأمر العدد(7)»[1]؛ فقدد جاء في ملحمة جلجامش:[2]

فتح آنو فمه

مخاطباً عشتار العظيمة،

لو حققت لك مطلبك،

لعم الجفاف سبعاً،

فهل جمعت قمحاً يعيل الناس؟

وجاء في أسطورة الطوفان السومرية[3]:

ومع حلول اليوم السابع والعاصفة والطوفان...

2. نزلت الإلياذة بالآلهة من السماء، فجعلت أبطالها من الملوك والأمراء، وجعلت للآلهة صفات بشريّة، فهي تأكل وتشرب الخمر، وتتصارع فيما بينها، في حين أنّ ملحمة جلجامش ارتقت بالبطل إلى السماء فجعلت ثلثيه من الآلهة وثلثًا واحدًا من البشر.

3. تعبّر ملحمة الإلياذة عن طفولة الفكر اليوناني؛ إذ إنّها قدّمت المجتمع مجتمعًا وثنيًّا ينظر إلى الآلهة نظرة دونيّة، وليست مثالاً يحتذى، فإنّ كلّ إله له موقفه من حرب طروادة وهو موقف مزاجي، فهي منقسمة تجاهها؛ فأثينا وهيرا تكرهان طروادة وأهلها؛ لأنّ فاريس حكم في مسابقة الجمال لمصلحة أفروديت، وهذه تدعم الطرواديين انتصارًا لـ«باريس»، فالآلهة ـ في الإلياذة ـ لا يختلفون عن البشر، تحرّكها دوافع شخصيّة إذا ديست كرامتها.

4. تفصح الإلياذة عن حكم استبدادي، فالملوك يدَّعون أنّهم من سلالة الآلهة ويحكمون بالحقّ المقدّس، وليس على الناس إلا أن يطيعوا.

5. جنوح المجتمع اليوناني إلى الحرب فالحرب هي القاعدة، والسلم هو الاستثناء لحاجة السلم إلى معاهدات ومواثيق.

---

[1]- القنطار، كمال: في ظلال العدد، وزارة الثقافة، دمشق، 2002 م، ص11 وما بعدها.

[2]- م.ن، ص11.

[3]- القنطار، كمال، في ظلال العدد، م.س، ص12.

6. عرف المجتمع اليوناني في عهد هوميروس مطامع استعماريّة هي الأسباب الحقيقيّة التي كانت وراء الحرب الضّروس التي استمرت سنواتٍ طوالاً، ولعلَّ فكرة التّطلّع الاستعماري نحو أراضي الآخرين إحدى مخلّفات فكر هذا المجتمع التي تركت آثارها في سلوك أوروبا وريثة هذا الفكر الاستعماري، والشواهد على ذلك كثيرة.

7. يكشف الإلياذة عن وجود صناعات خاصّة بأدوات القتال، وهذه الأدوات لا بدّ لها من وجود موادها الأولية، من حديد، وبرونز، وغيرهما، وثمة فائض من إنتاج كانت تقوم بتصديره.

8. اتكاء المجتمع في المرحلة التي تصوِّرها الإلياذة على الرواية الشفوية، وهي حالة كانت شبه عامة في مجتمعات أخرى غير المجتمعات اليونانيّة.

- الاستطراد في تفصيلات كان له أثره في إشاعة ملامح خلخلة في البنية الفنيّة، وكان لهذا التناقض أثره في دفع بعض النقاد إلى عدم التسليم بأنّ الملحمة من نظم شاعر واحد، وإنّما هى نتاج أزمنة متعاقبة وشعراء متعدّدين.

9. عدم تكامل البناء الفني للإلياذة، وعدم وجود خاتمة حقيقيّة لها.

10. بساطة الصور التي توسَّل بها هوميروس واتكاؤه على الصور القائمة على التشبيه، وهي مرحلة تصويرية أدنى من التعبير بالاستعارة والرمز.

11. انتشار الأميّة في المجتمع اليوناني الكتابة بدليل أنّه لا ذكر لهذه المسألة في الإلياذة إلا مرّة واحدة.

12. انتشار ظاهرة حرق جثث القتلى، وهي ظاهرة همجيّة لم يعرفها التاريخ العربي منذ انبثاق فجر حضارته.

13. تتلامح فيها مواقف صدرت عن شاعر شحنت نفسه بخصائص إنسانيّة سامية فيدين الظلم، ويعلي من شأن العدل، والحب، والتواضع، والنبل الإنساني، فليس يغفر لـ «أخيلوس» ما هو عليه من خشية، فكأنّما كان «هوميروس» يتقلّب في أتون الصراع النّفسي بين الحفاظ على أصل الشعر الملحمي القائم على التغنّي بالحرب وكشف القوّة الإنسانيّة

من خلالها، ولكنّه في الآن ذاته يدين الكوارث الناجمة عن الحرب، فهو بين نظرته الراجعة إلى أصله الدوري المتصف بالوحشيّة وبين السمات الأخلاقية الجديدة المؤمنة بالسلام والعدالة، ولا يشبه هوميروس في إنسانيته إلا شكسبير.

14. تركيز هوميروس على تصوير حياة الطبقة الأرستقراطية وإغفال حياة الناس البسطاء إلا لمامًا.

15. يقدِّم هوميروس نموذجين متناقضين للبطولة: أوّلهما النّموذج الفردي المتمثّل في «أخيل /أخيلوس». وثانيهما: النّموذج الذائب في أسرته، ووطنه، ومجتمعه، ويمثله «هكتور»، فهو يمثّل الوجود الطروادي، ويتّصف بصفات إنسانيّة، فهو يداعب طفله، ويعتني بأمر العجوز، ويلطف في معاملته مع «هيلينا»، يهدِّئ روع زوجته.

16. تتمثّل البطولة في «الإلياذة» في القدرة العسكرية والجسديّة، ولعلَّها تفصح عن مرحلة من مراحل الفكر الهوميري الذي تطوّر في الأوديسة، إذْ غدت البطولة تتمثّل في القدرات الذهنيّة وحسن التصرُّف.

17. يؤخذ على الإلياذة اعتماد «هوميروس» ما يسمَّى تقنية القوائم، إذ يورد سجلاً بالجيوش الآخية، وهي تشكّل إرهاقًا للقارئ، وتسهم في خلخلة البنية الفنية.

18. الاعتقاد بوجود قوّة عليا تمثّلها الآلهة، والأخطاء البشريّة تمحوها صلوات الدعاء، فهذه الصلوات تتعقَّب الخطيئة لتمحوها.

19. ظهور ملامح من الديموقراطية تتمثّل في مجالس الشورى التي كانت الآلهة -لا البشر- تعقدها، ولكن يميل إليها بعض الشخصيات، فـ«أغاممنون» يقول لأخيه «مانيلاّ»: «إنّنا بحاجة إلى حسن الشورى يا أخي، فعلّنا نستطيع إنقاذ القوم».

20. تتلاقى الإلياذة في مواضع منها مع بعض قضايا شعرنا العربي، كتصويره قوّة أخيل وحديثه عن الحصان وفارسه، وحديثه عن العفّة، وعن عدم الإنجاب، وإلى غير ذلك مما يذكرنا بفرس امرئ القيس، وحصان عنترة، وناقة المنخّل اليشكري، وبقضايا من فلسفة المعرّي.

21. نجح «هوميروس» في أن يميط اللّثام عمّا يعتري النّفس الإنسانيّة وما يعصف بها، فكان ذلك من بدايات التحليل النفسي للشخصيّة في العمال الأدبية، كما في تصويره أخيلوس وبريام وهما يبكيان في حوارهما، مؤكّدين بذلك أنّ للحزن أثرًا في التفريق كما له أثر في الجمع بين الناس.

22. تعرض الملحمة للتغيير بسبب تفشّي الأميّة في المجتمع اليوناني كما ذكرنا، فكان تعويلهم على الرّواية الشفهيّة، فكان الشعراء الجوّالون يغيّرون منها نتيجة اهتمامهم بكسب لقمة عيشهم من خلال ذلك، فكانوا يبدلون ويغيرون إرضاءً للمتلقّين.

23. تسفر الإلياذة عن مواقف إيجابيّة لهوميروس، نحو إدانته الزنى، وحديثه عن العفّة، واهتمامه بالإنسان ومشاعره حتى في خضم حديثه عن معاركه مع الآلهة.

المصادر والمراجع

العربية

1. أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (ت 395 هـ)، حققه عبد السلام هارون، طبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1423 ه، 2002 م.
2. أحمد أبو زيد، الملاحم كتاريخ وثقافة، عالم الفكر، مج 16، ع 1، 1985 م.
3. البستاني، سليمان: إلياذة هوميروس، مطبعة الهلال، مصر، 1904 م.
4. جورج تومسن، إسخيلوس وأثينا، تر: د. صالح جواد طعمة ويوسف عبد المسيح ثروت، (د. ت).
5. حلمي عبد الواحد خضرة: خصائص التشكيل الأسلوبي في إلياذة هوميروس، مجلة عالم الفكر.
6. الخالدي، عنبرة: الإلياذة، ن 13.
7. خشبة، دريني: الإلياذة، دار العودة، بيروت، د.ت.
8. خفاجة، محمد صقر: تاريخ الأدب اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956 م، ومجلة تراث الإنسانية.
9. ديورانت، ول: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، كتبت المقدمة 1953م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
10. الزمخشري، محمود بن عمر: أساس البلاغة، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، 1972، (رنق).
11. الشوباشي، محمد مفيد: رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، دار المعارف، رقم (47)، 1968.
12. طومسون، جورج، وذيبروف، فلاديمير: دراسات ماركسية في الشعر والرواية،

ترجمة: د. ميشال سليمان، دار القلم، بيروت، ط1، 1974 م.

13. عتمان، د. أحمد: الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً، عالم المعرفة.

14. العواد. عادل: الأخلاق والحضارة، مطبوعات جامعة دمشق 2، -1408 1409 هـ - 1988- 1989 م.

15. فراي، نورثورب: الماهية والخرافة، ترجمة هيفاء هاشم، ومراجعة عبد الكريم ناصيف، وزارة الثقافة، دمشق، 1992م.

16. القنطار، كمال: في ظلال العدد، وزارة الثقافة، دمشق، 2002 م.

17. مرشحة، ومحمد صقر خفاجة، الإلياذة لهوميروس، مجلة تراث الإنسانية.

18. مرعي، د. فؤاد، ومرشحة، د. محمد: الأدب والنقد في الغرب، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حلب، 2000 م.

19. عبد الوهاب لطفي يحيى، عالم هوميروس، مجلة عالم الفكر، مج 12، ع 1.

الأجنبية

1. "EPIC" in Encyclopaedia Britannica. vol. 6.
2. CADDON .J. A: Adictionary of literary term, penguin Book, revised Edition, 1977 / 1979 k.
3. Plutarchus: the par llel byes, with English translation, 1900.
4. Shirley A. Barlom, the emage of Euripids, London, 1971, P.4. And Burton S.H, the Criticisn of Peotry, London, 1967.

"PIC" in cassell, s Encyclopaedia of literatey. vol. 1. Co. London 1953.

الفصل الرابع

أخلاق، اجتماع، وسياسة

* نظام القيم والأخلاق في الحارة الآخية
* الحياة الاجتماعيّة في الحضارتين الكريتيّة والآخيّة في العصور المبكرة
* كريت والنظم السياسيّة في بلاد الإغريق
* أثينة من الأسرة إلى نشوء دولة المدنية

نظام القيم والأخلاق في الحضارة الآخية

محمود كيشانه[1]

مقدمة

تُعدّ القيم والأخلاق علامة على الرّقي والتّحضّر الذي تعيشه حضارة ما، فالحضارة تقوم على الجانب المادي، كما نجده بارزًا في الحضارة الغربية الآن، والتي تعمل على الانغماس في المادة، دون مراعاةٍ لقيم أخلاقيّة ولا دينيّة، ولكنّ التحضّر في حقيقته مادّة وروح، والرّوح مقدّمة على المادة؛ حتى تبلغ الحضارة رقيّها الحضاري، وتضمن الاستمراريّة لأطول فترةٍ ممكنةٍ على الساحة الإنسانيّة.

ومن ثم فإنّ قضيّة البحث عن النظام القيمي والأخلاقي في الحضارة الآخية في محلّه؛ لأنّنا نحاول أن نتبيّن كيف كانت الأخلاق في تلك الحضارة المترامية التي سمّي عصرها بعصر الأبطال. ومن المهم التأكيد على أنّنا نتعامل مع حضارة ظهرت على الساحة، وهي مشبعة بالعصبيّة وتبحث عن سفك الدماء، وهذا ما جعل قضيّة القيم والأخلاق محلّ نقاش كبير، خاصة فيما يتعلق بالآخر، والآخر هنا ليس آخر في العقيدة فقط، ولكنّه آخر من حيث الموطن أو العصبيّة أيضًا.

فإذا أضفنا إلى ذلك أنّنا نتعامل مع عصر موغل في التاريخ القديم، فإنّنا ندرك أنّ مهمّة البحث عن القيمي والأخلاقي ستكون مهمّة شاقّة، لكن ليس معنى ذلك أنّنا نصدر حكمًا مسبقًا؛ إذ إنّنا سنجد بعض القضايا الأخلاقيّة والقيميّة والنابعة من رحم البيئة ذاتها، وهذه القضايا هي موضع دراستنا هذه.

ومن هنا فنحن نحاول في هذه الدراسة الإجابة على مجموعة من الأسئلة التي مؤدّاها: هل نستطيع أن نجد نظامًا قيميًا وأخلاقيًا في الحضارة الآخية؟ وهل ما نجده من بعض القيم

---

[1]- باحث في الفلسفة، محاضر بجامعة القاهرة ـ فرع الخرطوم.

والأخلاق هنا أو هناك تنهض لتكون نظامًا قويًا يمكن أن يرسخ لنظام أخلاقي قيمي؟! وهل يشمل هذا النظام ـ إن وجد ـ حقوقًا للإنسان وخاصة المرأة؟! هل كان مراعيًا للآخر؟! وما أهميّة العمل كقيمة أساسية في بناء أي حضارة إنسانية؟! هذا إلى غير ذلك من التساؤلات الفرعيّة المنبثقة عنها، والتي يحاول هذا البحث استيفاءها والإجابة على مضامينها.

ولمّا كانت الحضارة الآخية (1300 – 1100) ق. م تمثّل واحدة من الحضارات القديمة، والتي لها باع طويل من البدائية ـ كما قلنا ـ فإنّ قضيّة النّظام القيمي والأخلاقي فيها كانت محلّ شك كبير، ذلك أنّ الإنسان ذاته لم تكن له قيمة تذكر في هذه الحضارة وغيرها من الحضارات، اللهم إلا أصحاب الجاه والسلطان، أما الإنسان الضعيف فلا نجد له حقوقًا تذكر إلا في القليل النادر.

وإذا كانت قضيّة القيم والأخلاق تقوم على توفير الحرية والحماية اللازمة له، سواء أكان رجلاً أم امرأة أم طفلاً أم شيخًا، كذلك على نواح عدّة: اجتماعيًا وسياسيًا وثقافيًا وتعليميًا وغيرها، فهل نجد مثل هذه القيم في الحضارة الآخية؟! إنّه بالاستناد إلى الإلياذة والأوديسة، وغيرهما من الكتب التي تؤرّخ لهذه المرحلة نجد أنّ الإيمان بقيمة الإنسان كانت مهدرة، يدلّ عليها الحروب التي قامت في تلك الفترة.

ويمكن القول إنّنا سنتناول هذا البحث من خلال المحاور الآتية:

الأوّل: ما نظام الحضارة الآخية القيمي والأخلاقي؟

الثاني: الأنا في نظام القيم والأخلاق عند الآخيين.

الثالث: الآخر في نظام القيم والأخلاق عندهم.

الرابع: خصائص نظام القيم والأخلاق في هذه الحضارة.

الخامس: أثر الآلهة في هذا النظام.

السادس: نظرة نقدية.

أوّلاً: ما نظام الحضارة الآخية القيمي والأخلاقي؟

لا شكّ في أنّ الأفراد يعيشون في مجتمع يتبادلون فيه التأثير إيجابًا وسلبًا، نتيجة تبادل العلاقات المتعارف عليها إنسانيًا والمعمول بها أيضًا، لكنّ مجتمعًا كهذا ـ وأي مجتمع على العموم ـ في حاجة إلى وضع مجموعة من القواعد المتعارف عليها عادة تقليدًا ومحاكاة، وهذا ما نجده في النّظام القيمي والأخلاقي في الحضارة الآخية.

لكن نستطيع القول إنّ القيم والأخلاق في هذه الحضارة كانت عبارة عن مجموعة من الأحكام النابعة عن الانفعال أكثر من قيامها على العقل، وهي بالأساس مبنيّة على الرغبات والطموحات والتطلعات، وإن ازهقت في سبيلها الأرواح، وأريقت الدماء، وقد تغلغلت هذه القيم والأخلاق بما انبنت عليه من أحكام في المجتمع الآخي، حتى صارت البوصلة التي يسيرون عليها في سلوكياتهم.

وبناء عليه، يُمكن تعريف النّظام القيمي والأخلاقي في الحضارة الآخية بأنّه مجموعة القواعد التي اكتسبتها الحضارة الآخية عبر عقود، بهدف تنظيم السلوك خاصة في علاقة الإنسان الضعيف بسيّده؛ إذ كانت تؤمن بتصنيف السيد والعبد، وتحديد علاقات الأشخاص بعضهم بعضًا، لا لتحقيق الوجود الإنساني، ولكن تحقيقًا لعصبيّة المدينة التي تعلي من قدر النبلاء على غيرهم، والعمل من أجل المجد الشخصي لا الإعلاء من قيم النّفس وتهذيبها على المعنى المتعارف عليه أخلاقيًا. كما أنّ هذا النّظام القيمي الأخلاقي نجده على مستويات عدّة: الفرد، الأسرة، القبيلة، المدينة، وفي العلاقة بالآخر.

ثانيًا: الشخصيّة في نظام القيم والأخلاق عند الآخيين

ونقصد بالشخصية هنا تشخصات الحضارة الآخية وتمثلاتها في ناسها الذين عاشوا تحت ظلّها، ونشأوا على أرضها، وتشبّعوا بكلّ ما تنطوي عليه من مناقب ومثالب، في زيّهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ فهم المواطنون أبناء الوطن، ولا أحد غيرهم. وقد أشار هزيودوس في كتابه الأعمال والأيام إلى العديد من الأشغال والأمجاد التي تحكي عن اليوناني القديم، فهذا الكتاب ـ كما يذهب بعض الباحثين ـ يختلف اختلافًا جوهريًّا بما يشمله من قصائد تحكي تاريخ اليونان القديم[1].

[1]- Hesiod The Poems And Fragments, By A.W Wair , M. A (Aberd. et Cantab) Oxford, at The clarendon press, 1908, 39.

1. الزي والملابس

أوّل ما يفاجئنا في ذلك قضية الزي والملابس ومدى ملاءمته للأخلاق والفضيلة، فقد كانت ملابس الآخيين فيها قدر لا بأس به من (الحشمة) بالمقارنة بملابس اللاحقين، ولم تكن فيها من العري ما وجد فيمن جاءوا بعدهم، فالآخيات كان في لبسهن بعض من الوقار والاحترام، فكن كالرجال يغطين أجسامهن برداء مربع يطوونه فوق الكتف، ويشبكنه بدبوس، ويصل إلى قرب الركبتين، «وتضيف النساء إلى هذا نقابًا أو حزامًا، ويضيف الرجال غطاءً للحقوين – قدر له أن يتطوّر على مرّ الزمن، وازدياد الاحتشام والكرامة، حتى أصبح هو اللباس، ثم السروال (البنطلون)، وكان الأغنياء يرتدون أثوابًا غالية الثمن، كالثوب الذي تقدم به بريام في ذلة إلى أخيل ليفتدي به ولده[1]، وكان الرجال حفاة الأقدام والنساء عاريات الأذرع، إلا في خارج الدار فكانوا يحتذون جميعًا صنادل، أما في داخلها فكانوا في العادة حفاة، وكانوا رجالاً ونساء يتحلّون بالجواهر»[2].

2. العادات والتقاليد

وهذا يعني أنّهم كانت لهم عاداتهم وتقاليدهم، التي تمثّل بالنسبة لهم نظامًا أخلاقيًا واتجاهًا قيميًا، كانوا حريصين عليه كلّ الحرص. ومن ثمّ يمكن القول إنّ العادات والتقاليد الآخية هي التي كوّنت ذلك النظام الأخلاقي الذي نحن بصدده، أو بعبارة أخرى يمكننا القول إنّ النّظام القيمي والأخلاقي ـ إن صحّ أن نسميه نظامًا ـ إنّما خرج من تحت عباءة العادات والتقاليد الآخية[3].

3. اتقان العمل

ولا نغفل أنّ الآخيين كانوا يؤمنون بقيمة إتقان العمل، وإتقان العمل لا شكّ قيمة لا يمكن نكرانها في أي عصر من العصور، بل نعدها من القيم السامية في كل عصر وفي كل

---

[1]- وهو ما تكشف عنه سطور الإلياذة في أغلب صفحاتها، انظر: هوميروس: الإلياذة، ترجمة: دريني خشبة، لا ط، القاهرة، التنوير، 2014م.

[2]- ول ديورانت: قصة الحضارة، لا ط، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، المجلد الثاني، الجزء الأوّل، ص87.

[3]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة دريني خشبة،م.س، ص216.

مكان، وإن كنا نعد الآخيين من غلاظ القلوب في الحرب، فربما كانت غلظتهم هذه نوعًا من أنواع إتقان العمل حسبما أدّى بهم تفكيرهم في تلك الفترة التاريخية القائمة أولاً على الحروب والصراعات[1]. لكن هزيودوس في الأعمال والأيام يُبينّ لنا أنّ هناك نزاعين أو تنافسين في هذا الصدد: الأوّل نزاع أو تنافس محمود يحفّز المرء على الكدّ والعمل ومنافسة قرنائه، والثاني كريه يدفع إلى الحرب وإلى الدمار[2]. والظاهر فيهما فيما يتعلق بالمنظومة القيميّة والأخلاقية في الحضارة الآخية هو النوع الثاني، وهذا ما تكشف عنه الملاحم.

4. مهنة الفلاحة

تذكر لنا قصيدة الأعمال والأيام أنّ العمل شرف، وأنّ البطالة تلصق بصاحبها العار، حيث إنّ العمل هو طريق الثراء الذي يكسبه المجد والعزة[3]. وبالنظر إلى مهنة الفلاحة في هذه الحضارة نجد أنّ قيمة إتقان العمل كانت بارزة؛ إذ إنّ الفلاح كان مهتمًّا برعاية أرضه حرثًا وريًا وزراعة وحصادًا، ولم يكن يألو جهدًا في إقامة السدود والجسور، إلا إذا غضبت عليه الطبيعة بفيضانها فأتت على الأخضر واليابس في أرضه.

5. الحِرف والصنائع

ولم يكن الأمر مقتصرًا على الفلاحة، بل تعداه إلى أغلب الحرف والصنائع، إذ يبدو ذلك سمتًا مشتركًا بين أبناء كل حرفة أو مهنة، منهم من كان يؤدّي عمله في مكان خصّصه للعمل، ومنهم من كان يقوم بعمله في منزله، ولم يكن هدفهم كلّهم من تلك الحرفة الكسب المادي والعمل بالأسواق، بل كان منهم من يؤدّي حرفته لا طمعًا في بيع أو مكسب أو ارتياد الأسواق. فقد كان «الحداد أمام كوره، والفخراني أمام عجلته، يعملان في حانوتيهما، وكان غيرهم من الصناع الذين ورد ذكرهم في أشعار هومر - كصناع السروج والبنائين والنجارين وصناع الأثاث - كان هؤلاء يعملون في منازل من يكلفونهم بعمل لهم، ولم يكونوا يعملون بالأسواق أو البيع أو للكسب، وكانوا يداومون العمل ساعات

---

[1]- انظر: هوميروس، الإلياذة، م.س، ص69، 132، وغيرهما؛ انظر: هوميروس: الأوديسة، ترجمة: دريني خشبه، لا ط، القاهرة، دار الكتب الأهلية، 1945م.

[2]- Hesiod , Works and Days , , Translated by M. L. West , Oxford New York , 1988 , P 38.

[3]- Hesiod , Works and Days , P 45 , 46.

طوال، لكنهم كانوا يعملون على مهل، وليس وراءهم دافع من المنافسة الظاهرة »[1].

6. قيمة العمل

وهذا كله دليل على أن المجتمع الآخي كان يؤمن بقيمة العمل ودوره في حياة الإنسان، وأن العمل هو الذي يجلب للإنسان الفخر والافتخار، وهو من هذه الناحية كان مجتمعًا يخدم كلّ فرد فيه نفسه بنفسه. لا نقول إنّه كان يفعل ذلك ارتقاء بالمجتمع، أو التزامًا منه بقيمة الوطنية، إذ إنه لم يكن شيئًا من ذلك في مخيلته، وإنما كان إيمانًا منه بتحقيق ذاته، والعمل الدائم على اكتساب العزة والكرامة والفخر، وهو لم يجد له طريقًا لذلك إلا في العمل، وهذا يفسر لنا سعيه الدائم نحو الحرب والانتصار، إيمانًا منه بأن ذلك عمل يحقّق من خلاله مصلحته الذاتية وإثبات الذات. ومن مظاهر الاهتمام بإتقان العمل وقيمته اتحاد المدن الإسبرطية للمشاركة في حرب طروادة، ثم تحديد الأدوار، فكان هناك ما يسمى بالمجلس الحربي، ثم اختير أجاممنون قائدًا عامًا له، وكذلك تدريب الجند تدريبات عنيفة قاسية؛ استعدادًا لهذه الحرب الكبيرة[2].

7. الحب والعاطفة في المحيط الأسري

في المحيط الأسري، فإن الحب والعطف والمودة كان شعار العلاقة بين أبناء الأسرة الواحدة علمًا بأنها كانت أصغر وحدة في تجمعات تلك الفترة التاريخية، والنواة الأولى([3])، «وقد كان الآخائيون يشعرون بالعاطفة الأبوية، ويحبون أولا دهم»([4])، فالابن يحب أباه ويحترمه، والأب يحب ابنه ويحنو عليه ابنته، فأجممنون راجع نفسه بعد أن طلبت ابنته قربانًا للحرب، فراح يدافع عن فلذة كبده، ويفتديها بنفسه، وبالدنيا وما فيها، فيعيره أخوه مينلاوس بالمروق عن الدين، وعصيان الآلهة، وشق عصا الطاعة على السماء، «لقد ذهل أجاممنون، وانطلق يبكي، حتى تفجر الحنان في قلب منلوس المتحجر، ورق لأخيه البائس الملتاع فقال له: أخي، أنقذها يا أخي، إنها ابنتي كما هي ابنتك، فأنقذها كما يحلو لك... ويبهت

[1]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص89.

[2]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة دريني خشبة، م.س، ص52.

[3]- انظر: أطلس حضارات العالم القديم، ترجمة: عماد الدين أفندي، ط2، بيروت - لبنان، دار الشرق العربي، 2016م، ص85 .

[4]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ط3، دمشق، دار الفكر، 1980، ج1، ص94.

أجاممنون لهول الموقف، ولا يدري ماذا في وسعه أن يصنع، ثم يراه واقفًا وحده يبكي كما يبكي الأطفال، بعد إذ غادر أخوه»[1].

وأوليسيز ملك أيثاكا مثال على هذا المحيط الأسري الذي تحكمه العاطفة والحب، فقد حاول بشتى الطرق القعود عن المشاركة في حرب طروادة حبًا لزوجته بنلوب، وابنهما تليماك، ولم يشأ أن يقامر بسعادته وحياته في هذه الحرب، حتى لو كان في قعوده هذا حنثًا بالقسم الذي أقسمه من قبل[2].

8. الأبوة

ويمكن القول إنّ الأب في النظام القيمي الآخي كان يحتل مكانة كبيرة ملؤها الاحترام والتقدير داخل عشيرته وأسرته، فإذا كانت الأرض ملكًا مشاعًا للأسرة والعشيرة، فإنّ الأب كان هو الذي يتولّاها بالرعاية، ويشرف عليها، بيد أنّه لم يكن له حقّ التّصرّف فيها، «وتقول الإلياذة إن مساحات واسعة كانت من أملاك الملك المشاعة (الدومين)، وكانت في واقع الأمر ملكًا للمجتمع، يستطيع أي إنسان أن يرعى فيها ماشيته، ونرى في الأودية أن هذه الأرض المشاعة قد قسمت وبيعت – أو أصبحت ملكًا للأفراد الأثرياء أو الأقوياء»[3].

9. الأسرة

الأسرة في النظام القيمي والأخلاقي الآخي كانت لها مكانة كبيرة في المجتمع، وتظهر مكانتها أول ما تظهر في الحرص الشديد على سد احتياجاتها بنفسها، فقد كانت تصنع حاجاتها في الغالب، وليس هناك فرد متكاسل، فكل فرد يصنع ما يحتاجه بنفسه، حيث كان رب الأسرة ـ فضلاً عن الملك المحلي ـ يصنع ما يحتاجه من سرر وكراس، وما يلزمه من أحذية وسروج، فقد كان يفخر بإظهار مهاراته في الأشغال اليدوية، ولقد كانت الأميرات وزوجات الكبراء كهيلين لا ينقطعن عن الغزل والنسج والتطريز والأعمال المنزلية[4].

---

[1]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة دريني خشبة، م.س، ص71.

[2]- م.ن، ص48.

[3]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص89.

[4]- م.ن، ص90.

10. الأسرة في النظام الاجتماعي

ومن ثم فإنّ نظامهم القيمي كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا في بعض جوانبه بنظامهم الاجتماعي، فمن الواضح أنّ الآخيين يعتمدون على نظام الأسرة، وهذا النّظام كان معمولاً به في اليونان القديمة، بل يحدثنا التاريخ عمّا هو أكثر من ذلك وهو نظام الأسرات، ونظام الأسرات لم يكن في نظرهم يشمل الأب والأم والأولاد فحسب، «بل كانت تشمل في عرفهم أولاد الأخ وأحفاده والأعمام والأخوال وأولادهم، بحيث كان الجميع تحت كنف رئيس واحد هو الوارث لاسم الجد الأوّل المنتسبة إليه الأسرة كلّها، وقد وسعت الأسرة بعد هؤلاء العبيد المعتوقين الذين لا ينتسبون إلى أسرة خاصّة، ويعبدون ما تعبد مواليهم، وكانت سلطة الرئيس مطلقة على جميع أعضاء أسرته، مهما كبرت سن الواحد منهم أو علا مقامه، ومع هذا الإطلاق في السلطة كان ذلك الرئيس محترمًا مبجلاً مطاعًا؛ لاعتقادهم أنّه الحريص على مصالح الأسرة، المحافظ على كيانها، الممثل لتاريخها الأمين على تقاليدها التي كانوا يحيون ذكراها بإيقاد النار المقدسة والتفافهم حولها بأمر رب الأسرة وتقديمهم القرابين لمعبوداتهم»[1].

11. الاحترام والتعاون في النظام الاجتماعي

وأوّل ما نستشفه من هذه النظام الاجتماعي أمرين خلقيين: الأوّل الاحترام، والثاني التعاون، وهما قيمتان أخلاقيتان لا غنى عنهما في أي عصر من العصور أو في أي مكان من الأمكنة، فاحترام أهل الأسرة بعضهم بعضًا من أكثر الأشياء شيوعًا في الحضارة الآخية خاصّة وبلاد اليونان القديمة عامة، والنظام الأسري كان دأب الحضارات البدائية، لذا يقول أحد الباحثين: «غير أنّه لم تتحقّق السيادة للحضارات البدائيّة بوجه خاص على عنصر معيّن من عناصر الطبيعة يستأثر باهتمام الإنسان بصورة أقوى وأوثق من أي عنصر آخر؛ لأنّه الأصل - في الطبيعة - الذي ترتبط به شخصيات أفراد الجنس البشري، ألا وهو الأسرة، فقد ظلّ بنو البشر يرسفون في أغلالها»[2]. وهذا النظام قريب الشّبه بما نجده عندنا في الأسر

---

[1]- محمود فهمي، تاريخ اليونان، لا ط، الجيزة، مكتبة ومطبعة مصر، 1999م، ص 34.

[2]- توينبي، أرنولد: تاريخ الحضارة الهلينية، ترجمة: رمزي جرجس، لاط، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2003م، ص 32.

والقبائل العربية والإسلامية، حيث احترام الكبير وتوقيره، وحيث الاتحاد والتعاون بين أبناء الأسرة الواحدة على إنجاح ما يريدونه من مهمة.

كما أنّ التعاون صفة محمودة تصنع تكاتفًا قويًا ورباطًا وثيقًا بين أبناء الأسرة الواحدة، وربما هذا يفسّر اتّحاد القبائل عند الشدائد وخاصّة الصراعات والحروب التي تحيق بالدولة. وخير مثال على ذلك تعاون الإسبراطيين على المشاركة في حصار طروادة بحثًا عن الكرامة والشرف المسلوبين؛ إذ استمعوا لصيحة مينلاوس، عندما دعا حلفاءه للانتقام لشرفه المسلوب، «فلبوا سراعًا، وانتفضت هيلاس كلّها، فصارت ثكنة تعج بالجند، وتضج بآلات الحرب، واضطربت البحار بالأساطير، تيمم شطر أوليس، حيث اتفقت الكلمة على أن يبحر منها الأسطول المتحد، فلا يرسوا إلا في مياه طروادة»[1].

12. أخلاق الكرم

كما يمكن الإشارة إلى بعض القيم الأخلاقية الإيجابية الأخرى في الحياة الآخية، فإن صفة الكرم كانت شائعة في ذلك الزمان، وتعد من الأمور المقدسة، فقد كانت أفنية المنازل معدة للولائم، والأبواب مفتحة لكل آت، ذلك أن الضيافة عندهم كانت من أقدس الواجبات، بدليل أن الملوك كانوا يضيفون الشحاذين ويكرمونهم[2]. وهم في ذلك يقتربون كثيرًا من القبائل قبل الإسلام والتي كانت صفة الكرم عندهم بارزة بوضوح، وهي من الصفات التي حث عليها الإسلام وحيا أصحابها عليها.

لقد كان الآخيون شديدي السخاء؛ لاعتقادهم الديني الراسخ بأن الغرباء والمتسولين والشحاذين أبناء الإله زيوس. ويبلغ الكرم ذروته بين طائفة الملوك بعضهم بعضًا، وهذا ما نجده ـ على سبيل المثال ـ في ضيافة مينلاوس ملك أسبرطة لباريس، إذ عندما رسا أسطول باريس ابن بريام ملك طروادة، على مرفأ المدينة، حتى كان في استقباله هو وزوجته، ونزل ضيفًا كريمًا على صاحبي العرش، وجهزوا لإقامته وضيافته، حتى يعود إلى طروادة[3].

---

[1]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة دريني خشبة، م.س، ص46.

[2]- محمود فهمي، تاريخ اليونان، ص 41.

[3]- انظر هوميروس، الإلياذة، ص 39، 40.

13. أخلاق الصداقة

من تلك القيم الإيجابية الصداقة، فقد كان الآخيون يحفلون بالصداقة والأصدقاء، وكذلك اليونان القدماء عامة، فقد كانت الحاجة إلى الأصدقاء ملحّة في تلك العصور الطاحنة المليئة بالصراعات، والتي كان الصديق فيها يعني السند وقت الشدّة، والمدافع عن صداقته وقت الحاجة. «فكلّ محارب كان له خدن في السلاح يخلص له ويحافظ على مودته حتى لا تنفصم عروتها»[1]. ومثله كانت الصداقة عندهم قيمة جليلة عظيمة، فقد كانت خيانة الصداقة أمرًا أشدّ جللاً قد يترتّب عليها وضع حياة أفراد، وربمّا أمم على المحك، وهذا ما ذكرته لنا التواريخ اليونانية عن آخيل وأجممنون – وهما من أبطال طروادة وأبطال الحضارة الآخية – فقد كانا من قواد حرب اليونان ضد طروادة، واختلفا على فتاة سبي، كانت لآخيل، وأخذها أجممنون[2]، فترك الأول الحرب راجعًا مما أدّى إلى عدم تمكن اليونانيين الآخيين من دخول طروادة، على الرغم من الحصار الذي امتدّ لعشر سنوات وقيل تسع، وما أعاده للقتال والحرب في طروادة مرة أخرى إلا أحد أصدقائه الذي قتل على يد هيكتور ابن ملك طروادة، بغض النظر عما يعتور القصة من مزج بين التاريخ والأسطورة، ومن ثم ونحن بصدد الأحداث التاريخية يجب – فيما يذهب إليه بعض الباحثين ونحن نؤيده – وضع حدّ فاصل بين التاريخ الحقيقي والأسطورة[3]. بيد أنّ هذا النظام كان يحتوي على عوار كبير، وهو أن رئيس الأسرة المتوفى إذا لم يترك غير بنت، وليس في ذريته ذكور فإنّه يتحتّم عليها الزواج بعمها أو ابن عمها، وموضع العوار هو الإجبار على الزواج بعمّها حرصًا على مستقبل الأسرة، وهذا أمر غريب لا يقل غرابة عن الأساطير اليونانية ذاتها.

14. الرق والتعامل مع العبيد

أما الرق في الحضارة الآخية فقد كان له جزء في منظومة القيم والأخلاق، فقد فقيل إن الإماء كن يعاملن على أنهن جزء من الأسرة، نعم إنهن كن يشترين لأغراض الخدمة إلا أنه - بحسب ول ديورانت - كن يتمتعن بما تتمتع به صاحبات البيوت من تقدير واحترام. فلم

[1]- محمود فهمي، تاريخ اليونان، ص 42.

[2]- انظر هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م، ص 185.

[3]- انظر حسين مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول عوامل قيامها وتطورها، عالم المعرفة، 1978م، 61.

تكن منزلتهن منحطة، وكن يرتبطن في بعض الأحيان بعلاقات الود والمحبة مع سيد الدار أو سيدته، وفي بعض الأحيان كن يعاملن بوحشية وقسوة[1]. إلا أنّ دعوى ديورنت ليس لها شواهد، ولا تتفق مع الشواهد التاريخية، يكفي نظرة الازدراء التي ينظرها السيد للعبد في كلّ عصر من العصور، والدليل على ذلك ما كان يواجهه الأرقاء من معاملة قاسية ووحشية، وإن كان يصور على أنه النادر، بيد أنّنا نرى أنّ طبيعة الأمر تحكم بأنّه الغالب الأعم، وليس النادر، خاصة وأن الحياة اليونانية، والطبيعة الشخصية للإنسان اليوناني الذي اعتاد الحرب، هي طبيعة عنيفة وقاسية.

إنّ مشهد الرق يقتضي السمع والطاعة، وإلا فالعقاب الشديد والعذاب الأليم، فليس من المستساغ أن يكون الأمر على نحو ما نجده بين أبناء الأسرة الواحدة، فلم يكن الخادم عضوًا في الأسرة في الدولة الآخية ولا في غيرها؛ إذ لو وصل الأمر إلى هذا الحد فلماذا إذن الرق؟ ولماذا البيع والشراء؟ وإذا كان ذلك صحيحًا فلم لا يطلق السيد سراح العبد ويعطيه حريته بحكم إنسانيته؟ أما مشهد نوسكا الآخية التي كانت تساعد جواريها في غسل الملابس في النهر، ولعب الكرة معهن، ومعاملتهن معاملة الرفيقات، فربما كان مشهدًا أسطوريًا في بيئة مليئة بالأسطورة، بل تكاد تكون حياتها في مجملها أسطورة، وإذا أردنا أن نقرأ مشهد نوسكا، فإننا نفهمه على أن الأميرة أو السيدة تتسلى بخادماتها يلاعبنها ويلاطفنا، ويجددن نشاطها بلعبهن معها، فهم بذلك أدوات للتسلية ليس إلا. والدليل على ذلك هو الرق بما يحتويه من ذلة وهوان ما فعله أخيل مع امرأة ماهرة في الأشغال اليدوية، عندما قدمها جائزة للفائز في سباق العربات، فهل له أن يفعل ذلك إلا إذا كانت ذليلة لا قيمة لها؟!

ولعل مشهد الإغارة على القرى القريبة من طروادة لتكشف عن الرق بصورة أشد وطأة؛ حيث إنّه لما طال أمد الحرب في طروادة كان الهيلانيون يهجمون على القرى القريبة بحثًا عن الغنائم والفيء والأسلاب والسبي، فيقتسمها القادة، ويفيضون منها على الجند، وكانوا يقتسمون النساء الأرقاء، ويوزعونها على بعضهم بعضًا، كما حدث بين أجاممنون وآخيل[2].

إنّ قضيّة الرقّ كانت من الإشكاليات التي تعوق النّظام القيمي والأخلاقي الآخي، وهي

[1]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص90.

[2]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة دريني خشبة، م.س، ص90، 91.

القضيّة التي تمثّل مرحلة من البدائيّة التي ظلّت موجودة إلى عهد قريب، وقد كان الآخي يمكن أن يكون من الرقيق إذا وقع أسير حرب أو في أيدي القراصنة فيباع ويشترى، وكذلك كان الآخي يأسر من يأسر في الحرب فيتخذه خادمًا له، أو يبيعه في أسواق الرقيق.

سابعًا: الكذب والمكر والخداع

كما أنّ الآخيين كانوا يتّصفون بالكذب والمكر والخداع، دون أن يخجلوا من ذلك أيما خجل، وربما كانت هذه الصفة نتيجة منطقيّة للحياة المقفرة التي عاشها الآخي؛ حيث البحث عن الطعام والشراب مطلب أساسي في بيئة فقيرة في هذا الجانب، بدليل الإغارات على القرى والمدن المجاورة؛ طلبًا لهما، كما أنّها نتيجة منطقية لصفات النهب والسلب والصراع التي عاشها الآخيون القدماء، فلا نهب دون غدر، ولا سلب دون مكر، ولا سرقة واستيلاء دون خداع.

لكن في بعض الأحيان قد يكون المكر والخداع لغرض نبيل، كذلك المكر الذي قام به أوليسيز ملك إيثاكا، حين ادعى الجنون؛ رغبة في عدم الاشتراك في حرب طروادة؛ لأن ذلك سوف يبعده عن أرسته الصغيرة: زوجته وابنه تليماك[1]. كذلك المكر والخداع الذي مارسته أم آخيل خوفًا عليه من الهلاك في حرب طروادة تحقيقًا لنبوءة الآلهة التي قالت أنه سيقتل على أسوار هذه المدينة، فأرسلته إلى سيروس يجالس الفتيات بعيدًا عن أعين من يريدون أن يشاركهم في الحرب؛ حتى يتحقق النصر كما قالت الآلهة في الأسطورة[2] ومن ذلك أيضًا المكر والخداع الذي مارسه أجاممنون على زوجته قائلاً: « يتقدم أخيل لخطبة أفيجنيا ابنتنا المحبوبة، وبوده لو تزف إليه قبل أن يقلع الأسطول لتدمير طروادة، أنه لا شك سيرى في مرآة أفيجنيا وطنه، وحينئذ يكون حربًا على الأعداء، ونقمة عليهم من السماء» [3].

ولكن يجب أن نكون على علم بأن المكر على المعنى السيئ ليس لعامة الناس فحسب، بل كان كذلك لخاصتهم، «فأديسيوس لا يكاد ينطق بقول دون أن يكذب فيه، أو يعمل عملاً دون أن يشوبه الغدر، من ذلك أنه لما قبض على دولون الجاسوس الطروادي وعده

---

[1]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة دريني خشبة، م.س، ص48.

[2]- م.ن، ص56 - 60.

[3]- م.ن، ص69.

هو وديوميد أن يبقيا على حياته إذا أدلى إليهما بما يطلبانه من المعلومات، فلما فعل قتلاه، ولسنا ننكر أن غير أديسيوس من الآخيين لا يضارعونه في الغدر والخيانة، لكنهم لا يمتنعون عن ذلك؛ لأنّهم لا يريدون أن يغدروا أو يخونوا، بل هم يحسدون أديسيوس، ويعجبون به ويرونه أنموذجًا للخلق الطيب، والشاعر الذي يصوره يعده بطلاً من كل الوجوه»[1]. وهذه الصفة تدلّ دلالة واضحة على اختلال المعايير في النّظام الخلقي والقيمي في الحضارة الآخية؛ لأنّ نظامًا يرى الباطل حقًا حتمًا يكون نظامًا معوجًا، فالآخيون يرتكبون المكر والخديعة والكذب؛ لأنّه في نظرهم هو الحق المبين، وكأنهم يطبقون المقولة التي صيغت بعدهم بمئات السنين والتي مؤداها: أن الفرد مقياس كل شيء، وهي مقولة سوفسطائية امتد أثرها في العديد من المدارس الفلسفية بعدها، وربما نرى لها أثرًا في واقع الفكر العالمي الآن. وكأن التجارب والتطبيقات الحياتية في الحضارة الآخية كانت المعين الذي نهل منه أصحاب هذه المقولة الزائفة. وهذا لاشك أمر لا يتفق مع العقل السليم أو الدين الصحيح أو الإنسانية النقية المطهرة من أدناس المصالح والنفعية المقيتة.

كل ذلك دليل على أن منظومة القيم الآخية كانت مضطربة ومحل جدل كبير، ذلك أن قضية الرق بما يصاحبها من انتهاكات أخلاقية وإنسانية تعد ضربة قاتلة لأي نظم أخلاقية وقيمية.

ثالثًا: الآخر في نظام القيم والأخلاق عندهم

ونقصد بالآخر كلّ من هو خارج الحضارة الآخية، والذين لا تربطهم به أواصر الوطنية أو الدم، وإنّما هم أبناء المدن والحضارات الآخرى التي لا تربطهم بالحضارة الآخية رابطة من أي نوع، بل إنّنا نرى الآخر في الحضارة الآخية ربما يكون ينضوي تحتها، إلا أنّه في مدينة أخرى من مدنها الكثيرة، فالمدن الأخرى تمثّل الآخر في الحضارة الآخية ولو كانت إحدى روافدها.

1. الحروب الآخية كإشكاليّة في نظام القيم والأخلاق

إن الآخيين ـ الموكينيين نسبة إلى مدينة موكيناي التي كانت شمال شبه جزيرة البلوبونيس

[1]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص95.

وأخذت اسمها منها[1] ـ كانوا محبين للحرب والقتال، وهذا ما كان يميّزهم عن غيرهم من الشعوب، وذلك واضح من أنواع الأسلحة المختلفة التي كانوا يستخدمونها، وأيّدتها الرسومات والوثائق الكتابية[2]. وهذا يفسرّ لنا طبيعة الحروب الشرسة التي خاضها الآخيون، وكان أشهرها على الإطلاق حرب طروادة. فالآخي كان مجازفًا محبًا لمواجهة الصعوبات والمخاطر، وربما كان ذلك يرجع إلى طبيعة تلك المرحلة التي كانت ترى الشجاعة في مواجهة الخصوم والانتصار عليهم، وربما ألجأهم إلى ذلك الحياة الاقتصادية الفقيرة التي كانت تجعله يبحث عن غناه ومجده في تلك الصراعات التي لا تكاد تنتهي.

ونميل إلى أنّ الأخلاق والقيم عند الآخيين كانت معدومة في حالة العداء والخصام مع الآخر في المدن الأخرى؛ إذ إنّ الدراسات تميل إلى أنّهم كانوا شعبًا عدوانيًا مقاتلاً بغريزته، وأنهم حاصروا أكثر مما حوصروا[3]. ومن ثم انتشرت القرصنة، بل ربما عدوها – في مخالفة صريحة لكل القيم والأخلاق – مدعاة للفخر والزهو بالنّفس وعلامة من علامات الشجاعة.

إن كثرة الحروب في فترة الآخيين لتنمّ عن إشكالية ما في قضية القيم والأخلاق؛ إنّه في سبيل البحث عن الاستيلاء على الموانئ التجارية والممرات التجارية المهمّة تتنحى القيم والأخلاق جانبًا، فنجد القوي يفرض إتاوة على سفن الضعيف من أهل المدن المجاورة، إذ إنّنا في عالم تحكمه المصلحة، وتلك المصلحة مقدمة على كل ما عداها، وبسببها تنتهك الأخلاقيات، وتنتحر القيم، وتموت المبادئ، وتلك آفة كل العصور، حتى عصرنا الراهن، وهذا واقع نشاهده في عصرنا الآن، فاليوم كالأمس القريب.

إلا أنّه إحقاقًا للحق فالحروب كانت في بعض الأحيان دفاعًا عن الكرامة والنخوة، وهذا ما نجده في حرب طروادة؛ إذ ليس من المنطقي أنه في سبيل الهوى تستحل زوجة الآخر من المدن الأخرى، وهذا ما فعله باريس ابن الملك بريام ملك طروادة مع الحسناء هيلين زوجة منيلاوس ملك اسبارطة أحد ملوك الآخيين، حيث تحكي الأسطورة أن الآخيين أكرموا ابن ملك طروادة وأحسنوا ضيافته، إلا أنه أغرى ملكتهم على الهروب معه إلى طروادة عشقًا

[1]- انظر: الشيخ، حسن: اليونان، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة، لا ط، الإسكندرية، دار المعارف الجامعية، 1992م، ص25.

[2]- انظر: سيد أحمد علي الناصري، الإغريقي تاريخهم وحضارتهم، ط2، القاهرة، دار النهضة العربية، 1976م، ص63.

[3]- انظر: م.ن، ص63.

وهوى[1]، بصرف النظر عما قيل في الأسطورة من أن الآلهة هي التي أغرت بينهما؛ حقدًا على طروادة. «فإنّ استعادة هيلين الحسناء كان الهدف من تجريد الإغريق لحملتهم المشهورة ضد طروادة، تلك الحملة التي اشترك فيها جميع أبطال الإغريق، والعديد من آلهتهم، بعض الآلهة إلى جانب الإغريق، والبعض الآخر إلى جانب الطرواديين»[2]. ورغم أنّ الآخيين أنهكتهم هذه الحرب الطويلة إلاّ أنّهم بعد الانتصار ودخول طروادة عاد كلّ أبطالها إلى منطقته أو مدينته التي جاء منها، يرتب أموره في مدينته دون أن يدري عن الآخرين شيئًا، ودون أن يعنيه من أمرهم شيء[3]، وكأنّ الدافع من وراء هذه الحرب هو النخوة والحمية والكرامة الآخية التي كان يتميز بها الآخيون[4].

2. نظام قيمي وأخلاقي متردي في علاقته بالآخر

وبذلك فإنّ امتزاج النخوة بالرغبة المحمومة في القتال، مع وجود فئة عدوانيّة تميل إلى الصراع والحرب حيث حلّت، أدّى إلى وجود نظام أخلاقي وقيمي مضطرب ومتردي في علاقة الآخيين بالآخر، مع عدم وجود لأيّ حق من أيّ نوع للضعيف، في عالم لا يعترف إلا بالقوة. انظر مثلاً لما فعله آخيل مع هيكتور بعد أن قتله في المبارزة ربطه خلف العربة وجره كالكلب، ثم جرّه ثانية – قبل أن يسلم جثته إلى والده الملك بريام – حول كومة الحريق التي أقامها تشييعًا لجثة صاحبه بتركلوس، كل ذلك في صورة مهينة ومذلة، ليس فيها شيء من الآدمية الحق[5]، فالآخي لم يكن ينظر للآخر إلا نظرة احتقار، فله أن يسلبه ماله وولده وزوجه وأملاكه، ليس هناك وازع من ضمير أو عقل أو قانون في فترة تاريخية لم يكن فيها الصراع إلا للأقوى.

[1]- انظر: هوميروس، الإلياذة، م.س، ص45، 46.

[2]- هاشم حمادي، ترجمة كتاب الملحمة الإغريقية القديمة لـ. أ. أ نيهارت، ط1، سورية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1994م، ص6.

[3]- انظر: عبد الوهاب لطفي يحيى، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، لا ط، الأسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1991م، ص91.

[4]- للمزيد انظر: شارل سنيوبوس: تاريخ حضارات العالم، ترجمة: محمد كرد علي، مصر، الجيزة ، الدار العالمية للكتب والنشر، 2012م، ص61.

[5]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة دريني خشبة،م.س، ص200، 220.

3. القرصنة كإشكاليّة

وبالنظر إلى القرصنة ـ والتي يمكن وصفها على أنّها حرب مصغّرة تقودها فئة آخية باغية ضد تجار عزل لا شأن لهم بالحرب، والتي كان يقوم بها بعض الآخيين ـ فإننا نجد ما انتهينا إليه صحيحًا، فقد كان القرصنة من الأعمال التي ينظر إليها على أنها دليل شجاعة، بما يعني أنها كانت أمرًا مباحًا، فالإغارة على السفن وسلب خيراتها وقتل المدافعين عنها ليس فيها أي غضاضة من الناحية الأخلاقية عندهم. وربما كان الدافع هنا اقتصاديًا في بعض جوانبه، فاليونان «رقعة بلدهم صغيرة، وهي فقيرة بمواردها، فبدلاً من أن يعيشوا في فقر مدقع ركبوا البحر منتشرين على سواحله»[1].

إنّ القرصنة في البيئة الآخية كانت مهنة تمتاز بالتقدير والاحترام، حتى إنّ الملوك أنفسهم كانوا يمارسون هذه المهنة المبجلة لديهم – الخسيسة لدى كل إنسان ذي عقل وضمير – وينظمون الحملات للإغارة على المدن قصد الاستيلاء على خياراتها واتخاذ رجالها عبيدًا ونسائها خليلات إن كن حسان، أو خادمات إن كن غير ذلك. ولم يكن ذلك مما يعير به صاحبه، بل على العكس فقد كانت القرصنة تجلب له الفخر والمجد في صورة بارزة على اختلال المعايير.

وهذا دليل واضح على ما ينطوي على الشخصيّة الآخية من حبّ للنهب والقتل والاستيلاء على مكاسب الآخر وممتلكاته، وأنّها كانت تضع شجاعتها في خدمة أغراضها الدنيئة ولو على حساب الآخر قتلاً وسفكًا. وقد يكون الزاد القليل، وطبيعة البلاد المقفرة، سببًا في القرصنة، لكنها على أي حال لا تعد سببًا لجلب الفخر والمجد لصاحبها. وهذا يؤكّد على أنّه لا نظام أخلاقي قيمي عند الدولة الآخية في تعاملها مع الآخر، فهم أبناء الآلهة حسب ظنهم، والآلهة تبارك خطواتهم، ومن ثم فلهم أن يفعلوا ما يشاؤون.

ويبدو أنّ القرصنة هي التركة التي ورثها الغرب الحديث من أجداده الأول، فلا شكّ في أنّ الطبيعة الغربية التي تميل إلى القرصنة، وكأنّها متأصّلة فيها لها جذورها القديمة في الشخصية الغربية، وهذه الجذور نجدها في اليونان القديمة عامة والدولة الآخية خاصة،

[1]- على عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون: اليونان والرومان، ط1، إربد، دار الأمل للنشر والتوزيع، 1410هـ - 1991م، ص41.

بيد أنّ القرصنة الغربية الحديثة أو المعاصرة تتزين بزي جديد، تتزين بزي الشرطي الذي يحافظ على العالم – إذ يطلق بعض الباحثين على الغرب لفظ الكائن الأسطوري ذي الجوهر المطلق الذي يتمثل بآلهة الغرب[1] - وفي سبيل محافظته على العالم من الأشرار والدفاع عنه له أن يقتطع أي جزء من هذا العالم ويضعه في ممتلكاته، فالعالم ملكه؛ لأنّه السيد والباقي عبيد، وهذا يفسر لنا الحملات الاستعمارية في الشرق الإسلامي، وما تبعها من استيلاء على خيرات الشعوب وممتلكاتها.

4. اختلال المعايير

وهذا يعني أن هناك اختلال معايير في الحضارة الآخية، فالفضيلة ليست في التسامح والحنو مع الآخر، ولكن الفضيلة تكمن في الشجاعة وشرب الخمور والانتصار على الخصوم بالخديعة والكذب والخيانة، «والحق أنّ المعايير الخلقيّة عند الآخيين تختلف عن معاييرنا اختلاف فضائل الحرب عن فضائل السلم، فالرجل الآخي يعيش في عالم مضطرب، كدر جوعان، على كل إنسان فيه أن يعنى بحراسة نفسه، وأن يكون على الدوام ممسكًا بقوسه ورمحه، قادرًا على أن ينظر في هدوء إلى الدم المراق»[2].

يقول أديسيوس ملخّصًا نظرة الآخيين إلى الآخر: «إن المعدة الجائعة لا يستطيع أحد أن يخيفها، ومن أجلها صنعت السفن المعوجة، وأعدت لتحمل الويل إلى الأعداء فوق البحر الهائج المضطرب»[3]. وهذا دليل على أن الحاجة إلى الطعام والشراب وشهوة الاستيلاء والتحكم كانت السبب الرئيس في التنكيل بالآخر واغتصاب ممتلكاته. فقد كانوا يعيشون في عالم يسوده الجوع والخوف والاضطراب، ومن ثم لا بد لكل فرد من أن يكون حارسًا على نفسه ومتأهبًا بقوسه وحربته لمقابلة خصومه، وأن يتحمل النظر بهدوء إلى الدماء المسفوكة[4].

بما يعني أن قضية الآخر لم تكن لها أي حضور إيجابي في الذهنية الآخية، بل على

[1]- انظر: قرم، جورج: تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ترجمة: رلى ذبيان، ط1، بيروت، دار الفارابي، 2011م، ص40.

[2]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص96.

[3]- م.ن، ص96.

[4]- انظر: محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ج1، ص94.

العكس كان كل ما يتحكم في هذه الذهنية إنما هو الجانب السلبي، وليس شيء غيره. فتلك هي الفضيلة عندهم، الشجاعة الممزوجة بالقسوة هي الفضيلة، ومن ثم فكلما أظهروا قسوة بالآخر نال حظوة الفضيلة، وكأن هذا الآخر لا حق له من أي نوع في هذه الحياة، لأن الآخيون هم أبناء الآلهة، هم شعب الآلهة المختار. وهذا يذكرنا بمقولة شعب الله المختار التي أطلقها اليهود على أنفسهم، وبنوا عليها أفكارهم الخبيثة حول الآخر الذي يجب في شريعتهم ـ في بروتوكولات حكماء صهيون ـ أن يقتل ويسفك دمه، ويغتصب ماله وكل ممتلكاته؛ لتكون غنيمة لشعب الله المختار على زعمهم الباطل.

5. الفضيلة في نظر الآخيين

إذًا، هذا يعني أنّ الفضيلة على المعنى الآخي تحمل مدلولات مخالفة لمدلولها الإنساني الأخلاقي، فلفظ «الفضيلة في لغته ـ يقصد الآخي ـ مشتق من لفظ الرجولة،...، وليس الرجل الصالح عنده هو الرجل اللطيف المتسامح، الأمين الرزين، المجد الشريف، بل هو الرجل الذي يحارب ببسالة وكفاية، وليس الرجل الطالح هو الذي يدمن الشراب، ويكذب، ويقتل ويغدر، بل هو الجبان الغبي أو الضعيف، لقد كان ثمة نتشيون قبل نتشه، وقبل ثرازمكس، بزمن طويل، في فجاجة الأوروبي وصلابته»[1].

6. اضطراب المعيار الأخلاقي

وهذا يقضي بأن المعيار الأخلاقي الذي تقاس به الأفعال من حيث الخير والشر، الحسن والقبح ليس فيه أي بعد إنساني، فهو قائم على أساس واه من المنفعة الشخصية وربما الجماعيّة أيضًا، فالخير والحسن في تحقيق معنى الرجولة، والرجولة تعني القسوة على الآخر والإجهاز عليه والنيل منه بكل قوة، والشر والقبح عندهم في التسامح والتعاطف مع الآخر.

ومن الملاحظ أن ول ديورانت يلمح من طرف خفي إلى أن الأخيين سبقوا النتشويون في هذه الخصال، بل ربما جعلها أصلاً لما عليه الأوروبي من صلابة مع الآخر وفجاجة وقسوة، وكأن لسان حاله يقول: إن الصلابة الأوروبية بما تحمله من منفعة ومحاولة تحقيقها

[1]- ول ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص96، 97.

ولو على دماء الشعوب والأمم إنما هي متأصلة في الطبيعة الأوروبية، ولها نسب كبير بما عند الآخيين من صفات.

رابعًا: خصائص نظام القيم والأخلاق في هذه الحضارة

1. كان نظامًا أخلاقيًا عمليًا، ولم يكن نظريًا يشمل تنظيراً فلسفيًا للقضايا كما نجده في عصر الفلاسفة الكبار: سقراط وأفلاطون وأرسطو. فهم كانوا يتبنون جانبًا عمليًا، حتى لو كان هذا الجانب أو الاتجاه الأخلاقي مخالفًا في كثير من جوانبه للقيم الإنسانية. ومن ثم لم نجد عندهم تنظيراً لأي من القضايا الفلسفية أو الأخلاقية؛ ذلك أنها حضارة لم تكن تعنى بهما، فقد كانت معنية بما هو أهم في نظرها، وهو التطبيق العملي للفضيلة كما فهموها.

2. نظام تضطرب فيه المعايير، فالمعيار الأخلاقي لا نقول غير ثابت، بل هو ثابت، لكنه على معنى غير إنساني أو ديني أو عقلي، فالإنسانية لا تقبل بالباطل بديلاً أو بالكذب والخداع والخيانة فضيلة، ولا بالقتل والنهب والسرقة شجاعة، كما أن الدين يرفض أن تقدم الرذائل على الفضائل باعتبارها الحق المبين؛ لأن الدين حق، ولا يقبل غير الحق، وهل يقبل العقل بغير سبيل الحق والخير والجمال سبيلاً؟! إن اضطراب المعايير خصيصة بارزة من خصائص التوجه القيمي والأخلاقي عند الآخيين. والغريب في الأمر أنهم على حين يتسمون بالمودة والتعاون والتحابب فيما بينهم، تجدهم على العكس من ذلك مع الآخر، بما يشي بأن القيم عندهم تتفاوت، والمبادئ تتجزأ. ولذا يقول أحد الباحثين: «إن الإنسان الطيب الفاضل ـ حسب رأي الآخيين ـ ليس هو العامل المجتهد، الصبور، الأمين، النزيه، اللطيف، بل المحارب الشجاع الماهر، والإنسان الشرير الفاسد ليس ذلك الذي يكثر من الشرب ويكذب ويقتل ويخون، ولكنه الأبله الجبان الضعيف»[1].

نحن نعلم يقينًا أننا نتعامل مع مرحلة تاريخية بدائية لم يكن العقل فيها هو الذي يقود، بل كانت تقودها الشهوة إما الغضبية أو النباتية، وربما اجتمع الأمران معًا، فجعلوا الغضب والشهوة قائدين، والعقل هو المقود، فأنى تأتي الفضيلة؟! ومن أين يرسخ النظام الأخلاقي المتين؟! وهذا مخالف بالكلية لجوهر المثال الذي أتى به فلاسفة اليونان الثلاثة الكبار بعدهم بقرون عندما عدوا الفضيلة لا تتحقق إلا بسيطرة العقل على الغضب

[1]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ج1، ص94.

والشهوة، ممثلاً لذلك بعربة لها حصانان يقودهما العقل، فإذا تحكم العقل صارت الأمور على خير ما يرام، أما إذا تحكم أحدهما فإن المآل سيكون حتمًا سيئًا [1].

3. نظام يحمل في داخله اللانظام، فهو نظام من حيث كونه حدد لنفسه طريقًا أخلاقيًا يسير عليه، فجعله يسير في اتجاهين: الأول مع الذات، والثاني مع الآخر، وظل أمينًا على موقفه إلى النهاية، رغم ما يمكن أن يوجه إليه من نقد من الناحية الدينية أو العقلية أو الإنسانية. بيد أنه نظام يحوي داخله اللانظام؛ لأن القيم فيه غير مصونة، والأخلاق غير محفوظة، ربما إلا على فئة قليلة تنتمي للذات، فهو لا نظام؛ لأن المعايير الأخلاقية عنده مختلفة عن معاييرنا التي انتهينا إليها عقلاً ودينًا.

4. هذا النظام ولد من رحم الأسطورة، فالأسطورة تمثل ركنًا ركينًا في ثقافة الحضارة الآخية، وكذلك في كل الحضارات اليونانية القديمة، فهي تدخل في كل جزئية صغيرة أكانت أم كبيرة، فالآخيون يقتلون ويسفكون الدماء ويمارسون الكذب والخداع والخيانة، ثم تباركهم الآلهة على أفعالهم هذه باسم الأسطورة، يمقتون الطيب المتسامح؛ لأنه لا يصنع صنيعهم بالآخر، ويصفونه بالجبان باسم الأسطورة. ولا غضاضة في ذلك، فهم يصفون الآلهة بما يصفون به الإنسان من أخلاقيات ـ بمقاييسنا نحن ـ ردئية وخبيثة، وبمقاييسهم هم بلغت درجة الكمال، ويعتبرون ذلك من الصفات الإيجابية في الآلهة، فلم إذًا لا يوصف بها الإنسان؟!

5. نظام أخلاقي يؤمن بالأنا (الذات)، ولا يؤمن مطلقًا بالآخر (الغير)، وتلك خصيصة من الخصائص التي يكشف عنها هذا النظام، فالذات لها كل معاني الحق والخير والفضيلة، والآخر ليس له منها من نصيب، نتيجة أن هذا الغير أو الآخر يمثل عدوًا يجب الإجهاز عليه وسلبه كل ما يملك، وعده ملكًا خاصًا. وهي نظرة عدوانية تحمل قدرًا كبيراً من التعصب الذي يشتمل على نرجسية مقيتة ترى في الذات كل شيء، ولا ترى في الآخر أي شيء. وقد انطلق الآخيون من هذه النظرة المتطرفة، ليعيثوا في الأرض فسادًا، قتلاً وسفكًا وتدميراً[2].

خامسًا: أثر الآلهة في هذا النظام (الآلهة مصدر الشر)

الإلهة في الحضارة الآخية كان لها دور في القيم والأخلاق الآخية، سلبًا وإيجابًا،

[1]- انظر: أفلاطون: محاورة فيدون، تحقيق: د. عزت قرني، ط3، دار قباء، 2001م، ص165، 167.

[2]- انظر: جرجي زيدان، خلاصة تاريخ اليونان والرومان، القاهرة، لا ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م، ص 12، 13.

ونظنها في الجانب السلبي أكبر بكثير؛ إذ الآلهة لم تكن مجتمعًا خيرًا في الاعتقاد الآخي واليوناني عامة، فقد كانوا «يخالطون البشر، ويتدخلون في شؤونهم تدخلاً مباشرًا»[1]، وإنما كان مجتمعًا شريرًا يحضى على الرذيلة، ويدفع دفعًا إلى الشر، وهذا ما وجدناه بوضوح في أساطيرهم القديمة، فالآلهة هي سبب الحروب، وهي سبب الشر، ولم يكن اليوناني القديم يستطيع أن يفعل فعلاً خيرًا أو شرًا دون استرضاء الآلهة بتقديم الذبائح والقرابين جلبًا لرضاهم، وطلبًا لمعونتهم في مقصدهم الذي يقصدونه، وهدفهم الذي يسعون إليه. كل ذلك صنع شيئًا كثيرًا من التناحر بين الأسطورة من جانب والقيم والأخلاق من جانب، بين الصراع الداخلي في الإنسان وعالم الآلهة[2]. ففي حرب طروادة دفاعًا عن الشرف والكرامة لم يأذن قائد المجلس الحربي أجاممنون بإقلاع الأسطول إلا بعد استخارة الآلهة أولاً، عما إذا كانت حربهم هذه سيكتب لها الظفر والانتصار أم لا؟[3]. بل إنّنا نجد الإلياذة تقول: «وأنبث الآلهة ينفخون في بوق الحرب»[4].

1. مباركة الإلهة لاختلال المعايير الآخية

ولقد كانت الآلهة حسب الأسطورة الإغريقية تظهر رضاها على ما تنطوي عليه الشخصية الآخية من كذب وخديعة وخيانة، فهل كان يبحث الآخيون عن مسوغ ديني لما تنطوي عليه شخصيتهم من صفات خبيثة؟! أم كان ذلك نتيجة منطقية لما وصفوا به الآلهة من قبل من صفات بشرية أقرب إلى الشر، وأبعد ما تكون عن الخير؟! إننا نرى أن الأمرين معًا كانا هما أساسًا لما انطلق منه الآخيون من صفات رديئة ونعوت خبيثة. فقد كانت الآلهة حسب هذه الأسطورة تثني على كذب أديسيوس وخداعة ومكره الدائم، بل جعلت منها صفات إيجابية تحببها فيه، ومن ثم فهو في نظرها لكي يكون شخصًا ناجحًا وإنسانًا كاملاً عليه أن يقهر غيره ويلبي رغباته في السلطة والمال والشهوة، أما الإنسان الخلوق تبعًا لذلك فهو إنسان مستكين لا يروق للآلهة أو لبعضهم، وليس محببًا لديهم.

إن الآلهة تنظر لأديسيوس وهي تبتسم وتربت عليه بيدها مادحة إياه بأنّه على مكر كبير

[1]- فؤاد جرجي برابرة، الأسطورة اليونانية، لا ط، سوريا، وزارة الثقافة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2014م، ص 11.

[2]- انظر: جان بيير فرنان، بيير فيدال ناكيه: الأسطورة والتراجيديا في اليونان القديمة، ترجمة: حنان قصاب حسن، ط1، سورية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1999م، ص38.

[3]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة دريني خشبة، م.س، ص52.

[4]- م.ن، ص175.

ليس تجاه الإنسان فحسب، بل تجاه الآلهة كذلك، فمكره لا ينتهي، واحتياله لا يتوقف وقصصه الخادعة لا تنفد، كل ذلك في الوقت الذي تصفه مينرفا بأفضل العبارات؛ إذ إن مينرفا ربة الحكمة تثني على أديسيوس في حضرة أبيها سيد الآلهة، وتصفه بالعبد الصالح![1] وما دام المكر مدعاة للفخر، والخداع سببًا في جلب حب الآلهة والقصص الكاذبة أداة للانتصار، فإن البيئة بكاملها لا غضاضة عليها في اقتراف أي من الأفعال السابقة؛ ولا نلوم الآخي العامي ما دام الملوك يفعلون ذلك، والآلهة تبارك خطواتهم، لكننا نلومه من جانب آخر كونه هو من صنع الأسطورة، ثم جعلها حكمًا عليه وعلى أفعاله، ويا للعجب! صنعها وائتمر بأمرها، جعلها فسحته فجعلته قيدًا يتقلب فيه أبد الدهر.

2. الأسطورة والنظام القيمي والأخلاقي

ومن ثم فإن الأسطورة هي التي صنعت نظام القيم والأخلاق في الدولة الآخية في العديد من جوانبه، ولا شك في أن نظامًا قائمًا على الأسطورة، ويعتبرها لبه ولحمته وسداه، سيكون مضطربًا وقلقًا، ولا يثبت أمام النظرة الأخلاقية الناقدة؛ لأنه ليس في مقدوره الإجابة العقلية عن سؤال الخير والشر، فقد «تعلّم الأسطورة الإنسان أشياء كثيرة، ولكنها لن ترد على السؤال الوحيد الذي يعد في نظر سقراط السؤال الصحي بحق، وهو السؤال عن الخير والشر»[2]، لكن من الحق التأكيد على أن هذا الأمر ليس محصوراً على الحضارة الآخية فحسب، بل يمتد لكل الحضارات اليونانية القديمة ذات الجانب الأسطوري المتجذر في عقلية تلك الفترة التاريخية. إلا أنّ هذا النظام قام في جزء منه على الجانب الاجتماعي المتعلق بالعادات والتقاليد، وهذا الجانب استفاد منه الآخيون كثيراً في تنمية قيم التعاون والاتحاد والاحترام والمودة، وهي كلها قيم أخلاقية إنسانية لا يمكن التنازل عنها في إقامة السلام الاجتماعي في أي عصر من العصور.

سادسًا: نظرة نقدية للمنظومة القيمة والأخلاقية الآخية

يمكننا أن نتساءل: إذا كان هناك قيم أسرية، وهناك قيم وطنية، وهناك قيم إنسانية، وهناك قيم روحية كالصدق والأمانة والتعاون ومساعدة اليتيم..... إلخ، فأين موقع الحضارة الآخية من كل ذلك؟!

---

[1]- انظر: هوميروس، الأوديسة، م.س، ص5، 6.

[2]- انظر: كاسيرر، أرنست: الدولة والأسطورة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، لا ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م، ص89.

فيما يتعلق بالقيم الأسرية فإنّنا نجد الآخيين بناء على ما عرضنا كانوا يحملون بداخلهم قيم أخلاقية تجاه الأسرة، الأب والأم والابن وربما كبير العائلة، فالأسرة في الغالب كانت متكاتفة، والأب الذي كان يمثل عمودها كان يحمل بداخله قدرًا من الحنان والعطف على أبنائه إلا في بعض المواقف التي كانت تجبره الأسطورة على التضحية بابنه على مذبح الآلهة قربانًا لهم وجلبًا لرضاهم.

أما القيم الوطنية، فإن مفهومهم للوطن ليس على المعنى الذي نفهمه الآن، نعم كان يدافع عنه، ولو دفع حياته ثمنًا له، بيد أن مفهوم الوطن كانت تداخله في عقلية الآخيين مفاهيم أخرى تحمل معنى التعصب للذات والدفاع عن المصلحة والكرامة والعزة. وكان خير مثال على تلك القيم تجمع أبناء اليونان تحت لواء واحد في محاصرة طروادة دفاعًا عن النخوة والعزة والكرامة، وهي المفاهيم التي كانت تداخل مفهوم الوطنية عندهم وتزاحمه.

في حين أنّ الآخيين لا يعرفون من القيم الإنسانية إلا بعض ما طبقوه تجاه أبناء جلدتهم، بعضهم، وليس كلهم، أما القيم الإنسانية بمعناها العام فليس في قاموسهم منها شيء؛ لأنّهم ربوا ونشأوا على احتقار الآخر واعتباره عدوًّا، ومن هنا ظهرت قسوتهم على الآخر، وتحلّلوا من كلّ القيم الأخلاقيّة معه.

بينما كانت القيم الروحية أيضًا محل شك كبير، فقد حملوا حملة شعواء على الفاضل الحكيم المتسامح صاحب العفو، وجعلوا منه جبانًا لا يحق له أن يكون في قائمة الرجولة والشرف، فاستبدلوا بالرحمة عنفوانًا، وبالتسامح تجبرًا.

ونحن نعلم يقينًا أن البشرية مرت بمجموعة من العصور حتى وصلت إلى عصر الحضارة[1]، وكانت القيم فيها غائبة بدرجة كبيرة، وفي حضارة لا تحظى بكثير من القيم الإنسانية والروحية فإن المادة تكون غالبة، والشهوة نحو المال والجاه والسيطرة والمجد تكون لها الصدارة، وهذا ما ظهر لنا بوضوح في الحضارة الآخية، التي كانت تعتورها العديد من الإشكاليات القيمية والخلقية، والتي تجعلها في مرحلة من البدائية الأخلاقية، على الأقل في علاقتها بالآخر.

---

[1]- انظر: فرنسوا بون، عصور ما قبل التاريخ، ترجمة: سونيا محمود نجا، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2013م، ص29.

الخاتمة

يمكن القول إنّ النظام القيمي والأخلاقي يحتل محورًا رئيسًا في الحضارة الآخية، بغض النظر عنه إيجابًا وسلبًا، باعتباره يمثل قواعد تعارف عليها أهل هذه الحضارة، وصارت سلوكياتهم تقوم عليها. إلا أنّه يمكننا القول إنّ هناك مجموعة من النتائج التي تمخّض عنها البحث حول هذا النظام، ونعرضها فيما هو آت:

أوّلاً- النظام القيمي والأخلاقي الآخي نظام متردي مضطرب، تختل فيه المعايير وتتضارب فيه القيم، خاصة في ذلك الجانب الخاص بالآخر، وهذا ما كان يتناسب مع طبيعة هذه الفترة التاريخية من حياة البشر، وهي حياة كانت تقوم على القوة والغلبة والتعصب للعشيرة والمدينة.

ثانيًا - وفي عصر تتخذ القرصنة فيه مجدًا والإغارة على القرى لسلب خيراتها واتخاذ النساء خليلات وإماء فخرًا، فإنّ هذه القضية فيه مهضومة، وفي عصر تكون كل الممتلكات بيد الملك – حتى لو ترى فيها الرعية تزرع وتربي الماشية – فإن قيم الملكية الفردية فيها تكون منقوصة، وفي عصر تقدم فيه المرأة الجميلة جائزة للفائز في سباق العربات، فإن الأخلاق معدومة، وفي عصر يقدم فيه الابن قربانًا للآلهة، فإن حقوق الطفل فيه لا وجود لها في الغالب.

ثالثًا - إنّ الحضارة الآخية كانت ذات طابع أبوي استبدادي إلى أقصى درجة، ومن ثم فليس هناك حديث عن قيم منظمة، وليس هناك حديث عن أخلاق بحق المرأة أو الطفل أو العبد أو الآخر أو غيرهم. ومع هذا كنا نرى بعض القيم الإيجابية كمشاركة المرأة للرجال في المناقشات الجدية وغيرها.

رابعًا – هذا النظام هو نظام قائم على الأسطورة، ويستظل بظلها؛ إذ هي الكون الرئيس في نظرنا له، ولا يمكن دراسة أي نظام – ومنها النظام القيمي والأخلاقي – في تلك الفترة، وفي هذه الحضارة خاصة، إلا وهو مرتبط بالأسطورة.

خامسًا – هذا النظام القيمي والأخلاقي يكتسب قوته وشرعيته من الآلهة في نظر الحضارة الآخية، فالآلة تبارك اختلال المعايير، وتحتقر – في كثير من الأحيان المتسامح، وتمجد

السفاحين المتشوقين لإزهاق الأرواح. ومن ثم لا يمكن فهم هذا النظام إلا بربطه بمنظور الآخيين تجاه الآلهة.

سادسًا – هذا النظام في جانب الأنا كان أقل تهوّرًا واختلالاً للمعايير من الجانب المتعلق بالآخر، إذ له فيه ما له، وعليه ما عليه، كأي نظام، خاصة في تداخله مع بعض القضايا الحياتية كالقضايا الاجتماعية والأسرية وغيرها.

المصادر والمراجع

أولاً - المصادر المراجع العربية

1. أرنست كاسيرر، الدولة والأسطورة، ترجمة أحمد حمدي محمود، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م.

2. أرنولد توينبي، تاريخ الحضارة الهلينية، ترجمة رمزي جرجس الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2003م.

3. أطلس حضارات العالم القديم، ترجمة عماد الدين أفندي، بيروت - لبنان، دار الشرق العربي، الثانية، 2016م.

4. أفلاطون، محاورة فيدون، تحقيق د. عزت قرني، ط دار قباء، الثالثة، 2001م.

5. جان بيير فرنان، بيير فيدال ناكيه، الأسطورة والتراجيديا في اليونان القديمة، ترجمة حنان قصاب حسن، سورية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1999م.

6. جرجي زيدان، خلاصة تاريخ اليونان والرومان، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.

7. جورج قرم، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ترجمة رلي ذبيان، لبنان، بيروت، دار الفارابي، الطبعة الأولى، 2011م.

8. حسين الشيخ، اليونان، دراسات في تاريخ الحضارات القديمة، الأسكندرية، دار المعارفة الجامعية، 1992م.

9. حسين مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول عوامل قيامها وتطورها، عالم المعرفة، 1978م.

10. سيد أحمد علي الناصري، الإغريقي تاريخهم وحضارتهم، القاهرة، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، 1976م.

11. شارل سنيوبوس، تاريخ حضارات العالم، ترجمة محمد كرد علي، مصر، الجيزة ، الدار العالمية للكتب والنشر 2012م.

12. على عكاشة، شحادة الناطور، جميل بيضون، اليونان والرومان، إربد، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأولى، 1410هـ - 1991م.

13. فؤاد جرجي بربارة، الأسطورة اليونانية، سوريا، وزارة الثقافة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2014م.

14. فرنسوا بون، عصور ما قبل التاريخ، ترجمة سونيا محمود نجا، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الأولى، 2013م.

15. لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، الأسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1991م.

16. محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، الجزء الأول، دمشق، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1400هـ - 1980م.

17. محمود فهمي، تاريخ اليونان، الجيزة، مكتبة ومطبعة مصر، 1999م.

18. هاشم حمادي، ترجمة كتاب الملحمة الإغريقية القديمة لـ. أ. أ نيهاردت، سورية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، الأولى، 1994م.

19. هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م

20. هوميروس، الأوديسة، ترجمة دريني خشبه، القاهرة، دار الكتب الأهلية، 1945م.

21. ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثاني، الجزء الأول، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بدون.

ثانيًا - المصادر والمراجع الأجنبية

1. Hesiod The Poems And Fragments, By
2. A.W Wair , M. A (Aberd. et Cantab) Oxford , at The clarendon press , 1908 , 39.
3. Hesiod , Works and Days, Translated by M. L. West , Oxford New York, 1988 , P 38.

الحياة الاجتماعيّة في الحضارتين الكريتيّة والآخيّة في العصور المبكرة

حسان عبد الحق[1]

مقدمة

تعاقبت على بلاد اليونان حضاراتٌ مختلفةٌ، ومن أقدم الحضارات التي ظهرت هناك الحضارة المينويّة في كريت، وعرفت هذه الحضارة ثلاثة عصور: العصر المبكر 2400 – 2000 ق.م، والعصر المتوسط 2000 – 1600\1550 ق.م، والعصر المتأخّر 1600\1550 ق.م. وحقّقت كريت خلال هذه الفترة تقدّمًا على مختلف المستويات: سياسيّة واقتصاديّة ودينيّة واجتماعيّة. وما يهمّنا في هذا البحث الناحية الاجتماعيّة، التي تقدّم الكثير من المسائل التي يجب علينا دراستها وتوضيحها؛ لكي نفهم هذا المجتمع بمختلف جزئيّاته. ويستحق المجتمع المينوي أن نخصّص له دراسة تفصيليّة؛ لأنّه هو الوعاء الذي كان يضمّ كلّ الأفراد، وكان يتولّى إعدادهم إعدادًا مناسبًا من الناحتين الجسديّة والفكريّة، ليتمكّنوا من إدارة شؤون الحياة الأخرى، وبناء الحضارة.

وظهرت في بلاد اليونان الحضارة الآخية أيضًا، وليس ثمّة رأي مؤكّد حول الفترة التي ظهرت خلالها، ومن الآراء المتعلّقة بهذه المسألة أنّ الآخيين هاجروا إلى بلاد اليونان نحو 2000 ق.م، وسيطروا على منطقة البلوبونيز في 1400 ق.م، وأصبحوا حكّامًا لها حوالي عام 1250 ق.م، وأفلت حضارتهم عام 1100 ق.م. وإذا صحّ هذا الرأي يمكن اعتبار عام 1400 ق.م هو التاريخ الذي بدأت تظهر خلاله الحضارة الآخية متزامنةً مع بزوع النّجم السياسي للآخيين. وعلى غرار الحضارة المينوية، حقّقت الحضارة الآخية إنجازات على مختلف المستويات، لكنّها لم تبلغ درجة تقدّم الحضارة الآخية ورقيّها، ويُعزى ذلك إلى الاختلاف الكبير بين العنصر البشري المينوي ونظيره الآخي؛ إذْ كان المينويون أرقى بكثير

---

[1]- أستاذ مساعد في جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ.

من الآخيين. وسيتبيّن لنا ذلك من خلال مناقشتنا لمختلف تفاصيل الحياة الاجتماعية في كلتا الحضارتين.

أوّلًا: الحياة الاجتماعيّة في كريت

1. العنصر البشري

ينتمي الكريتيون القدامى (المينويون) إلى جنس البحر الأبيض المتوسّط[1]، وساهموا بتأسيس الحضارة الإغريقيّة القديمة، التي استمرّت في العصور اللّاحقة، وأضيف إليها الكثير من الإنجازات من قبل الشعوب الإغريقيّة التي ظهرت على المسرح السياسي والحضاري في الفترات التي تلت عصور كريت الباكرة. وتجدر الإشارة إلى أنّ الكريتيين القدامى يختلفون عن الإغريق الذين ظهروا في الفترات اللّاحقة باللّغة[2]، وبالصفات البدنيّة[3].

ومما يميّزهم عن غيرهم بدنيًّا قاماتهم القصيرة، وأنوفهم المستقيمة، وعيونهم اللوزيّة، وحواجبهم البارزة[4]، وشعرهم الأجعد أسود اللون، ونحالة أجسادهم، وخصورهم الرقيقة[5]، وقد أكسبتهم بعض هذه الصفات الرّشاقة، وسرعة الحركة. وبالعودة إلى المشاهد الفنيّة، نلاحظ أنّ المينويين كانوا من أصحاب البشرة السمراء والبيضاء، ويرى أحد الباحثين[6] أنّ جميعهم يتّصفون ببشرتهم البيضاء عند الولادة، وتبقى النّساء على هذه الصورة، غير أنّ لون بشرة الرجال كان يتغيّر، بسبب خروجهم تحت أشعة الشّمس طلبًا للرزق، فالوجوه تميل للحمرة، وأمّا الجسد فيصبح أسمر اللون. لا نعتقد أنّ هذا الرأي صحيح؛ لأنّ المشاهد تظهر لنا بعض الرجال ببشرة بيضاء، وهذا يعني أنّ بشرة المينويين انقسمت بين بيضاء وسمراء، وربمّا يكون أصحاب البشرة السمراء أكثر من غيرهم (**الشكل 2**)؛ لأنّ المشاهد صوّرتهم

[1]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ط3، دمشق، دار الفكر، 1983، ج1، ص47.

[2]- يتحدثون لغة ليست هندو-أوربية وكانت تكتب بكتابة مقطعية اصطلح على تسميتها الخطية أ. انظر: عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي 2، لا ط، بيروت، دار النهضة العربية، 1974، ص675.

[3]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارة كريت حتى قيام الإسكندر الأكبر، ط2، القاهرة، دار النهضة العربية، 1976، ص25.

[4]- Castleden. R, Minoans Life in Bronze Age Crete, London and New York, Rutledge, 1993, p.9.

[5]- إنها الصفات الجسدية لعنصر منطقة المتوسط، انظر: محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص47.

[6]- ديورانت، ول وايرل: قصة الحضارة-حياة اليونان، ترجمة: محمد بدران، لا ط، بيروت، د.ت، الجزء الأول من المجلد الثاني 6، ص20-21.

أكثر من سواهم، وقد يكون هذا هو السبب الذي دفع هذا الباحث إلى تبني هذا الرأي. وربّما سبّب هذا التنوّع في البشرة حدوث تزاوج بين المينويين وبين أعراق بشريّة أخرى هاجرت إلى كريت في عصر من العصور. ولدينا دليل آخر يدحض وجهة نظر هذا الباحث، إنّه عبارة عن رسم جداريٍّ يصوّر السّاقي في قصر كنوسوس (**الشكل 9**)، لو دقّقنا قليلاً بالمشهد نلاحظ أنّ الساقي كان من أصحاب البشرة السمراء، وبما أنّ الساقي انحصر عمله داخل القصر هذا يعني أنّه كان يعيش حياة مرفّهة بعيدة عن أشعّة الشّمس الحارقة، التي من شأنها تغيير لون البشرة من بيضاء إلى سمراء، ونستنتج من ذلك أنّ اللّون الأسمر هو لون بشرته الحقيقي، مما يدعم رأينا بأنّ الطبيعة لم يكن لها أيّ دور بإعطاء أجساد المينويين هذا اللّون.



الشكل 1: ثلاث رجال كريتيين من أصحاب البشرة السمراء في البلاط المصري يقدمون الهدايا للملك المصري

2. الطبقات الاجتماعيّة

لقد كان المجتمع الكريتي مجتمعًا طبقيًّا[1]، شبيهًا بكلّ مجتمعات الحضارات القديمة،

[1]- Castleden. R, Minoans Life in Bronze Age Crete, London and New York, Rutledge, 1993, p.32.

ويمكن تحديد طبقاته من خلال استقراء الكثير من الوثائق الأثريّة المادية، والاطّلاع على الأنشطة الاقتصادية في كريت. وتؤكّد الأدلّة -التي سنستشهد بها- أنّ الطبقات الاجتماعيّة الكريتية تتسلسل هرميًّا من الأعلى إلى الأدنى على الشكل التالي:

أ. **الطبقة العليا (الطبقة الارستقراطية):** ينتمي الملك (المينوس) وعائلته إلى هذه الطبقة، ويمثّلون قمّة الهرم الاجتماعي، ومن وثائقنا التي تزودنا بمعلومات عن هذه العائلة ومكانتها الاجتماعية قصر كنوسوس الذي يعرف باسم قصر التيه. يمتاز هذا القصر بفخامة معماريّة نادرة، وبتزييناته الجميلة، وبمساحته الكبيرة (22000 م^2)، وبتعدّد طوابقه (حوالي أربعة طوابق[1])، وبأقسامه الخدمية المتميّزة، وتعتبر هذه السمات استثنائية وفريدة في العمارة المينوية، وهذا يوحي لنا بأنّه أُنشئ ليكون مأوى لأشخاص لهم مكانة مرموقة في المجتمع (العائلة الملكية)، ويتميّزون عن غيرهم اجتماعيًا، وعليه يحقّ لهم أن يمثّلوا الطبقة العليا في المجتمع. لا تتوفّر معلومات كافية عن العائلة الملكية في كريت، وتذكر إحدى الأساطير العائدة إليها، أنّ الملك الطاغية مينوس الذي كان يحكمها، كان له ابنان وابنة جميلة[2]. ويذكر توكوديدس أنّ المينوس عيّن أبناءه حكامًا على جزر الكوكلاديس التي احتلّها[3]، وإن صحّت هذه الرّواية نستنتج أنّ المكانة الاجتماعيّة المستمدّة من المكانة السياسيّة للعائلة الملكيّة، كانت مرموقة جدًا؛ لأنّ وجودها لم ينحصر في كريت، بل امتدّ إلى مناطق أخرى، وهذا من شأنه إعطاءها هيبة كبيرة في المجتمع مما لو انحصرت سلطتها في جزيرة واحدة.

وتؤكّد الوثائق الأثريّة أنّ هذه الطبقة لم تقتصر على العائلة الملكية، فعلى الأرجح كانت تضمّ الموظفين الكبار بالدولة، ودليلنا على ذلك احتواء القصر على مكاتب لإدارة شؤون الدولة[4]، ومما لا شكّ فيه أنّ جزءًا من هؤلاء الموظّفين كانوا من كبار الموظفين في الدولة[5]، الذين يترأّسون موظفين أدنى منهم، والدليل على ذلك وجود هذه المكاتب في قصر الملك،

---

[1]- عزت زكي حامد قادوس، مدخل إلى علم الآثار اليونانية والرومانية، لا ط، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 2007، ص6.

[2]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص29.

[3]- كيتو، ه، د: الإغريق، ترجمة: عبد الرزاق يسري، لا ط، بيروت، دار الفكر العربي، 1962، ص14.

[4]- مصطفى، ممدوح درويش؛ السايح، إبراهيم: مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، -1تاريخ اليونان، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1998\1999، ص5.

[5]- عزت زكي حامد قادوس، مدخل إلى علم الآثار اليونانية والرومانية، م.س، ص6.

فمن المستبعد أن يلج إليها أشخاص عاديون من العامة، وعلى الأرجح كانوا من علية القوم، وكانوا يديرون شؤون الدولة، وكانت تربطهم علاقة وثيقة بالملك، فهم يأتمرون بأمره ويعملون لمصلحته. ومما يؤكّد وجهة نظرنا وظيفة القصر في الحضارات الشرقية القديمة، فبحسب الوثائق الأثرية والكتابية، كان القصر مؤسّسة حكوميّة، ومن الأمثلة على ذلك قصر ماري الملكي، الذي كان يقصده كلّ يوم صباحًا عدد من الموظفين، وعلى رأسهم رئيس الوزراء، لمزاولة عملهم فيه[1]. وأثبتت الوثائق الكتابية أنّ كريت ارتبطت بعلاقات تجارية مع ماري في النّصف الأوّل من الألف الثاني[2]، وتأثّرت هذه الأخيرة بالعمارة الملكيّة الماريّة، ويبدو أنّها تأثّرت بالنّظام الإداري السائد هناك أيضًا، أو بالنّظام الإداري الشرقي بشكل عام نتيجة العلاقات مع حضارات الشرق الأدنى القديم، مما أدّى إلى تكوين طبقة سياسية مكوّنة من الملك وحاشيته، تتربّع على قمّة الهرم الاجتماعي الكريتي المينوي شبيهة بنظيرتها الشرقية. ويعتقد أحد الباحثين أنّ هذه الطبقة السياسية كانت تتكوّن من الوزراء والكتبة وموظفي الدواوين[3]، علماً أنّه لا تتوفّر أدلّة مؤكّدة تثبت ذلك[4]، لكن يبدو لنا أنّ هذا الكلام منطقيًا إلى حد ما؛ لأنّ هؤلاء كان لهم الدور الفاعل في تسيير أمور أي دولة من جهة، ومن جهة أخرى قصر المينوس -كما ذكرنا أعلاه- أعطانا إشارات محتملة حول وجود موظفين كانوا يسيرون أمور الدولة. وعلى الأرجح كان الكهنة ينتمون إلى الطبقة ذاتها، فقد كانت لهم أهمية كبيرة في المجتمع[5]، وكانوا قريبين جدًا من الملك[6]، ويمثّلون حلقة اتّصال بينه وبين الشعب. ومن المحتمل أنّ ضبّاط الجيش كانوا من الطبقة نفسها أيضًا؛ لأنّ المينوس كان لديه أسطول عسكري[7] ساعده في منع التمرّدات داخل كريت، والسيطرة على الجزر الإيجية

[1]- Durand J.-M.,: « L’organisation de l’espace dans le palais de Mari », le système palatial en orient, en Grèce et à Rome, Actes du colloque de Strasbourg 19- 22 juin 1985, 1987, p. 44.

[2]- Matoïan V., « Ougarit, porte méditerranéenne de l’Asie », in P. Bordreuil, F. Ernst-Pradal, M.G. Masetti-Rouault, H. Rouillard-Bonraisin (éds), Les écritures mises au jour sur le site antique d’Ougarit (Syrie) et leur déchiffrement 1930 -2010, Commémoration du quatre-vingtième anniversaire du déchiffrement de l’alphabet cunéiforme de Ras Shamra-Ougarit, AIBL, Paris, 2013, p.99.

[3]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص24.

[4]- Castleden ,op. cit , p.32.

[5]- Ibid, p.32.

[6]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص24.

[7]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص51.

الأخرى، ومن المنطقي أن يتزعّم فرق هذا الأسطول ضباط أو قادة يأتمرون بأمر المينوس، وقريبون منه، وينتمون إلى طبقته.

وإضافة إلى العائلة الملكية والموظفين الكبار، نعتقد أنّ العائلات الحاكمة في المدن الأخرى الكبيرة مثل فايستوس و ماليا، كانت تنتمي إلى الطبقة نفسها، فقد سكنوا بقصور شبيهة إلى حد ما بقصر كنوسوس، مما يدلّ على مكانتهم الاجتماعية المرموقة. وكذلك الأمر بالنسبة للتجار الأغنياء الذين ظهروا في العصر المينوي الوسيط، فقد كانوا من الطبقة نفسها على ما يبدو، ومما يؤكّد ذلك أنّهم عاشوا حياة مترفة، وسكنوا القصور[1]. وعثر في المدن الكريتية على فيلات كبيرة[2]، وبيوت فارهة كانت قريبة من قصر كنوسوس، على الأغلب كانت مخصّصة لعائلات من الطبقة الارستقراطية[3]، أو قريبة منها.

ب. **الطبقة الوسطى:** يمكن تحديد الذين ينتمون إلى هذه الطبقة بالعودة إلى الاقتصاد الكريتي، حيث تعتبر التجارة الاقتصاد الأهم في كريت، وكما ذكرنا أعلاه أفرز هذا النّشاط طبقة من التجار الأثرياء ينتمون إلى الطبقة العليا، وفي الوقت نفسه أفرز تجّارًا صغارًا كانوا ينتمون إلى هذه الطبقة، ومما يدلّ عليهم المحال التجارية[4] التي كانت تنتشر في المدن، ولا يمكن مقارنة هؤلاء بتجار الطبقة الأولى، لأنّ مصدر ثروة تجار الطبقة الأولى الكبيرة قد يكون التجارة البحرية التي كانت أساس ثراء كريت، وأمّا طبقة التجار الصغار فقد كانت تعتمد على المحال التجارية التي لا يمكن مقارنتها بالسفن الكبيرة التي كانت تنقل كميات كبيرة من البضائع. ونعتقد أنّ الحرفيين كانوا ينتمون إلى الطبقة ذاتها، فقد عرفت كريت الكثير من الحرف (صناعة الخزف، والمجوهرات[5]، وصناعة الفخار، وصهر وصب المعادن، وصياغة الذهب والفضة، وصناعة الأختام، والأحذية، والحلي، والتحف[6]،

[1]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص40.

[2]- Davaras C., Guide to cretan antiquities, Park Ridge, NJ: Noyes Press, 1976, p.19 -20.

[3]- Branigan. K, The Atlas of Archacolge, London, Maxwel House, 1982., p54.

[4]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص53.

[5]- Papadakis N. A., History of Crete Throughout Centuries, Heraklion, Crete, 26- 6 -2017, p.5.

[6]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص34-35.

وتكرير الزيت). وانتشرت في مناطق محدّدة من كريت أراضي زراعيّة ومراعي، وهذا يعني أنّ الفلاحين والرعاة كانوا جزءًا من المجتمع المينوي، ومن المحتمل أنّهم كانوا ينتمون إلى الطبقة الحالية، لكن لا يمكن مقارنتهم بالآخرين، فالهوّة الاجتماعيّة كبيرة بين الطرفين، فربّما كانوا يشغلون موقعًا على هامش الطبقة الحالية، أو أنّهم كانوا يمثّلون طبقة أخرى أدنى اجتماعيًا من الطبقة الحالية؟ ونحن نعلم أنّ التّجارة والصناعة انتشرت في المدن، وأمّا الزراعة والرعي فقد انتشرت في الأرياف، أو الجبال (الرعي)، وشتان ما بين مجتمع المدينة ومجتمع الريف، فقد كان مجتمع المدينة أكثر تطوّرًا، وأرقى من الناحية الاجتماعية من نظيره الريفي.

ج. **الطبقة الدنيا:** ينتمي العبيد إلى هذه الطبقة. ويمثّل هؤلاء مع الخدم قاع الهرم الاجتماعي، وكان يحقّ لأيّ أسرة امتلاك الخدم والعبيد ذكورًا وإناثًا، وكانوا المينويون يستخدمونهم في الأعمال المنزليّة في القصور والمنازل، وفي الأنشطة الصناعيّة والتجارية، وكان يقع على عاتق أسيادهم توفير الحماية لهم[1]. وعلى الأرجح امتلاك العبيد والخدم كان حكرًا على العائلات الثّريّة التي كانت تمتلك بيوتًا واسعةً تحتاج إلى من يعمل في داخلها ليوفّر الراحة لأصحابها، والفراغ الذي يمكنهم من القيام بأنشطة اجتماعيّة عرفها المجتمع المخملي، كحضور الحفلات والذهاب إلى المسارح. ومما كان يساعد هذه العائلات القيام بالأنشطة الترفيهيّة التي عرفها المجتمع آنذاك الثراء الفاحش الذي كانت تتمتّع به، ويرى أحد المؤرّخين[2] أنّ هذا الثّرّاء خلق حالة من الانحلال والتفسّخ في المجتمع الكريتي، أدّت إلى انهيار الحضارة الكريتية المينوية. ونفهم من هذا الرأي أن ثمة خلل اجتماعي في كريت أدّى إلى اختفاء حضارة كريت المينوية. لا نستطيع الأخذ بهذا الرأي على نحو قطعي؛ لأنّ كريت قبل انهيارها دخلت في صراع سياسي واقتصادي مع الموكينيين، وكانت الغلبة للموكينيين، وعلى ذلك لا يمكن أن نعزو انهيار حضارة كريت إلى أسباب اجتماعية، وإذا كان للعامل الاجتماعي دور في ذلك فقد يكون جزئيًّا.

[1]- محمد علي الصافوري، النظم القانونية القديمة لدى الإغريق والرومان، لا ط، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصرية، 1974، ص61.

[2]- جمال عبد الهادي، رفعت جمال، وفاء محمد رفعت، وفاء محمد، أوربا منذ أقدم العصور (اليونان)، لا ط، جدّة، دار الشروق، ص24.

3. المرأة الكريتية

يبدو أنّ مركز المرأة كان متميّزًا فلا نلاحظ وجود مكان خاص للحريم في القصور، كما نلاحظ مشاركة السيدات في الحفلات[1]، وجلوسهن بالمقاعد الأماميّة في المسارح، والملاعب[2]، وفضلاً عن ذلك كانت النّساء يتمتّعن بأناقة كبيرةٍ في اختيار ملابسهن، مما يدلّ على مركزهنّ المتميّز في المجتمع[3]، ويمكن وصفهن بسيدات المجتمع. ويعود الفضل إلى الوثائق الأثريّة في كشف هذه الحقائق (**الشكل 3**)، والتي قدّمت إشارات هامّة أخرى تدلّ على المكانة المتميّزة للمرأة، أو بتعبير آخر قدّمت إشارات تؤكّد لنا أنّ المجتمع الكريتي لم يكن ذكوريًّا بالمطلق، فقد لعبت المرأة دورًا كبيراً قد يكون قريبًا من دور الرجل في بعض الأحيان، وخير دليل على ذلك مشاركة المرأة في لعبة مصارعة الثيران، فهذه اللّعبة تحتاج إلى شجاعة كبيرة قد لا تتوفّر في الكثير من الرجال. ومن الأنشطة الذكورية الأخرى التي كانت تقوم بها ركوب عجلات السباق، والذهاب إلى الصيد[4].



الشكل 2: صورة جدارية تصور إحدى النساء الكريتيات تظهر عليها الهيبة، ويبدو أنها إحدى سيدات المجتمع (باريسية كنوسوس)

---

[1]- Castleden, op. cit, p.32.

[2]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص52.

[3]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، ط1، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1980، ص35.

[4]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص51.

وتجدر الإشارة إلى أنّ قيام المرأة بدور قريب من دور الرجال أحيانًا لم يحرمها من طبيعتها الأنثوية، التي كانت تستوجب عليها القيام بالأعمال المنزليّة التي تقوم بها النساء عادة في كلّ المجتمعات كتحضير الطعام، ورعاية الأولاد[1]، وتنظيف المنزل، وطحن الحبوب، وتجهيز ثياب الرجل، ومشاركة الرجل في الأعمال الزراعية[2]. وإضافة إلى ذلك، كانت المرأة تغزل الصوف، وتصنع الأنسجة على النول، ومما يدل على هذين النشاطين العثور في بعض المنازل على لوالب مغازل الصوف، وبقايا الأنوال[3].

ومن خلال هذا العرض نستطيع تصنيف النساء الكريتيات إلى ثلاثة صنوف، الصنف الأوّل يقدّم لنا امرأة من طبقة النبلاء، تعتبر من سيدات المجتمع، لكن وعلى الرغم من بروزها اجتماعيًّا، لم يعثر على دليل يؤكّد أنّها استلمت المناصب في كريت[4]، وعليه يمكن القول: إنّ المرأة شغلت مكانة اجتماعيّة كسيّدة مجتمع، غير أنّها لم تقم بوظيفة سياسيّة. والصنف الثاني يتجلّى في النساء الرياضيات اللواتي يمارسن الألعاب، وهنا لا نتحدث عن تصنيف طبقي، بل عن نساء اتصفن بالشجاعة، ومن المحتمل أن الهدف من وراء إعداد هذا الصنف من النساء إظهار قوة المجتمع الكريتي من خلال العنصر النسائي، الذي كان ينسجم مع الرجال الذين كانوا يمارسون ألعابًا للغرض ذاته (انظر لاحقًا). ويقدّم لنا الصنف الثالث نساءً من العامة كن منشغلات بهموم المنزل، وبالأنشطة اليوميّة المتعلّقة به، ولا يمكن مقارنتهن بنساء النّخبة من حيث مكانتهن في المجتمع.

4. صور من الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الناس

أ. في المدينة الواحدة

-خارج المباني

لقد كانت حضارة كريت حضارة مدن، فقد كانت تنتشر المدن في كافة أنحاء الجزيرة[5]،

[1]- ابتهال عادل إبراهيم الطائي، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، ط1، عمان، دار الفكر، 2014، ص34.

[2]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص51.

[3]- Castleden, op. cit, p.11.

[4]- Ibid, p 22.

[5]- David, Arclaeological Atlas of the World , London , Tames and handsun , 1975 , p.97.

وبحسب هوميروس يقدر عدد مدنها بتسعين مدينة، وتمتاز هذه المدن بشوارعها الضخمة، ودكاكينها الكثيرة، وميادينها الواسعة المنتشرة في مناطق حيوية منها، وكان الناس يحتشدون فيها[1]. ومن خلال هذا الوصف البسيط نستطيع استنباط صور اجتماعيّة في غاية الأهميّة، فالشوارع الضخمة كانت-على الأرجح- تزدحم بالمارة، فلولا كثرة النّاس لما أنشئت على هذا النحو، وممّا يؤكّد ذلك أنّ مدن كريت كانت مكتظة بالسكان[2]، وشوارعها مليئة بالمحال التجارية، وهذه المحال كانت تستقبل الزبائن لشراء البضائع، وهذا من شأنه خلق حالة من الازدحام، ويوفّر هذا الازدحام فرصة لالتقاء الناس ببعضهم، فيحدث نوع من التعارف والتآلف بينهم الذي يمهّد لإقامة علاقات اجتماعيّة، أو على الأقل يساعد على كسر حاجز العزلة بينهم. وكان النّاس يلتقون في الميادين العامة أيضًا، وفي الأماكن التي تقام فيها الألعاب الرياضيّة، مما يساعدهم على تبادل الأحاديث الودية.

وفضلاً عن الالتقاء بالسوق، كان النّاس يلتقون مع بعضهم في دور التمثيل، لأنّهم كانوا يهوون الذهاب إلى هذه الأماكن[3] لحضور بعض المشاهد المسرحية كنوع من التسلية والترفيه عن النفس. ويعتبر ذلك نشاطًا اجتماعيًا ترفيهيًا، كان يساعد في خلق العلاقات الاجتماعيّة وتمتينها بين الناس من خلال اجتماعهم في مكان واحد. ولم يقتصر الأمر على المشاهد المسرحية، بل كانوا يحضرون الاحتفالات الدينيّة التي كان يمارس فيها فنّ الرقص، ويبدو أنّ هذه الاحتفالات كانت تقام على مقربةٍ من قصر كنوسوس، حيث عُثر على ساحة شبيهة بالمسرح يُعتقد أنّها كانت مخصّصة لهذا الغرض[4].

- داخل المباني

للمباني دور هام في تقديم صور عن الحياة الاجتماعيّة في المجتمع المينوي، وتلعب بعض حجراتها دورًا في تحديد هذه الصّور الاجتماعيّة، وممّا يلفت الانتباه القاعة الكبيرة المسمّاة الميجارون، التي كانت تتواجد عادة في القصور والمنازل، وهي قاعة مستطيلة

---

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص25.

[2]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص50.

[3]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص23.

[4]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص676.

ومتطاولة[1]، وكانت تخدم كقاعة عرش[2] في القصور، يستقبل الملك ضيوفه فيها، وربما كانت تقوم بالدور نفسه في المنازل (استقبال الضيوف)، وإن كان أحد الباحثين[3] يرى أنّها كانت غرفة المعيشة التي كانت العائلة تجتمع فيها. الدخول في تفاصيل هذه المسألة غير مجدي في هذا البحث، فربما كانت تقوم بوظيفة مزدوجة، وإذا صح هذا التفسير بإمكانها تقديم صورتين عن الحياة الاجتماعية، الأولى تتمثّل بزيارة الناس (أقارب، أصدقاء، جيران) لبعضهم، ونعتقد أنّ تبادل الزيارات كان من أعراف هذا المجتمع، ودليلنا على ذلك احتواء المدن على بيوت متلاصقة ببعضها تنتشر علي جانبي الشوارع، وداخل أزقة ضيقة[4]، إن مجاورة البيوت لبعضها على هذا النحو يمهّد لقيام علاقات اجتماعيّة بين الناس، يعقبها تبادل الزيارات على الأرجح.

والصورة الثانية تتجلّى باجتماع أفراد العائلة معًا يوميًّا، لا سيما في فصل الشتاء حيث يلتزم الناس بيوتهم بسبب البرد القارس، ومما يؤكّد ذلك احتواء الميجارون على موقد، فمن المحتمل أنّ العائلة كانت تفضّل الاجتماع حوله على الخروج من المنزل، مما يهيّئ للقاءات اجتماعيّة منتظمة بين أفراد العائلة، تساعدهم على التواصل الاجتماعي، ومناقشة الأمور التي تهمهم.

ب. بين المدن

نعتقد أنّ العلاقات الاجتماعيّة لم تنحصر داخل المدينة الواحدة، فمن المحتمل أنّ النّاس الذين كانوا يعيشون في مدينة معيّنة كانوا يرتبطون بعلاقاتٍ اجتماعيّةٍ مع سكان مدينة أو مدن أخرى، ودليلنا على ذلك، خلوّ مدن كريت من الأسوار، فكما نعلم وجود الأسوار قد يُصعب عمليّة الدخول إلى المدن والخروج منها، وقد يخلق عائقًا نفسيًّا أمام البعض، مما يعيق عمليّة التواصل الاجتماعي بين سكان هذه المدينة وتلك، وفضلاً عن ذلك، غياب

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص763.

[2]- Pelon O., 2006 : « Le palais, centre du pouvoir dans le monde égéen ? », Subartu 17, in P. Butterlin, M. Lebeau, J.-Y. Monchambert, J.L. Montero Fenollos & B. Muller (éds.), les espaces syro-mésopotamiens, p.69.

[3]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص763.

[4]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص50.

المنشآت الدفاعيّة يدلّ على أنّ الشّعب الكريتي كان ميّالاً للسلم[1]، وبعيدًا عن كلّ الأعمال المخلّة بالأمن، لا سيّما بعد أن انحصرت السّلطة بيد المينوس الذي منع التمرّدات[2]، وهذا يعني أنّ النّاس كانوا ينتقلون من مدينة إلى أخرى بسهولة وأمان، مما يعزّز الرّوابط الاجتماعية بين سكان المدن. ومما يدعم هذا الرأي ارتباط المدن ببعضها بشبكة من الطرق، أنشئت بعد حدوث الطفرة الاقتصادية في كريت بفضل التجارة التي كانت تعود عليها بالكثير من الأرباح، ومن أهمّها الطريق الذي كان يربط كنوسوس بفايستوس[3]، فمن المؤكّد أنّ هذه الطرق كانت تسهل عمليّة التنقّل بين المدن، مما يشجّع النّاس على زيارة بعضهم، وكل ذلك كان يساعد على بناء علاقات اجتماعيّة سليمة ومتينة.

5. أوقات التسلية والألعاب

وكبقيّة الشعوب، كان للكريتيون أوقات للتسلية، يمارسون فيها بعض الألعاب والهوايات، ومن أهم الألعاب التي كانوا يمارسونها لعبة شبيهة بالشطرنج، وتتألّف من لوحة لعب فخمة ذات إطار من العاج، وعليها مربّعات من الفضة، وسبعين قطعة من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة[4].

وكانوا يعشقون الصيد البري في الحقول مستخدمين كلاب الصيد لهذا الغرض، ويهوون الملاكمة أيضًا، إذ تتوفر مشاهد تصوّر ملاكمين كريتيين (**الشكل 4**). وكان الملاكمون يصنّفون إلى ثلاث فئات: أصحاب الأوزان الخفيفة، وأصحاب الأوزان المتوسّطة، وأصحاب الأوزان الثقيلة[5]. وتؤكّد هذه اللعبة أن الإنسان الكريتي كان صبوراً، ولديه قدرة على التحمل، أو كانت تهدف إلى تدريب النفوس على ذلك؛ لأنّ المباراة لا تنتهي إلا بسقوط أحد المتبارين على الأرض من شدة الإعياء، وللوصول إلى هذه اللّحظة ربما كان المتباريان يستمرّان لفترة طويلة، وكل ذلك يحتاج إلى قوّة وصبر وقدرة على التّحمّل.

---

[1]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص36.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص21.

[3]- Amos. H.D, and A.G.P. Lang. The Greeks these were, Chester Springs, PA: London, Dufour Editions. INC, 1997, p15.

[4]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته، م.س، ص35.

[5]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص27.

وكانوا يمارسون هواية مصارعة الثيران، والشقلبة فوقها، وهناك مشاهد تؤكّد ذلك (**الشكل 5**)[1]، وكانت الفتيات يشتركن في هذه اللعبة[2]، ويلبسن ثياب الذكور، ويُعتقد أنّ اللّعبة الحالية ذات صبغة دينيّة، وترتبط بطقوس الخصب[3]، لأنّ الثّور كان من الحيوانات المقدّسة التي ترمز إلى الخصب، ليس في كريت فقط، بل في مناطق مختلفة من العالم القديم[4]. وفضلاً عن الرمزيّة الدينيّة لهذه اللّعبة، ربما كان الكريتيون يسعون إلى إظهار قوّتهم وشجاعتهم من خلالها؛ لأنّ الثّور من الحيوانات القويّة، وهو رمز الفحولة، ومن الصّعب الوقوف بوجهه وتحدّيه، وعلى ذلك من يصارعه هو إنسان شجاع حسب تفكير الكريتيين؟ والشقلبة فوقه تدلّ على مهارة من كان يقوم بها، وهذا يدفع للاعتقاد بأنّ الأمر لم يكن مقتصرًا على إظهار قوّة الجسد، بل المهارات التي تعتمد على الرشاقة وسرعة الحركة والذكاء. ونستبعد استبعادًا مطلقًا أن تنتهي مصارعة الثور بقتله على يد مصارعيه؛ لأنّ المشهد لا يظهر أي سلاح يحمله المصارعون، ونرجّح أن يكون الأمر مقتصرًا على قيام المصارعين ببعض الحركات التي تظهر تحديهم للثور دون أن يصاب الطرفان بأذى. ومن جهة أخرى، الثور كان مقدّسًا في المجتمع الكريتي، فهل من المعقول قتله بطريقة مهينة؟ وهناك رأي يقول[5]: إنّ لعبة مصارعة الثيران كانت تقام في باحات القصور، وربمّا يكون سبب تبنّي هذا الرأي العثور على لوحة جداريّة في قصر كنوسوس تجسّد هذا الموضوع. لا نعلم مدى صحّة هذا الرأي، لكن إذا كان صحيحًا، من المحتمل أنّ الحضور كانوا من النّخبة، لا من العامة.

---

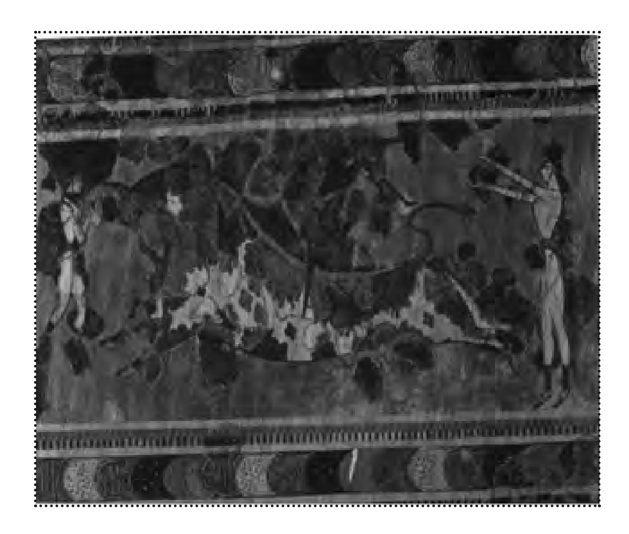
[1]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته، م.س، ص35.

[2]- ابتهال عادل إبراهيم الطائي، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، م.س، ص35.

[3]- Davaras C., op.cit, p.32.

[4]- Davaras C., op.cit, p.32.

[5]- Ibid, p.32.



الشكل 3: مشهد جداري يصور مصارعة الثور، ولعبة الشقلبة فوق الثور

6. المظهر العام للكريتيين المينويين

يمثّل اللّباس الجزء الأساسي من المظهر العام للكريتيين. ويُظهر أحد المشاهد الفنيّة المكتشف في أحد المقابر المصرية[1]، ثلاثة سفراء كريتيين كانوا يقدّمون الهدايا للملك المصري، ويصوّر لنا اللّباس الذي كانوا يرتدونه، والذي يعتبر نموذجًا للباس الرجال في كريت. وهو عبارة عن تنورة قصيرة ملفوفة على وسطهم، ومشدودة بواسطة حزام جلدي، ومنتفخة من الأمام كنوع من الاحتشام، وتمتدّ من الخصر حتى الركبة تقريبًا، أو أعلى بقليل، وتحتوي على مكان لوضع الخنجر[2]. وأمّا القسم العلوي من الجسد فكان عاريًا، وكذلك الساقين من الركبة حتى القدم. ونعتقد أنّ الرجال كانوا يلبسون هذا اللباس في الصيف فقط، فهو لا يتناسب مع الشتاء بسبب برودة الجو. وأكبر دليل على ذلك العثور في بعض المنازل على لوالب للمغازل الصوفية[3]، فلو أنّ الصوف لم يكن مستخدمًا في حياتهم لما اكتشفت هذه اللوالب في منازلهم، وكما نعلم الثياب الصوفية تستخدم عادة في الشتاء لحماية الإنسان من البرد.

[1]- Castleden, op. cit, p.12.

[2]- Cameron, Studies in Ancient Greece, New York, 1992, p.16.

[3]- Castleden, op. cit, p.11.

ولم يكن طول التنورة موحدًا عند الرجال، فالعمّال -مثلاً- كانوا يرتدون تنورة قصيرة ومفتوحة من الجانبين، في حين كانت طويلة عند الطبقة العليا، وكانت تصل إلى الأرض خلال الاحتفالات[1]. وكان الرجال يلبسون السروايل القصيرة أحيانًا (**الشكل 6**)، وفي الشتاء كانوا يرتدون عباءة طويلة لتحميهم من البرد، خاصة كبار السن[2]. وفي بعض الأحيان كان الرجال يضعون القبعات العريضة على رؤوسهم[3]، وفي أغلب الأحيان بقيت الرؤوس بلا غطاء. وبقي الرجال حفاةً في داخل المنزل، وفي أماكن الاحتفالات الدينية[4]، لكنهم كانوا ينتعلون أحذية بيضاء[5]، وصنادل[6] خارج المنزل.

وفيما يتعلّق بلباس المرأة الكريتية، تعتبر اللوحات الجدارية في قصر كنوسوس المصدر الرئيسي الذي يزوّدنا بمعلومات عنه. وبحسب المشاهد، كانت المرأة ترتدي ثيابًا متناسقة الألوان، وجميلة الشكل، تدلّ على الرفاه، والأناقة، والذوق الرفيع، ويعود ذلك إلى الثراء الكبير، الذي حقّقه الكريتيون بالاعتماد على التجارة كمصدر رزق أساسي لهم[7]. ومن الأمثلة على النساء اللواتي ظهرن في المشاهد باريسيسة كنوسوس[8]، وهي امرأة صوّرتها إحدى اللوحات الجدارية، وقد شبّهها أحد العلماء بالمرأة الباريسية لجمالها وزينتها ورشاقتها[9]. وكانت النساء يرتدين الفساتين[10] الطويلة الواسعة، التي تصل إلى الأرض، وهي ذات أكمام قصيرة[11]. وكان الفستان مفتوحًا من الأعلى من جهة الصدر، ليخرجن أثداءهنّ العارية[12] (حسب المشاهد الفنية)، وفي بعض الأحيان غُطيت الأثداء بقطعة شفّافة من القماش. وكن

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص21.

[2]- مايزر ج. . ل: فجر التاريخ، ترجمة: علي عزت الأنصاري، لا ط، القاهرة، مركز كتب الشرق الأوسط، 1962، ص171.

[3]- Castleden. R, Minoans Life in Bronze Age Crete, London and New York, Rutledge, 1993, p.15.

[4]- Castleden, op. cit, p.14.

[5]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص21.

[6]- Castleden, op. cit, p.11.

[7]- كوتريل، ليونارد: الموسوعة الأثرية، ترجمة: محمد عبد القادر محمد، زكي اسكندر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص392.

[8]- بربارة، فؤاد جرجي: الأسطورة اليونانية، لا ط، دمشق، منشورات الهيئة العامة للكتاب، 2014، ص9.

[9]- عكاشة، علي؛ الناطور، شحادة؛ بيضون، جميل: اليونان والرومان، ط1، إربد، دار الأمل للنشر والتوزيع، 1991، ص26.

[10]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص48.

[11]- Castleden, op. cit, p.14.

[12]- Ibid, p.13.

يضعن أغطية رأس مسطّحة على رؤوسهنّ، أو قبعات طويلة مدبّبة، وقد تكون القبّعات الأخيرة استُخدمت لأغراض احتفالية فقط[1]، ويشددن خصورهن الرقيقة بأحزمة، وينتعلن أحذية بيضاء مزركشة[2]. ويبدو أنّ النّساء اهتممن بمظهرهنّ الخارجي إلى درجة مبالغ فيها ليشغلن مكانة اجتماعيّة مرموقة، وإذا صحّ تفسيرنا، يمكن القول: إنّ الجمال لم يكن من أجل الجمال، وجذب انتباه الرجال فقط، بل للتميز اجتماعيًّا.

وقبل إنهاء كلامنا عن اللّباس نودّ أن نوضّح بعض المسائل، اللّوحات الجداريّة التي صوّرت النّساء الكريتيات اكتُشفت في مساكن الطبقة العليا، وعليه النساء اللواتي ظهرن فيها ينتمين إلى الطبقة الارستقراطية[3]، ونستنتج من ذلك أنّ هذا اللّباس هو لباس نساء هذه الطبقة، ولا تتوفّر معلومات عن لباس الطبقات الأدنى لعدم العثور على مشاهد تصوّر نسائها، ومن المؤكّد أنّها كانت أكثر تواضعًا من حيث الجودة والشكل. وهناك مسألة أخرى تتعلّق بكشف أثداء النساء، لا نستطيع أن نجزم، لكن من المحتمل أن هذا التقليد لم يكن مطابقًا لواقع المرأة الكريتية، ولم يظهر إلا في المشاهد الفنية، وربما كان يرمز إلى طقس الخصوبة المقدسة، الذي كانت تمثّله الربّة الأم، وأكبر دليل على ذلك اكتشاف تماثيل للربة الأم في كريت وهي على هذه الهيئة[4] (**الشكل 8**)، فربما كانت هذه المشاهد تعبرّ عن طقوس الخصب التي تمحورت حول المرأة التي كانت ترمز إلى هذه العقيدة من خلال أماكن الإنتاج في جسدها، مثل الثديين[5]. ومما يجعلنا نتمسّك كثيرًا بهذا الرأي الشكل 7 الذي صوّر ثلاث نساء يُظهرن أثداءهن، فلو دقّقنا قليلاً به نلاحظ أنّهن يتطابقن مع بعضهن في الملامح واللباس، وهذا يجعلنا نتساءل: هل من المعقول أنّهن كن على هذه الدرجة من التشابه؟ نستبعد ذلك، ونتوقّع أنّ هذا المشهد لم يصوّر نساء محدّدات في المجتمع، بل جسد المرأة أكثر من مرّة، ومن أكثر من زاوية، وهي تبرز ثدييها إظهارًا لعقيدة الخصب في المجتمع. ونستنتج من ذلك أنّ المشهد ربمّا كان رمزيًّا، وليس مطابقًا للواقع فيما يتعلّق بهذه العادة (كشف الثديين)، واقتصرت واقعيّته على الشكل الإنساني الذي جسّده الفنّان بأدقّ

[1]- Castleden, op. cit, p.15.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص21 22-.

[3]- Cameron, op. cit, p. 16.

[4]- لقد كانت الربة الأم من أهم الآلهة المعبودة في كريت Castleden ,op. Cit, p.124.

[5]- لمزيد من المعلومات، انظر: عبد الحق، حسان: الخصوبة المقدّسة في عصور ما قبل التاريخ (من الباليوليت الأعلى إلى نهاية العصر الحجري النحاسي (من 35000 إلى 3600 ق.م)، مجلة جامعة دمشق، المجلد 43، العدد الأول، 2018، ص129 – 139.

التفاصيل ليخدم رمزيّة المشهد. ولو أخذنا برأي الذين يرون أنّ هذه المشاهد كانت تصوّر نساء كريتيات معيّنات، وتفصح عن الموضة التي كانت شائعة آنذاك، ربما لم ينتشر هذا التقليد على نطاق واسع، وانحصر ببعض المناسبات؟



الشكل 4: أحد المشاهد الفنية يصور ثلاثة صيادين مينويين يلبسون السراويل، ويصطادون أسدًا

وتُكون الزينة الجزء الثاني من المظهر العام للكريتيين. امتازت الحضارة الكريتية بالذوق الرفيع، والرقي، وكما ذكرنا أعلاه انعكس ذلك على لباس النساء، و يبدو أنّه انعكس على زينتهن أيضًا، وكذلك الأمر بالنسبة للرجال، فقد كان التزيّن بالحلي من الأمور التي جذبت انتباههم، لإظهار جمالهم. ولعب المستوى المادي الدور الأكبر في تحديد نوع الحلي وقيمتها التي كان الجنسان يتحليان بها.

فإذا كان الرّجل فقيراً لبس عقدًا وأساور من الحجارة العادية، وإذا كان وضعه المادي جيدًا تزين بخواتم كبيرة، نقشت عليها مشاهد مختلفة. وفي حالة الثراء الفاحش، تكون قيمة الحلي أكبر، ومن الأمثلة على ذلك الساقي الذي ظهر في أحد المشاهد الفنية واضعًا في عضده الأيسر أسورة من معدن ثمين، وفي معصمه اسورة مطعمة بالعقيق (**الشكل 9**). واهتم الرجل الكريتي بنظافته، فقد كان يستخدم شفرات برونزية لحلاقة الذقن، واستخدم الملقط لإزالة الشعر الزائد[1]. وهذا يعني أنّ الكريتيين كانوا يهتمون بجمال الجسد فضلاً عن اهتمامهم بتقوية الجسد بالرياضة والألعاب.

واهتمّت النساء بالزينة أيمّا اهتمام، ويبدو أنّهن كن يسعين إلى فتن الرجال بجمالهن، وأردن أن يظهرن على هيئة جميلة في مجتمعهن. وتعتبر الحلي التي كان الرجال يتزينون بها متواضعة مقارنة بحلي النساء، ومن حليّ النساء دبابيس نحاسية وذهبية للشعر، وأقراط أو

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص22-23.

قلادات مدلاة من الآذان، وخيوط من المعادن الثمينة لربط الشعر، وعقود تعلق بالرقبة[1]، وأساور للأذرع، وخواتم للأصابع من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة، والخلاخيل في الأرجل[2]. وتميّزت النّساء بتصفيفات الشعر، فقد كن يُسرحن شعرهن بأمشاط من العاج، ويضفرنه على شكل ضفائر، ويُرفعنه إلى الأعلى، ويُرددنه إلى الخلف، ولتثبيته على هذا النحو كن يستخدمن الدبابيس والمشابك والخيوط المعدنية[3]. ولزيادة جمالهن، كن يضعن الكحل على العيون، والحمرة على الشفاه.

7ـ الطعام والشراب

ازدهرت زراعة الحبوب في كريت، لا سيما القمح والشعير[4]، واستخدم هذان المنتجان في صناعة الخبز الذي يعتبر غذاءً رئيسيًا في المجتمع المينوي. واشتهرت كريت بمراعيها في المناطق الجبلية[5]، مما ساعد على توفير أغذية أخرى تتمثّل بالحليب ومشتقّاته كالجبن. وتغذّوا على البقوليات كالعدس. وازدهرت في كريت زراعة بعض الفواكه مثل التين، والعنب، والسفرجل[6]، وشكّلت جزءًا من طعامهم، واستخدم العنب في إنتاج النبيذ الذي كان أحد المشروبات الشائعة في كريت. ويعتبر الزيتون محصولاً رئيسيًا في كريت، وكان الكريتيون يستخرجون منه الزيت الذي استخدم كمادة غذائيّة. وكانوا يتغذّون على اللحوم أيضًا، نظراً لتوفّر الماشية في كريت، ومنها لحم الإبل والغنم والأرانب والخنزير والماعز، وتغذوا على الأسماك أيضًا[7].

ثانيًا: الحياة الاجتماعية في الحضارة الآخية

1. العنصر البشري

تعدّدت الآراء حول أصل الآخيين، أحدها يقول إنّهم شعب أوربيّ، هاجر من أوروبا

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص22 - 23.

[2]- Amos. H.D, and A.G.P. Lang. The Greeks these were, Chester Springs, PA: London, Dufour Editions. INC, 1997, p 13

[3]- Caslteden, op.cit, p 14- 16.

[4]- Tulard J., histoire de la Crète, Paris, 1979, p.8.

[5]- Ibid, p.8.

[6]- جمال عبد الهادي، رفعت، وفاء محمد، أوربا منذ أقدم العصور، م.س، ص24.

[7]- Cameron, op. cit, p. 16.

الوسطى إلى بلاد اليونان في عام 2000 ق.م تقريبًا، وسيطروا على إبيروس وتساليا، وغزوا البلوبونيز نحو عام 1400 ق.م، وأخضعوا البلاسجيين (الميسينيين أو الموكينيين) لسلطتهم. وهناك رأي آخر يقول: إنّ الآخيين هم قبيلة يونانيّة، زاد عدد أفرادها، وأعقب تلك الزيادة انتشار لها من تساليا إلى منطقة البلوبونيز في القرنين الرابع عشر والثالث عشر، وامتزجوا بالبلاسجيين، وأصبحوا حكامًا لتلك المنطقة حوالي عام 1250 ق.م. وهناك الكثير من الدلائل التي ذكرها العلماء تشير إلى أنّ الموكينيين والآخيين ليسا شعبًا واحدًا، كطريقة تعاملهم مع الموتى، ومعتقداتهم، وأسلحتهم، وملابسهم. والجدير بالذكر أنّ حضارتهم كانت متواضعة، فمعظمهم كانوا يعملون بالزراعة[1]. وعرف الآخيون التآخي والزمالة فيما بينهم في ميدان القتال، وكانوا يتكلّمون إحدى اللّغات اليونانيّة القديمة[2]. وكان الآخيون يتكلمون اللغة اليونانية[3]، ويجهلون الكتابة[4].

ورد ذكر الآخيين في الإلياذة عند هوميروس[5]، وبحسب هذا الأخير، الآخيون هم جميع اليونانيين الذين اشتركوا في حرب طروادة في آخر القرن الثالث عشر أو في مستهل القرن الثاني عشر[6]، وكانوا يسكنون جزيرة البلوبونيز، وزعيمهم هو أجاممنون الذي كان يحكم في مكين، وأخيه مينيلاووس كان ملك أسبارطة. وأطلق على المقاطعة الشمالية في جزيرة البلوبونيز اسم آخايا نسبة لهم. وورد ذكرهم في الكتابات الحثية في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م باسم آخياوا[7].

وأفل نجم الآخيين في نهاية القرن الثاني عشر، ليبدأ عصر جديد في بلاد اليونان هو عصر السيطرة الدورية[8]. ويطلق على العصر الذي ظهر فيه الآخيون اسم عصر الأبطال نسبة

---

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص87-88.
() ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص87.

[2]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص98.

[3]- عاصم أحمد حسين، المدخل إلى تاريخ الإغريق، لا ط، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، 1998، ص43.

[4]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص681.

[5]- هوميروس: الإلياذة، ترجمة: أمين سلامة، لا ط، القاهرة، 1981، ص19.

[6]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص87.

[7]- Finkelberg M., Ahhiyawa to ‘Αχαιοί, Glotta, 66. Bd., 3./4. H., Published by: Vandenhoeck & Ruprecht (GmbH & Co. KG), 1988, p.127- 128.

[8]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص95.

إلى الأبطال الذين خلدهم هوميروس في الإلياذة والأوديسة ومنهم أجاممنون ومينيلاووس وأخيل (أخيليوس)[1].

وعلى خلاف المينويين، كان الرجال الآخيون طوال القامة، وأقوياء البنية، وامتازت نساؤهم بجمالهم البارع، مما دفع البعض إلى تشبيههم بالحور العين. وكذلك الأمر بالنسبة للرجال، فقد امتازوا بالجمال أيضًا[2]، وكان لهم شعر طويل أشقر[3] مرسل[4]، ولحى طويلة. وبحسب تقاليد الحضارات القديمة، تعتبر اللحى الطويلة، والشوارب رمزًا للفحولة[5]، ونعتقد أنّ الآخيين كانوا يتبنّون هذه المفاهيم الاجتماعية في حضارتهم.

2. الطبقات الاجتماعية

لقد كان المجتمع الآخي مجتمعًا طبقيًّا، وقد أشار هوميروس إلى ذلك في أشعاره عندما تحدث عن حياة الأغنياء والفقراء مشبّهًا المجتمع بعربة تجعجع في طريق غير مستوي ولا معبد، ومهما أُتقن صنع العربة وتركيبها فإنّ بعض ما تحمله من متاع سوف يرسب في قاعها ويطفو بعضه الآخر إلى أعلى سطحها. وفي السياق نفسه، ذكر أنّ الفخراني لم يصنع آنية كلّها من طينة واحدة كما لم يصنعها كلّها بالقوّة نفسها والهشاشة[6]. كلام هوميروس واضح وصريح، ولا يحتاج إلى كثير من الشرح والتفسير، فما يرسب في أسفل العربة يرمز إلى الطبقة الفقيرة، أو الطبقات الأكثر فقرًا، الأدنى اجتماعيًا، وما يطفو على السطح يشير إلى الطبقة العليا، أو الطبقات العليا، والآنية القويّة ترمز إلى الغني، وأمّا الهشّة فترمز إلى الفقير.

ويعتبر هذا الكلام عامًا، ويجب علينا الغوص أكثر في تفاصيل المجتمع الآخي لنتمكّن من فرز طبقاته الاجتماعيّة، وإظهار الفوارق بينها. لو عدنا إلى أشعار هوميروس نلاحظ أنّه ركّز على عدد من الشخصيات العسكريّة التي قادت الحرب ضدّ طروادة (أوديسيوس، أجاممنون، أخيل)، وكانت هذه الشخصيات تحكم مدنًا إغريقية، وعلى ذلك يمكن وصفهم

[1]- كيتو، الإغريق، م.س، ص13.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص87.

[3]- كيتو، الإغريق، م.س، ص22.

[4]- هوميروس: الإلياذة، ترجمة: سليمان البستاني، لا ط، القاهرة، كلمات عربية للترجمة والنشر، د.ت، ص323.

[5]- عبد الله، فيصل؛ مرعي، عيد: المدخل إلى تاريخ الحضارة، جامعة دمشق، 2007-2008، ص169.

[6]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص91-92.

بالملوك، وكان هؤلاء ـ مع عائلاتهم ـ يتربّعون على قمّة الهرم الاجتماعي في ممالكهم. وتجدر الإشارة إلى أنّ المدن -التي اتّخذت مقرًّا للحكم- لم تكن مدنًا حقيقيّة في بعض الأحيان، بل كانت مجموعة من القرى تتّحد مع بعضها برئاسة ملك أو أمير حول قصر حصين[1]. وأيا تكن طبيعة المكان الذي كان يتّخذه هؤلاء مقرًّا لهم، كانوا يمثّلون رأس المجتمع. ويعتبر ملوك هذه العائلات الأبطال، الذين كانوا سببًا في تسمية العصر الذي عاشوا فيه عصر الأبطال، وقد مثّلوا مع عائلاتهم الطبقة الارستقراطية العليا[2]. وامتازت هذه الطبقة بثرائها الفاحش، فعلى سبيل المثال كان أوديسيوس يمتلك ما يقارب ألف رأس من الماشية[3]، وكان يعيش في قصر منيف باذخ[4]. وينطبق الشيء نفسه على قصر الملك الكينوس في مدينة فياكيا، الذي كان له حديقة كبيرة مليئة بالأشجار المثمرة، وبهو كبير من الداخل، وتزينه الأعمدة[5]. وكبقية المجتمعات، من المؤكّد أنّ رجال البلاط كانوا ينتمون إلى الطبقة نفسها. أوردت الروايات أخبارًا عنهم، ومنهم أولئك الذين كانت تجالسهم بينلوبي زوجة أوديسيوس[6] عندما كان زوجها غائبًا عن قصره ومنشغلاً بحرب طروادة.

وتحدث هوميروس عن أصحاب الحرف كالبنائين والسرّاجين والنجّارين الذين كانوا يشتغلون في بيوت من يطلب منهم ذلك[7]. ونعتقد أنّ هؤلاء كانوا جزءًا من الطبقة الثانية في المجتمع، ومما يجعلنا نميل إلى هذا الرأي أنّهم كانوا من الأحرار[8]، فلو لم يكونوا كذلك لصنّفناهم مع العبيد الذين يمثّلون الطبقة الأدنى اجتماعيًا. ولا يكفي أن نستند إلى هذا الدليل، ويمكن أن ندعم ذلك بقيام الملك أوديسيوس بتقليد هؤلاء الحرفيين، فقد كان يصنع الفرش، والكراسي لبيته، وكان يتفاخر بمهارته في الأعمال اليدوية[9]. إن قيام الملك بهذه الأنشطة يبرهن

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص91؛ كيتو، الإغريق، م.س، ص22-23.

[2]- فينلي، م.أي: عالم أوديسيوس، ترجمة: محمد عبودي إبراهيم والسيد جاد، ط1، القاهرة، المركز القومي للتجارة، 2014، ص36.

[3]- الأثرم، رجب عبد الحميد: العلاقات الليبية اليونانية قبل تأسيس قوريني عام 631 ق.م، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، مركز جهاد الليبيين، العدد 2، 1990، ص81.

[4]- هوميروس: الأوديسة، ترجمة: دريني خشبة، ط1، بيروت- القاهرة- تونس، دار التنوير، 2013، ص15.

[5]- كيتو، الإغريق، م.س، ص45.

[6]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص53.

[7]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص91.

[8]- م.ن، ص91.

[9]- م.ن، ص91.

على قرب هؤلاء من مجتمعه، مما يسمح لهم بأن ينتموا إلى الطبقة الاجتماعية، التي تلي طبقته. ويعدّ العرافون والمنشدون والأطباء جزءًا من هذه الطبقة أيضًا، وهم أرفع اجتماعيًا من الحرفيين، لا سيما الأطباء والعرافين، الذين كان بمقدورهم التحول إلى نبلاء[1]، وقد يكون سبب ذلك الخدمات الكبيرة التي كانوا يقدمونها للطبقة الارستقراطية، وقربهم منها. ونعتقد أنّ الفلاحين كانوا ينتمون إلى الطبقة نفسها، لكنّهم كانوا يشغلون موقعًا هامشيًّا، وكانوا أدنى اجتماعيًا من غيرهم؛ لأنّ الملك كان يحق له تسخيرهم للعمل في أرضه مدّة من الزمن[2]، وعلى الرغم من ذلك لا يمكن تصنيفهم مع العبيد؛ لأنّ عملهم بأرض الملك كان مؤقتًا، ولهم أرضهم الخاصة التي يعملون بها. ولو صح رأينا بأنّ كلّ هؤلاء كانوا يمثّلون الطبقة الثانية في المجتمع الآخي، نستنتج أنّهم لا يقفون على قدم المساواة اجتماعيًا، فهناك الأعلى والأدنى اجتماعيًا، ويتفاوتون فيما بينهم بدرجة قربهم من الحاكم.

لقد ظهر العبيد ذكورًا وإناثًا في المجتمع الآخي، وأشارت أشعار هوميروس إلى ذلك، وكانت الحروب أحد أهم مصادر العبيد[3]، لا سيما أولئك الأسرى الذين كانوا يقعون بيد الطرف المنتصر. وتعتبر العبودية من المسائل المخجلة والمهينة في المجتمع الآخي خاصة، والإغريقي عامة، وأشار هوميروس إلى ذلك قائلاً «**إن زيوس ينتزع من الرجل نصف رجولته إذا أصبح عبدًا في يوم من الأيام**[4]». ومن الإشارات على عالم العبيد اللقب الذي اتّخذه البطل الإغريقي أخيل: سابي المدن[5]، وقد التصق به هذا اللقب بعد قيامه بمهاجمة البلاد الطرواديّة وسبي نسائها؛ إذْ تذكر الإلياذة أنّه سبا في إحدى المرّات عددًا من النساء، ومن بينهن فتاتان فاتنتان تدعى إحداهما خريسييس، والأخرى بريسييس، وأجمع الجيش على تمليك الأولى لأجاممنون، والثانية له[6]. وكان الطرواديون يحسبون ألف حساب لمسألة العبودية، وقد تحدّث هوميروس عن ذلك عندما أظهر موقف هيكتور ملك طروادة من محاربة الآخيين من خلال الحديث الذي دار بينه وبين زوجته حول هذه القضية، ومما

[1]- فينلي، عالم أوديسيوس، م.س، ص68.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص91.

[3]- فينلي، عالم أوديسيوس، م.س، ص67.

[4]- كيتو، الإغريق، م.س، ص5.

[5]- فينلي، عالم أوديسيوس، م.س، ص37.

[6]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، م.س، ص191.

قاله لها: «**أنا لست قلقًا على ما قد ينزل بالطروادیين أو لهكابي نفسها أو الملك برياموس أو بأخوتي البواسل الذين سيطرحهم العدو في الرغام بقدر ما أنا قلق عليك من أن يسوقك جندي آخي وأنت دامعة العينين إلى ذل العبودية. وأتصورك وأنت في أرجوس تغزلين على النول لامرأة أخرى، وتحضرين الماء من بئر غريبة، وأنت مسلوبة الإرادة صاغرة مقهورة**»[1].

ونفهم من هذا النّص أنّ الحرّة التي تؤسر، مهما كان نسبها، ستهان كرامتها، وستتحوّل إلى خادمة تقوم بالأعمال المنزليّة الشّاقّة. ولم يقتصر الأمر على الأعمال المنزليّة، بل شمل أمورًا أخرى، لا سيما النواحي الجنسية؛ إذْ كانت تتحوّل المرأة المأسورة إلى محظية لسيدها، ويظهر ذلك جليًا من خلال الفتاتين اللتين تحدّثنا عنهما أعلاه، والهديّة التي كان أجاممنون (ملك مكيني) ينوي تقديمها لأخيل ليخفّف من غضبه بعد أن تعرّض أجاممنون لانتقاد كبير من المجلس الآخي، بسبب رغبته في الانسحاب من حرب طروادة، وكانت تتكون هذه الهدية من أشياء كثيرة، ومن بينها سبع نساء حسناوات، بالإضافة إلى عشرين امرأة طروادية إذا ما تمكّن الآخيون من الاستيلاء على طروادة[2]. وكانت هؤلاء المحظيات أو الجواري يعشن في قصور الملوك، ويمكن اعتبارهن جزءًا من الممتلكات التي كان يمتلكها الملك. ويُذكر أنّ عددًا من الإماء كن يعشن في قصر أوديسيوس، وفي غياب أوديسيوس كان يتردّد إلى القصر بعض الأمراء، وتعرّضت هذه الإماء للعبث من قبلهم[3]. ونستنتج من ذلك أنّ هؤلاء سُخّرن لرجال الطبقة الحاكمة للتمتع بهن، مما يؤكّد أنّهن لم يكن يمتلكن قرارهن وأنّهن كن يشغلن الطبقة الأدنى اجتماعيًا على الرغم من تواجدهن في قصور الأشراف. وإذا أنجبت إحدى المحظيات مولودًا من سيدها، يعتبر هذا الأخير حرًا، لكن من الدرجة الثانية[4]. وأما العبيد الذكور فقد كانوا جزءًا من منازل أسيادهم، ويخدمون فيها، ويعملون في الحقول ومزارع العنب[5]. والغريب في الأمر أنّ الخدم في المجتمع الآخي لم ينتموا إلا جزئيًا إلى طبقة العبيد، فعلى خلاف العبيد السابقين الذين يمكن اعتبارهم جزءًا من الخدم، هناك

---

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص55.

[2]- باول، باري باول: هوميروس، ترجمة: محمد حامد درويش، مؤسسة هنداوي، 2017، ص164.

[3]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص53.

[4]- فينلى، عالم أوديسيوس، م.س، ص74.

[5]- فينلى، عالم أوديسيوس، م.س، ص68.

خدم يعملون في المنازل، كانوا من الأحرار مثل مقطّعي اللحوم الذين شكّلوا جزءًا لا يتجزّأ من المنزل[1]. وإلى الطبقة ذاتها ينتمي بعض الأجراء (thes) الذين يُستأجرون من قبل الأسياد للعمل بأعمال متنوّعة كالزراعة والبناء، وكانوا يأخذون مقابل ذلك أجرًا محدّدًا، مكوّنًا من اللباس والأحذية والطعام، والجدير بالذكر أنّهم كانوا أدنى اجتماعيًا من العبيد، وكان بعض الأسياد يحرمونهم من الأجر بالاحتيال عليهم[2]، مما يؤكد ضعفهم، وقلة حيلتهم، وضياع حقوقهم في بعض الأحيان، وسبب ذلك ـ برأينا ـ غياب القوّة الاجتماعية التي من شأنها دعم هؤلاء وإنصافهم، والحفاظ على حقوقهم.

3. العشيرة والأسرة

ساد في العصر الآخي النظام العشائري، وإذا صحّ التعبير يمكن تشبيه العشيرة بالأسرة الكبيرة، التي كانت تضمّ جميع الأفراد الذين ينحدرون من جد واحد[3]، وكان هؤلاء يحملون لقبًا واحدًا، ويرتبطون ببعضهم بعلاقات اجتماعيّة وثيقة، وينتمي إلى العشيرة أشخاص آخرون كالرقيق الذين كانوا يعملون في خدمة أسيادهم، وكذلك الأشخاص الذين انضمّوا إلى العشيرة عن طريق التبنّي[4]. وكان للعشيرة إله واحد يعبده جميع أفرادها، وكان لها مقرّ هو مقرّ العشيرة[5]. ومن خلال هذا الوصف، نلاحظ أنّ الآخيين كانوا يسعون إلى خلق نظام اجتماعي متماسك من خلال العشيرة، التي يمكن تشبيهها بالمظلّة التي كان الجميع يستظلّ بظلّها.

وأمّا الأسرة، فيمكن وصفها بالكيان الاجتماعي الأصغر، أو الأضيق مقارنة بالعشيرة، واصطبغت الأسرة بالصبغة الأبوية الذكوريّة، ويظهر ذلك جليًا من خلال اتّباع تقليد انتساب الأبناء إلى آبائهم، وتقليد اعتبار أقارب الأم أجانب عن أبناء الأسرة الواحدة، واعتبار البنت عنصرًا مؤقتًا في الأسرة، فعندما تتزوّج تصبح عضوًا في أسرة وعشيرة زوجها. ولم تنحصر السلطة الأبوية في هذه الأعراف فحسب، بل برزت بالتقليد الذي كان يعطي الحق للأب

[1]- فينلي، عالم أوديسيوس، م.س، ص71.

[2]- م.ن، ص71 – 73.

[3]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص98.

[4]- رجب عبد الحميد الأثرم، العلاقات الليبية اليونانية قبل تأسيس قوريني، م.س، ص78-79.

[5]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص98.

بالتبني، وخلع من يريد من أسرته، وبيع أولاده كرقيق، أو يتخلص منهم كيفما يشاء إذا أراد ذلك[1]. وكان يقع على عاتق الأب تأمين معيشة أسرته، وأشار هوميروس إلى ذلك عندما تحدث عن أسرة أوديسيوس، وقد قال: **إن سيد المنزل (المقصود الأب) كان يمتلك الأراضي المحيطة والبساتين والقطعان التي يكفل بها أسرته وعبيده**[2]. ونستنتج من ذلك أنّ السّلطة الأبوية كان لها حقوق وعليها واجبات، فكما أنّ للأب الحقّ بالتّصرّف بأولاده كيفا يشاء، من واجبه تأمين معيشتهم.

وتمتّعت الأسرة والعشيرة بسلطة كبيرة في المجتمع، فقد كانت الأرض ملكًا لهما، وليس للأفراد[3]، وكان رئيس الأسرة يقوم بالإشراف عليها، ولا يحقّ له بيعها. وبحسب الأعراف الآخية كانت ملكية هذه الأرض تعود للملك، لكن في حقيقة الأمر هي ملك للجماعة، ومما يؤكّد ذلك أنّ الملك لا يحق له بيعها، ومن جهة أخرى كان يحقّ لجميع الأفراد أن يرعوا ماشيتهم فيها[4]. ونفهم من ذلك أنّ المجتمع الآخي حاول حماية مصالح الفرد من خلال سلطة الأسرة والعشيرة اللتين اصطبغتا بالصبغة الأبوية، فللأسرة أب يرعى مصالحها، وللعشيرة -التي كانت تحتوي على عدد كبيرة من الأسر- سيد أو أب كان يرعى مصالحها أيضًا.

4. الزواج والطلاق عند الآخيين

من المصادر الهامّة التي تزودنا بمعلومات عن الزواج وطقوسه والعلاقة الزوجية، أشعار هوميروس في الإلياذة والأوديسة. وبحسب ما ورد في الأوديسة، كان لموقف الأب من زواج ابنته أهمية كبيرة في إتمام هذا الأمر، ومن ذلك الوعد الذي قطعه أجاممنون على نفسه بتزويج إحدى بناته لأخيل (بطل الإغريق)[5]، ليخفّف من غضبه على إثر إظهار أجاممنون رغبته في الانسحاب من حرب طروادة. تُظهر هذه الرواية أنّ رأي الأب كان الفيصل في مسألة الزواج، أو على الأقل كان له تأثير كبير في هذه المسألة. ونستنتج من ذلك أنّ الزواج كان يقوم على أساس المصلحة بين الطرفين أحيانًا. ولم تكن الزيجات موفّقة في بعض

[1]- رجب عبد الحميد الأثرم، العلاقات الليبية اليونانية قبل تأسيس قوريني، م.س، ص79.

[2]- باول، هوميروس، م.س، ص92.

[3]- جمال عبد الهادي، رفعت، وفاء محمد، أوربا منذ أقدم العصور، م.س، ص28.

[4]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص90.

[5]- باول، هوميروس، م.س، ص164.

الأحيان؛ إذْ تزوّدنا الإلياذة بمعلومات عن تعرض العلاقة الزوجية لانتكاسات، كالانتكاسة التي تعرّضت لها علاقة هيليني بزوجها مينيلاووس ملك أسبارطة على إثر الخطيئة التي ارتكبتها هذه الأخيرة عندما هربت مع باريس ابن ملك طروادة بعد أن قام بإغوائها[1]. وفي المقابل، يقدم لنا هذا العصر أدلّة على إخلاص الزوجة لزوجها رغم غيابه عنها، مثل بينلوبي زوجة أوديسيوس التي رفضت الزواج من الأمراء الذين تقدّموا لخطبتها[2] بعد غياب زوجها عن القصر لاشتراكه بحرب طروادة[3]، مما جعلها رمزًا للعفاف[4]، والصبر[5]. وكان أوديسيوس يبادلها المشاعر نفسها، وقد أوردت الأوديسة قولاً له يؤكد ذلك: « **ليس هناك مال في هذه الحياة يعادل في نفاسته الرباط الزوجي الذي يسوده الوئام والحب**»[6]. ومن الأمثلة الأخرى على وفاء الزوجة لزوجها وإخلاصها، أندروماخ زوجة هيكتور ملك طروادة، التي حاولت منع زوجها من مبارزة أخيل بطل الإغريق خوفًا عليه من القتل قائلةً له: «**لخير لي أن أموت من أن أفقدك، فلن يبقى لي أي عزاء إذا لقيت حتفك، ولن يبقى لي شيء سوى الحزن فليس لي الآن أب أو أم. وكان لي سبعة أخوة انتقلوا في يوم واحد إلى هاديس (عالم الموتى). لقد صرعهم جميعاً أخيليوس الكبير، سريع القدمين. أنت يا هيكتور أبي وأمي وأخي وزوجي الشهم. أرحمني الآن وابق هنا في القلعة ولا تيتم ابنك وترمل زوجتك**[7] « لا تعكس هذه الرواية مدى تعلّق الزوجة بزوجها فحسب، بل تشير إلى مصير الأسرة المشؤوم في حال وفاة الزوج أيضًا، فعلى الأغلب ستترك حياة القصور وستنضم إلى مجتمع العبيد، وستتحوّل إلى محظية لأحد الأشراف من الطرف المنتصر.

ومن شروط الزواج في المجتمع الآخي تقديم المهر للعروس، ويتمّ تحديده بناءً على اتّفاق بين العريس ووالد العروس، وقد يكون المهر ماديًا على شكل عدد من الأبقار والثيران،

---

[1]- السايح مصطفى، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، م.س، ص11.

[2]- نيهاردت أ أ: الملحمة الإغريقية القديمة، ترجمة: هاشم حمادي، ط1، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر، 1994، ص6.

[3]- فينلي، عالم أوديسيوس، م.س، ص65.

[4]- م.ن، ص41.

[5]- هوميروس، الأوديسة، م.س، ص14.

[6]- محمود سليم زناتي، المرأة عند قدماء اليونان، لا ط، جامعة الإسكندرية، 1957، ص54.

[7]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص54.

أو خدمات يقدمها الخاطب لوالد الفتاة[1]. ومن الأدلّة على مسألة المهر ما ورد في الإلياذة عن العرض الذي قدمه أجاممنون لأخيل للزواج بإحدى بناته الثلاث، ومما قاله أجاممنون: «**إذا ما عاد إلى أرض الإغريق سيكون ابنًا لي....وأزوجه إحدى بناتي ولي منهن في قصري ثلاث....فليأخذ منهن من يشاء إلى بلاط فيلا من غير هدية خاطب**[2]». إنّ هدية الخاطب هي المهر، ويبدو أنّ أجاممنون تنازل عنها لإرضاء أخيل بسبب تخاذله في حرب طروادة كما أشرنا سابقًا، ولأنّه ربّما كان يطمع بمصاهرة فارس الإغريق ليشدّ به أزره، ويتّخذه سندًا له. ولم يكتف أجاممنون بالتنازل عن المهر، بل وعد أخيل بتقديم الكثير من الهدايا له[3]، وكل ذلك يعكس مدى أهميّة هذا الزواج السياسي بالنسبة لأجاممنون. وتحدّث هوميروس عن زيجة أخيل، التي تم تصوير موكبها على الدرع الذي صنعه هيفايستوس لأخيل. ويصوّر هذا المشهد العروس وهي في طريقها إلى بيت زوجها، وكانت تسير على ضوء المشاعل، ويظهر في هذا المشهد الشباب الراقصون، وبينهم عازفات الفلوت والقيثارة، والسيدات يشاهدن الموكب من خلال النوافذ، ويشارك في ذلك أفراد العائلة[4].

ولم يكن زواج المحارم منتشرًا عند الآخيين، ولم يرد في ملحمتي هوميروس إلا مرتين[5]، ولم تكن ظاهرة تعدّد الزوجات منتشرة كثيراً في هذا العصر باستثناء برياموس الطروادي الذي كان يوجد في قصره جناح للحريم[6]، مما يشير إلى أنّه كان متزوّجًا أكثر من واحدة. وعلى أية حال، هذا الأخير ليس إغريقيًا، ونستشهد به لأنّه يعود إلى الفترة التي ندرسها. والجدير ذكره أنّ الزواج كان يتم على أساس طبقي، وكان ينفذ هذا الأمر بشكل صارم[7]؛ إذْ كان يُحرم على الحرّة الزواج من عبد في المجتمع الآخي[8].

---

[1]- محمود سليم زناتي، المرأة عند قدماء اليونان، م.س، ص39.

[2]- م.ن، ص39.

[3]- فينلي، عالم أوديسيوس، م.س، ص77-78.

[4]- الشافعي، حنان خميس: مشاهد الزفاف المصورة على الفخار اليوناني، مجلة كلية الآداب، جامعة بنها-مصر، ع37، ج2، 2014، ص7.

[5]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص56.

[6]- م.ن، ص56.

[7]- فينلي، عالم أوديسيوس، م.س، ص66.

[8]- رجب عبد الحميد الأثرم، العلاقات الليبية اليونانية قبل تأسيس قوريني، م.س، ص79.

وعلى الرغم من أنّ الطلاق كان جزءًا من أعراف المجتمع الآخي، إلاّ أنّ حالات الطلاق كانت نادرة، فبحسب أحد الباحثين لم يرد عنه أي إشارة في الإلياذة، والأوديسة[1]، فعلى الرغم من الخطيئة التي ارتكبتها هيليني زوجة مينيلاووس ملك أسبارطة بهروبها مع باريس ابن ملك طروادة[2]، لم ينفصل عنها زوجها بل غفر لها زلتها، وعادت إليه، وعاشت معزّزة دون انتقاص من سمعتها أو كرامتها[3] علماً أنّ العمل الذي قامت به لم يكن خيانة زوجيّة فحسب، بل خيانة سياسية؛ لأنّ هيليني كانت تجلس مع ملك طروادة بriاموس على شرفات المزاغل، وتحدّد له هوية أجاممنون، وأوديسيوس، وبعض الأبطال الآخيين[4]، ونفهم من ذلك أنّها كانت تنقل أخبار قومها إلى العدو. وبحسب أعراف هذا العصر تعتبر خطيئة هيليني من الأفعال التي تعطي لزوجها الحق بتطليقها، وكذلك الأمر بالنسبة لعقم المرأة، فهي من القضايا التي تعطي المسوّغ للزوج بتطليق زوجته[5]. ويعزو أحدهم قلّة الطلاق في المجتمع الآخي إلى حدوث نوع من التعارف بين الطرفين قبل الزواج؛ لأنّ هذا المجتمع كان يسمح بحرية الاختلاط بين الجنسين[6]، ويمكن أن نحدّد سببًا آخر يتعلّق بالنّظام الاجتماعي الطبقي، لقد كان المجتمع يمنع الزواج بين الطبقات، ونعتقد أنّ هذا العرف كان له دور في الحد من المشاكل الزوجيّة التي قد تؤدّي إلى الطلاق؛ لأنّ الفوارق الاجتماعية -التي تثير هذه المشاكل- كانت معدومة بين الطرفين بسبب التقارب الطبقي.

5. الرجل و المرأة

من خلال حديثنا عن الأسرة والعشيرة لاحظنا أنّ المجتمع الآخي كان مجتمعًا ذكوريًّا، وما ذكرناه سابقًا يعتبر كلامًا عامًا، يوضّح طبيعة الأسرة والعشيرة، ولتقديم صورة أوضح عن المرأة والرجل يجب علينا تقديم أدلّة أكثر دقّة، تُعبرّ عن هذه الحقيقة. ويتطلب ذلك منا

[1]- محمود سليم زناتي، المرأة عند قدماء اليونان، م.س، ص127.

[2]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، م.س، ص322.

[3]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص54.

[4]- فينلى، عالم أوديسيوس، م.س، ص58-59.

[5]- محمود سليم زناتي، المرأة عند قدماء اليونان، م.س، ص127.

[6]- م.ن، ص126.

العودة إلى التراث الفكري العائد إلى هذا العصر، لا سيما أشعار هوميروس.

ورد في الإلياذة أنّ المحارب إذا أراد أن يسبّ آخر ويعبر له عن احتقاره كان يصفه بالمرأة. وفي موضع آخر ذكرت الإلياذة أنّه عندما لم يجرؤ أحد على التقدّم لمنازلة هيكتور ملك طروادة صاح فيهم مانيلا قائلاً: «**لا شكّ في أنّكم الآن نساء لا رجال، يا للعار الشائن إذا لم يوجد فينا رجل يقف في وجه هيكتور هذا**[1]»، ونستنتج من ذلك أنّ المرأة كانت ترمز إلى الجبن والإدبار في الحروب، ونعتقد أنّها ظهرت على هذه الصورة بسبب طبيعتها الأنثويّة التي تختلف عن طبيعة الفرسان الأشداء، الذين امتازوا بقوتهم الجسدية. وتناقل الرواة على لسان الشاعر هوميروس روايات أخرى تشير إلى تبوأ الرجل مكانة مرموقة مقارنة بالمرأة، كتلك الرواية التي قالت: إنّ الربة أثينا كانت تحمي الذكور المهمين من أمثال ديوميديس وأخيل وأديسيوس. ويُذكر أن أخيل أجبر الربة أثينا على الاعتراف بأنّ لا أم لها[2]. هذه الرواية توحي لنا بأنّ المجتمع الآخي كان ذكوريًّا بالفعل، ونعتقد أنّ هناك جملة من الأسباب هي التي جعلته ذكوريًّا، ولعلّ أهمّها قيام الآخيين بمحاربة طروادة، وكما نعلم الحرب تحتاج إلى فرسان ذكور للقيام بهذا العمل، وفضلاً عن ذلك، كان الفرسان يحمون مدنهم من أيّ اعتداء خارجيّ. ومما يؤكّد ذلك انتشار الأغاني الحربية في عصر الأبطال[3]، ونعتقد أنّ هذه الأغاني وُلدت من رحم العصر ذاته، وأتت لتتكيف مع طبيعته كعصر عسكري حربي، وانعكس ذلك بقوّة على المجتمع، فكما لاحظنا سابقًا، برزت النّزعة الذكوريّة بجلاء في المجتمع من خلال السلطة الأبويّة في الأسرة والعشيرة، وباعتقادنا، ما كان لهذه النّزعة أن تظهر بهذا العمق لولا طبيعة العصر الحربية التي مجّدت الفارس البطل، أو على الأقل ساهم العصر الحربي بتكريسها. ونفهم من ذلك أنّ الرجل كانت له مكانة أرفع من مكانة المرأة. لقد حاول هوميروس التنبيه على هذه الحقيقية بطريقة جميلة، لا تخلو من لمسة أسطوريّة حينما أظهر العلاقة الوطيدة بين الذكور المهمّين والربة أثينا، وإجبار أخيل الربة أثينا على الاعتراف بأنّ لا أم لها (لا أم لها: ربما للتقليل من أهميّة الأنثى والتركيز على الرجل، وإظهار دور الرجل

---

[1]- محمود سليم زناتي، المرأة عند قدماء اليونان، م.س، ص30.

[2]- كاميرون، إفريل؛ كوهرت، إميلي: صورة المرأة في العصور القديمة، ترجمة: أمل رواش، ط1، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2016، ص24.

[3]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص87.

بأنّه كان متحكّمًا بالآلهة في بعض الأحيان). وأمّا سبب جعل الربة أثينا محور هذه الرواية يعود إلى كونها ربة الحرب والحامية للمدن[1]، ففي هذه الحالة من البديهي أن ترتبط بعلاقة مع الفرسان المحاربين حماة المدن، ومن المنطقي استخدامها دون غيرها للإفصاح عن ذكوريّة المجتمع الآخي، فطبيعتها ووظيفتها تتناسبان مع ذلك.

ولم يكتفِ هوميروس بإظهار مكانة الرجل الرفيعة من خلال حديثه عن علاقة الأبطال الثلاثة بالربة أثينا، هذه العلاقة التي اصطبغت بالصبغة الأسطورية، بل أورد روايات أخرى تتّصف بالواقعيّة، ومنها حديثه عن أوديسيوس الذي رفض الانسحاب من حرب طروادة طالبًا من الإغريق متابعة الحرب، وقد ألقى -لهذا الغرض- خطبة استنهض بها الهمم، وأثنى الجبناء عن الانسحاب[2]. وكذلك أشار هوميروس إلى ديوميديس الذي حقّق انتصارًا على الطرواديين متمكّنًا من قتل سائق عربة قائدهم هكتور، وكاد أن يقتل القائد نفسه لولا تدخل زيوس بإرسال الصاعقة[3]. ولهذه الروايات قيمة كبيرة، فهي تظهر لنا مكانة الرجل العسكرية، التي أكسبته مكانة اجتماعية، وقيمة كبيرة في مجتمعه. والجدير بالملاحظة أنّ هوميروس لم يُظهر الرجل الآخي على هذه الصورة دائمًا، ففي أحد المواضع من الإلياذة أظهر أجاممنون الآخي على أنه شخص انهزامي[4]، والسبب في ذلك إعلان هذا الأخير عدم إمكانية السيطرة على طروادة، ورغبته بالانسحاب والعودة إلى البلاد[5]. وفي الأوديسة أظهر بعض الصفات السيئة للرجال الآخيين، لا سيما أمراء الأقاليم الذين تقدّموا لخطبة بينلوبي زوجة أوديسيوس، فقد وصفهم بالمجانين والفساق والكلاب والمجرمين[6]. ويبدو لنا أنّ هوميروس لم يكن هدفه التقليل من شأن الرجل الآخي، وتشويه صورته في مجتمعه، بل كان يسعى إلى تسجيل الأحداث بواقعيّة، ومصداقيّة، والدليل على ذلك تصويره للجانب المشرق في شخصية الرجل من خلال إظهار انتصاراته، ومكانته المرموقة عند الآلهة، وذلك بتطرّقه لبعض الشخصيات التي تتّصف بهذه الصفات من أمثال أوديسيوس.

---

[1]- كيتو، الإغريق، م.س، ص18.

[2]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، م.س، ص245-246.

[3]- باول، هوميروس، م.س، ص163.

[4]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، م.س، ص245.

[5]- باول، هوميروس، م.س، ص163.

[6]- هوميروس، الأوديسة، م.س، ص14-16.

ومن يسمع بذكورية المجتمع الآخي، قد يتبادر إلى ذهنه أنّ المرأة الآخية ظلّت حبيسة منزلها، أو انحصرت أنشطتها بالأعمال المنزليّة، لا بل كان الأمر على النقيض من ذلك، فقد كانت تخرج مع زوجها إلى الحقل، ليعملا سويّة في حراثة الأرض، وبذر البذار، وكانت تساعده في إنشاء الجسور، لمنع مياه الفيضانات من تدمير المحصول في فصل الشتاء[1]. ونستنتج من ذلك أنّ المرأة الآخية كانت تتمتّع بحريّة الخروج من المنزل، ولم يقتصر ذلك على ذهابها إلى الحقل؛ إذْ تخبرنا الأوديسة أن الفتيات كن يذهبن إلى الغدران والأنهار لغسيل الملابس وجلب الماء[2]. وكان للمرأة حق الحب والعشق، وينطبق ذلك على ناوسيكا ابنة الكينوس ملك فياكيا، التي كانت تخرج مع وصيفاتها إلى أطراف المدينة، وتلتقي عند شاطئ البحر بأوديسيوس، وكان يدور حديث بينهما يحتوي على كلمات الحب والغزل[3]. وعلى الرغم من خروج المرأة الريفيّة من البيت وتمتّعها بشيء من الحرية، لا يمكن القول إنّها تحرّرت من السلطة الذكورية للمجتمع الذي تعيش فيه؛ لأنّ خروجها من المنزل لمساعدة زوجها في الحقل أو لجلب الماء كان لضرورات المعيشة والحياة، وعلى الأرجح ظلّت تابعة له عملاً بأعراف الأسرة والعشيرة التي كانت تكرّس الذكوريّة في المجتمع. وكذلك الأمر بالنسبة لناوسيكا، فعادات اللقاءات الغرامية ربما كانت شائعة في المجتمع الآخي، وتحديدًا عند الطبقة العليا، على أساس المصلحة بين عائلتين ملكتين أملاً في تحقيق تقارب سياسي من خلال الزواج، أو من خلال علاقات خارج نطاق الزواج (أوديسيوس كان متزوّجًا حينما غازل ناوسيكا ولم تعاتبه زوجته بينلوبي على ذلك[4])، يجني الطرفان ثماره. وكنا قد أشرنا أعلاه إلى هذا النوع من العلاقات حينما تناولنا العرض الذي قدمه أجاممنون لأخيل بالزواج من إحدى بناته.

ونستطيع الاستنتاج أنّ الأعراف الاجتماعيّة في الحضارة الآخية لم تقيد حرية المرأة على الرغم من مكانة الرجل، ومما يدعم هذا الرأي بأدلة أخرى -تضاف إلى الأدلّة التي سقناها سابقًا- ما أورده هوميروس في الإلياذة عن مدينة طروادة التي دخلت في حرب مع الإغريق في

---

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص88.

[2]- محمود سليم زناتي، المرأة عند قدماء اليونان، م.س، ص16.

[3]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص53-54.

[4]- م.ن، ص56.

العصر الآخي دامت لمدّة عشر سنوات[1]، فكما نعلم مدينة طروادة ليست إغريقية، ومما دفعنا إلى الاستشهاد بها أنّها كانت تعيش نفس تجربة المدن الإغريقية في العصر الآخي (الحرب)، وعلى ذلك قد تكون صورة المرأة في مجتمع طروادة شبيهة إلى حد ما بنظيرتها في المجتمع الآخي. صور هوميروس النساء الطرواديات على أنّهن كن يتمتّعن بحيّز من الحرية، فقد كان يحقّ لهن الاختلاط بالرجال، والتجول في المدينة. وقد أشار إلى ذلك حينما تحدّث عن تجمع النساء حول هيكتور ملك طروادة في اللحظة التي دخل فيها إلى مدينته عائدًا من ساحة المعركة الناشبة على أبوابها: **كانت النساء يتجمعن حوله وكن يسألنه عن أزواجهن وأبنائهن**[2]**.** وعندما ذهب هيكتور إلى منزله لم يجد زوجته أندرماخ، ولما سأل عنها عرف أنّها غادرته إلى أحد أبراج المدينة لكي تطمئنّ على قومها هناك[3]. ونستنتج من هذه الروايات أنّ النساء في هذا العصر كانت قريبة من الحدث ومن المحاربين صناع الحدث، لكنهن -كما تخبرنا الإلياذة[4]- لم يشتركن بالحرب، واقتصرت أعمالهن على غسل الموتى، وإعداد المعدات وإقامة الصلوات. ومن وجهة نظرنا، تعتبر هذه الأعمال هامشية مقارنة بأعمال الرجال.

ونستنتج مما سبق أنّ الهوّة الاجتماعيّة كانت كبيرة بين المرأة والرجل، ولا نعتقد أنّ الحريّة التي حصلت عليها المرأة، سواء أكانت تنتمي إلى العامة أم إلى المجتمع الملكي، أثّرت على مكانة الرجل، فهذه الحرية لها حدود، ولا يمكن تجاوزها، وأكبر دليل على ذلك أن الرجل، ممثلاً بملوك هذا العصر وأبطاله، هو الذي صنع المجد للآخيين من خلال الانتصار على طروادة، وهذا يعني أنه كان يتمتّع بمكانتين عسكريّة وسياسيّة، مكّنتاه من تحقيق الانتصار، في حين أنّ المرأة لم تتمتّع بالشيء نفسه، ولم تلعب الدور ذاته. وتجدر الإشارة إلى أنّ المرأة كانت مسؤولة عن الأنشطة المنزلية اليومية، كطحن الحبوب، ونسج الأقمشة، ومما يلفت الانتباه أن بعض الملكات مارسن النشاط المنزلي الأخير، مثل أريتيا ملكة الفاكيا[5]، وبينلوبي زوجة أوديسيوس[6].

[1]- فينلي، عالم أوديسيوس، م.س، ص58.

[2]- محمود سليم زناتي، المرأة عند قدماء اليونان، م.س، ص14.

[3]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، م.س، ص433.

[4]- هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، م.س، ص463.

[5]- كيتو، الإغريق، م.س، ص46.

[6]- نيهارت، المرجع السابق، ص166.

6. المظهر العام للآخيين

لم يكن العري منتشرًا في المجتمع الآخي، وكان الرجال والنساء يسترون أجسادهم برداء مربع، يطوونه فوق الكتفين، ويشبكونه بدبوس، ويصل إلى الركبتين تقريبًا. وكانت النّساء تُضيف إليه نقابًا، أو حزامًا، وأمّا الرجال فقد كانوا يلبسون معه السراويل (البنطلون). وكانت النّساء تظهرن بأذرع عارية، وكان الرجال والنساء يبقون حفاةً في منازلهم، وكانوا يحتذون الصنادل خارج المنزل. وكانوا جميعهم، رجالاً ونساءً، يتحلون بالجواهر، وكانت النساء تتعطر بعطر برائحة الورد. والجدير بالذكر أنّ الأغنياء كانوا يرتدون ثيابًا أغلى من ثياب الفقراء، كالثوب الذي قدّمه برياموس ملك طروادة إلى أخيل ليفتدي به ولده[1]. ويُعتقد أنّ هذه الثياب كانت تأتي من الشرق[2]، وتُعتبر وجهًا من أوجه التمايز الطبقي بين الأغنياء والفقراء. ونعتقد أنّ استيراد الثياب كان مقتصرًا على نوعيات معيّنة؛ لأنّ الأسرة الآخية هي التي كانت تصنع الأقمشة المخصّصة لصنع الثياب[3].

7. الطعام والشراب

لقد لعبت الفوارق الطبقية دورًا كبيراً في تحديد طعام الآخيين وشرابهم. فكما ذكرنا سابقًا هذا العصر كان حربيًّا بامتياز، وكانت للمحاربين مكانة مرموقة في المجتمع، وكانوا يمثّلون مع الأغنياء وجهان لعملة واحدة، لا بل لن نكون مبالغين إذا قلنا إنّ الأغنياء كانوا هم المحاربين، أو يشكلون جزءًا كبيراً منهم، فالأبطال الذين كانوا ملوكًا كانوا محاربين، وكانوا يمتلكون ثروات كبيرة، ويعيشون في قصور واسعة.

لقد خلق هذا المشهد الاجتماعي تباينًا كبيراً بين الطبقات في مسألة الطعام والشراب، فالأغنياء والمحاربون كانوا يأكلون اللّحم المشوي كثيراً، وكانوا يتناولون على الفطور اللحم والنبيذ. ويُذكر أنّ أوديسيوس تناول في إحدى المرات مع راعي الخنازير خنزيرًا صغيراً مشويًّا على الغداء، وتعشّيا بثلث خنزير عمره خمس سنوات. ولم يقتصر الأمر على لحم

---

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص87.

[2]- الأثرم، المرجع السابق، ص81.

[3]- كيتو، الإغريق، م.س، ص47.

الخنازير، بل كانوا يأكلون لحم الثيران أيضًا[1]. ومما كان يُسهل على الأغنياء حصولهم على اللحم امتلاكهم قطعان كبيرة من الأغنام والأبقار والماعز والخنازير. وكانوا يستعملون عسل النحل بدل السكر، ودهن الحيوان بدل الزبدة، والكعك بدل الخبز. وأما الفقراء فقد كانوا يأكلون لحم السمك والبقول والخضروات[2]. ويُذكر أن تناول السمك دليل على الحرمان الشديد[3]، ويمكن تفسير ذلك بأنّ هذه المادة كانت متوفّرة جدًا، ورخيصة، ويبدو أنّها لم تكن مطلوبة من قبل الأغنياء الذين ركزوا على لحم الماشية.

ولم تقم الولائم في المنازل والقصور كجزء من الأنشطة اليوميّة التي عرفتها العائلات الفقيرة والغنية فقط، بل كانت تقام أثناء الاحتفالات، كالوليمة التي أقامها نسطور ملك بيلوس على شرف الإله بوزيدون، وكانت تتكون الوليمة من لحم الثيران، وقدمت فيها الخمور[4].

وكان الآخيون يتناولون الطعام وهم يجلسون على كراسي تمتدّ على طول الجدران، لا مصفوفة حول مائدة وسطى، وكانوا يستخدمون الملاعق والشوك والفوط، وكانوا يأكلون بأيديهم وأصابعهم[5].

8. العادات والأخلاق

تنقسم العادات إلى حسنة وسيئة في كلّ مجتمع، ومن خلال دراستنا للمجتمع الآخي وجدنا أنّه ينطبق عليه الشيء نفسه، فقد تبنّى الآخيون عادات حسنة تستحقّ الثّناء والتقدير، وعادات ذميمة، تتنافى مع الأخلاق الطيبة، ومع الفطرة السليمة التي انفطر عليها الإنسان السوي أخلاقيًا.

ومن العادات السيّئة التي عرفها الآخيون القرصنة والسلب، فقد كانوا يهاجمون المدن، يستولون على السلع والأشخاص مستخدمين قوّتهم الجسديّة دون أن يكون لهم حق

---

[1]- كيتو، الإغريق، م.س، ص39.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص88.

[3]- كيتو، الإغريق، م.س، ص39.

[4]- نيهارت، المرجع السابق، ص167.

[5]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص88.

بذلك، وتدلّ هذه العادة الذميمة على معايير أخلاقية مشوشة. ولم تكن هذه الأعمال مقبولة اجتماعيًا، وقد انتقدها أفلاطون في فترة متأخرة قائلاً: «**إن سرقة الممتلكات أمر وضيع، والاستيلاء بالقوة أمر مشين، ولا أحد من أبناء زيوس يسعد بالخداع والعنف، ولم يمارس أيا منهما**»[1]. إنّ النّقد الأفلاطوني لهذه العادة يتناسب مع الفترة المتأخّرة التي عاش خلالها هذا الأخير، في حين أنّ المفاهيم كانت مختلفة أيام الآخيين؛ إذْ ساد في عصرهم أنّ القرصنة مهنة محترمة، وقد أشار توكوديدس إلى ذلك قائلاً: «**والحق أنّ هذا العمل أصبح أهم مورد من موارد الرزق لليونان الأولين، ولم تكن هذه المهنة حتى ذلك الوقت مما يجلّل صاحبها بالعار**[2]». وكان أوديسيوس يبرّر لنفسه هذا العمل قائلاً: «**إنّ المعدة الجائعة لا يستطيع أحد أن يخفيها ومن أجلها صنعت السفن المعوجة وأعدّت لتحمل الويل إلى الأعداء فوق البحر الهائج المضطرب**[3]». ويبدو لنا أنّ هذه العادة السيئة لم تكن حالة عابرة، بل كانت متأصّلة في نفوس الآخيين، والدليل على ذلك أنها ظهرت في أكثر من جيل، فكما كان أوتوليكوس جد أوديسيوس سارقًا، وفاق كل الناس بهذا العمل الشائن[4]، كان حفيده أوديسيوس سارقًا أيضًا، فعندما كان عائدًا من طروادة قام بنهب إحدى المدن وملأ منها سفينة بالطعام[5]، وتوجه إلى مصر وارتكب هناك أعمال قتل ونهب وسلب وسبي[6]. ويعتبر الاحتيال من العادات السيّئة أيضًا، الشبيهة بالسرقة، وقد أشرنا إلى هذه العادة سابقًا في حديثنا عن احتيال الأسياد على الأجراء بعدم إعطائهم أجورهم.

وهناك عادة سيئة أخرى تتمثّل في التواصل مع الآخر بدافع المصلحة والمنفعة فقط، لا بدافع الشّفقة والإنسانيّة، وقد أظهرت الأوديسة ذلك من خلال الإشارة إلى راعي الخنازير الذي أدخل متسوّلاً أجنبيًّا إلى مائدة القصر (قصر أوديسيوس)، وقد تعرّض هذا الراعي إلى توبيخ بسبب جلبه هذا المتسوّل، وقد قيل له: «**من ذا الذي يدعو البتة غريبًا من الخارج ويحضره إلى هنا، إلا إذا كان واحدًا من المهنيين، أو عرافًا، أو مداويًا للأوجاع، أو حطابًا**

[1]- فينلى، عالم أوديسيوس، م.س، ص87.

[2]- م.ن، ص94.

[3]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص96.

[4]- فينلى، عالم أوديسيوس، م.س، ص88.

[5]- جمال عبد الهادي، رفعت، وفاء محمد، أوربا منذ أقدم العصور، م.س، ص28.

[6]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص94.

في الغابة، أو شاعرًا ملهمًا يستطيع أن يسحر الناس بأغنيته»[1]. وبرأينا، يحمل هذا التوبيخ شيئًا من التعالي واللا إنسانيّة والبخل، والتقوقع على النفس. غير أنّ هذا الموقف يعتبر نسبيًّا، وغير قابل للتعميم؛ لأنّ الروايات الأخرى تؤكّد لنا أنّهم كانوا شديدي السخاء على الضيوف، لأنّ الغرباء والمتسولين هم أبناء زيوس، ويُذكر أنّ العذارى كن يكرمن الضيف بغسل قدميه أو جسمه ويدهننه بالأدهان، وبتقديم الثياب له، وكان يجد الطعام والمأوى عند المضيف[2]. ومن الأمثلة على إكرام الضيف استقبال مينيلاووس ملك أسبارطة لتيلماخ ابن أوديسيوس في قصره وإعطاءه وعاء ليغسل به قدميه، وثياب نظيفة ليلبسها[3]. ويمكن القول: إنّ تعاطي النّاس مع هذه القضية كان متباينًا، وقد يكون السبب في ذلك اختلاف أطباعهم، أو الاختلاف بين الضيوف، فقد ينجذب شخص ما لضيف معين، ولا ينجذب إلى آخر، مما أظهرهم كرماء أحيانًا، وبخلاء أو نفعيين أحيانا أخرى.

واشتهر الآخيون بالكذب والغدر والخيانة[4]، فأوديسيوس مثلاً كان يكذب كثيرًا، واتّصفت أعماله بالغدر. ومن الأدلّة على ذلك أنّه عندما ألقى القبض على الجاسوس الطروادي دولون وعده أن لا يقتله شريطة تزويده بما يريد من معلومات، وعندما حصل على ما يريد قام بقتله[5]. والمدهش في الأمر أنّ الربة أثينا كانت تثني على كذبه، وغدره، وقد جاء على لسانها ما يدلّ على ذلك: «**إنك رجل ماكر فيما تسديه من نصح، لا يقف خداعك وغدرك عند حد، ويلوح أنك لا تمنع في بلدك نفسه عن الاحتيال والقصص الكاذبة التي تحبها من أعماق قلبك**[6]». يتضمّن هذا القول تبريرًا لأوديسيوس على كذبه، وخداعه، وكما أشرنا سابقًا الربة أثينا هي ربة الحرب، ونستنتج من ذلك أنّ الهدف من هذه التبريرات إعطاءه الحقّ بفعل كلّ ما يراه مناسبًا، لا سيما خلال الحرب لينتصر على عدوّه، فالحرب والسياسة هما ميدانان للكذب والغدر في الكثير من العصور. وأيًّا تكن الأسباب التي دفعته إلى ذلك، يعتبر قتل الأسير أو من أُعطي الأمان من الأعمال المشينة وغير الأخلاقية. وهذه العادات كانت نابعة

[1]- فينلي، عالم أوديسيوس، م.س، ص46.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص93.

[3]- نيهارت، المرجع السابق، ص168.

[4]- جمال عبد الهادي، رفعت، وفاء محمد، أوربا منذ أقدم العصور، م.س، ص28.

[5]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص95.

[6]- م.ن، ص95.

من مفاهيم أخلاقيّة معكوسة ومضطربة، فالرجل الذي يدمن الخمر ويكذب ويغدر ويقتل ـ من وجهة نظرهم ـ ليس رجلاً طالحًا، بل الرجل الضعيف الغبي هو الذي يتّصف بذلك.

ولم تنحصر الخيانة في الحروب، ولم ترتبط بالشخصيات الذكوريّة فقط، بل ظهرت خارج ميدان المعارك، وارتبطت بالإناث أيضًا، ومن ذلك خيانة هيليني لزوجها مينيلاووس بهروبها مع باريس ابن ملك طروادة. وهناك خيانة زوجيّة أخرى لم نتحدث عنها سابقًا، إنّها خيانة أغيالا لزوجها ديوميديس أحد أبطال الإغريق في حرب طروادة، لقد ارتكبت هذه الأخيرة خطيئتها عندما كان زوجها منشغلاً بحرب طروادة؛ إذْ وقعت بغرام رجل غريب، وعندما عاد ديوميديس، ووجدها على هذه الحال فرّ من بلاده[1]. وللإنصاف، الخيانة الزوجيّة لم تكن عادة شائعة جدًا في المجتمع الآخي، ومما يدلّ على ذلك وفاء بينلوبي لزوجها أوديسيوس برفضها الزواج من الأمراء الذين تقدّموا لخطبتها عندما كان منشغلاً بحرب طروادة[2]. ونستطيع القول: إنّها حالات فرديّة لنساء وقعن في شباك الشهوات والهوى، ربما لعدم رجاحة عقلهن.

وتبنّى المجتمع الآخي عادة سيئة، تتمثّل بالسلطة الأبويّة في الأسرة، فكما ذكرنا سابقًا كان يحقّ للأب بالتصرّف بأبنائه كيفما يشاء، ويحق له بيعهم كعبيد، وهذه العادة تدلّ على وحشيّة المجتمع، وانتشار الظلم فيه.

9. الهوايات

من الهوايات المعروفة في المجتمع الآخي الصيد، وتجدر الإشارة إلى أنّ الآخيين مارسوا الصيد في بداية الأمر كضرورة قبل أن يتحوّل إلى هواية، والسبب مهاجمة الحيوانات البرية للقرى[3]. ولن نكون مبالغين إذا اعتبرنا الصيد جزءًا من الرياضة؛ لأنّ هذه الهواية كانت تتطلّب سرعة في الحركة، ولياقة بدنيّة عالية، ليتمكّن الصياد من اقتناص فريسته، وهذه الميزات تتوفّر عادة لدى الرياضيين.

وتعتبر الألعاب الرياضيّة من الهوايات التي كان الآخيون يمارسونها، وكانوا يقيمون المباريات الرياضيّة التي كانت تحتاج إلى مهارة عالية، وقوّة بدنيّة، ومنها لعبة قذف القرص

[1]- هوميروس، الإلياذة، المرجع السابق، ص420.

[2]- نيهارت، المرجع السابق، ص165.

[3]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص88.

والحربة، وألعاب الكرة، والرقص، والعدو، والرمي بالسهام، والمصارعة، وسباق العربات، والمبارزة بالسلاح[1]. وكانت الرياضة من هوايات الملوك، فأوديسيوس مثلاً كان متفوقًا في رمي النبال أو في رمي الأثقال[2]، وكان ذا جسم رياضي، فكان بإمكانه -وهو في الخمسين من عمره- أن يلقي القرص إلى أبعد مما يقذفه الشباب[3].

ومن خلال دراستنا السابقة للمجتمع المينوي لاحظنا أنّه كان يهتمّ بالرياضة أيضًا، ويشير ذلك إلى تشابهه مع المجتمع الآخي في هذه المسألة، ونعتقد أنّ الحضارتين كانتا تسعيان إلى تحقيق هدف واحد، والذي يتمثّل بإعداد أجيال شجاعة، والترويج لثقافة القوّة والشجاعة في المجتمع، وإذكاء روح المنافسة والحماسة بين أبنائه.

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص93.

[2]- فينلى، عالم أوديسيوس، م.س، ص90.

[3]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص96.

الخاتمة

نستنتج مما سبق أنّ لكلّ حضارة نظام اجتماعي خاص بها، ويتشابه النظامان في مسألة تقسيم المجتمع إلى طبقات، وكان للعامل المادي، والموقع الوظيفي لأفراد هذه الطبقات الدور الأكبر في تقسيم المجتمع تقسيمًا طبقيًّا. ونظرًا لوفرة المصادر المكتوبة العائدة إلى العصر الآخي، وقلتها في الحضارة المينوية، تمكنا من تحديد الأفراد الذين ينتمون إلى كلّ طبقة في الحضارة الآخية على نحو أفضل مما هو عليه الحال في المجتمع المينوي. ومن خلال دراستنا للمرأة في الحضارتين وجدنا أنّها لم تكن مهمّشة على الرغم من ذكوريّة المجتمع، لكنّها لم تتفوّق على الرجل في مكانتها علمًا أنّها قامت بأنشطة مشابهة لأنشطة الرجال في المجتمع المينوي، مثل الصيد ومصارعة الثيران. وتبوّأت المرأة في المجتمع المينوي مكانة أفضل من نظيرتها في المجتمع الآخي، فقد استحقّت لقب سيدة المجتمع، وقد أفصحت اللوحات الفنيّة عن ذلك، لا سيما باريسية كنوسوس. ولعبت المرأة دورًا مهمًّا في الأسرة، ففضلاً عن الأعمال المنزليّة، قامت بتربية أولادها، وغزلت الصوف، وصنعت القماش. ومن خلال معالجة لمسألة المظهر العام في الحضارتين، لاحظنا أنّ المجتمع المينوي كان ميّالاً إلى العري الجزئي بإظهار أجزاء من الجسد، سواء الرجال أم النساء، في حين كانت ثياب الآخيين أكثر احتشامًا. وكان الحلي من الأشياء الشائعة في المجتمعين، وتم استخدامها لزيادة جمال مستخدميها. وانتشرت الألعاب في المجتمعين أيضًا، ويبدو أنّ الهدف منها إظهار قوّة كلا الشعبين وشجاعتهما. ومن خلال دراستنا للمجتمع الآخي لاحظنا أنّه كان يعاني من اضطراب في الأخلاق، وحاول إظهار عكس ذلك من خلال بعض التصرّفات كإكرام الضيف. ولا نعتقد أنّ المجتمع المينوي كان يعاني من المشكلة نفسها، والدليل على ذلك الذوق الرفيع والرقي الذي تمتع به. وسعى المجتمعان إلى إعداد جيل قويّ من الناحية الجسديّة من خلال ممارسة الألعاب الرياضيّة، وتوفّر الغذاء المناسب لبناء الأجسام، لكن لسوء الحظ لعبت الطبقيّة دورًا في تحديد هذه الأغذية، لا سيما في المجتمع الآخي، فأكل الأغنياء يختلف عن أكل الفقراء.

المراجع والمصادر

المراجع العربية

1. . رجب عبد الحميد الأثرم، العلاقات الليبية اليونانية قبل تأسيس قوريني عام 631 ق.م، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، مركز جهاد الليبيين، العدد 2، 1990.
2. باول، باري باول، هوميروس، ترجمة محمد حامد درويش، مؤسسة هنداوي، 2017.
3. بربارة، فؤاد جرجي، الأسطورة اليونانية، منشورات الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2014.
4. حسين، عاصم أحمد، المدخل إلى تاريخ الإغريق، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة 1998.
5. ديورانت، ول وايرل، قصة الحضارة-حياة اليونان، الجزء الأول من المجلد الثاني 6، ترجمة محمد بدران، بيروت، د.ت.
6. محمود سليم زناتي، المرأة عند قدماء اليونان، جامعة الإسكندرية، 1957.
7. الشافعي، حنان خميس، مشاهد الزفاف المصورة على الفخار اليوناني، مجلة كلية الآداب، جامعة بنها-مصر، ع37، ج2، 2014.
8. الصافوري، محمد علي، النظم القانونية القديمة لدى الإغريق والرومان، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصرية، .1974.
9. ابتهال عادل إبراهيم الطائي، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، دار الفكر، عمان، 2014، ط1.
10. عبد الحق، حسان، الخصوبة المقدسة في عصور ما قبل التاريخ (من الباليوليت الأعلى إلى نهاية العصر الحجري النحاسي (من 35000 إلى 3600 ق.م)، مجلة جامعة دمشق، ، المجلد 43 ، العدد الأول، 2018، ص128 – 151.

11. عبد الحق، حسان، العمارة الملكية في بلاد الرافدين من عصر سلالة أور الثالثة إلى نهاية العصر البابلي القديم (2112 – 1595 ق.م)، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2019، ط1.

12. عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، جامعة دمشق، 2007-2008.

13. جمال عبد الهادي، رفعت، وفاء محمد، أوربا منذ أقدم العصور (اليونان)، دار الشروق، جدة.

14. عكاشة، علي، الناطور، شحادة، بيضون، جميل، اليونان والرومان، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، 1991، ط1.

15. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي 2، دار النهضة العربية، بيروت، 1974.

16. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.

17. محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ج1، دار الفكر ، 1983، ط3.

18. فينلى، م.أي، عالم أوديسيوس، ترجمة محمد عبودي إبراهيم والسيد جاد، المركز القومي للتجارة، القاهرة، 2014، ط1.

19. عزت زكي حامد قادوس، مدخل إلى علم الآثار اليونانية والرومانية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 2007.

20. كاميرون، إفريل، كوهرت، إميلى، صورة المرأة في العصور القديمة، ترجمة أمل رواش، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016، ط1.

21. كوتريل، الموسوعة الأثرية، ليونارد، ترجمة محمد عبد القادر محمد، زكي اسكندر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ط2.

22. كيتو، ه، د، الإغريق، ترجمة عبد الرزاق يسري، بيروت، دار الفكر العربي، 1962.

23. مايزر ج. . ل، فجر التاريخ (،ت: علي عزت الأنصار،) ي القاهرة، مركز كتب الشرق الأوسط، 1962.

24. مصطفى، ممدوح درويش، السايح، إبراهيم، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، -1تاريخ اليونان، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1998\1999.

25. فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1980 ، ط1.

26. سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارة كريت حتى قيام الإسكندر الأكبر، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976، ط2.

27. نيهاردت أأ، الملحمة الإغريقية القديمة، ترجمة هاشم حمادي، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1994، ط1.

28. هوميروس، الإلياذة، ترجمة سليمان البستاني، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، د.ت.

29. هوميروس، الإلياذة، ترجمة أمين سلامة، القاهرة، 1981.

30. هوميروس، الأوديسة، ترجمة دريني خشبة، دار التنوير، بيروت- القاهرة- تونس، 2013، ط1.

المراجع الأجنبية

1. Amos . H.D, and A.G.P. Lang. The Greeks these were,. Chester Springs, PA: London, Dufour Editions. INC, 1997.
2. Cameron, Studies in Ancient Greece, New York, 1992.
3. Castleden. R, Minoans Life in Bronze Age Crete, London and New York, Rutledge, 1993.
4. Davaras C., Guide to Cretan antiquities, Park Ridge, NJ: Noyes Press, 1976.
5. David, Arclaeological Atlas of the World , London , Tames and handsun , 1975.
6. :Durand J.M., « L'organisation de l'espace dans le palais de Mari», le système palatial en orient, en Grèce et à Rome, Actes du colloque de Strasbourg 19- 22 juin 1985, 1987.
7. Finkelberg M., « Ahhiyawa to 'Αχαιοί», Glotta, 66. Bd., 3./4. H., Published by: Vandenhoeck & Ruprecht (GmbH & Co. KG), 1988, p. 127- 134.
8. Matoïan V., « Ougarit, porte méditerranéenne de l'Asie », in P. Bordreuil, F. Ernst-Pradal, M.G. Masetti-Rouault, H. Rouillard-Bonraisin (éds), Les écritures mises au jour sur le site antique d'Ougarit (Syrie) et leur déchiffrement 1930 - 2010, Commémoration du quatre-vingtième anniversaire du déchiffrement de l'alphabet cunéiforme de Ras Shamra-Ougarit, AIBL, Paris, 2013.

9. Papadakis N. A., History of Crete Throughout Centuries, Heraklion, Crete, 26 -6 -2017.

10. Pelon O., « Le palais, centre du pouvoir dans le monde égéen ? », Subartu 17, in P. Butterlin, M. Lebeau, J.-Y. Monchambert, J.L. Montero Fenollos & B. Muller (éds.), les espaces syro-mésopotamiens, 2006, p. 66- 75.

11. Tulard J., histoire de la Crète, Paris, 1979.

كريت والنّظم السياسيّة في بلاد الإغريق

إيمان شمس الدين[1]

مقدمة:

التاريخ الإنساني فيّاض بالخبرات والتجارب البشريّة، التي ندركها عبر أحداثه ووقائعه وصراعاته. وتُعدّ التجربة مصدرًا من مصادر المعرفة المهمّة والمتضافرة كبناءٍ مرصرصٍ مع المصادر الأخرى في نظريّة المعرفة[2]، وتشكّل التّجارب البشريّة أحد أجلى مصاديقها وأهمّها، كون استقراء هذه التجارب يلعب دورًا هامًا في البناء المعرفي للإنسان عبر استلهام الخبرات الإنسانيّة السابقة، وصياغة قراءةٍ نقديّةٍ كاشفة للواقع التاريخي يمكن من خلالها النّظر في صيرورة الإنسان المعرفيّة.

وتُعدّ هذه الخبرات البشريّة وتجاربها رافدًا معرفيًّا هامًّا لا يتمّ إلاّ وفق شروط، أهمّها:

ـ قراءة التاريخ بأدواتٍ علميّةٍ منهجيّةٍ حديثةٍ، تعتمد على الاستقراء الموضوعي بعيدًا عن أي قَبلِيات معرفيّة إسقاطيّة.

ـ الجمع بين قراءة المؤرّخين واكتشافات الأنثروبيولوجيين، وما تمّ اكتشافه من مخطوطات وآثار تُقرّب المؤرّخ من الواقع بشكلٍ أكبر.

ـ اعتماد بُعدين في منهج الكشف التاريخي: البُعد الطولي للأحداث، والبُعد العرضي

[1]- باحثة لبنانيّة.

[2]- نظرية المعرفة أو عِلْمُ المَعْرِفيَّات أو الإبيستيمولوجيا هي فرع من فروع الفلسفة تهتم بطبيعة المعرفة ومجالها، أو نظرية المعرفة العلمية وتعنى البحث في إمكانَ المعرفة ومصادرها وطبيعتها. فالبحث في إمكان المعرفة يتضمن النظر في إمكان معرفة الوجود أو العجز عن معرفته، وفيما إذا كان في وسع الإنسان عن طريق العلوم المختلفة أن يدرك الحقائق اليقينية، وأن يطمئن إلى صدق إدراكه وصحة معلوماته، أم إن قدرته على معرفة الأشياء مثار للشك وعدم اليقين. والبحث في مصادر المعرفة يتعرض للنظر في منابعها وأدواتها ومناهج البحث فيها المنهجية، ومدى مقدرة هذه المناهج على ضمان سلامة التحصيل المعرفي. وهي تحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: ما هي المعرفة؟ كيف يمكن امتلاك المعرفة؟ وما هو مدى المعرفة بموضوع ما؟ يركز البحث والنقاش في هذا المجال على تحليل طبيعة المعرفة ومدى ارتباطها بمفاهيم الحقيقة والإيمان والتبرير. سعد الحاج، البحث العلمي الماهية والمنهجية، لا ط، الجزائر، دار القصبة للنشر، 2014، ص101.

لها. وأعني بالطولي هنا قراءة الأحداث وفق جريانها التاريخي الزمني، والبعد العرضي هو قراءة حقبة زمنيّة بعينها، أي قراءة تعتمد على تفصيلات تلك الحقبة وظروفها الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة والدينية؛ لفهم ملابساتها دون فصلها عن بُعدها الزمني السابق أو اللّاحق، لتأثيره في تشكّلها وسيرورتها وصيرورتها[1].

ويمكن تصوّر الأفكار والتوجّهات الاجتماعيّة في حقبة تاريخيّة مِن حيث قابليّة «التجزئة والتحليل السياسي» إلى صور عدّة، وهي:

ـ ما وقع من أحداث في الماضي، ويتم دراسة معطياتها وآثارها اليوم لأجل إخضاعها للكشف والتفسير العلمي، أو الاستنتاج القيمي.

ـ تحليل الظواهر التي هي في حال الوقوع والحدوث، والتي تكون جزءًا من الوضع الموجود، لأجل الكشف والتفسير الصحيح لها، أو لأجل ضرورة التقييم، والوصول إلى إمكان التصحيح، أو التفسير، أو تعميق الوضع المأمول.

ـ وصف ظاهرة وحالة سياسية تسمّى «الفرضيّة» وتحليل عوامل وظروف وطرق توصل لمعرفتها[2].

وعمومًا، القراءة التاريخية لموضوع بعينه تكشف لنا الكثير عن هذا الموضوع، وتوضّح لنا مسارات التفكير وتطوّراته المعرفيّة، والأسباب والمُلابسات والأحداث التي مرّ فيها عقل الإنسان وأدّت به للوصول للنتائج الحالية، وتكشف إشكاليات هذه النتائج التي يتمّ تجريبها في عصرنا، وكيف يمكن معالجتها أو مواجهتها وإحلالها بما هو أقرب للواقع والصواب.

لذا في هذه الورقة سنحاول تسليط الضوء من زاوية معرفيّة استكشافيّة على حقبة مهمّة من عصور أوروبا، ونركز على الجانب السياسي بالذات كموضوع للبحث؛ حيث نستعرض

[1]- سيرورة هي اشتقاق من سار، وهو ما يعني التقدم المتتالي، بينما تعني كلمة صيرورة عملية التحوّل التي تعني التقدم والتتالي كذلك، لأنها مشتقة من كلمة صار. وصار هي غير سار، لأنها أبعد وأعمق من كلمة سار التي تعني المشي، وهي أكثر تجريداً منها، لأنها تخص عملية تحوّل، عملية تقدم وتحوّل معاً. والفارق كبير فلسفياً بين الكلمتين، بالضبط لأن الأولى تشير إلى «تراكم كمي»، أي خطوة بعد خطوة، بينما تشير الثانية إلى «تحوّل نوعي» وليس تراكماً كمياً فقط، لأنها تتضمن التقدم لكن مع التحوّل النوعي في إطار أوسع.
إن كلمة صيرورة تعني التقدم والتحول معاً، وهو ما يطابق الديالكتيك، حيث إنّها تقدم وتغيّر. هي تراكم كمي وتغير نوعي. بينما كلمة سيرورة تعني التقدم التراكمي، ويمكن أن يستعاض عنها بكلمة مسار التي تعني التقدم إلى الأمام بشكل متتال. لكن هذا المسار لا يتضمن تحولاً نوعياً، بل يتضمن حالة استاتيكية ثابتة) تقوم على مسير باتجاه معين دون أن يتضمن أي حالة من التحوّل النوعي. عن السيرورة والصيرورة، الكاتب والمفكر الفلسطيني سلامة كيلة). /https://rommanmag.com/view/posts/postDetails?id=2383

[2]- عباس عميد زنجاني، الفكر السياسي في الإسلام ـ المبادئ والأطر، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ص39، 40.

ماهيّة النّظام السياسي في حضارة كريت بمنهجيّةٍ تاريخيّةٍ وتحليليّةٍ بجانب نقديّ موضوعيّ -قدر المستطاع-.

المكتشفات الحديثة تضيف قبسًا آخر على تاريخ القبائل والشعوب التي كانت تقطن أرض اليونان القديمة، وعلى الجو الذي ولدت فيه الحضارة اليونانية (الكريتية والمسينية). ثم تأتي الحقبة المتّصلة مباشرة بتطوّر اليونان والمسماة «العهد الهوميري» - مرحلة تفكك المجتمع العبودي والدولة، والبناء الحضاري (من القرن الثامن حتى السادس ق.م)، الذي كان الاستعمار أحد مراحله الهامة، ككل هذه المرحلة من التاريخ[1].

أوّلاً: حضارة كريت:

1. أبرز معالم حضارة كريت[2]

لكلّ حضارة معالمها التي تُبرز هويّتها وثقافتها التي شكّلت هذه الحضارة، وكريت ليست استثناء من ذلك، فكانت أبرز معالم حضارتها هي:

أ- الفنّ المعماري والذي ازدهر في كل من كنوسس وفايستوس، فحوالي 2000 ق.م نجد قصرًا في كل من المدينتين بلغ قوة بنائه أن استمر قائما قرونًا عدّة.

ب ـ صناعة الخزف في المنطقتين السابقتين بلغت مرحلة كبيرة جدا من التقدّم، فالأواني التي ابتدأت بطلاء أسود تظهر عليه رسوم زخرفية غير مفصلة باللون الأبيض أو الأحمر أو البرتقالي لم تلبث أن تطورت بعد ذلك لتضم رسومًا وصورًا مفصّلةً للحياة النباتية والحيوانية والبحرية إلى جانب مناظر أخرى مقتبسة مما كان يرسم على جدران القصور والمنازل.

ج ـ عرف أهل كريت الكتابة في بادئ أمرها في شكل صور على نمط الكتابة الهوروغليفية، تمُثّل كلّ صورة منها كلمة، ولكنّها تدرّجت بعد ذلك لتخدم معيارًا أوسع من الحياة الثقافية لتحلّ محلّ الصور كتابة بشكل خطوط ربما كل خط منها يمثّل مقطعًا[3].

د ـ التّطوّر السياسي المتمثّل بترابط أجزاء الجزيرة التي كانت تشكّل دويلات أو مراكز،

[1]- ف. ياكوف- س. كوفاليك: الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، ط1، دار علاء الدين، 2000، ج1، ص 247.

[2]- للمزيد من الاطلاع على ما كشف عن هذه الحضارة ومظاهرها من آثار انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، المجلد الثاني، ص8، وما بعدها.

[3]- لطفي عبد الوهاب، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، م.س، ص77 بتصرف.

الذي اتخذ شكل سيادة إحداها وهي كنوسوس على كافة أنحاء الجزيرة، والتي بلغت ذروتها في القرن الخامس قبل الميلاد. حين أصبح ملوك هذه المدينة سادة بحر إيجة، وسيطروا بأساطيلهم على الجزر الموجودة بهذا البحر.

هـ ـ التشابك الثقافي مع الدول الأخرى، الذي تجلّى ببعض الرسوم التي تزين جدران القصور، تناولت مواضيع ومناظر خارج كريت من بينها مثلا بعض المناظر الطبيعية في مصر.

و ـ ظهور الفن المسرحي ومصارعة الثيران.

ز ـ تقدم مظاهر الكتابة وظهور الأرقام والكسور فيها، مما يوحي بتشعب النشاط التجاري في المعاملات المحلية وغير المحليّة.

ح ـ ظهور العملة المعدنية التي تسهّل وتنشّط الحركة التجارية ومعاملاتها الداخلية والخارجية[1].

2. مراحل الحضارة الكريتية

وقد مرّت حضارة كريت بثلاث مراحل شكّلت امتدادها الزمني حسب تقسيم وضعه آرثر إيفانز، وهو يتمثّل في الآتي:

أـ العصر المينوي المبكر: من 2600 إلى 1800 ق.م.

ب ـ العصر المينوي المتوسّط من 1800 إلى 1600 ق.م.

ج ـ العصر المينوي المتأخر من 1600 إلى 1200 ق.م.

وبعد هذا العرض الموجز التعريفي بحضارة كريت، سنقوم بتضييق مجهر رؤيتنا لها في قراءتنا التاريخية لهذه الحضارة، لنركز على نظامها السياسي والذي لعب دورًا بارزًا وهامًا في بنيتها الحضارية أولاً، ثم شكلت الحضارة الكريتية بدورها المثقلات المعرفية للحضارة اليونانية، ثم صارت مِفصلاً معرفيًا قويًا في بنية الحضارة الأوروبية برمتها فيما بعد.

[1]- لطفي عبد الوهاب، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، م.س، ص78، بتصرف.

ثانيًا: النظام السياسي الكريتي

لقد كانت كريت دائمًا وأبدًا حقل التجارب الاجتماعية والسياسية والمنجم الغني بالتراث الذي نهل منه فلاسفة الإغريق في بحثهم عن المثل العليا، وعن جذور الظواهر الاجتماعية وأسسها التي تقوم عليها، فهي النموذج الأمثل الذي تقوم عليه فلسفة أرسطو من أن السلوك الاجتماعي (أو السياسي) سلوك إنساني قديم قدم الزمان. وكان لحسن الحظ أن وصلت إلينا ملاحظات أفلاطون وأرسطو عن كريت كاملة في أعمالهم الفلسفيّة؛ لأنّ القدر الهائل من كتابات المؤرخين الإغريق إبان العصر الهللينستي قد فقدت واندثرت، إلا من قدر ضئيل من الشذرات التي تحوي معلومات متفرقة[1]. إلا أنّنا لا يمُكننا القفز إلى نتائج حتميّة حول النّظام السياسي بناءً فقط على دراسات قديمة في ظلّ وجود دراسات حديثة مثلت مناهج أكثر عمقًا في فهم طبيعة النّظام السياسي خارج السائد المعرفي حول هذه الحضارة؛ حيث إنّ الصورة التي سادت على مدى فترة طويلة من الزمان لهذه الحضارة القديمة كانت صورة مشرقة وردية عند أغلب الباحثين والأكاديميين، إلا أنّ في الدراسات الحديثة هناك من سلّط الضوء على جوانب أخرى من الحضارة الإغريقية القديمة، في محاولات فهم أعمق لهذه الحضارة في جوانبها السلبية والإيجابية. ولذلك يرى بعض الباحثين أن رأي أفلاطون وأرسطو حول الدولة في الحضارة الإغريقية قد لا يصمد بعد التفحص التاريخي البحثي العميق.

أمّا الفحص التاريخي للمدينة والدولة يعتمد المؤرخون فيه على استقراء أحوال المجتمع الإغريقي، الذي تعتبر كريت جزءًا منه حتى منتصف القرن التاسع ق.م، وفهم حالته السياسية والاجتماعية على الإلياذة في بعض الدراسات.

1. السياسة:

كانت كريت صلة وصل بين البلدان المتحضرة في العهود القديمة، وضعها الجغرافي الماوئم متمايز بآرسطو في سياسته، وكان هناك أسباب أخرى لانطلاقة كريت. فهي كانت لكل

[1]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخيهم وحضارتهم من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الاسكندر الأكبر، ط2، القاهرة، دار النهضة العربية، ص 43-44.

الحضارات الشرقية في العهد البرونزي مركز وسيط بتجارة القصدير[1]، وفي العهد البرونزي تطوّر النّظام الاجتماعي في كريت على أثر تطوّر القوى المنتجة، ويتضح بجلاء أنّ هناك تفكّكًا في نظام القبيلة واقتسام المجتمع إلى طبقات، وهناك إمارات كثيرة في الرسوم التي تم اكتشافها إلى عدم وجود مساواة في الثروة، ووجود طبقة نبلاء وطبقة فقراء وطبقة عبيد.. وتعدّ تشكيلة الطبقات الاجتماعية في كريت الانتقال إلى دولة مركزية. بداية كان هناك ممالك عدّة صغيرة تتّحد بالتدريج بإمبراطوريّة عظيمة وعاصمتها كنوسس، في شمال الجزيرة، وعلى رأس الدولة الكريتية ملوك كهنة حملتهم الارستقراطية إلى السلطة... كانت الإمبراطورية الكريتية تعيش وفق نهج بيروقراطي متطور يشبه نظام مصر. وينقسم الموظفون إلى قادة، ومراقبين، وأمين خزينة وملاحظين، وموزعين إلى مديريات: مسلحة، بحرية، تموين .. إلخ. كان العسكر والدين وسيلتين لتأمين طاعة الناس، فكانوا يقنعون الشعب بضرورة تكريم الآلهة – الأم، خالقة الجنس البشري، ملكة الرجال، وكان الملوك ممثليها على الأرض، الأمر الذي يعطيهم القداسة والعظمة. وفي كريت لم يستطع رغم ذلك الموظفون ولا الجيش ولا الكهنة أن يسحقوا مقاومة الشعب المستعبد... وحينما زاد تمرّد الشّعب على فترات زمنيّة متكرّرة ردت الحكومة على هذه الأحداث بطبيعة أكثر ديموقراطية، لكن لم تدم طويلا؛ لأنّ الأرستقراطية تمكّنت من استعادة موقعها وإعادة البناء بأبّهة وعظمة أكثر في الحكم. ومن عوامل انهيار الحضارة الكريتية الطبيعة المنغلقة والمعادية للشعب وللحضارة الكريتية، مما أضعف مقاومتها للدخلاء المعتدين. وقد أفضى غزو الآشيين في حوالي 1700 ق.م إلى انتزاع الأراضي الكريتية القارية، وولادة في هذه البقاع مزارع آشية كان سكانها ملتئمين في قبائل تقدم ثقافتهم خليطا من الحضارة الآشية والكريتية، سماها العلم اتفاقًا الحضارة المسنية (1700–1100 ق.م) نسبة إلى حضارتها مسينا في آرغوليد ARGOLIDE، واعتبارها بالمرحلة الأخيرة نفسها من الثقافة الإيجية والمرحلة الأولى من الثقافة اليونانية (الاغريقية)[2].

لقد فهم الإغريق السياسة بمعنى واسع، فقد اشتقّ اللفظ من مصطلح دولة المدينة، وبدأ أرسطو كتابه السياسة بقوله: الإنسان بالطبيعة حيوان سياسي وكأنّما أراد القول: إنّ جوهر

[1]- ف. دياكوف- س. كوفاليك، الحضارات القديمة، م.س، ص266-267.

[2]- م.ن، ص 269-270.

الوجود الاجتماعي هو السياسة. ومتى تفاعل شخصان فالعلاقة بينهما سياسية لا محالة. وانتهى آرسطو إلى أن الطريق الوحيد أمام المرء لتعظيم قدراته الفردية وللوصول إلى أرقى شكل للحياة الإنسانية هو التفاعل السياسي في وضع مؤسّسي –الدولة- حيث الكل ساسة إلا أنّ البعض ساسة أكثر من البعض الآخر. وفي القرن السادس عشر صك جان بودان مصطلح العلم السياسي، ولكنّه كمحام ركّز على خصائص الدولة، وبالتالي على تنظيم المؤسّسات المرتبطة بالقانون، وأكد هنا مونتسكيو، بتحديده وظائف الحكومة في ثلاثة:

التشريع والتنفيذ والتقاضي مع تأكيده على فصل السلطات.

وموضوعات علم السياسة هي:

الدولة: أصلها، تبريرها، مؤسساتها، وظائفها، عملياتها، وبتطوير الأساليب المناسبة لدراستها[1].

إما مصطلح السياسة في الرؤية الإسلامية يطلق على نوع من الهداية في المجتمع السياسي، وهي تتم من خلال اعتماد أفراد يمتلكون شروطًا خاصّة ومعيّنة، ولهم أهداف وأصول وقيم ومبادئ إسلامية تخدم المصالح الاجتماعية، وتقوي ركائز المجتمع[2]، ويرادف هذا المفهوم مصطلح الإمامة، الذي يعتبر تعريفًا آخر للسياسة[3]، وهو يُبنى على المعرفة الجماعية، وعلى ارتباط الأفراد بالمصير المشترك، وكذلك مصطلح المجتمع، الذي يرادف مصطلح الأمة[4].

وقد عرّف البعض السياسة بأنّها فنّ التعايش الجماعي[5]، وآخرون عرّفوها بأنّها السعي لاكتساب القدرة، وبناء على ذلك سيدخل ضمن الإطار السياسي، قسم كبير من المسائل الإسلامية التي من خلالها يتم تطبيق الأهداف الإسلامية في مجال التقوى والعدالة[6].

[1]- موسوعة العلوم السياسية، جامعة الكويت، ص-39 40.

[2]- روح الله الموسوي الخميني، ، في خطاب ألقاه في الثالث من ذي سنة 1359 ش.ق؛()

[3]- شريعتي، علي: تاريخ الأديان، ص1.

[4]- عباس عميد زنجاني، الفكر السياسي في الإسلام - المبادئ والأطر، م.س، ص27.

[5]- حميد عنايت، الأفكار السياسية في الإسلام المعاصر، ص 17.()

[6]- عباس عميد زنجاني، الفكر السياسي في الإسلام - المبادئ والأطر، م.س، ص28.

وفي سبيل البحث عن إطار فكري يوجه البحوث السياسية وينظّمها، استعار علماء السياسة وعلى رأسهم دافيد أيستون مدخل النظم الذي تطور في ميادين معرفية كثيرة غير علم السياسة، والذي أصبح بعد ذلك من أكثر المناهج شيوعًا في دراسة النشاط السياسي على الأصعدة الداخلية والخارجية، وتتمثل مقوماته في النقاط التالية:

أـ النظام هو وحدة التحليل، ويقصد بالنظام مجموعة من العناصر المترابطة والمتفاعلة، فالحياة السياسية الداخلية بمثابة نظام، وكذلك التفاعلات السياسية على المستوى الدولي تعدّ نظامًا للسلوك.

ب ـ النظام يعيش في بيئة أو محيط مادي وغير مادي يؤثر ويتأثر به. هذا التفاعل لا يتعارض مع مقولة أن للنظام حدودًا، أي نقاط تصورية تعين من أين يبدأ وأين ينتهي.

ج ـ إنّ التّفاعل سواء فيما بين وحدات النظام أو بين النظام ومحيطه، يصل إلى درجة الاعتماد المتبادل.

د ـ يعدّ الاستقرار الغاية النهائيّة للنظام السياسي على أي مستوى، غير أنّ الاستقرار لا ينفي التغير الذي يؤخذ كمرادف للتكيف، بمعنى قدرة النظام على الاستجابة للتغيرات البيئية بإجراء تعديلات جزئية في الأبنية السياسية أو السلوك السياسي أو كليهما. التغير المقصود هو تغير في إطار الاستقرار[1].

2. نظام الحكم:

تصوّر الإلياذة نظام الحكم بالنّظام الملكي كأمر طبيعي للحكم، بالرغم من أنّ بعض المؤرخين يعتقدون أنّ كلمة ملك (Basileus) كلمة ليست إغريقيّة الأصل، بل ربّما جاءت من الشّرق حيث الملكيّة المتسلّطة. ويدعم هؤلاء المؤرخون قولهم بأن هوميروس[2] يستخدم لفظ ملك عندما يصف أجاممنون قائد الحملة كما يستخدمها عندما يصف برياموس ملك طروادة دون تفريق[3]. ولكن الإلياذة تذهب إلى تصوّر أجاممنون في صورة الملك المطلق

[1]- موسوعة العلوم السياسية، جامعة الكويت، ص60-61.

[2]- شاعر ملحمي إغريقي أسطوري، يعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة.

[3]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخيهم وحضارتهم، م.س، ص91.

الذي يتوجّب على رعيّته طاعته دون اعتراض كما يتّضح من الاستهلال الافتتاحي في الإلياذة، وفي الفصل الثاني يدعو الملك الجنود إلى اجتماع عام، كمجلس شعبي، ولكنّه لا يتقيّد برأيه على الإطلاق. كما نلاحظ أن الملك يصرّ على وجوب طاعته حتى لو كان على خطأ؛ لأنّ ذلك من حقوقه. وإلى جانب الملك تظهر الإلياذة مجلسًا للشيوخ يحيط بالملك، وسلطة الملك محدّدة بهذا المجلس، بل كان عليه أن يستشيره قبل الإقدام على أية خطوة[1].

ويتميّز عصر ما بعد هوميروس بتبدلات عميقة في اقتصاد اليونان ونظامها السياسي؛ إذ تسارع تفكّك النّظام المشاعي البدائي بعد تحول، في بعض المناطق، الأرزاق والأسهم العقارية إلى ملكية خاصة أسرية. وبدأت الأسر المرتاحة تنفصل أكثر فأكثر، واستغلالا لتميزها الاقتصادي، راحت تحتكر وسائل الإنتاج الأساسية في المشاعة القبلية، الأرض، الحيوانات، العبيد. وشرع المزارعون يسقطون شيئا فشيئا في أتون التبعية للنبلاء، وراح يزداد المضطرين للتخلي عن أرضهم والتسيب عبر الوطن بحثا عن عمل[2].

وتفكك المجتمع الأبوي إلى مجتمع منقسم إلى طرفين متعادلين: طرف المسيطرين، أي الملاك الكبار أصحاب العبيد، المرابين، و«البسطاء غير الخالدين» المستغلين من قبل الأخرين، البؤساء، المحرومين من أي حق، الذين يعيشون أشبه بالعبيد[3].

وكان أرسطو يرى أن الإنسان مخلوق يميل بطبعه إلى الحياة في مدينة دولة (Polis). إذ كانت المدينة الدولة تمثل ما هو أكثر من مفهوم سياسي، وهو ما تفشل الترجمة المعتادة (مدينة دولة) في نقله، وربما كانت بابل قد حملت اسم المدينة الدولة في تاريخها الباكر، ولكنها لم تكن بأي حال من الأحوال (Polis). فكلمة (Polis) في اليونانية تعني كل المجتمع والحضارة في الدولة الإغريقية. كانت الكلمة نفسها في الأصل تعني القلعة حيث كان يقع مركز الدولة، بيد أنها صارت تطلق على الدولة بأسرها، وتطلق على الشعب وعلى ثقافة الدولة. وغالبا ما كانت المدينة الدولة تأخذ اسمها من مواطنيها: ففي اللغة اليونانية كانت الكلمة الدالة على مدينة أثينا هي الأثينيين، وكريت الكريتيين، والمينوية

[1]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخيهم وحضارتهم، م.س، ص91.

[2]- ف. دياكوف- س. كوفاليك، الحضارات القديمة، م.س، ج1، ص280.

[3]- م.ن، ص282.

المينويين وهكذا، وقد كتب ثوكيديديس يقول «إن المواطنين هم المدينة»[1].

وكان أرسطو يرى أن المدينة الدولة هي الوحدة الطبيعية للوجود الإنساني ورأى «أن أي إنسان تدفعه طبيعته، لا ظروفه، إلى الحياة بعيدًا عن المدينة الدولة لهو إنسان أدنى من مستوى البشر أو فوق مستوى البشر. وكان يرى أن المدينة الدولة تمثل الحضارة بجناحيها الضروريين، أي العدالة والقانون. وقال: «إن الإنسان هو أفضل الحيوانات عندما يصل إلى حد الكمال، ولذا فإنه أسوأها عندما يتخلى عن القانون والعدالة».

فما أن اقترب القرن الثامن ق.م حتى بدأ الإغريق ينظمون أنفسهم -على امتداد بلادهم فيما عدا بعض القبائل المتُخلفة التي تقطن الجزر والأطراف الجبلية النائية- في نظام سياسي هو دولة المدينة الذي أصبح هو الطابع السياسي السائد لهم، واختفت الممالك التي كنا نسمع عنها في الأشعار الهومرية؛ حيث كان الملوك هم فيها كل شيء وبدأت سلطات الملوك تنحسر قليلاً أمام مد حكم الأرستقراطيين النبلاء.

كما صاحب ذلك تقدم فن التشريع والنظم الدستورية التي بدأت تقنّن القيم والحقوق والواجبات والالتزامات، وسرعان ما انتشر نظام دويلات المدن مع انتشار الحضارة إلى أراضي ومناطق مترامية الأطراف سكانها ليسوا من عرق الإغريق بل شعوب قبلت طريقة الحياة الإغريقية واللغة اليونانية، ولم يعد جوهر الحضارة الإغريقية الجوهر الجغرافي أو القومي العنصري بل هو طريقة الحياة المميزة بجوانبها الاجتماعية والثقافية الذي يميزها عن سائر الشعوب الأخرى وهو دويلة المدينة (Polis)، وفيه أصبحت كل مدينة جمهورية مستقلة تستمتع بالاستقلال السياسي التام، وتُلزم مواطنيها بنوع معين من الارتباطات والروابط السياسية والاجتماعية منذ مولدهم ونشأتهم وتربيتهم ومشاركتهم في مسؤولية الحكم..

الإغريق لم يتّحدوا إطلاقًا في دولة سياسيّة واحدة مثل المصريين أو الرومان. وإنّ الوثاق القومي بين الإغريق كان وثاق السلالة واللغة والتراث المشترك، ولم يكن أبدا وثاق الاتحاد السياسي، كما أن تاريخ الإغريق هو تاريخ مئات من دويلات المدن المستقلة التي تناثرت في أرجاء وجزر بحر إيجة والبحر المتوسط وشواطئه.

[1]- روبرت ج ليتمان: التجربة الإغريقية، حركة الاستعمار والصراع الاجتماعي 800-400 ق.م، لا ط، المجلس الإعلامي للثقافة، 2000، ص21.

ولكن الجدير بالذكر أن فكرة دولة المدينة (Polis) أو جمهورية المدينة لم يكن في الأصل ابتكارا إغريقيا بالرغم من أن اللفظ (Polis) من صنع الإغريق، الذين أورثوه للغات العالم الحديث، وإنّما وجد هذا النّظام أول ما وجد عند السومريين أي قبل مولد الوجود الإغريقي بما يقرب من اثنا عشر قرنا أو يزيد، ومن بلاد سومر انتشر هذا النظام إلى بلاد كنعان (الشام وفلسطين) وإلى فينيقيا المطلة علي ساحل الشام... إلا أن مفهوم الإغريق لدويلات المدن (Polis) كان ذا طريقة مميزة وخاصة تعكس العقلية الإغريقية العملية التي تؤمن بالإنسان إيمانًا مطلقًا وكما يقول بروتاجوراس فيلسوف مدينة أبديرا (Abdera) في القرن الخامس ق.م: «الإنسان مقياس كل شيء». فطبقت صورة الإنسان وسلوكه حتى على الآلهة وعلى عناصر الطبيعة، وهو ما يعرفه البعض بفرض الصفات الإنسانية (Anthropo-morphism)، ومن ثم كانت الحضارة الإغريقية هي حضارة الإنسان[1]. إلا أنه كما سنرى لاحقًا أنّ تطبيق هذه المقولات والنظريات على أرض الواقع كان أمامه عقبات كثيرة أدّت إلي بروز مجتمعات طبقية، وأخرى عرقيّة، وثالثة أوليجاركية تقوم نواتها المواطنية على الانتماء للقبيلة والنفوذ الاقتصادي.

كانت الحاضرة مركز استغلال العبيد والفقراء، فنبلاء الدم حوّلوا كل ما فيها من مؤسّسات أبوية إلى أدوات لسلطتها، استبعدت رؤساء أو شيوخ القبيلة لتقيم أوليغارشية مكانهم، أي سيطرة بعض الأسر النبيلة، أما دور المجالس الشعبية فقد تراجع إلى العدم، بل هو من الآن لعبة بقدم الارستقراطية.

كذلك استبدلت المشاعة الأبوية إلى مجتمع متناحر، منقسم إلى طبقات، والسلطة التي كانت سابقًا وظيفة إدارية بحتة، تتجاوب ومصالح الكل، صارت أداة سطوة السلطات القبائلية القديمة. لكن الملاك العقاريين النبلاء، حافظوا على بعض الأشكال الأبوية (عشائر، بطون، قبائل) كوسائل بين يدي المضطهدين، وبالتالي، استخلص أرسطو واصفًا النّظام الارستقراطي في أتيك في القرن السابع والسادس ق.م.. العبودية هي التشكيلة الأكثر معاناة واضطهادًا للناس البسطاء[2].

[1]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخيهم وحضارتهم، م.س، ص98-99.

[2]- ف. دياكوف ـ س. كوفاليك، الحضارات القديمة، م.س، ج1، ص283.

وفي الأوديسا تظهر الدولة في حالة فوضى سياسية واجتماعية، فغياب الملك فاوديسيوس يترك فراغًا سياسيًّا كبيرًا لم يستطع أحد ملءه سواء من الارستقراطيين أو العامة، ولا ينصلح الحال إلا بعودة الملك إلى مملكته، ووضع الأمور في نصابها. فالملك جوهر الدولة وروحها، وهو شيء حيوي بالنسبة لها. ولكن لا يستطيع أن يباشر عمله إلا بحضور مجلس استشاري من شيوخ القبائل وأغنيائها، كما أن جهاز الحكم الملكي لا يصبح مكتملاً إلاّ إذا دعي المجلس الشعبي للانعقاد بالرغم من أن هذا الأخير كان صوريًّا ومسلوب السلطات.

كذلك تصوّر الأشعار الهومرية وجود نظام دولة المدينة المستقلة، الذي بدأ في الظهور بعد ركود الغزو الدوري، وهو النظام الذي سوف يشكل جوهر الحكم والعلاقات السياسية في كل بلاد اليونان وعلى طول تاريخها. كما نلاحظ في الوقت نفسه تطوّر النّزعة الوطنيّة بين الإغريق ووجود رابطة تجمعهم لأوّل مرّة وتراث مشترك بينهم من الرغم من وجود إحساس قويّ بحب الاستقلال الإقليمي، ورفض الاندماج السياسي في شكل الدولة الواحدة. كما نجد بداية لظهور الخلافات والصراعات التي تؤدّي إلى قيام حروب طاحنة عجز الملوك في كثير من الأحيان الاستمرار فيها بسبب الحالة الاقتصادية.

مما سبق يمكننا القول إنّ هناك مسارًا سياسيًّا متطوّرًا من حيث الصيرورة، فالنّظام السياسي كان بداية قائمًا على فكرة القبيلة ومحوريتها كنظام بدائي، ثم الملكية والملك ومحوريّته في استمرار وجود الدولة، ولكن في الوقت ذاته كان هناك جهاز استشاريّ أو مجلس يتكوّن من أعيان البلد وعلية القوم، وهم من كان لهم الكلمة المؤثّرة والسلطة غير المباشرة على الملك، لدورهم في دعم اقتصاد الدولة، أي وجودهم الاستشاري يكمن في قوتهم الاقتصادية ومدى انتفاع الملك وجوديًا من هذه القوّة الاقتصادية، وبالتالي إعطائهم دورًا متقدّمًا في الدولة ونظامها السياسي، لا إيمانًا مطلقًا بحقّ المشاركة، ولا كونهم ممثلين عن الشعب، بل لقوّتهم ونفوذهم الاقتصادي وبالتالي حاجة الملك الوجودية في اعتبارهم شركاء في القرار السياسي. ثم انتقل نظام الحكم إلى مدينة الدولة ومنها إلى عصبة فيدرالية شكّلت إمبراطورية بالمعنى الأوّلي، لكنّها لم تدم طويلاً حتى انهارت الحضارة الاغريقية أمام ضربات الخارج كما سنرى لاحقًا في هذا البحث.

فمجلس الشعب الذي يمثّل الشعب كان وجوده صوريًا كما تنقل المصادر، كما أنّه مهمّش في اتّخاذ القرارات وفي تقرير المصير وتقنين القوانين. وتكشف الأشعار الهومريّة لنا عن هذا الواقع الطبقي فتصوّر المجتمع بصورة ارستقراطيّة إقطاعيّة؛ حيث لا تسمع سوى اليسير عن عامة الشعب. إلا أنّه في القرن الثامن ق.م تطوّر النّظام السياسي، واكتملت المدينة الدولة عندما ضمّت مقاطعة اليوسيس (Eleusis) إلى المدينة الدولة.

وكان كلّ سكان أتيكا مواطنين في المدينة الدولة. وكانت المدينة هي المركز الديني والسياسي للدولة، حيث كانت تعقد الاجتماعات، وحيث كان النّاس يجتمعون لممارسة حقّهم في التصويت[1]. ولقد كان العثور على موسوعة قوانين جورتينا القانونية، التي يعود نقشها إلى الفترة ما بين 480 ق.م و450 ق.م حيث تشمل على مواد قانونيّة وتشريعيّة يرجع تاريخها إلى قرون عديدة سابقة. فلقد شكّلت هذه الموسوعة مصدرًا ملهمًا لكثير من العلماء الإيطاليين والألمان بالذات؛ لنشرها وشرحها وتفسيرها، حيث كان لكلّ منهم وجهة نظره الخاصّة، وقد اعتبرت أوّل مصادر التشريع الأوروبي القديم وأعظم مجموعة قوانين عرفت منذ حمورابي، كما أنّها معلومات واضحة وأصلية تكشف عن الحياة الاجتماعية وأسس السلوك الاجتماعي في كريت، إبّان النّصف الأوّل من القرن الخامس ق.م، مما يؤكد عملية التطوّر التدريجي في النظم السياسية في اليونان.

ويضع أرسطو تعريفًا للمدينة الدولة فيقول: «شركة بين العائلات والقبائل من أجل أن يعيشوا عيشة راضية.. كما أن هدفها تحقيق حياة مستقلة كاملة». وقد بقيت المدينة الدولة قائمة على أساس كونها تنظيمًا معقدًا يقوم على أساس صلة القربى والتنظيم القبلي مثلما كان أصلها... وكانت القبائل تمثل الوحدة الأساسية على المستوى الإداري والعسكري للدولة. وبتطوّر المدينة الدولة ضعفت الرابطة التي كانت تربط قبيلة ما في إحدى المدن بأبناء القبيلة نفسها في مدينة أخرى. ولم تعد للرابطة القبلية أهّميّة سوى داخل المدينة نفسها. ورغم أنّ القبائل بدأت باعتبارها رابطة قرابة لأبناء سلالة واحدة، فإنّ المدن غيّرت بالتدريج، وعبر أزمنة مختلفة، أسّست عضوية القبيلة وجعلتها قائمة على أساس محلي،

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص26.

وحتى بعد الإصلاح، غالبًا ما بقيت عضويّة القبائل وراثيّة مثلما كان الحال في أثينا[1].

وكان للجغرافيا دور بارز في الحياة السياسية، فهذه العوامل الجغرافية أدّت إلي انقسام بلاد اليونان إلى وحدات سياسية صغيرة عدّة تعرف كل منها باسم Polis ـ وهي تعني غالبًا دولة المدينة. وتتلخّص هذه العوامل في الجبال غير المنتظمة التي تقطع البلاد طولاً وعرضًا وتقسمها إلى مرتفعات كثيرة وسهول قليلة وتجعل الاتصال بين أجزائها شاقًا إن لم يكن متعذّرًا[2].

فاليونان التي شكّلت المرجعيّة الأساس في حضارة أوروبا السياسية والفلسفية، لم تكن في بداية تشكلاتها سوى أجزاء مترامية الأطراف، كلّ طرف فيها شكّل مدينة بذاته سمّيت مدينة الدولة؛ حيث تطوّر الحكم فيها من الملكية التي يشكل فيها الملك السلطة المطلقة والشعب الرعية المطيعة، ومجلس استشاري يتشكل من الأعيان والطبقات الغنيّة، ومجلس برلمان يمثل الشعب دون سلطة تذكر أي وجود صوري، لكن تطوّرت الحياة السياسية بعد ذلك تدريجيًا خاصة في البعد التمثيلي للشعب، وبنية الدولة السياسية، ومع التقدم الصناعي والزراعي وتوسع حركة التجارة والزراعة بدأت تتلاشى تدريجيًا الحدود الجغرافية وتتغيّر مواقع القوى بين الجزر اليونانية، التي شكّلت بعد ذلك بلا الاغريق دون وجود وحدة سياسية بينهم، مع وجود لغة وثقافة مشتركة، أي غياب المصير المشترك نتيجة فقدان الوحدة السياسية، وحضور الهوية واللغة وعصبة الدم المشتركة.

«لم تكن بلاد اليونان سوي مجموعة من القرى الفقيرة المنتشرة، التي تعاني من النقص المادي والركود الحضاري، وكان يحكم تلك القرى ملوك هم في الحقيقة رؤساء القبائل ـ يساعدهم مجلس من النبلاء أو الشيوخ وكان عدد سكان تلك القرى محدودًا لدرجة أنّه يمكن جمع المواطنين في سوق القرية العام أو ساحتها الشعبية (agora) لإبلاغهم بقرارات الملك التي يتّخذها بعد استشارة مجلس النبلاء[3]. وهو ما يعكس صلاحيات الملك ومجلس النبلاء وعلاقة الملك مع الشعب، فكانت صلاحيات الملك صلاحيات واسعة

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص28.

[2]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهللادي، م.س، ص20.

[3]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخيهم وحضارتهم، م.س، ص96.

جدًا تصل لمرحلة الطاعة المطلقة، وعلاقته بمجلس النبلاء علاقة مبنيّة على النّفوذ ومصلحة الاستمرار والبقاء لنفوذهم الاقتصادي كما أسلفنا، وهذا يعكس طبيعة تركيب المجتمع في المدينة الدولة أو دولة المدينة وهو مجتمع طبقي، السلطة السياسية فيه للحاكم كسلطة رئيسية وللنبلاء كمستشارين، وأمّا الشعب فهو يقع في أدنى الطبقات السياسية والاقتصادية ولا يملك أي نوع من الشراكات السياسية في القرار. أي وجود في تلك المرحلة لمجلس الشعب كان وجودًا صوريًا لا يشكّل ثقلاً في القرارات السياسية.

فنظم الحكم اليونانيّة ابتدأت على النّمط الشائع على شواطئ البحر الأبيض في فترة ظهورها، وهو النظام الملكي الفردي المطلق الذي يقوم على قاعدة الحق الإلهي في مختلف صوره ودرجاته، إلا أنّ النّظام اليوناني لم يقف عند هذا الحد، على نحو ما حدث في الملكيات المتاخمة للبحر الأبيض في الشرق، وإنّما بدأ هذا النّظام يفقد توازنه أمام الضربات المتلاحقة التي وجّهتها إليه الطبقات الأرستقراطية في المدن اليونانية الناشئة. ولعلّ هوميروس خير من برز هذه الفترة في تاريخ اليونان بشكل فيه الكثير من الحياة والنبض، حين صوّر لنا في الأوديسة منظره المعروف؛ حيث يتزاحم النبلاء في بيت أودسيوس، بعد أن طالت غيبته، يحاولون أن يسلبوه عرشه، ويناقشون أحقيّة بيته بالملك، وحين يصوّر لنا تلماخوس، ابن الملك الغائب والوارث الشرعي للعرش، وقد بدأ يفقد ثقته في أحقيته بهذا العرش، فيذكر أنّ شخصًا ما لا بدّ أن يتولى الملك حتى ولو لم ينحدر من بيت الملك... وهكذا بدأت سلسلة التطوّر الجمهوري في بلاد اليونان بعد أن ألغيت الملكية وأصبح منصب الملك مجرد وظيفة موقوفة شأنها شأن غيرها من وظائف الدولة، بعد أن تجرّد من كلّ السلطات التي تتبعه وتتعلق به.

وهذا التطوّر مرّ بمراحل عدّة منذ أن انتزع الارستقراطيون حقوق الملك، «فهذا التطور الزمني للنظم السياسية متصل من حيث الشكل العام لها الذي ابتدأ بنظام الحكم المباشر في داخل المدن اليونانية لينتهي بنظام الإمبراطورية، ولكن النظم اليونانية مثلت إلى جانب هاتين الظاهرتين تطوّرًا اجتماعيًّا يتّصل بالطبقات المشتركة في الحكم، ففي العهد الملكي نظام الحكم الفردي المطلق، ثم يتطوّر النظام إلى نظام جماعي يتخذ الشكل الطبقي مبتدئًا بسيادة الطبقة الارستقراطية على طبقات المجتمع، وهذه الارستقراطية كانت من النوع

الاقطاعي الزراعي الذي يلائم الاتجاه الاقتصادي الأساسي في المجتمعات البدائية[1] حيث كانت أحد مقومات المواطنة والتي يستحق من خلالها الفرد الدخول في دائرة المشاركة السياسية تصويتًا وانتخابًا وأحد شروطها، هو امتلاك أرض وتدخل أيضًا مساحتها ونفوذها ورأسمالها الاقتصادي كمقوّم قويّ وأساسي في منح المواطنة تلك.

جاء بعد ذلك الحكم الأليجاركي وحكم الطغاة، والحكم الديموقراطي في النهاية، إلا أنّه لم يفقد صفته الجمهورية في شكلها المثالي، الذي يتمثّل في الحكم المباشر عن طريق المجالس الشعبية، وهذا النّوع من الحكم عرف بنظام المدينة. وظلّ اليونانيون متوقفين عند هذا النظام السياسي حتى انهار من أساسه في أواخر القرن الرابع ق.م أمام الدول الكبرى ذات الإمكانيات الاقتصادية والعسكرية، التي لا تستطيع هذه المدن أن تجاريها أو تقف أمامها[2].

ورغم وجود الدولة المدينة أو مدينة الدويلة وانتشار مجالس الشعب في مدن اليونان المتفرقة نتيجة التضاريس الجغرافية التي تفصل المدن عن بعضها البعض، إلا أنّها لم تستطع أن تتمثّل نظامًا يشمل أكثر من مدينة واحدة تسيطر عليه حكومة مركزيّة تتجمع في يدها كلّ خيوط السلطة، وتسيطر من مقرها المركزي على كلّ المدن أو المناطق التي تقع في دائرة نفوذها.

هذا أدّى إلى تشتّت كلّ مدينة إلى كيانها المستقل بشكل يسهل أن تتجاهل معه رابطة العنصرية واللغة التي تجمع بين مدن اليونان، ولتشكّل أساسًا لقوميّة يونانيّة عامة قادرة على مواجهة الأخطار والهجمات العسكرية مجتمعة.

وبمعنى عصري لم تستطع تشكيل كونفدرالية كنظام حكم يضمن استقرارها الأمني والاجتماعي، ويقوّي وجودها وكيانها، ويدعم من لحمتها، في وجه الامبراطوريات المعاصرة. وكان جلّ ما تفعله بعض المدن الدولة هو التوسع لمدينة مجاورة توسّعًا سياسيًّا يعطي أهلها حقّهم في المواطنة السياسية دون أدنى تحصين وتمكين لوجودهم، من خلال

[1]- عبد الوهاب لطفي يحيى، مقدمة في نظم الحكم عند اليونان والرومان، دراسة في حضارة البحر الأبيض، ط2، الاسكندرية، مطبعة دار النشر بالإسكندرية، ص29.

[2]- عبد الوهاب لطفي يحيى، مقدمة في نظم الحكم عند اليونان والرومان، دراسة في حضارة البحر الأبيض، ط2، الاسكندرية، مطبعة دار النشر بالإسكندرية، م.س، ص11-12.

مقومات عيش كريمة وتقديم خدمات لهم في مدينتهم تعزّز ولاءهم السياسي، أو تطوّر من المدينة وتدعم الاستقرار الاجتماعي والسياسي فيها.

وظهرت بدل ذلك النّزعة نحو التوسّع للجوار في صورة الأحلاف التي ظهرت في بلاد اليونان بين حين وآخر مثل حلف دايوس الذي تزعّمته أثينا الديموقراطية أو حلف البلوبونيز الذي تزعمته أسبرطة الأوليغارشية. حقبة كانت تقع تحت سيطرة المدينة المتزعمة التي كانت تلجأ إلى جانب السياسة، إلى كثير من العنف في فرض سيطرتها، بل أكثر من ذلك لقد استغلّت بعض هذه المدن المتزعّمة مركزها القوي؛ لكي تتصرف حسب إرادتها فيما تقدّمه المدن الأعضاء من تبرّعات مالية، كان من الواجب أن تنفق بمشيئة الأعضاء جميعًا ولصالحهم المشترك، كما لجأت إلى استخدام القوة في محاربة رغبة أي عضو في الانفصال من الحلف، ولكن كل هذه الأحلاف لم تتحوّل إلى امبراطوريات بالمعنى الإداري المفهوم لنا. ونستطيع القول إنّ نظام الحكم مرّ بالمراحل التالية:

ـ الملكية وقبلها النظام البدائي القبلي.

ـ الارستقراطية؛

ـ عصر الطغاة؛

ـ الديموقراطية التي مثلتها أثينا، والأوليجاركية (حكم العائلة أو القبيلة) التي مثلتها إسبرطة؛

ـ الإمبراطورية بمعناها البسيط البدائي. في بواكير القرن الرابع ق.م برزت العصب الاتحادية باعتبارها القوة السائدة في بلاد الاغريق.

3. المواطنة:

المواطنة نسبة إلى الوطن، وهو مولد الإنسان والبلد الذي هو فيه، ويتّسع معنى المواطنة ليتمثل التعلق بالبلد والانتماء إلى تراثه التاريخي ولغته وعاداته.

يشكل مفهوم المواطنة في سياق حركة المجتمع وتحولاته، وفي صلب هذه الحركة تنسج العلاقات وتتبادل المنافع وتخلق الحاجات وتبرز الحقوق وتتجلى الواجبات

والمسؤوليات، وما أن تتوفّر كلّ هذه العناصر يتولّد موروث مشترك من المبادئ والقيم والعادات والسلوكيات، يسهم في تشكيل شخصية المواطن ويمنحها خصائص تميزها عن غيرها. وبهذا يصبح الموروث المشترك حماية وأمانًا للوطن والمواطن.

فالمواطنة حقوق وواجبات، وهي أداة لبناء مواطن قادر على العيش بسلام وتسامح مع غيره على أساس المساواة وتكافؤ الفرص والعدل، وقصد المساهمة في بناء الوطن وتنميته والحفاظ على العيش المشترك فيه.

كانت العزلة التي فرضتها طبيعة التضاريس الجغرافية القاسية بين المدن اليونانية المختلفة منذ وقت مبكر، كانت سببًا في خلق ممارسة مقيّدة لحق المواطنة. وعلى الرغم من أنّه في بعض الفترات الباكرة كان يمكن منح حقوق المواطنة لمنطقة جغرافية شاسعة، مثل أتيكا، فإنّ الدول سرعان ما حدّدت أراضيها ومواطنيها، وصارت حقوق المواطنة امتيازًا صعب المنال.

وكان الديموقراطيون يسمحون لعدد من الناس أن يصيروا مواطنين أكثر مما كان يسمح به الأوليجاركيون، ولكن كليهما كان يفرض قيودًا كثيرة. إذ كانت حقوق المواطنة تجلب معها امتياز حكم الدولة. هكذا كان منح حقوق المواطنة لدول أخرى يعني التضحية بالاستقلال الذاتي، وكان الكبرياء والنزعة الفردية التي سادت القرن الخامس ق.م قد جعلت هذا الأمر ضربًا من ضروب الكفر[1].

فكانت كلمة مدينة (Polis) تشمل قبائل (Phylali) مختلفة عدّة، وعندما تكبر المدينة وتتوسّع كانت تضمّ إليها القرى الزراعيّة التي تقع من حولها وتدمجها فيها وتعطي سكانها حق المواطنة، وقد أطلق الإغريق على هذه المرحلة مرحلة الإدماج السكاني (Synoeki-smos) وفي بعض الأحيان لم يكن هذا الإدماج يتعدّى الناحية السياسيّة، أي أنّه لم يكن شموليًّا بل سياسيًّا فقط؛ لأنّه يترك القرى على حالتها التي كانت عليها قبل الإدماج في المدينة الجديدة.

وبذلك أصبحت القرى الريف الزراعي للمدينة، وأصبحت المدينة العاصمة الإقليمية

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص90.

للمناطق المختلفة[1]. وهو ما يوضح أنّ النزعة نزعة توسّعيّة، وأنّ المواطنة هنا تمثّل شكلها الصوري، دون وجود تطبيق حقيقي يغير من واقع الميدان الاجتماعي، وإعطاء الفرد حقه الواجب على الدولة، من تقديم خدمات وتوفير مقومات للزراعة والعيش. وعلى الرغم من هذا التوسع في جغرافيا الدولة، «إلا أن الغرباء على المدينة كانوا بمثابة الأعداء.

فقد منعت إسبرطة التي كانت متطرّفة في هذا الغرباء من الإقامة في أراضيها، وقد يكون القادمون الغرباء هم من قرية مجاورة جدًا، وقد كان بعضهم يتعرّض للطرد من المدينة من حين إلى آخر، بل إنّه حتى في أثينا القرن الخامس ق.م كان الأجانب يعتبرون دخلاء، كما أنّهم لم يتمتّعوا بحقوق المواطنة، على الرغم من أنّهم شكّلوا حوالي 10٪ من عدد السكان، وقد تحملوا كافة الأعباء التي يتحملها المواطنون.

وكان الإغريق يطلقون على من لا يتحدّث اليونانية اسم «بربري». بالإضافة إلى مشاعر التقوقع على الذات، التي شاركت فيها المدن الدول الإغريقية الباكرة مجموعات محلية وجنسية أخرى عديدة، والتي تدعمت بفضل انعدام الاتصال مع الدول الأخرى، فإنّ النسيج الاجتماعي والديني لعلاقات القربى، والقبائل وديانات القبائل التي انتشرت بين الإغريق قد حالت بين الغرباء وتحقيق مكانة متساوية داخل المجتمع الإغريقي.

وظل الغريب غريبًا داخل بوابات المدينة. بل كان الوضع من السوء لدرجة عدم قدرة الغريب امتلاك الأرض، والتي كانت كلها بأيدي القبائل، ولا يمكن لأحد سوى أعضاء القبائل أن يملكها، وكان منع الأجنبي من المشاركة السياسية والدينية يحول بينه وبين جزء هام من حياة المدينة، ورغم أنه كان يرحب به كغريب من قبل أبناء المدينة الدولة ويقيم علاقات صداقة، إلا أنّه محروم من عضويّة معظم التنظيمات مثل القبيلة التي كان لها دور أساسي سياسي وديني، وتلعب دورًا هامًا في المحيط الاجتماعي.

فكان الأجنبي في بلاد الإغريق يستبعد عن الحياة السياسية، وكان ممنوعًا من المشاركة في العديد من النشاطات الدينية والاجتماعية في المدينة الدولة، وكان غريبًا دونما سند في مجتمع لكل فرد فيه قيمته. وبينما كانت ملكية الأرض شرطًا أساسيًا للحصول على المواطنة

[1]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخيهم وحضارتهم، م.س، ص97.

في بعض الدول، كانت مساحة الأرض المملوكة أيضا تحدد حقوق التصويت والمناصب التي يحق للفرد توليها.

هذه المؤهلات استبدلت فيما بعد بحجم الثروة الشخصية للفرد في بعض الدول»[1]. وهو ما يؤكّد التركيب الطبقي للمجتمع، وعلاقة الوضع الاقتصادي في تحديد مساحة المشاركة السياسية وصلاحيات الجهة المشاركة سياسيًا، والتي تعتمد على أمور هامة في الحصول على حقّ المواطنة التي هي أصل في حق المشاركة السياسية:

ـ ملكية الأرض ومساحة هذه الملكية.

ـ الثروة الشخصية للفرد.

ـ الانتماء إلى القبيلة والتي ارتبطت بالإدارة الحكومية وانتخاب الحكام، حيث كان الملك هو في واقع الأمر زعيم قبيلة.

ـ وسيلة الانتماء للقبيلة هو أن يكون الشخص ابنا لأحد أعضاء القبيلة، وقد لعب النسب الأصلي دورًا حاسمًا في بعض المناطق، حيث كان يتحتم أن يكون الشخص ابنا لأبوين يتمتعان بحقوق المواطنة، أو أن يكون أحدهما مواطنا ويكون الآخر من مدينة تربطها معاهدة زواج بمدينته.

ـ كان لبعض الغرباء الحصول على حقوق المواطنة من خلال علاقتهم القوية بطاغية المدينة.

ـ الزواج بين مواطن وأجنبية أو مواطن وأجنبي يعتبر قانونيا وفي بعض الدول كان الأبناء يحصلون على حق المواطنة من هذا الزواج ولكن في الأعم الأغلب ليس لهم حق المواطنة.

ـ بمقدور المدينة الدولة منح حق المواطنة لقاء مساهمة خاصة للصالح العام، ويحدث هذا غالبا مع أولئك الذين فقدوا حق المواطنة في بلادهم.

ـ للمدينة الدولة حق سحب حق المواطنة ونفي الشخص، وهذه العقوبة القاسية كانت تطبق غالبًا في الجرائم السياسية أو الدينية الكبرى، كما كان للمدينة الدولة السلطة في

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص 30، بتصرف.

مراجعة قوائم مواطنيها مثلما فعلت أثينا في التطهير الذي حدث سنة 451-450 ق.م بناء على هذه المراجعة التي يتم حرمان المواطنين من حقوق المواطنة[1].

هذه الصلاحيات الواسعة للمدينة الدولة المتمثلة في شخص الحاكم، وطبيعة نظام الحكم إن كان أوليغارشيًا أو ديموقراطيًا، تعكس أي نوع من المخالفات التي قد يحكم من خلالها الحاكم لسحب حقّ المواطنة من الشخص ونفيه، فأي معارضة سياسية للحاكم وجهازه الاستشاري المتمثل بطبقة النبلاء النافذة في سلطتها الاقتصادية، في حال الملكية، أو أي مخالفة للنظام القائم كان ديموقراطيًا أو أوليغارشيًا بطريقة المعارضة المنظمة، يعتبر جرم سياسي يعاقب عليه بسحب حقّ المواطنة والنفي، وأي معارضة للمؤسّسة الدينية التي تمثّل تلك المدينة وترتبط بعلاقة قويّة مع الحاكم، هو بالتالي يشخص على أنّه جرم ديني يتسبّب بسحب حق المواطنة من المعارض ونفيه وقد يصل إلى قتله في هذه الحالة؛ لأنّ تشخيص الجرم السياسي والديني هو في يد السلطة الحاكمة في المدينة الدولة، والتي تتمثّل بالحاكم صاحب السلطة، إذ لا وجود لمعارضة سياسية لغياب مقوّماتها، وحضور العقوبات القاسية التي تضيق على الحريات الفردية في المجتمع مع غياب دور حقيقي واقعي لمجلس الشعب، أو لوجود أقليات وأكثريات اجتماعية تنعكس على طبيعة التمثيل السياسي في مجلس الشعب، الذي من وظيفته الدفاع عن ممثليه دون تمييز. وحتى عندما تطوّر النظام السياسي متمثلا في مجالس الشعب، كانت الأقلية الحاكمة التي تمتلك حقوق المواطنة الكاملة القائمة على شروط الانتماء والملكيات تمتلك سلطة غير عادلة في تشخيص الجرم السياسي والديني. ولعل ما حدث مع سقراط الفيلسوف اليوناني خير دليل على ذلك؛ حيث حكم عليه مجلس الشيوخ في أثينا بالإعدام بتهمة تخريبه لعقل الشباب، وهو الفيلسوف وأحد أعضاء مجلس الشيوخ، إلا أنه كان كذبابة الخيل التي تلدغ الخيل فتحثها على القيام بفعل ما، وهو كان ناقدًا لأثينا موطنه؛ ليحثّها على تغيير مسار فهمها للعدالة، فهو يعتبر أنّ القوّة تصنع العدالة، وقد عمل على تقويض المفهوم الجماعي للديموقراطية وتحقيق العدالة من خلالها. فهو كان يرفض النّظام الديموقراطي للحكم الذي شاع للغاية في اليونان، في القرن الرابع ق.م والثالث ق.م. وقد فسّر بعض تلامذته أنّ المحاكمة التي عقدت له

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص31 بتصرف.

هي كتعبير عن صراع سياسي محتدم. ونستطيع القول إنّ سلب المواطنة وتشخيص الجرم السياسي والديني يخضع لتشخيص القلّة الحاكمة، التي تملك سلطة القوّة والقرار، دون وجود معايير محدّدة في التشخيص، وهو ما نعيشه أيضًا في زماننا الراهن، وعبر التاريخ كانت هناك ظواهر مماثلة سياسيًا واجتماعيًا.

وكانت من مميزات حقوق المواطنة التالي:

ـ ميزات اقتصادية لا سيما فيما يتعلق بملكية الأرض التي كانت كما ذكرنا آنفا شرط من شروط تحقق المواطنة.

ـ عضوية جماعة سياسية واقتصادية. وهذه العضوية تعني حق المشاركة في الحياة السياسية والالتحاق بالمناصب الحكومية، والمشاركة في النشاطات الاجتماعية والدينية في المدينة الدولة.

وفي المجتمع الكلاسيكي أي في الحقبة الكلاسيكية من مراحل الحضارة اليونانية كان هناك حد فاصل صارم بين المواطنين وغير المواطنين، وكان المواطنون مقسمين في طبقات متداخلة فيما بينها كثيرا. وكان المقيم في أثينا من الأجانب يلقى المعاملة نفسها التي يلقاها المواطن، فكان يقيد اسمه في المنطقة التي يقيم بها، وكان يتساوى مع المواطن في دفع الضرائب، وهي ضريبة رمزية نظير إقامته، وحسب مقدار ثروته، وكان عليه أن يخدم في الجيش ضمن حملة السلاح الثقيل أو في الأسطول مجدفًا أو بحارًا.

ولكن، لم يكن يقيّد بأيّ قيود على إقامته أو ديانته التي يعتنقها. ولم يمارس المقيمون بصفتهم طبقة اجتماعية ضغوطًا للحصول على المواطنة؛ لأنّها لم تكن ذات أهميّة أساسية بالنسبة لمعظمهم؛ لأنّ وجود المقيمين خارج هيكل المواطنة أتاح لهم قدرًا كبيرًا من الحارك الاجتماعي. فهم كانوا بالأصل كما أسلفنا يتمتعون بامتيازات المواطن نفسها وعليهم الالتزامات نفسها، إلا أنّه محظور عليهم أن يمتلكوا أية ملكية حقيقية، ولم يكن مسموحًا لهم المثول أمام المحاكم للدفاع عن أنفسهم، ولا تولي الوظائف العامة، واستبعدوا من بعض الوظائف المرتبطة بالأرض مثل التعدين، ولكن كان وضعهم مستقرًّا وأعمالهم رابحة، وكان أي تحرك من المقيمين أو غير المواطنين في الغالب في حال

مست حقوقهم وامتيازاتهم، فكانوا يسعون للحصول على القوة السياسية للحفاظ عليها.

وكانت الأقلية من مجموع سكان المدينة مواطنين يتمتعون بحقوق المواطنة ونسبتها 10٪ من مجموع عدد السكان الفعليين في الدولة المدينة، وكان الذكور البالغون فقط يعتبرون مواطنين كاملين، وتختلف النسبة المئوية حسب طبيعة الدولة، حيث هناك شكلان لطبيعة الدولة:

- اوليجاركية (الوحدة الأساس هي القبلية) مجلس القبيلة كما في اسبرطة.
- ديموقراطية تتمثل بوجود مجلس للشعب وانتخابات كما في أثينا.

فحسب درجة تحرّر النّظام كان هناك اتّجاهان سائدان بمعظم المدن آنذاك هما:

- رغبة الشعب في المشاركة السياسية ورفض العبودية ويمثله النظام الديموقراطي.
- حصر حقوق المواطنة في نطاق الأقلية ويمثله نظام الأوليجاركية.

وكان نظام الأوليجاركية اتّجاهًا ذا نفوذ وثراء، وهو نمط الحكومة السائد في بلاد الإغريق في القرن الثامن ق.م، باستثناء أثينا والمدن الدائرة في فلكها، وفي القرن الخامس ق.م بلغ الصراع الكبير بين الأوليجاركية والديموقراطية ذروته. وكان أرسطو في الواقع يصرّ على القول بأنّ الفرق بين الأوليجاركية والديموقراطية هو ببساطة الفرق بين الثراء والفقر. فالصراع بين الجانبين كان يحتوي على عناصر متعدّدة من عناصر الصراع الطبقي، إلا أنّ عناصر الثروة والطبقة كانت عوامل هامة في الصراع.

إلا أنّ الشكل الإغريقي لكلّ من الديموقراطية والأوليجاركية كان على نمط واحد في الأساس؛ حيث كان جميع المواطنين المتمتعين بحقوق المواطنة الكاملة يمسكون بزمام الحكم في كل من النظامين. إلا أنّ نسبة المواطنين في الأوليجاركية كانت أقل من نسبتهم في الديموقراطية، وهكذا كانت الأوليجاركية ديموقراطية ولكن بعدد أقل[1].

فكانت البنية التي تشكّل الأوليجاركية هي القبيلة التي كان من ينتمي إليها مواطنا كاملا متمتعًا بحق المواطنة، وكان من الصعب جدًا تحقيق الانتماء للغرباء الأجانب، وكان أيضًا

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص32-33 بتصرف.

الانتماء الطبيعي للقبيلة لا يعني التمتع بالحقوق كاملة ومنها حق التصويت والمشاركة السياسية، بل كان أيضًا يعتمد ذلك على نوعيّة الانتماء من حيث الثروة وامتلاك الأرض وحجمها، وقوة نفوذ الأبوين في القبيلة، أي أن المنتمي للقبيلة يتمتّع بحقوق مواطنة يعتمد مستوى التمتع فيها ونسبته على قوة الانتماء المتصل بحجم الثروة ونفوذ الأبوين ومساحة الأرض المملوكة.

وكذلك في النّظام الديموقراطي الذي كان المواطنون يتساوون في حقّ التصويت والمشاركة السياسية إلا أنّها أي الديموقراطية كانت تستطيع حرمان البعض من حقوق المواطنة الكاملة على أساس الثروة كما في أثينا، فطبقة الحرفيين فيها مثلا محرومون من تولي المناصب العليا حتى منتصف القرن الخامس ق.م، وكان كلا النظامين يستبعد الأجانب العبيد المحرومين من المواطنة. وكان الديموقراطيون من أصول أكثر فقرًا، بينما الأوليجاركيون ينحدرون من العناصر الأكثر ثراء في المجتمع. فإن كان الحكام يتولون الحكم بفضل ثروتهم فإنّ النظام يعتبر أوليجاركي بحسب أرسطو، حتى لو كان الأثرياء هم غالبية المجتمع. أما إذا كان الفقراء سادة النظام السياسي فهو نظام ديموقراطيًا من وجهة نظر آرسطو. فكان الأوليجاركيون يعتبرون النظام الديموقراطي نظامًا يستغلّ فيه الفقراء الأغنياء، وكان الديموقراطيون ينظرون للنظام الأوليجاركي نظرة عكسية.

«ولقد نتج من الصراع الأوليجاركي - الديموقراطي حول حقوق المواطنة وحقّ المشاركة في الحكم الفرقة والنزاع الداخلي في العديد من المدن الإغريقية، وفي بعض الأحيان كانت الصراعات تنفجر في حرب أهلية. وكان الصراع الحزبي مستمرًّا وقد اصطدم الحزبان حول السيطرة على الجمعيات العمومية، وتجاريا في ساحات القضاء، وقاما بنفي خصومهما واغتيالهم عند الضرورة»[1].

كما أنّ المساواة في حقوق المواطنة لم تتحقّق بين جميع المواطنين؛ حيث كانت المرأة مواطنة من الناحية القانونية، لكنّها منتقصة الحقوق في المواطنة، فلم يكن لها الحق في امتلاك أي عقار، أو أية حقوق سياسية حيث كانت محرومة من التصويت في كافة المدن،

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص129.

وكان حقّ المرأة الوحيد تقريبًا يتمثّل في حقّ تمتع أولادها بالمواطنة في أثينا فقط.

ولكن في إسبرطة وبعض المدن الأخرى كان لها الحق في ملكية العقارات، وفي كريت في مدينتها الرئيسية جورتين، كانت النساء تستطيع الظهور أمام المجلس ليتحدثن عن أنفسهن، بينما كن محرومات من ذلك في مدن أخرى إلا بوجود الذكور معهن. وهناك أمران قيّدت ممارستهما حقوق المواطنة على نحو أعاق التطور السياسي الإغريقي وهما الاستعمار والغزو.

وكان هناك طرق سلكها اليونان في طرقهم التوسعية، حيث قاموا بمشاركة محدودة في المواطنة أو حقوق المواطن بين المدن المختلفة، وقد اتّخذت هذه المشاركة شكلين أساسيين:

الأوّل: المواطنة المتبادلةIsopliteia التي تخول لمواطن مدينة معينة أن يتمتّع بحقوق المواطن في مدينة أخرى إذا وُجد بها، ولكن دون أن يعني ذلك قيام مواطنة موحدة بين المدينتين المتبادلتين.

الثاني: المواطنة المشتركة sumpoliteia التي تقوم بين مدن عدّة تنزل كلّ منها عن جانب أو أكثر من جوانب سيادتها أو سلطتها ليدخل في نطاق السلطة الجماعية للدول المتعاقدة، وهنا أيضًا لن تحلّ المواطنة المشتركة بشكل كامل محل مواطنة كل مدينة، وإنّما ستقتصر على الجوانب التي تمّ التعاقد عليها فحسب بينما تظلّ كل من هذه المدن فيما عدا هذه الجوانب، مختلفة بكيانها السياسي المستقل.

ومن أمثلة النّوع الأوّل ما قام بين أثينا وساموس في 405 ق.م، ومن أمثلة النوع الثاني المواطنة المشتركة التي قامت بين كورشة وأرجوس في 392–387 وبين أولشوش ومدن حلف خالكيديكي وبين أعضاء الحلف البويوتي بعد 389 وحلف أركاديا الذي ظهر في 370[1].

وكان أقصى ما وصل له العقل اليوناني السياسي في إدارة البلاد هو الحكم المباشر، الذي لا يعرف التمثيل النيابي أو تفويض السلطات أو غير ذلك من طرق الحكم غير المباشر، وقد

[1]- عبد الوهاب لطفي يحيى، مقدمة في نظم الحكم عند اليونان والرومان، م.س، ص16-17.

كانت المدينة بسكانها ذوي العدد المحدود هي الوحدة التي يمكن أن تتم فيها ممارسة هذا النوع من الحكم.

وبسبب الكيانات السياسية المستقلة، والتقوقع على الذات، وعدم وجود وحدة سياسية تجمع هذه الكيانات، تبلورت بذور فكرة الفردانية، وأصالة الفرد، حيث إنّ سياسة السّلطة الحاكمة المنكفئة على ذاتها، مع التقادم تشكّلت لدى الفرد الإغريقي الاكتفاء بذاته، والتقوقع على الذات بل والاعتداد الزائد لها.

4. الاستقرار السياسي:

يعتبر الاستقرار بكلّ أبعاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مؤشّرًا على نجاح النظام السياسي؛ لأنّه ينعكس على تطوّر الفرد والمجتمع ونهضة الدولة، وتعميق مفهوم المواطنة من خلال أداء الدولة لوظيفتها وواجباتها اتجاه المواطن، ولا يمكن تحقيق أي تنمية دون وجود استقرار سياسي.

يشير مصطلح الاستقرار السياسي إلى «قدرة النظام السياسي على القيام بوظائفه، والاستجابة لمطالب الجماهير، والتكيف مع متغيرات البيئة الداخلية والخارجية المحيطة به، على نحو يكسبه الشرعية السياسية اللازمة لاستمراره، ويحول دون تعرّضه لأية أعمال عنف أو صراعات يصعب السيطرة عليها بالطرق السلمية وفي إطار الالتزام بالقواعد الدستورية.

ومن أهمّ مؤشرات الاستقرار السياسي التي وضعها المفكرون الاستراتيجيون في عصرنا الحالي، وهي ليست بالضرورة تكون كلّها معايير تنطبق على ذلك العصر في اليونان؛ بسبب اختلاف التطوّر المعرفي والتجربة البشرية في المجال السياسي، والاختلاف في التراكم المعرفي الفارق بين العصور. وهي:

أـ التكامل القومي بوجود رؤية استراتيجيّة واضحة للتّعامل مع التّنوّع العرقي والثقافي وغياب النزعات الانفصالية والصراعات العرقية والاثنية أو محدوديتها. وقد لاحظنا خلال الدراسة كيف تعامل الإغريق مع الأجنبي، الذي سلب حق المواطنة بسبب شروطها الصعبة التحقق، هذا فضلا عن اعتبار من لا يتحدّث اللّغة الإغريقية بربريًا. وهذا فضلا عن تشتّت

اليونان في مدن دولة متعدّدة ومشتّتة سياسيًا رغم تجاورها، إلا أنّ هذه المدن الدولة انغلقت على ذاتها إلا ضمن حدود الحاجة والمصلحة.

ب ـ شرعيّة النّظام السياسي، ويقصد به «تبرير السلطة الحاكمة من منطق الإرادة الاجتماعية»، أي تقبل الشعب للسلطة الحاكمة وخضوعه لها طواعية. واستجابة الشعب تأتي من تلبية احتياجات المجتمع والسعي لتحقيق التطلعات الوطنية. لم تكن السلطة تمثّل الإرادة الاجتماعية، فمن يتولّى زمام السلطة في الأليجاركية أو الديموقراطية هم ما نسبته 10٪ من السكان، والذين كانوا يتمتعون فقط بحق المواطنة والتصويت معًا؛ إذ ليس كلّ مواطن كان له حق التصويت. أو كان المجلس يتشكّل من الطبقة الارستقراطية أو النبلاء، الذين يشكلون الثقل الاقتصادي للدولة. وغالبًا ما كان مجلس الشعب في بعد مراحل التطوّر السياسي هو مجلس صوري. ولقد شغل الحكام الذين أطلق عليهم اسم الطغاة مكانا متميزا في التاريخ الإغريقي، فقد سادوا في دويلات المدن الإغريقية خلال الصراع المتصل بين الأثرياء والنبلاء وفقراء العامة.

ولم يكن وصول هؤلاء إلى قمّة السلطة مرتبطًا على الدوام بالشرعيّة، فما أكثر ما كانوا يبلغونها بمساعدة الطبقات الجديدة التي كانت تخلقها الحروب الاستعمارية، وتنتج لها ثراء يملوها طموحا إلى الحكم، فإذا هي تتآمر مع قادة الجيش لتخلع الملك القائم وتضع مكانه أخر تنعم إلى جانبه بالوظائف الكبرى في دويلة المدينة. ومع أنّ هؤلاء الملوك كانوا يعملون من اليوم الأوّل في تحقيق أحلام أولئك الذين رفعوهم إلى سدّة العرش بمنحهم المزايا وتسيير الجيوش لاكتساب مزيد من المستعمرات والأراضي التابعة لها، فقد كانوا كذلك سريعي النّزوع إلى الاستبداد والتسلّط، وهو ما ساعد في النهاية على ظهور طبقات جديدة تعمل على الإطاحة بهم وإحلال ملوك جدد محلهم مستخدمة في ذلك جميع الوسائل الممكنة[1].

فالإغريق أطلقوا على كل من ينتزع الحكم بالقوّة ليقيم نفسه حاكمًا على أشلاء الدستور لفظ الطاغية (Tyrannos)، ومرّت بلاد اليونان بهذا النّوع الجديد من الحكم إبان القرن السابع والسادس ق.م أي بعد تشكل مدينة الدولة وفكرتها، لذلك يطلق عليه عصر الطغاة

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص35.

وهو نظام نشأ عندما انتزعت طائفة معينة من الشعب -عادة الطبقة الوسطى- الحكم عن طريق السلاح من الارستقراطيين الذين كان حكمهم يترنّح في هذه الآونة لعجزهم عن حلّ كثير من المشكلات الاجتماعية والسياسية وافتقارهم للكياسة ولجوئهم إلى العنف والقوة.

وكان الطاغي يقيم نفسه وصيًا على الفقراء والمعوزين؛ لكي يكسبهم إلي جواره، وكثيراً ما كان الطغاة عقلاء ومستنيرين بالرغم من أن بعضهم كان دمويًا وعنيفًا، وارتكب أفعالاً تقشعرّ لها الأبدان حتى أصبحت الكلمة تعني طاغية بمفهومها الحديث[1]. وهو ما يوضح تأثّر الغرب وأمريكا بالحضارة الإغريقية كثيراً، حيث أثّرت في بناء دساتيرهم ورؤيتهم القانونية، وأثّرت حتى في المنهج الاستعماري من جهة، وفي بناء ديموقراطيات صورية، تتحكم في بنيتها السياسية مجموعة رأسمال المال والثروة والطبقة الارستقراطية من الشركات الكبرى العابرة للحدود.

ج ـ قوّة النظام السياسي وقدرته على حماية المجتمع والدولة ضد أي أخطار خارجية محتملة، وتعدّ مسألة قدرة النظام السياسي للمهدّدات الخارجية هي من أهم وظائف النظام السياسي على الإطلاق كونها تتعلق ببقاء الدولة نفسها. وتختلف هذه القدرة من زمن إلى زمن لاختلاف مقاليد القوة والمقدرة من زمن إلى زمن، واختلاف مبرّرات الاستقرار السياسي.

د ـ الاستقرار الحكومي، بمعنى عدم التغيير السريع للوزارة بمثابة مؤشّر جيد على استقرار الحكم.

هـ ـ الاستقرار البرلماني.

و ـ تشجيع المشاركة السياسية للمواطنين وفتح قنوات الاتّصال بين الحاكم والمحكومين، والمشاركة السياسية يقصد بها الأنشطة التي عن طريقها يساهم أعضاء المجتمع في اختيار الحكام وفي تكوين السياسة العمومية بشكل مباشر أو غير مباشر، وقد ذكرنا آنفا عن التضييق في منح حقوق المواطنة وبالتالي التضييق في في الممارسة السياسية[2].

ز ـ غياب العنف واختفاء الحروب الأهلية والحركات الانفصالية والتمردات. «التطور

[1]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخيهم وحضارتهم، م.س، ص204.

[2]- راجع، ي عنوان المواطنة من هذا البحث.

في نظام الجيش الذي أصبح يعتمد علي جنود الطبقة المتوسطة أثّر تأثيراً كبيراً، إذ أدركت هذه الطبقة التي ملأت صفوف الجيش أن بيدها وحدها يتحقّق سلام الأمة، حتى إنّها أصبحت تلقّب نفسها بالشعب (Demo)، برز من بين صفوفها زعماء، خاصة عندما اندلعت الصراعات عند الأزمات الداخلية الناتجة من الصراع والتخلخل الاجتماعي أو من وجود خطر خارجي، وكان قائد الجيش بعد عودته من ميدان المعركة ظافرًا حيث تستقبله الجماهير بالهتاف والتصفيق يجد الطريق مفتوحًا أمامه لانتزاع السلطة بقوّة السلاح مخالفًا الدساتير والعرف والقوانين؛ ليجعل نفسه حاكمًا منفردًا غير شرعي.

وهذا ما تعنيه كلمة تورانس (Tyrannos)... وكان قائد الجيش يقوم بانقلابه بحجة أنه ذاهب للدفاع عن الوطن في وجه خطر خارجي.. كما أنّ بعض الطغاة كانوا من أسرة قادرة على تمويل الانقلاب أو أسر جمعت لنفسها رأس مال من التجارة وأثرت أن تتزعم الطبقات الدنيا واستخدامها وتجنيد عواطفها للوصول إلى الحكم..

ح ـ نجاح السياسات الاقتصادية للحكومة وقدرة السلطة على توفير احتياجات الناس وتمكينهم من العيش الكريم. «لقد ارتبط ظهور الطغاة بتدهور الأحوال الاجتماعية القديمة نتيجة الثورة التجارية الكبرى وما تلا ذلك من تقدم صناعي، وبروز طبقات غنية جديدة نافست طبقة النبلاء وطالبتها بالمزيد من الحقوق، بل حنقت عليها لاحتكار السلطة والحكم وحدها»[1] ولقد اتّضح مع التقادم فشل الإغريق في مواجهة الصراعات الطبقية، والأزمات الاقتصادية، خاصة بعد سيطرة المقدونيين وفتح منافذ تجارية جديدة سلبت من الاغريق ميزتهم التجارية، وأدّت في نهاية المطاف إلى انهيارهم.

ط ـ قلّة النزوح الداخلي والهجرات الخارجية وهذا حدث فيه استقرار في فترات لكنه في فترات كان هناك نزوح وهجرات، وكان أحد أهم عوامل التوسع والاستيطان هو كثرة الهجرات الخارجية نتيجة الفقر أو الديون أو عدم الاستقرار والحروب.

ي ـ توفر آليات للخلافة السياسية. ويقصد بها وجود اليات لانتقال السلطة والقيادة من شخص إلى آخر بطريقة سلسة وقانونية وشرعية وهو ما شابه خلل كبير كما أسلفنا في هذه الدراسة في الدويلات الإغريقية.

---

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص204.

ك ـ حسن إدارة العلاقات الخارجية للدولة. كان من أساليب إدارة العلاقات الخارجية عند بعض مدن دويلات الإغريق هي بتوظيف مواطنين من مدن دول مجاورة ليديروا شؤونهم الخارجية في تلك المدن الدولة، كسفراء لكن ليس من مواطنيها وإنما من مواطني الدولة المجاورة نفسها، كونهم يعرفون سياساتها ومجتمعها وطرق التواصل معها، في قبال معاش يصرف لهم شهريًا، دون أن تتأثّر مواطنيتهم لمدنهم، ودون أن يحصلوا على مواطنية الدولة التي يمثلونها ويديروا شؤونها. أيضا كان من وسائل تطور العلاقات الخارجية هي المهرجانات الرياضية التي ساعدت سنويا في عملية الاتصال والتفاعل الحضاري، وكوسيلة من وسائل الاعلام والاتصال ونشر الدعاية وتعريف الناس بموضوعات معينة. بل تسهم في تذليل العقبات السياسية في العلاقات بين دويلات المدن، وإعادة وصل ما تم فصله بالخلافات والنزاعات.

ل ـ الاستقرار السلوكي، ويقصد به الثبات الإيديولوجي للنظام الحاكم وعدم الانتقال المفاجئ من إيديولوجية إلى أخرى[1].

ويظهر مما سبق أنّ دويلات الإغريق كانت تمرّ بمفترات استقرار، لكنها ليست طويلة؛ إذ إنّ التحوّلات السياسية، والتطوّر التجاري والإشكاليات التي كانت تتطلّب التوسع والاستعمار، كانت تحول دون تحقق عوامل الاستقرار، هذا فضلا عن تعدّد دويلات المدينة، وانكفائها على ذاتها وصغر حجم بعضها، وكثرة الصراعات الداخلية والهجمات والمطامع الخارجية، كانت دوما ما تعرض استقرار بلاد الإغريق للاهتزاز، رغم ما عاشه الإغريق من ازدهار تجاري وثقافي وفلسفي وفني، إلا أنّ هذا الازدهار لا يعتبر مؤشّرًا على الاستقرار، خاصة إذا ما علمنا أنّ الشعراء والأدباء والفلاسفة والفنانون، كان كثيراً منهم ينأى بنفسه عن السياسة، وعن الصراعات الداخلية التي تحدث عن الثروة والنفوذ، وتفرغهم لمجالاتهم العلمية، ولذلك كانوا يظهرون تطوّرًا فكريًا وثقافيًا وفنيًا، رغم وجود الصراعات والحروب. ولكن هناك بعض مدن الدول كانت تنعم بالاستقرار لفترات طويلة كأثينا مثلا.

لقد لاحظ أرسطو وأفلاطون أن مفتاح المدينة الدولة يكمن في الاكتفاء الذاتي (-Autark

[1]- مكاوي، بهاءالدين: الاستقرار السياسي مفهومه وتجلياته ومؤشرات قياسه، https://bahamakkawi.com/2019/05/01/الاستقرار-السياسي-مفهومه-وتجلياته-وم/

تم الاطلاع في 19 يناير 2020.

ia)، حيث قالا إنّه يجب أن يتوفّر في كلّ شيء؛ السكان، المساحة، والحرف والصناعات. وحدّد أرسطو مبادئ ضرورية للمدينة الدولة:

إمدادات الطعام ـ أرباب الحرف والمهن ـ الأسلحة ـ التمويل ـ الديانة ـ والنظام القانوني، مع الحرف والمهن المناسبة لذلك...

فكان أفلاطون وأرسطو يريان في المدينة الدول نموذجًا للوجود الإنساني؛ لأنّه في مثل هذا التنظيم الاجتماعي يمكن للناس أن يحيوا حياة طيبة.. وكان ثمة تناقض أساسي بين نظرية المدينة الدولة كما طرحها أفلاطون وأرسطو، وبين الحقيقة الاقتصادية في بلاد الإغريق. وقد أدرك أفلاطون هذا التناقض عندما حذّر من التأثير الضار للتجارة، والذي اعتبره بحق معول هدم للاكتفاء الذاتي.

ولأن كلّ مدينة دولة ـ باستثناء اسبرطة تقريبا ـ كانت مرتبطة بدرجة أو بأخرى، بداية القرن الثامن ق.م تقريبًا، فإنّ الاكتفاء الذاتي لم يوجد فعلا في بلاد الإغريق. إضافة إلى أنّ السيطرة على الدويلات الأخرى أو التعاون معها يدحض اعتقاد كون الاكتفاء الذاتي متحقّق في بلاد الإغريق. وقد عانى الفكر الإغريقي من تناقض أساسي بل ونظري أيضًا بين المدينة الدولة باعتبارها فكرة، والمدينة الدولة باعتبارها وحدة واقعية في الإطار السياسي الواسع.

إنّ مفهومهم عن المدينة الدولة قد ثبط عزيمة الدول الإغريقية باستثناء أثينا فيما يبدو، وحال دون المحاولة الواعية لتعديل نظمها السياسية أو خلق نظام حيوي يمكن أن يحل محلها[1].

كان الوجود الحضاري الإغريقي هو بمثابة الوجود السياسي الذي يترجم عادة بالدول المتحدة سياسيًا، وكان الإغريق يحسون بهذا التراث المشترك وأواصر القرابة الحضارية بينهم، رغم تشتّتهم سياسيًا؛ لأنّها كانت تميزهم عن غيرهم من الأجانب. ورغم هذا الشعور بالتراث المشترك واللغة المشتركة التي يفترض أن تحقق لهم وحدة سياسية داخلية، إلا أنّ ذلك لم يتحقق، لأسباب منها جغرافية حيث صعوبة التضاريس الفاصلة بين كل مدينة وأخرى، من جبال أو سهول، أو بحار، وهو ما حدا بكل مدينة أن تشكل لها كيان سياسي خاص بها هو ما ذكرناه سابقًا دولة المدينة.

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص37 بتصرف.

واستمرت دول المدن اليونانيّة تعيش جنبًا إلى جنب، وهي منعزلة الواحدة عن الأخرى سياسيًا، لكن بمجرد أن كانت احتياجاتها تزيد على المحصولات الضرورية للمعيشة، فإن كلا منها تسعى للاستعانة بموارد الأخرى ومن ثم شيئًا فشيئًا نشأت فكرة التبادل التجاري، وهذا التناقض بين الاستقلال الاقتصادي آي تبادل المنفعة واعتماد الواحدة على الأخرى، فيما يتصل بالسلع التمويلية قد حدّد تطوّر الحياة الاقتصادية والسياسية عند اليونان. وكون أن التكوين الجغرافي فرض عليها الانفصالية السياسية، إلا أنّ المسلّم به أيضًا أن هذه الانفصالية كثيرا ما ذهبت إلى أبعد ما تفتضيه الظروف الطبيعية، ولم يكن هناك من سبيل للتغلب على هذه النزعة الانفصالية إلا بقيام دولة قوية مسيطرة، تستطيع أن تفرض الوحدة على البلاد لو لفترة قصيرة[1].

كانت بلاد اليونان غنية في ثروتها المعدنية وفقيرة في الوقت نفسه في منتجاتها الزراعية، وكان التقشف في المأكل والملبس وتواضع المعيشة التي كان في وسع اليوناني أن يسدّ أكثرها محليًا، كيف أدّى إلي تقييد نشاط الإنتاج والتجارة، وغياب الاكتفاء الذاتي واعتمادهم على التجارة فيما بعد -التي اعتبرها أفلاطون سببًا لضعف الدولة وعدم استقرارها- بسبب بحر إيجة الحيوي، حيث كان مركز التجارة في الدويلات المحيطة بالبحر الإيجي إلى الشرق، إلا أنّ هذه الحيوية التجارية ستضرب بضربة قاصمة، حينما أقام فيليب المقدوني وابنه الاسكندر دولة قويّة موحّدة قادرة على تأمين البحر وحماية التجارة، وفتح أحدهما وهو الاسكندر أقطارًا خصبة غنيّة في آسيا ومصر، فانتقل مركز التجارة من الدويلات المحيطة بالبحر والإيجي، إلى الشرق الذي اجتذب أعدادًا غفيرة من الإغريق المقامرين ذوي النشاط والعزيمة والإقدام.

ولم تغنم بلاد اليونان سوى النزر اليسير من ذلك التبادل التجاري الجديد.. فتاريخ بلاد اليونان بعد الاسكندر الأكبر يعكس، من ناحية الحياة الاقتصادية، صورة قاتمة من التدهور والفقر المطرد[2].

5. الحروب وحركة التوسّع والاستعمار:

انتشر نموذج المدينة الدولة من خلال حركة الاستعمار التي ساهمت أيضًا في ثراء بلاد

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهللادي، م.س، ص31-32.

[2]- م.ن، ص42-43.

الإغريق وقوتها، ومع ذلك ولأن الحروب من مقومات هدم الاستقرار السياسي، فإنّها في الوقت ذاته زرعت بذور الإخفاق والفشل.

فكان تدهور امبراطوريات الشرق القديم وبالذات تدهور السيطرة الفينيقيّة على مياه شرق البحر المتوسط، والتي كانت تحدّ من نشاط الإغريق، وكانت الإمبراطورية الأشورية خاصة إبان الفترة التي يشار إليها بالأسرة الرابعة (943-745 ق.م) قد قضت على القوة السياسية للشعوب الآرامية في سوريا وفلسطين وفينيقيا، وبإسقاط هذه القوة أصبح هناك فراغ كبير في المنطقة ولم يعد ينافس الإغريق كقوة بحرية أحد سوى قرطاجة تلك المستوطنة التي أنشأتها صور (Tyre) على ساحل أفريقيا.

فوضعت الظروف السياسية أمام الإغريق فرصة نادرة للانتشار، فالبحر المتوسط مفتوح أمامهم بلا عوائق ولا معارض، وعندها زحفت الإمبراطورية الفارسية نحو البحر الأبيض إبان القرن السادس ق.م[1]. إن تأسيس مستعمرات هللينية على أرض واسعة كهذه ذو أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية. وغزو الأراضي على يد نبلاء الدم، انتزاع ملكية صغار الفلاحين، ونمو الشرائح المهنية والتجارية التي تختلف مصالحها مع مصالح ارستقراطية السلطة، فكلّ هذا بعث صراعًا اجتماعيًا شرسًا. والشرائح الاجتماعية المعدمة أو المقهورة في هذا الصراع كانت مكرهة على ترك الوطن وترحل لتغامر في المستعمرات.

والعنصر الهام في هذا الصراع كانت مكرهة على ترك الوطن وترحل لتغامر في المستعمرات. والعنصر الهام الآخر هو أنّ كثيراً من أقاليم اليونان القاحلة كانت بحاجة لاستيراد القمح، الأمر الذي أفضى، منذ القدم، إلى أن تقيم مدن كورنثيا، ميغار، إيجن، شالسس، تقيم علاقات مع المناطق الغنية بالقمح خارج الأرض اليونانية البحت. وفي بداية الاستعمار، توافد المهاجرون إلى المستعمرات، وأعطوا هذه الحركة صفة زراعية.

ثم تطلب ازدياد المهن ورواج التجارة أسواقًا جديدة لتصريف المنتوجات المتنامية التي أنتجتها الحرف والعبيد البربر، الذين صاروا اليد العاملة الرئيسية في الإنتاج اليوناني المتسع. وقد أسّست المستعمرات حيث كان السكان الأصليون أنفسهم قد خلقوا مراكز تداول بين

[1]- أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخيهم وحضارتهم، م.س، ص135.

القبائل. كانت هذه المستعمرات -يسميها اليونان أبويكيا: بعيدا عن البيوت- مستقلة عن المتروبول (المدينة - الأم) وشكلت دولة خاصة بها.

ولم تكن المستعمرات والمتروبول متصلين سوى بالآلهة والتقويم المشترك، غالبا بتسمية الموظفين، التقسيم إلى قبائل، وأيضا بعض إمارات الاحترام. «فكام يحترم الأبناء والآباء كذلك تحترم المستعمرات المتروبول»... كان الاستعمار يمتد على أربعة اتجاهات، غربًا، جنوبًا، وشمالا، وشرقا. وكان يصدر من مختلف مدن شبه جزيرة البلقان، ومن يونان آسيا الصغرى ومن جزر الأرخبيل. وكانت المتروبولات الأهم هي: ميليت، كورنثيا، ميغار، شالسس في أوبيا[1].

فالحروب والتوسع والاستعمار تؤدي إلى:

أ- تشرذم المجتمع الإغريقي نتيجة الحرب التي تدفع إلى الهجرة من مواقع الصراع إلى مواقع أكثر أمنا، وهذه الهجرة تفقد المدينة الدولة مواطنيها، وبالتالي تفقد معها سواعد وطاقات تعين في الحرب من جهة وفي البناء من جهة أخرى.

ب ـ تشتّت الحروب الطاقات والقدرات الاقتصادية والبشرية، وتزيد من حالة البؤس والفقر والحاجة.

ج ـ تؤثّر الحروب على الاقتصاد بحيث تصبح الأولويّة لدعم الجنود وتجهيز العسكر على حساب الزراعة والتنمية والصناعة، وتضرب الحروب المحاصيل وتدمر الإنتاج وتعطل الطاقات وتوظفها في الحرب والدفاع.

د ـ التوسّع يخفّف من الضغط والتكتلات السكانية في مدن الدول الصغيرة أي التضخم السكاني في مساحات محدودة، وتخلق بيئات جديدة للعمل والزراعة والصناعة والتجارة.

هـ ـ توفر المستعمرات حاجات المستَعْمِرين وتفتح أسواقهم أمام صناعات المُسْتَعمِر، وتخلق أسواق جديدة وتنشط حركة التجارة والعمل، والتبادل التجاري.

ففي القرن الثامن ق.م كانت هناك حوالي عشرين أو ثلاثين مدينة دولة قائدة تسيطر

[1]- ف. دياكوف- س. كوفاليك، الحضارات القديمة، م.س، ج1، ص285-286.

على بلاد الإغريق، وبحلول القرن السادس ق.م كانت الحضارة الإغريقية توزعت بين مئات المدن القوية المكتفية ذاتيا في أنحاء حوض البحر المتوسط.

فأية مدينة دولة أسّست مستعمرة فإنّها أسّستها ككيان سياسي مستقل، لا كامتداد سياسي لها. حيث كانت تتوسع وتضمّ إليها جغرافيًا، لكنّه توسع سياسي دون أن تؤثّر من وضعه الاجتماعي أو الاقتصادي أو العمراني شيئا. وكان هذا عاملا مشجعًا على الفرقة، حيث باتت غالبية المستعمرات الإغريقية قوية، وغالبًا ما تفوّقت على المدينة التي أسّستها...

وعلى الرغم من توحّد الإغريق في مواجهة عدو خارجي قوي مثل الفرس وقرطاجة، إلا أنّ حروبهم الأهلية الداخلية الضارية التي نشبت فيما بين تلك المدن أضعفتها في النهاية، وشكّلت عاملا في هدم استقرارها السياسي والأمني، فأضعفتها في النهاية في القرن الرابع ق.م أمام عدو خارجي جديد، فوقعت فريسة لمقدونيا ثم لروما في القرن الثاني ق.م. لقد أنتجت المدينة الدولة مجتمعًا يتسم بالقوة والحيوية، ولكنه يفتقر إلى التنظيم سياسيًا، فالعوامل نفسا التي أدّت إلى انتشار المدن الدول وقوتها هي التي أدت إلى سقوطها في نهاية الأمر[1].

كان المفهوم العام كما ذكرنا سابقًا في العرف الاجتماعي والسياسي هو أنّ القوّة تصنع العدالة باستثناء أثينا، وهو ما ثبت عكسه تمامًا مع التقادم، واتّضح أنّ القوّة تقوّض النّظام السياسي وتجعله عرضة للتآكل الداخلي فيضعف، وبعد أن يضعف يصبح عرضة لمطامع الدول الخارجية. لذلك من مقوّمات الاستقرار السياسي استغلال القوة في تقوية وجود الدولة داخليًا بتحقيق العدالة الاجتماعية، وبناء جسور تواصليّة بين الحاكم والشعب، وتمتين علاقات المجتمع وأواصره، وبناء منظومة تقوم على التعدّد كعقيدة لتصبح فكرة التعايش والتسامح فكرة بديهية مسلمة، وقيمة تمثل ثقافة اجتماعية، وتمكين السلم الأهلي الداخلي، وهو ما يقوّي وجود الدولة، ويخفّف المطامع الخارجية ضدّها، بل تصبح كتلة صلبة صعبة الاختراق.

---

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص39 بتصرف.

فالإغريق ولو وجوههم صوب البحر باعتباره طريقًا طبيعيًا للاستعمار؛ لأنّ جغرافيتهم الصعبة في اليابسة، صعبت عملية شقّ طرق برية للتجارة إلا في بعض المناطق التي كانت تمتلك جغرافيا سهلة ليس فيها تضاريس جبلية كثيرة ووعرة، بل سهول ممتدة، فكان البحث عن طرق مائية للتجارة سببًا محوريًا لحركة الاستعمار والتوسع.

فكان مجتمع المدينة الدولة قد وصل إلى قمّته في القرنين السادس والخامس ق.م، وهو الوريث النهائي للمجتمع الموكيني وحضارته. فقد انهارت الحضارة الموكينية التي كانت مزدهرة، وقد أرست بتجارتها ومستعمراتها وجنودها من كريت إلى آسيا الصغرى، حيث صدمت الاضطرابات العنيفة في القرن الثالث عشر والثاني عشر والحادي عشر ق.م بلاد الإغريق وخيمت العصور المظلمة عليه.

ولم تخرج بلاد الإغريق من قوقعتها قبل القرن الثامن ق.م، حيث اتبعت منهجًا جديدًا في الفن والكتابة، وبدأت حركة الاستعمار الكبرى؛ حيث انطلق الإغريق شرقًا وغربًا وفي القرن السابع ق.م، ثم انطلقوا صوب الشمال والجنوب، وفي القرن السادس ق.م كانوا يدعمون مكاسبهم. ورغم أنّ سقوط الحضارة الموكينية كان أحد أهم أسباب حركة الاستعمار، إلا أنّ ذلك لم يشكّل درسًا لبلاد الإغريق الذين اعتمدوا على التجارة، بالتالي سعوا للذهاب إلى منافذ البحر التي تشكّل معابر هامّة للتبادل التجاري، بعد أن كانت عبارة عن مجتمع زراعي فقير، منعزل ساكن، محصور ما بين ساحل أسيا الصغرى وبلاد الإغريق الأصلية، بات بعد هذا التوسع قوة غنية.

كانت الكثير من المستعمرات الإغريقية في فترة التوسع الاستعماري لا يتم تطويرها ثقافيًا ولا تتطوّر قوّتها، بل تعتبر فقط مورد للمواد الخام اللازمة لبلاد الإغريق الأصلية كالحديد والذهب والأسماك والخشب والجلد، التي كانت منتجاتها الرئيسية، كمستعمرات البحر الأسود والمستعمرات الشمالية. ورغم أنّ هذه المستعمرات أقيمت في مناطق خصبة مزدهرة. وقد امتدّت حركة الاستعمار إلى الغرب، كإيطاليا وصقلية، لقد كانوا مثل المستعمرين الأمريكيين شغوفين بالحضارة في بلادهم الأصلية، وكانوا يحبون الرجال المبدعين من كل لون ومن الفنانين والشعراء والفلاسفة.

«في القرن الثامن ق.م، عندما نشطت حركة الاستعمار الإغريقي، كانت الزيادة السكانية هي القوة الدافعة الرئيسية، فبعد سقوط الحضارة الموكينية تناقص عدد سكان بلاد الإغريق، وصارت البلاد عمومًا تعاني نقص السكان، وقد زادت الهجرات الدورية إلى داخل بلاد الإغريق من أعداد السكان، وهناك عاملان آخران حفّزا تسريع حركة الاستعمار والتوسع: هما الفقر العام الذي تعاني منه التربة الإغريقية، والتقسيم المستمر للأرض.

ارتبطت التجارة بالاستعمار ارتباطًا حتميًا، حيث كان كلّ منهما ينشّط الآخر. وقد كانت المستعمرات المتأخّرة أسواقًا هامة لترويج بضاعة بلاد الإغريق ومنتجاتها الرئيسية من جهة، ويتم تصدير الحبوب والمواد الغذائية والمعادن من تلك المستعمرات إليها. فكان الهدف الأساس من التّوسّع والاستعمار هو التخلّص من الضغط السكاني، ولم يكن همّها بناء امبراطوريات استعمارية، لذلك كان توسّعًا سياسيًا لا يشمل أي بعد نهضوي تطويري. فكانت المستعمرة تتحوّل إلى كيان سياسي مستقل. فالمستعمر الذي يأتي للأرض الجديدة يصبح مواطنًا لكنّه يفقد مواطنيّته في بلده الأصلي، وهو ما يدلّل ميل الإغريقي في الاستعمار إلى أن تصبح المستعمرة الجديدة مستقلّة سياسيًا. وفي أواخر القرن السابع ق.م بعد أن خفت وطأة الزيادة السكانية، أدركت الدول الإغريقية أن الاستعمار وسيلة يمكن من خلالها مدّ سلطانها السياسي، ورغم تغيّر الهدف من الاستعمار إلا أنّ نماذجها وأساليبها الاستعمارية بقيت كما هي. وحتى تمنع المستعمرات من أن تصبح دويلات مستقلة تتمتع بحكم ذاتي كامل، حاول الطغاة الإغريق حلّ هذه المشكلة بطريقين:

ـ السيطرة العسكرية (استعمار مباشر).

إرسال أبنائهم وأقاربهم أو حلفائهم المقربين إلى المستعمرين حكامًا ومشرفين على التأسيس، بحيث يمكن من خلال هؤلاء في الإبقاء على المستعمرة في حالة التبعية أو الموالاة في أقل تقدير، وهو النهج نفسه الذي يتبعه اليوم الغرب وأمريكا في سياساتهما مع منطقة الشرق الأوسط، وبدى ذلك جليًا بعد سقوط الطاغية صدام وتداعيات هذا السقوط المستمرة. إلا أنّ بلاد الإغريق رغم كل هذه المحاولات العسكرية المباشرة وغير المباشرة في الاستعمار وبسط النفوذ، فشلت في كبت الميل الطبيعي للاستقلال، وهو ميل كامن في

البناء السياسي للمستعمرة، بل هو ميل كامن في طبيعة النفس البشرية المجبولة على الكرامة والعزة والاستقلال ورفض الاستعباد.

فكانت بشكل مختصر أسباب التوسع والاستعمار هي:

أـ التضخم السكاني: تزايد عدد السكان الذي يتطلب توسيع المساحة الجغرافية، وما نتج عنه من مشكلة البحث عن الغذاء التي دفعت السكان إلى الهجرة.

ب ـ البحث عن منافذ بحرية وطرق للتبادل التجاري الذي اعتمد الإغريق عليه في بعدهم الاقتصادي.

ج ـ البحث عن منابع للمعادن والثروات والحاجات الأولية التي تحتاجها المدن الإغريقية الرئيسية وفتح آفاق لتوريد منتجاتهم في تلك المستعمرات، أي حاجتهم لأسواق جديدة للتصدير والاستيراد.

د ـ التمدد والهيمنة السياسية لبسط النفوذ وتوسيع السلطة والحكم.

هـ ـ الضائقة المالية التي عانى منها كثير من المواطنين دفعتهم للهجرة هربا من الديون وأعبائهم المالية.

أي أننا نستطيع القول إنّ هذه الأسباب هي ذاتها تشكل مراحل تطور الأهداف الاستعمارية، فمن مرحلة التخلص من مشكلة التضخم السكاني، تطورت أهداف الاستعمار حتى وصلت إلى أهداف استعمارية سياسية لبسط النفوذ والسلطة بالقوة المباشرة العسكرية، أو غير المباشرة عن طريق حلفاء الداخل والقرابات النسبية في تولي زمام الحكم في المستعمرات الجديدة، لإبقائها تحت الهيمنة ومنعها من الاستقلال الذاتي.

وهو ما ينقلنا إلى التشابه الكبير بين هذا المنهج والمنهج المعاصر للدول الغربية وأمريكا؛ حيث إنّ هناك تشابهًا كبيراً في الأسباب، التي دفعتهم إلى منطقة الشرق الأوسط، كالهيمنة على مقدرات وثروات النفط والغاز والمعادن، والهيمنة على المنافذ المائية، ودفع الطاقات الشابة في المنطقة للهجرة، نتيجة التآكل السكاني الداخلي بعد هدم بنية الأسرة، وشيخوخة المجتمع وأنظمة الحكم، وخلق أسواق جديدة تعتمد الاستهلاك لتصدر منتجاتها إلى هذه

الأسواق الجديدة، وتخلق بيئة اقتصادية جديدة لتهيمن شركاتها العالمية عليها. وهي تعمد في ذلك وتتوسل طرق شبيهة بطرق الإغريق، فبعد أن كان هناك استعمار مباشر عسكري لمنطقتنا، لجأت إلى تشكيل حلفاء مكنتهم من السلطة، ليحكموا الأقطار التي رسمت معالمها باتفاق سايس بيكو، وعقدت معاهدات مع تلك الأنظمة الموالية لها، لتبقي يدها ممدودة من خلالهم على هذه الدول ومقدرات شعوبها، حتى لا تستقل ذاتيا وتبقى تحت رحمة القرار الأمريكي والأوروبي، وتبقى تلك الشعوب محكومة بالحديد والنار والفقر، مما يشغل الشعوب في حاجات فرعية عن انشغالها في الحاجات الأساسية وهي الاستقلال والاكتفاء الذاتي وإدارة عقول الشباب وثروات البلد. فالاستعمار حركة توسعية استيطانية، أو للهيمنة الاقتصادية ولا تختلف الدول تاريخيا أو في الوقت الحالي بسلوك المنهج الاستعماري، وإن اختلفت الأدوات والطرق، إلا أنه كأصل يعتبر من ثوابت السياسات الخارجية لدى الدول التي تمتلك القوة الاقتصادية والعسكرية وتسعى للهيمنة وامتلاك النفوذ.

وتحقيق الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية بما يتناسب وهويتنا في المنطقة الممزوجة بالعروبة والأديان السماوية، من كافة الأعراق والمذاهب. هذا فضلا عن استعمارها غير المباشر المتمثل بحربها الناعمة على الثقافة والهوية، من خلال إحلال منظومة قيم ومعايير جديدة تمهد أرضية الإنسان في المنطقة لقبول معاييرها وقيمها وثقافتها وهويتها، وبالتالي إحلال هويتها بالكامل مكان هويتنا وثقافتنا وحتى لغتنا، وهو ما يمكنها من السيطرة غير المباشرة أيضا، ويمهد الأرض الاقتصادية وسوقها لشركاتها العابرة للحدود والمهيمنة على التجارة العالمية والاقتصاد العالمي، ولتمنع ثقافة الاكتفاء الذاتي، وتخلق ثقافة الانهزام الأخلاقي والقيمي والنفسي.

6. المجتمع والطبقية والعبيد

يمكننا تقسيم حالة المجتمع وفقًا للعصور التي مرّت بها الحضارة الإغريقية، ووفقًا لتبدل النظم السياسية، التي كانت تتأثّر وتؤثّر في تركيبة المجتمع.

أـ العصور المظلمة والعصر العتيق: كان المجتمع زراعي يقوم على تقسيم أساسي بين

النبلاء وغير النبلاء، وكان النبلاء مقسمين إلى هيراركية فضفاضة على قمتها القبيلة الملكية التي يتم اختيار الملك منها. وكانت أقوى من مجموعة الكهنة، وأخيرا طبقة ملاك الأرض الأثرياء، وسرعان ما تحولت نبالتهم التي قامت على قوة السلاح والثروة، إلى نبالة بالمولد وصاروا يعرفون باسم الأخيار أو المباركين أو السعداء أو أبناء الآباء النبلاء. وكان الحراك الاجتماعي والاقتصادي ضئيل في العصر العتيق. أما القسم غير النبيل كان يتألف من 3 شرائح رئيسية:

ـ الفلاحين الملاك الذين يمتلكون مساحات متوسطة أو صغيرة من الأراضي. وأطلق عليهم الأرستقراطيون اسم الأشرار أو السفلة أو الغالبية.

ـ العامة (thetes) من الرجال الأحرار الذين لم يكونوا من ملاك الأراضي ولكنهم كانوا تجارًا وحرفيين وعمّالاً وزراعيين.

ـ العبيد.

ب ـ **عصر الارستقراطيين:** وهو العصر الذي ذاب فيه الملوك في النبلاء، وفقدوا امتيازاتهم، وتدهورت مكانة القبيلة الملكية حتى وصلت إلى مستوى العائلات الارستقراطية الأخرى. فلقد كان مركز الملك قائمًا على أساس الزعامة الدينية والعسكرية والسياسية. ولكي يتمّ إلغاء هذه السلطة اغتصب الارستقراطيون الدور العسكري في البداية، ونصّبوا واحدًا منهم مسؤولاً عن الشؤون العسكرية بوصفه قائدًا حربيًا. وما إن سيطر الارستقراطيون على التنظيم العسكري حتى أمسكوا بزمام السيادة السياسية.

وفي القرنين الخامس والسادس ق.م استمر المجتمع الإغريقي محتفظًا بخطوط مماثلة فاصلة بين الطبقات، ولكن بطريقة أقل جمودًا وأقل ثباتًا كما ينقل المؤرخين[1]. وفي هذه الفترة حدث تحوّل هام في الأساس الذي تقوم عليه التقسيمات الطبقية، فبعد أن كان قائمًا على أساس الانتماء لقبيلة قوية، أو عائلة ارستقراطية هم النبلاء، بدأت التقسيمات الطبقية تتشكل على أساس الثروة، وهو ما غيّر تركيبة المجتمع من جديد، حيث بدأت تدريجيًا تضمحل الطبقة الأرستقراطية، وذلك بالتلاشي التدريجي للأساس الوراثي لهم على نحو ما، وتناقصت أعدادهم بشكل كبير بالنسبة لبقية السكان، بينما نجد تعداد أصحاب الملكيات

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، م.س، ص92.

المتوسطة والصغيرة بدأ يزداد وهذه الزيادة العددية أيضا لعبت دورًا هامًا في زيادة قوّتهم السياسية. وحتى أصحاب الحرف من المواطنين الذين لا يملكون أرضًا، بدأوا يقومون بأعمال كثيرة ومتنوعة وجدوها متاحة في المدن. ولكن في هذه الفترة التي تسمى بالفترة الكلاسيكية، كان هناك تطوّر ملموس وهو الزيادة الضخمة لأعداد غير المواطنين، وظهرت طبقة تجارية جديدة من غير المواطنين كان قومها رجال الأعمال الأجانب.

خلاصة وخاتمة:

شكّلت بلاد الإغريق النواة التأسيسيّة للفكر والفلسفة الأوروبية والنواة الحصيفة للنظم السياسية فيها، وبعد هذا العرض الموجز للجانب السياسي في الحضارة الإغريقية، يمكننا أن نستلهم حجم التأثير الإغريقي في المنهج الأوروبي السياسي، وحجم التشابه في كثير من السلوك السياسي سواء على مستوى الداخل، ولكن الأكثر تأثيراً هي السياسات الخارجية.

فحضارة الإغريق مرّت في نظمها السياسية بمراحل متطوّرة اختلفت نسبة التطوّر فيها من مدينة دولة إلى أخرى، ورغم كثرة مدن الدول، إلا أنّها افتقدت إلى كيان سياسي موحّد بذر ذلك فيها بذور الانقراض والضعف المتقادم. وكانت بذور الحضارة الإغريقية وقوامها لا يقوم على العدالة وتحقيقها، بل على ثلاثيّة القوة والثروة والدين، «فكانت حقوق المواطنة المقيدة في المدينة الإغريقية والتي انعكست على التفكك الداخلي، والتشرذم من خلال الاستعمار وعدم القدرة على استيعاب المناطق المفتوحة»[1]، لذلك كانت القوّة والثروة أساس بنية الدولة، هذا فضلاً عن أنها لم تحقّق دولة الإنسان، التي يتساوى فيها المواطنون، وتتحقق فيها المواطنة بطرق سلسة وسهلة، بل على العكس، ضيّقت في شروط المواطنة وحصرتها في طبقات محدّدة، هم طبقة النخبة التي كانت بيدهم الثروة وبالتالي بيدهم السلطة.

وهمشت باقي أفراد المجتمع لأسباب طبقية وعرقية. وقامت الحضارة الإغريقية على التوسع والاستعمار، وهي ذاتها كانت بذور انهيارها وتلاشيها، لفشلها في قمع دول المدن التي تحتلها من تحقيق الاستقلال والاكتفاء الذاتي وكانت تتوسع للهيمنة السياسية دون القيام بعملية دمج للمدن الجديدة ومجتمعها.

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، ص 157.

ولم يخل مجتمع بلاد الإغريق من الطبقية الصارخة، ولم يخل من العبيد والاسترقاق، بل قام نظامه السياسي على أسس تكتنز في جوهرها الطبقية والتمييز وعدم المساواة؛ لأنّ منطلق المواطنة كان يرتكز في جوهره على القوة والثروة والقبيلة، فكان جوهر الدولة في بعد من الأبعاد قائمًا على مفهوم القبيلة والانتماء إليها رغم أنّ هذا الارتكاز بدأ يتلاشى تدريجيًا مع تقدم التجربة السياسية وتطور النظام السياسي خاصة في أثينا، وفي بعد آخر كان يعتمد على ملكية الأراضي وهو أيضًا بعدٌ تلاشى تدريجيًا مع تطور حركة التجارة والصناعة وتبدل طبقات المجتمع، وهي أبعاد كانت قبائلية من جهة ليست مدنية، واقتصادية رأسمالية من جهة أخرى وليست إنسانية محورها كرامة الإنسان والعدالة الاجتماعية. كحال إسبرطة الأوليجاركية وهذا لا يعني عدم تطور مفهوم الدولة، بل تطور مفهوم الدولة، ولكنه تطور ظاهراتي لا جوهري؛ لأنه حتى في أثينا الديموقراطية، كان من بيده السلطة طبقة من طبقات المجتمع، ومن يحق له التصويت هم المواطنون، وكما أسلفنا فإن شروط منح المواطنة كانت صعبة وضيقة ولا يحققها إلا قليل من أفراد المجتمع.

وهذا التضييق سينعكس بالتالي على طبقية النظام السياسي الذي لا يمثل كل الشعب، بل فئة من فئاته هم أقلية كانت تقرر مصير الأكثرية من أبنائه، ولكن بعد تشكل العصبة الفيدرالية كآخر مراحل التطور السياسي كانت المواطنة في العصبة موجودة في الوقت نفسه مع المواطنة المحلية في المجتمعات الأصغر، وكانت حقوق المواطنة المحلية مثل التصويت وتولي الوظائف، لم يكن ممارستها إلا في المدينة الوطن فقط، وكانت الحقوق السياسية في الدول الفيدرالية تمارس من خلال التصويت في مدينة ما لانتخاب من يمثلونها في العصبة[1].

وهذا لا يعني أن النظام السياسي في أوروبا مطابق لما في بلاد الإغريق ومتأثر تمامًا به، لكنّه شكل النواة التي أسست لدساتير الغرب، وتجربة الغرب البشرية طورت النظم السياسية لكن روحها ما زالت إغريقية خاصة فيما يتعلق بالتجارة والهيمنة على موارد الثروة، والتوسع الاستعماري الذي كان عسكريًا مباشرًا، واليوم ثقافيًا غير مباشر لكنّه يصبّ في صالح الاستعمار المباشر. ولقد تشكّلت العصب الاتحادية غالبا نتيجة المخاطر الخارجية على

[1]- روبرت ج ليتمان، التجربة الإغريقية، ص 159.

الوجود الإغريقي برمته، وكان أشدها التهديد الفارسي في ذلك الوقت، فكان ايسوكراتيس، نصير القومية الإغريقية العظيم، يحضّ الاغريق على أن يجدوا الوحدة في التعليم المشترك والنمط العقلي المشترك بدلاً من محاولة العثور عليها في الدماء المشتركة، ثم يتحدون بعد ذلك في مواجهة عدو مشترك هو فارس.

أي هو يدعو للتحرّر من عصبويّة الانتماء القبلي القائم علي الدم، إلى هوية وطنيّة جامعة تعزّز الانتماء للوطن القومي الاغريقي من خلال توحيد نظم التعليم واللغة والمنهج العقلي في التفكير، ومن ثم توحيد الصفوف تحت هوية الوطن في وجه الغزاة الخارجيين، وهو تفكير متقدّم يأتي في سياق تطوّر التجربة السياسية الإغريقية، وفي خواتيم الحضارة الاغريقية.

فقد كانت الاتحادات الفيدرالية عبارة عن صيغة كفء من صيغ الحكم، في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ الحضارة الاغريقية، وكان يمكنها تحقيق قدرًا من الوحدة في بلاد الاغريق، إلا أنّ فشلها كان بسبب ظهورها في وقت غير مناسب، وقت اتّسم بضعف بلاد الاغريق وتهديد فارس الوجودي لهم. لأنّها ظهرت في وقت فات فيه الأوان في إحداث أي تأثير حقيقي لها على بلاد الإغريق. فالمؤسّسات السياسية والاجتماعية في ذلك العصر عرقلت وجود الوحدة وحالت دون أن تكون هناك قاعدة اتحادية واحدة لبلاد الاغريق، لترسخ فكرة الانعزال السياسي، والاستقلال الذاتي لمدينة الدولة، والذي كان في العصر العتيق عائقًا أيضًا في التضييق على الحصول على المواطنة، ومن ثم كان سببًا من أسباب منع تشكل الاتحاد الفيدرالي.

لذلك فشلت المدينة الدولة سياسيًا؛ لأنّ خصوصيتها وفردانيتها حالت دون الوحدة، بل كانت سببًا في تشجيع الحروب داخل الدولة وفيما بين الدول بعضها مع بعض، لأنّها كانت تقوم في جوهرها على عصبة الدم المشترك من جهة، والطبقية الاجتماعية من جهة أخرى، وقوة ثلاثية هي الدين والثروة والسلطة من جهة ثالثة، فضلا عن التضييق في تحقيق مواطنة قائمة على المساواة.

فحتى المواطنة التي تحقّقت في الأعم الأغلب كانت مواطنة طبقية في روحها. لذلك عكست مدينة الدولة صفات الشخصية الاغريقية بفرديتها واستقلاليتها وانغماسها في

الذات، وهي بنظامها غزت ذلك ودعمته.

ولكن هذا لا يعني خلو المدينة الدولة من الإنجاز، فهي قد تكون فشلت سياسيًا؛ حيث إنّها لم تخلق نظامًا سياسيًا مستقرًا في مواجهة التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، إلا أنّ أكثر الابداعات العلمية والفلسفية والفنية ظهرت في ظل المدينة الدولة، فكثير من الثقافة الغربية يدين بأساسه إلى عبقرية المدينة الدولة الإغريقية، سواء في الفلسفة أو الفن أو الرياضيات وحتى الذرة، والأدب والطبيعيات.

فإذا كانت الوحدة عادة تجلب الانسجام الداخلي والسلام، ولكنها ليست بالضرورة بإمكانها أن تحقّق البقاء، أو القوة والحيوية، أو بإمكانها إحداث التأثير في ميدان الإنسان والمجتمع؛ لأنّ العلم والوعي سلاحان يؤسّسان بقوة لامتلاك القدرة والمكنة وبالتالي نفاذ البصيرة وفهم واقع الأمر ومتطلباته المترتبة عليه.

فنجاح الوحدة في جغرافيا محدّدة ضمن ظروفها التاريخية الخاصة، ليس بالضرورة دليلا على ضرورة نجاحها في جغرافيا مختلفة وضمن هويات مختلفة وظروف تاريخية مختلفة. فكان هناك فرق واضح بين أثينا على سبيل المثال وإسبرطة في نظام الحكم، فالأولى قامت على أساس نظام ديموقراطي للشعب فيه كلمة وخاصة للفقراء، وكان دور الفلاسفة والطبقة المتعلمة جليا في تطوير النظام الاجتماعي والسياسي، رغم ما شابه من إخفاقات كانت أسبابها بعضها خارجي وبعضها داخلي، بينما اسبرطة مثلت النظام القائم على عصبة الدم والثروة، وهو أشبه بنظام القبيلة إلى حد ما، حيث كانت الأقلية الغنية والمرتبطة بأواصر قبلية عائلية كبيرة تحكم باقي الشعب، وتتحكم في القرار ومصادر الثروة، بالتالي تتمثل قراراتها وقوانينها بما يحقّق لها نفوذها ومصالحها على حساب مصلحة المواطن الاسبرطي، والذي كان قليلا ما يتمتّع بحقوق سياسية مكينة.

إنّ مقومات الدولة القوية الناجحة من خلال التجربة الإغريقية يمكننا أن نستخلصها وأن تتمثل في التالي:

1. نظام سياسي فاعل ومقتدر وحيوي، منتخب من الشعب ضمن اليات انتخابية مدروسة، ومنظومة معايير غير طبقية، تضمن وصول الكفاءات العلمية والأخلاقية للحكم.

2. المواطنة التي تحقق المساواة على ضوء العدالة، لأن المساواة فرع من فروع العدالة.

3. الاكتفاء الذاتي والمكنة العلمية والعسكرية.

4. القدرة يتم بناءها ضمن مضلع ثلاثي مكين:

الأول: العلم والأخلاق وهو ما يمكن تحقيقه بالنهوض بالمنظومة التربوية والتعليمية.

الثاني: الاكتفاء الذاتي في كافة المجالات التي تحقق الأمن الغذائي والتنمية البشرية، والاستقرار الاجتماعي.

الثالث: الندية، الاستطاعة، والتجهيز العسكري، أي القوة الرادعة لا المعتدية، والتي تعمل على حفظ أمن الداخل، ليس باستخدام القوة ضد الشعب، ولكن من أجل الشعب واستقراره الاجتماعي، والحفاظ علي الدولة من أعداء الخارج والداخل.

5. الاستقرار السياسي الذي هو غاية أي نظام سياسي.

تمكين النموذج المتمثّل في تقديم نظام سياسي واجتماعي واقتصادي يفرض وجوده من خلال التطبيق ونجاح التطبيق، يكون من خلال بناء دولة قويّة عادلة، متقومة بأسس ومبادئ أخلاقية وقيم ثابته على المستوى النظري ونسبية على المستوى العملي، تأخذ في حسبانها نظام الضرر والضرورة، والمصلحة والمفسدة، والأهم والمهم، بل تبني لها قاعدة معرفية رصينة، يكون جزء منها التجربة البشرية كرصيد معرفي، وليس كلها تعتمد معرفيًا على التجربة البشرية في بناء نظام سياسي عادل.

المصادر والمراجع

1. - **سعد** الحاج، البحث العلمي الماهية والمنهجية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2014.
2. السيرورة والصيرورة، الكاتب والمفكر الفلسطيني سلامة كيلة.
3. الفكر السياسي في الإسلام ـ المبادئ والأطر، عباس عميد زنجاني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.
4. الحضارات القديمة، ج 1، إشراف: ف. دياكوف- س. كوفاليك، ترجمة: نسيم واكيم اليازجي، دار علاء الدين ط 1 عام 200.
5. اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، د. لطفي عبد الوهاب، دار المعرفة الجامعية، ط 1991، بتصرف.
6. تاريخ جزيرة كريت والمهاجرين، د. علي إبراهيم بكراكي، دار المنى، ط 1، 2004م، الهامش.
7. قصة الحضارة، المجلد الثاني، ويل ديورانت، بتصرف.
8. الإغريق تاريخيهم وحضارتهم من حضارة كريت حتى قيام إمبراطورية الاسكندر الأكبر، دكتور سيد أحمد علي الناصري، ط 2، دار النهضة العربية.
9. موسوعة العلوم السياسية، جامعة الكويت.
10. شريعتي، علي، تاريخ الأديان.
11. حميد عنايت، الأفكار السياسية في الإسلام المعاصر.
12. التجربة الإغريقية، حركة الاستعمار والصراع الاجتماعي 800-400 ق.م، روبرت ج ليتمان، المجلس الإعلامي للثقافة 200.
13. التاريخ اليوناني، العصر الهللادي، دكتور عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية.
14. مقدمة في نظم الحكم عند اليونان والرومان، دراسة في حضارة البحر الأبيض، لطفي عبد الوهاب يحيى، مطبعة دار النشر بالإسكندرية، الطبعة الثانية.
15. الاستقرار السياسي مفهومه وتجلياته ومؤشرات قياسه، د. بهاء الدين مكاوي.

أثينة من الأسرة إلى نشوء دولة المدينة

(منذ العصر الهللادي 1900 ـ وحتى نهاية العصر المظلم 800 ق.م)

د. خليل سارة[1]

مقدمة

لا يقتصر التاريخ على دراسة الأحداث الماديّة والأنظمة، فهدف دراسته الحقيقي هو النّفس البشريّة. من هذا المنطلق ينبغي علينا أن نُبيِّن الأسس والمبادئ التي قام عليها المجتمع الإغريقي في العصور الأولى لنشأته، منذ بداية الأسرة وحتى ظهور دولة المدينة في القرن الثامن ق.م، وعن تصوّراته عن الحياة، وعن الموت، وعن الحياة الأخرى، وعن الجوهر الإلهي. فإنّنا نلاحظ أنّ هناك ارتباطًا وثيقًا بين هذه الآراء أو التصوّرات الدينيّة، وبين القواعد القديمة للمجتمع الإغريقي والقانون الخاص الذي يُنظّم عمل الأسرة وحياتها وعاداتها، بين الشعائر المشتقّة من هذه العقائد التي ارتكزت عليها الأسرة الإغريقيّة.

فالديانة كانت القاعدة والركيزة الأساسية لأيّ تنظيمٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ، فهي التي كوّنت الأسرة، وأقامت الزواج، وأباحت السلطة الأبويّة، وحدّدت درجات القرابة، وقدّست حقّ الملكيّة، وحقّ الإرث. وإنّ هذه الديانة هي نفسها التي وسّعت الأسرة وكوّنت جماعة أكبر منها وهي العشيرة، ومن عشائر عدّة تكوّنت القبيلة ومن قبائل عدّة تكوّنت المدينة التي تلقّت مبادئها وقواعدها وعاداتها ومناصب الدولة فيها وفقًا لأحكام الديانة.

لكن مثل هذه العقائد القديمة التي كوّنت الأسرة والمجتمع والدولة لم تبقَ على حالها، بل تبدّلت مع الزمن أو زالت، وتبدّل معها القانون الخاصّ للمجتمع والأنظمة السياسيّة بفعل سلسلة الانقلابات والتحوّلات الاجتماعيّة، وأخذت تتّبع تحوّلات الإدراك العقلي والفكري بعيدًا عن الديانة وعقائدها القديمة منذ القرن السابع ق.م.

---

[1]- أستاذ التاريخ اليوناني في جامعة دمشق.

أوّلاً: الموقع الجغرافي العام لبلاد الإغريق

تقع بلاد الإغريق في جنوبي القارّة الأوروبيّة في الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة البلقان، تحدها ألبانيا ومقدونية وبلغارية من الشمال، وتركيا من الشمال الشرقي في أوروبا، وبحر إيجة من الشرق، والبحر المتوسط من الجنوب، والبحر الأيوني من الغرب.

وهكذا ساعد الموقع الجغرافي لبلاد الإغريق على القيام بدور المستورد لحضارات الشرق والموزع لها لباقي أنحاء أوروبا. وهي بذلك تحتلّ موقعًا ممتازًا بين قارات العالم: أوروبا وآسيا وإفريقيا.

ولم يقتصر التاريخ الإغريقي على شبه جزيرة الإغريق القاريّة فقط، بل كان يشمل بلادًا كثيرة هاجر إليها الإغريق واستقرّوا فيها. وقد كانت جزر بحر إيجة وشواطئ آسيا الصغرى المجاورة تؤلّف دومًا جزءًا متمّمًا لبلاد الإغريق؛ إذ سكنها الإغريق منذ بدء تاريخهم، كما أسّسوا المستعمرات في جنوبي إيطاليا وصقليّة، وفي برقة وعند مصبّ نهر النيل ثم شواطئ بحر مرمرة والبحر الأسود في الشمال، ثم في إسبانيا وفرنسا في الغرب. ومن هذا المنطلق يمكن القول: إنّ شبه جزيرة الإغريق القاريّة نفسها التي نعرفها اليوم لم تكن سوى جزء صغير من العالم الإغريقي؛ لأنّ الإغريق سكنوا في كلّ الجهات من البحر المتوسّط الذي أصبح حقًّا بحيرة إغريقيّة.

وإذا أردنا أن نتعرّف على العوامل الجغرافيّة التي أثّرت في تطوّر الفكر الحضاري الإغريقي، فلا بدّ لنا من البحث أوّلاً: في حوض البحر المتوسط كلّه، وتبيان خصائص وسمات هذا البحر، ثم نتعرّض ثانيًا: إلى دراسة السلسلة الجبليّة الإغريقيّة وتبيان سماتها وخصائصها الأساسية التي أدّت إلى الانفصاليّة السياسيّة لبلاد الإغريق وتأثيرهما في الفكر الحضاري الإغريقي.

1. حوض البحر المتوسط:

يقول هيرودوت في مميّزات حوض البحر المتوسط «**إنّ بلاد الإغريق لديها أفضل مناخ وأكثره اعتدالاً**»[1]. فلطافة المناخ، واعتدال الطقس، وصفاء الجو، وتعاقب الفصول بانتظام،

[1]- جورج رولنسون، تاريخ هيرودوت، ترجمة: عبد الإله الملاح، مراجعة: أحمد السقاف وحمد بن صراي، لا ط، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 2001، ص 267.

وحرارة معتدلة. كلّ ذلك شكّل إقليمًا ممتازًا يتجلّى بالدرجة الأولى ببحر إيجة، «**وبحر إيجة هو الجزء الشمالي من القسم الشرقي للبحر المتوسّط الذي يقع بين شبه جزيرة البلقان في الغرب وآسية الصغرى في الشرق**». هذا الإقليم يتّصف بالجفاف في الصيف وباعتدال الطقس في الشتاء وبصفاء الجو، وإشعاع النور في كلّ الفصول، ما ينعش الأجسام ويثير النشاط ويزيد فعاليّة الحياة. ويقول أبقراط (**HIPPOKRATES**) أحد أشهر أطباء الإغريق في خصائص إقليم بحر إيجة: «**إنّ إقليم بحر إيجة يُعدّ مثلاً أعلى في الاعتدال واللّطافة، وإليه يرجع الفضل في قوّة الإغريق وشجاعتهم وحبّهم للحريّة**»[1].

فالبيئة الطبيعية في بلاد الإغريق وجمال المناظر وتنوّعها، كلّ ذلك أثّر تأثيرًا عميقًا في نفسيّة الإنسان وعواطفه وذوقه ونظرته إلى الكون، وجعله يتطوّر بصورةٍ أسرع من غيره وأكثر انسجامًا، فزرقة السماء وتلألؤ الشّمس وصفاء الجوّ في الربيع والصّيف ما يؤدّي إلى وضوح الأشكال الطبيعيّة وضوحًا جليًّا للمفكّر والرسّام والنحّات والعالم، وبذلك تبرز رسومها بمنتهى الدقّة والتحديد، وهذا ما جعل آثار النحت القديمة بعيدة عن الفوضى والاضطراب ويتجلّى فيها الهدوء والبساطة، ويقول الفيلسوف العربي الكبير محمد كامل عياد في هذا الصدد:

«**ولا غرابة في أن يخضع البشر في العصور القديمة لتأثير الطبيعة أكثر مما في الوقت الحاضر، فكان من حسن حظّ الإغريق أنّهم عاشوا في بلاد جميلة، كل شيء فيها يوحي بالثقة والاطمئنان تجاه الطبيعة ويدفع الإنسان إلى دراستها واكتشاف أسرارها.. وهكذا اعتاد الإغريق على الملاحظة والبحث والتأمّل، فازدادت لديهم الرغبة في المعرفة واتّسع أفق الخيال.. كما أنّ ضرورات المعيشة كانت تفرض عليهم التقيّد بالواقع، فساعد ذلك على تقوية الاتّجاه العملي عندهم إلى جانب البحث النظري، وبذلك تهيّأت الأسباب لانكشاف التفكير المبدع**»[2].

ومن الناحية الجيولوجيّة، يتداخل بحر إيجة مع الأرض في عدد من الخلجان على شواطئ شبه جزيرة الإغريق وآسية الصغرى، وتتداخل الأرض في أعماقه بالرؤوس، وتشكّل أشباه الجزر ثم الجزر التي تتناثر وتتوزّع في كلّ أنحائه والتي لا يقلّ عددها عن الخمسمئة.

---

[1]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ط1، دمشق، 1969، ج1، ص35.

[2]- م.ن، ص35.

وكان لكلّ جزيرة وكلّ رأس وكلّ خليج في بحر إيجة شكل خاص، ومظهر مختلف يمكن تمييزها عن بعد. وبذلك أصبحت هذه الجزر والخلجان نقاطًا معيّنة وإشارات طبيعية (**نقاط علاّم**) لا مجال للضلال بينها. فهي تهدي البحّارة إلى معرفة الطريق، وتغنيهم عن البوصلة التي لم تكن قد اكتشفت بعد.

والجزر في بحر إيجة قريبة بعضها من بعض إلى حد أنّ الانتقال من إحداها إلى الأخرى لا يستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين، وكانت تستخدم في بادئ الأمر مراكز حصينة لقراصنة البحر وصيادي الأسماك، ومن جهة أخرى كانت هذه الجزر بمثابة جسر بحري يربط آسية وأوروبا. إضافة إلى ذلك، ومن دون شك، كانت الجزر الكبرى الممتدّة على طول البحر المتوسط من غربيه إلى شرقيه؛ مثل سارديني ومالطة وصقلية وكريت وقبرص، نقاط ارتكاز ملاحية بين شواطئ القارات الثلاث التي تحيط بهذا البحر.

ويتميّز البحر المتوسط بثلاث سمات رئيسيّة هامّة شجّعت الإغريق على ركوب البحر وسهّلت لهم اجتيازه من دون خوف أو ملل، وهي:

أ- الهدوء الذي يمتاز به البحر المتوسّط، والذي يتّصف به بحر إيجة خاصّة، فهو من أشدّ بحار العالم هدوءًا ما جعل هذا البحر عنصرًا أساسيًّا في حياة الإغريق في تجارتهم، وملاحتهم، وهجرتهم، وسياستهم، وفي أدبهم، وأغانيهم، حتى إنّ هذا البحر كان في حقيقة الأمر لا يعدو أن يكون خليجًا، ولكنّه متّسع بعض الشيء؛ فاليابسة تحدّه من الغرب والشمال والشرق مثل أي خليج آخر. ومن هنا جاء الهدوء الذي يسود مياهه في أغلب مواسم السنة، وهو هدوء ساعد الإغريق على ركوب البحر في فترةٍ مبكرةٍ من تاريخهم ساعين لتعويض ما كانوا يجدون في بلادهم الأصليّة من ضيق في موارد الحياة.

ب- خلوّ البحر المتوسّط من حركات المدّ والجزر القويّة. وقد يسّر ذلك استخدام الموانئ والمراسي وبناء الأحواض وتخطيط المدن.. ولا تجد المراكب فيه أيّة صعوبة كبيرة عند الإقلاع من الميناء أو الرسو على الشاطئ.

ج- وجود التيّارات المائيّة الدائمة في بحر إيجة التي كانت تساعد السفن على السير في الذهاب والإياب[1].

أمّا مناخ البحر المتوسّط، فهو ثابت لا يتغيّر من يوم لآخر، أو من ساعة إلى ساعة، كما هو الحال في مناخ المناطق الصحراويّة الذي يخلّ بتوازن الجسم والفكر معًا؛ ولكنّه شديد الاختلاف من فصل إلى فصل، وهذه التغييرات المناخيّة بين الفصول، تعرّض الإنسان لبعض المتاعب الصحيّة، وتكون مصدر معظم الأمراض على حد قول هيرودوت[2].

وكان من نتائج وعورة التضاريس البريّة الإغريقيّة، أن اتّجه الإغريق إلى البحار وسيلة للاتّصال، إذ كان الأسهل على الإغريق أن يركبوا البحر منطلقين فيما وراءه، لا أن يتحمّلوا مشقّة اجتياز المرتفعات والجبال والوديان، ومن ثمّ كانت الحضارة الإغريقيّة حضارة بحريّة تجاريّة عالميّة منذ بدايتها. وكان الأسطول، وخاصّة في أثينة، عاملاً هامًا من عوامل الحضارة والتجارة، بل ارتبط اسمه بالديمقراطية الأثينية، وهكذا وجد الإغريق أنّ من السهل أن يعملوا بالبحر والتجارة، ومن ثم يسافرون إلى جهات بعيدة حاملين معهم، بعد عودتهم، بذورًا وأفكارًا من حضارات أخرى طوّروا بها حضارتهم، بعد أن أضافوا إليها كلّ ما استطاعوا أن يصلوا إليه عن طريق قدراتهم الخاصّة[3].

وخلاصة القول: كان لعامل المناخ أثره الكبير في الحضارة الإغريقية، فطقس البلاد الدافئ المعتدل وشمسها المشرقة طوال العام إلى جانب تنوّع التراكيب الجغرافيّة من جبال، وسهول، ووديان، وأنهار، ساعد على نمو العقلية الإغريقية ونضوجها، وبفضل هذه الامتيازات الطبيعية، أصبح الإغريق قراصنة مجازفين، وبحّارة قديرين، وتجّارًا ماهرين، وقد تفتّحت أذهانهم في الأسفار البحريّة والمغامرات التجاريّة، فتعرّفوا على البلاد المعمورة، واختلطوا بالأمم المتمدّنة، وتعلّموا فنّ الملاحة وبرعوا في صناعة السفن. ويُعرف عن الإغريق قدرتهم على الدّمج بين الحياة البسيطة والتفكير الرفيع، فكان النّاس سواء في الريف

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، م.س، ص 25 ـ 27.

[2]- جورج رولنسون، تاريخ هيرودوت، م.س، ج2، ص77، ج3، ص23؛ توكوديدس: تاريخ الحرب البلوبونيزية، ترجمة: دينا الملاح وعمرو الملاح، لا ط، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 20037ـ 87ـ 1.

[3]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق، ط2، القاهرة، 1985، ص13.

أو في المدينة يقضون جانبًا كبيراً من نهارهم خارج البيت. وقد أتاح ذلك لهم فرصة الالتقاء المستمر في الحقل أو السوق العامة (**AGORA**) أو في المحكمة (**DIKASTERION**) أو في الجمعيّة الشعبيّة (**EKKLESIA**) أو مجلس الشورى (**BOULE**) أو النادي الرياضي الثقافي (**GYMNASIUM**) حيث يمارسون مهنهم، أو يؤدّون واجبهم، أو يروّحون عن أنفسهم. وجميع هذه المنظمات الرئيسية في الحياة الإغريقية كانت تنعقد في الخلاء ومنه المسرح الإغريقي (**THEATRON**). ولم يكن الإغريقي يأوي إلى منزله إلا في ساعات الأكل والنوم. ولم يكن يركن إلى بيته وأسرته وقتًا طويلاً ولو في فصل الشتاء، الذي كان عند الإغريق فترة توقّف نسبي عن النشاط؛ إذ إنّ الإغريق نظّموا حياتهم وفقًا لجوّ الصيف لا لجوّ الشتاء، فقد كانوا يتوقّفون عن القتال، ويتجنبون ركوب البحر[1].

وفي الحقيقة، إنّ البحر المتوسط هو الذي خلق، بتشابكه مع الأرض، وحدة العالم الإيجي، وهو الذي خلق وحدة اقتصاديّة واسعة تعلّم منها الإغريق كيف يبنون السفن منذ الألف الثانية ق.م، ويركبون البحر لممارسة صيد الأسماك والتجارة، أو العمل بالقرصنة، أو تطهير البحر منها، أو تأسيس المستعمرات. فالبحر كان عاملاً جوهريًّا في ابتداع حضارة لا تتّسم بطابع دويلة بحدّ ذاتها، بل حضارة إغريقيّة تخطّت حدود الدويلات، وأشعرت الإغريق جميعًا بأنّهم شعب منطقة واحدة، أو وطن واحد هو بلاد الإغريق.

2. أثر حوض البحر المتوسّط على التفاعل الحضاري مع الإغريق

إنّ أهميّة الموقع الجغرافي العام لبلاد الإغريق، ودور حوض البحر المتوسط، تتأتّى من حركة التفاعلات الحضاريّة مع الشرق الأدنى القديم، والتي حدثت على مرّ العصور بين هاتين الحضارتين؛ لأنّ الحركة التاريخيّة والتيّارات الحضاريّة لا تعرف الحدود الجغرافيّة، ولا تتوقّف عندها؛ سواء أكانت هذه الحدود قوميّة أم قاريّة، وإذا كان هذا ينطبق على المناطق كلّها، فإنّه ينطبق على المنطقة التي يوجد فيها المجتمع الإغريقي؛ إذ لا يُمكننا إطلاقًا أن نفصل بين هذا المجتمع وبين القارتين الآسيوية والإغريقية، وخاصّة أنّ حوض

[1]- إرفين شرودينجر، الطبيعة عند الإغريق، ترجمة: عزت قرني، مراجعة: محمد صقر خفاجة، لا ط، القاهرة، دار النهضة العربية، 1962.

البحر المتوسّط، كان يُشكّل المجال الذي يمكن للمجتمع الإغريقي أن يتعامل أو يحتكّ مع غيره من المجتمعات أو الحضارات بسهولة ويسر كبيرين.

وتتعدّد مظاهر التفاعل الحضاري للمجتمع الإغريقي مع حضارة الشرق الأدنى القديم بأشكالٍ كثيرةٍ ومتعدّدة: فمن **الناحية البشريّة،** نجد أنّ المنطقة التي يشكّل المجتمع الإغريقي جزءًا من سكّانها، هي مسرح لحركةٍ دائمةٍ دائبةٍ لشعوب وأقوام وقبائل عديدة كانت تدور في نطاق، لم يقتصر على بلاد الإغريق فحسب، وإنّما العناصر البشريّة «**الأيونية والأيولية والدورية**»، التي تَكوَّن منها الشعب الإغريقي، عرفت طريق الهجرة إلى شواطئ آسية الصغرى واستقرّت فيها. ومن **الناحية الحضاريّة،** لا يمكن أن نفصل بين الحضارة المينويّة التي ظهرت في كريت، والحضارة الميكينية التي ظهرت في بلاد الإغريق من جهة، ولا يمكن الفصل بين هاتين الحضارتين وبين الحضارات المصريّة على الشاطئ الإفريقي، والسوريّة على الشاطئ الآسيوي من جهة أخرى. وفي **الجانب السياسي،** كان حوض البحر المتوسّط أو جزء منه يشكّل المجال الأوّل لتكوين الإمبراطوريّة المصريّة، إذ مدّ تحوتمس الثالث نفوذه إلى ربوع بحر إيجة، وشكّلت آسية الصغرى وسوريّة ومصر، ولايات في إمبراطورية الإسكندر المقدوني على شاطئ البحر المتوسط. وفي **مجال الدين،** نجد عبادة آمون الإله المصري تنتشر خارج مصر ولا سيّما بين الإغريق، ونجد لهذا الإله مكانته في أثينة التي عرفت عبادته قبل الثلث الأوّل من القرن الرابع ق.م، ويقرّنه الإسكندر المقدوني بالإله زيوس (**Zeus**) كبير آلهة الإغريق. وفي **الجانب الثقافي** نجد أنّ الثقافة الإغريقيّة لم تقتصر على بلاد الإغريق في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان، وإنّما اتّخذت مواطن لها في أكثر من مكان على الشواطئ الآسيويّة التي شهدت مولد هوميروس، الذي تُنسب إليه الملحمتان (**الإلياذة والأوديسة**) وهي أوّل ما ظهر من أدب الإغريق. ومن جهة أخرى شهدت الشواطئ التي دار فيها حصار طروادة منطلقًا لهاتين الملحمتين، وعلى الشواطئ الإفريقية ظهرت مدينة الإسكندريّة أحد أبرز مراكز الإشعاع الثقافة، كذلك الأمر في ربوع سورية على الشاطئ الآسيوي، حيث ازدهرت في العصر المتأغرق (**عصر ما بعد الإسكندر أو العصر الهللينستي**) مراكز الثقافة الإغريقية في كلّ من إنطاكية وأفامية والرها والجزيرة.

وقامت التجارة بدور هام في توطيد الروابط الحضارية بين شواطئ البحر المتوسط.

وأدّى الفينيقيون دورًا هامًّا في هذا المجال، من خلال ما ورد ذكرهم في الأوديسة والمصادر الأدبية الإغريقية، التي تُعرّفنا على الدّور الهام الذي قام به الفينيقيون من نشاطات تجاريّة وتبادل السّلع التموينيّة مع الشواطئ الإغريقيّة نحو الألف الأولى ق.م، حيث أسّسوا كثيراً من المراكز التجارية في جزر بحر إيجة وشواطئه، وبالدرجة الأولى في **رودس، وقوس، وخليج كورنثة**. وتعلّم الإغريق أشياءً كثيرةً من الفينيقيين، مثل صناعة السفن الكبيرة والصباغة. ويبدو لنا كثيراً تأثير الحضارة الفينيقيّة في الآداب والديانة الإغريقيين، حيث نجد شخصيات ومواقف وتعابير في الأدب الأوغاريتي تنمّ عن تأثّر الأساطير الإغريقيّة بها. إضافة إلى اقتباس الإغريق الحروف الأبجديّة من الفينيقيين، ووائموا بين هذه الأبجدية وبين طبيعة لغتهم وطوّعوها لها، بل جعلوها أكثر مرونة، وبدأوا باقتباسها منذ القرن الثامن ثم انتشرت بسرعة في القرن السابع ق.م.

إذًا، يمكن القول، إنّ النّشاط الحضاري هو محصّلة تأثّر هذا المجتمع بغيره من المجتمعات وتأثيره فيها. وهذا التأثّر والتأثير لا يمكن أن يتمّ إلا إذا كان هناك اتّصال سهل بين هذه المجتمعات يؤدّي إلى سهولة التعامل والاحتكاك بها، بصرف النّظر عن الحدود القوميّة لهذا المجتمع أو ذاك، حيث أوضحت الدراسات القديمة والحديثة تأثّر الإغريق بحضارات الشرق الأدنى تأثّرًا واضحًا وكبيراً في جميع جوانب الحضارة الإغريقية. فلذلك فإنّ الروابط الحضاريّة في حوض البحر المتوسّط، تعدّت حدود الاتّصال العادي لتظهر في شكل آخر، هو شكل الهجرات البشريّة الإغريقيّة التي بدأت تأخذ طريقها إلى شواطئ هذا البحر منذ أواخر القرن الحادي عشر، واستقرّت منذ القرن الثامن ق.م بعددٍ كبيرٍ من جاليات هذا الشّعب على شواطئ القارّات الثلاث المتّصلة بالبحر المتوسط، وظهور كثير من المدن الإغريقيّة التي أقامها هؤلاء المهاجرون على الشواطئ الآسيوية، ومنها جاب الإغريق بقوافلهم التجاريّة أرجاء البحر المتوسط، بعد أن ورثوا فنّ الملاحة والتجارة عن الفينيقيين لينقلوا السّلع التجاريّة ومعها حضارتهم من شاطئ إلى شاطئ وخاصّة الشواطئ الإغريقية؛ بسبب التداخل الكبير بين الشواطئ الإغريقية والآسيوية والتقارب الجغرافي فيما بينهما. وكان لهذا التداخل الحضاري، الذي شغل عصور عدّة وامتدّ لآلاف عدّة من السنين، كان فيه بالنسبة لحضارة الشرق الأدنى القديم جانب العطاء والتأثير، وجانب الأخذ والتأثّر، وهما الجانبان اللّذان تتكوّن منهما أيّ شخصيّة حضاريّة.

3. السلسلة الجبليّة وأثرها في تكوين (دويلة المدينة)

تتميّز بلاد الإغريق بأنّها ليست بلادًا بحريّة فقط، بل هي جبليّة أيضًا، تتكوّن من مجموعة جبال مختلفة الأشكال، متداخلة، كثيرة الانكسارات والانهدامات، تختلف فيها المنخفضات والمرتفعات. وتبلغ نسبة الأراضي الجبليّة نحو ثمانين في المئة من مجموع مساحة بلاد الإغريق البالغة 130 ألف كم^2. وقد تعرّضت السلسلة الجبليّة الإغريقيّة منذ الأزمنة الغابرة إلى كثير من حوادث الزلازل والبراكين التي أدّت إلى عمليات الانهدام والانكسار والتصدّع التي تعاقبت على جبال الإغريق ومزّقت شملها، وكان من نتيجة ذلك:

1. انفصال عدد كبير من الجزر عن بقيّة الأرض.

2. ساعدت هذه الحوادث الجيولوجية على نفوذ البحر إلى داخل البر من الأطراف كلّها في خلجان كثيرة وعميقة.

3. كانت حوادث الانهدام والانكسار سببًا في تجزئة البلاد كلّها إلى عدد لا يُحصى من السهول والوديان.

والسهول الصغيرة الضيّقة من الأرض، التي تفصل بينها جبال عالية تعزل بعضها عن الآخر، ليست صالحة لسكنى جماعات كبيرة من البشر تستطيع تأليف دولةٍ واحدةٍ باستثناء مقاطعة تسالية. إذ لم يكن في بلاد الإغريق أيّ سهل يزيد طوله على (20) كم وعرضه على (12) كم. فأكثر الوديان والسهول تشبه خنادق ضيّقة تنهمر منها السيول أو تجري فيها بعض الأنهار الصغيرة[1].

يتبيّن من ذلك كلّه أنّ الطبيعة قد فرّقت ما بين بلاد الإغريق ومزّقتها إلى أجزاءٍ منعزلةٍ لا يمكن أن يسكن في كلّ منها سوى جماعة محدودة من البشر. وهذا ما شجّع الرّوح الانفصاليّة الانعزاليّة، ودفع إلى تأسيس مجتمعات صغيرةٍ مستقلّةٍ قائمةٍ بذاتها.. وقد تطوّر كلّ من هذه المجتمعات الصغيرة بحيث أصبح كيانًا قائمًا بذاته، لا تتّسع مساحته في أغلب الأحوال لأكثر من مدينة واحدة، يحيط بها امتداد بسيط من الأرض، يقوم فيه عدد قليل من القرى التي يمكن أن نعدّها ضواحي لهذه المدينة، وربّما أُنشئ ميناء إذا كانت المنطقة مطلّة على البحر.

---

[1]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص30 ـ 32.

ومن خلال ما سبق بإمكاننا أن نعدّ تعريفًا لـ(**دويلة المدينة الإغريقية**).. وهكذا قام في بلاد الإغريق في العصر القديم نظام (**دويلة المدينة**) التي عُرفت في مجال الحديث عن النظام السياسي الإغريقي باسم البوليس (**POLIS**) أو الدويلة التي تقوم عادة في مدينة واحدة والمنطقة المحيطة بها[1]. وأصبح على كلّ مدينة (**POLIS**) أن تعتمد على نفسها اعتمادًا ذاتيًّا من الناحية الاقتصاديّة (**AUTARKIA**) وتشبّثت كلّ مدينة باستقلالها السياسي (**AUTONOMIA**) وتمسّكت بالحريّة (**ELEUTHERIA**)، إذ إنّ العوائق الطبيعيّة الجغرافيّة وقفت حائلاً دون قيام وحدة سياسية شاملة، بل جعلتها مدنًا متفرّقةً متصارعةً ومتنافسةً، والحرب بينها ظاهرة طبيعية على مرّ التاريخ. وكان ذلك على حساب الحضارة الإغريقية نفسها التي دفعت باهظًا نتيجة للحروب المتعدّدة.

ومن خلال ما سبق، نستطيع أن نستخلص أهمّ المزايا السياسية التي اتّصفت بها جبال الإغريق، وهي أنّها كانت تُشكّل حجر عثرة في طريق الوحدة القوميّة، وتعمل كحواجز طبيعية بين السهول وتحول دون سهولة الاتّصال بين الجماعات المختلفة، وتجعل التنقّل أمرًا شاقًا بين مكان وآخر. وهذا ما حال دون وحدة الإغريق وجمع كلمتهم في جميع أدوار تاريخهم باستثناء الحروب وبعد كثير من التردّد والمعارضة.

ثانيًا: الاختصاص الجغرافي وفقر التربة الزراعية

تتميّز بلاد الإغريق بأنّها فقيرةٌ مجدبةٌ، وجبليّةٌ صخريّةٌ تنقصها التربة الخصبة، وهذا لا يتناسب مع ازدياد عدد السكان. فلذلك فرضت الظروف الطبيعية لبلاد الإغريق نفسها في جعل المناطق الزراعيّة تختصّ بزراعة هذا المحصول أو ذاك. ونعرف من خلال المصادر، أنّ التربة الصالحة للزراعة كانت قليلة المساحة إذا ما قيست بالمناطق ذات التربة الخصبة

---

[1]- جدير بالذكر أن نشير إلى أنّ نظام (دويلة المدينة) أوجدته أوّلاً شعوب الشرق الأدنى القديم خاصة (السومريون) منذ الألف الثالث ق.م، وهو نظام لا يختلف كثيراً عن النظام الذي ساد بين الإغريق. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن نشير إلى أنّ السومريين كانوا أوّل من أوجد نظام (مجلس الشيوخ) و(مجلس المحاربين) و(المجلس الشعبي). وهذا ما تؤكّده مدينة أوروك. ويذكرنا بالنظام الذي أقام عليه الأثينيون نظام الحكم المسمى (الديمقراطية) وهذا يبيّن مدى مساهمة حضارات الشرق القديم في الحضارة الإغريقية.

انظر: سيد أحمد علي الناصري، الإغريق، م.س، ص12.

وهذا ردّ واضح وموثق مصدرياً ووثائقياً على عنصريّة علماء الغرب الذين يزعمون أنّ الحضارة الإغريقيّة صافية ونقية لا تأثير عليها من أية حضارات شرقية ولا غبار عليها في صفاء عرقها ونقاوته.

التي ذكرها توكوديدس وهي: تسالية، بويوتية، الجزء الأكبر من البلوبونيز ما عدا أركادية[1]. أمّا أراضي وسط بلاد الإغريق، فكانت ذات طبيعة جبليّة قليلة التربة لا تصلح للزراعة.

وفي مجال المحاصيل الزراعية واختصاصاتها، زرعت الحبوب ولا سيّما القمح في بويوتية إضافة إلى محصول الشعير، وقد شكّل هذان المحصولان مع الزيتون والعنب (**ثالوث البحر المتوسط**)، ومنهما كان يصنّع الخبز والنبيذ والزيت[2].

وكان أهمّ هذه المحاصيل (**القمح**) الذي يُسمّى بالإغريقية (**SITOS**) ويزرع هذا المحصول في أكتوبر ويحصد في يونيو، وكان هو المحصول الرئيسي عند الإغريق، إذ كانوا يصنّعون منه الخبز، وكان يزرع عادة في أيّ بقعة تصلح لزراعته، ولكن إنتاجه كان قليلاً جدًا لا يستوعب حاجة السكان، ولم يشكّل إلا العشر من الإنتاج العام للحبوب، في حين كان الشعير يشكّل تسعة أعشار.

وبعد القمح يأتي (**العنب**) الذي عرفته بلاد الإغريق منذ فجر تاريخها، وكان يزرع في أيّ مكان، إذ كانت كلّ منطقة تزرعه للاستهلاك المحلي، وأفضل أنواعه زُرعت في جزر خيوس ولسبوس وتاسوس ورودوس، وكان هو مصدر الشراب القومي عند الإغريق، وقد كان له دور كبير في حياتهم الاجتماعية والدينية[3].. وبمرور الزمن ارتبط اسم ديونيسيوس (**DIONISIOS**) بالخمر حتى صار إله النبيذ، ونرى صورته على الأواني الفخارية مقرونة بغصون الكروم. وقد حصل الخمر المنتج في هذه المناطق على شهرة واسعة ممتازة في مناطق البحر المتوسط، وكان من المواد الرئيسية المعدّة للتصدير إلى البلدان المجاورة والنائية[4].

وأمّا (**الزيتون**) فكان زيته يقوم في حياة الإغريق مقام الزبد والصابون والغار، أي كان يستعمل للطهو والغسل والإضاءة فضلاً عن استعماله كمرهم عطريّ مستحبّ في المناخ الجاف. لقد كان أساس الوجبة الغذائية الإغريقية يتألّف من الخبز والزيتون أو الخبز والجبن

---

[1]- توكوديدس، تاريخ الحرب البلوبونيزية، م.س، ص1، 2، 3.

[2]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص37.

[3]- ألفرد زيمرن: الاقتصاد عند الإغريق في القرن الخامس ق.م، ترجمة: عبد المحسن الخشاب، لا ط، القاهرة، 1953، ص 47.

[4]- خليل سارة: دراسات في الاقتصاد اليوناني في القرنين الخامس والرابع ق.م، لا ط، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 1988، ص52.

المصنوع من لبن الماعز[1]. وكان الزيت يستعمل في كلّ طعام تقريبًا. ولم يعرف الإغريق الصابون، بل كانوا يدلكون أجسامهم بالزيت، فإن لم يُؤدّ الغرض المطلوب أضافوا إليه بعض العطور[2]. وكانت وسيلة الإضاءة الوحيدة هي مسارج الزيت. وكان الزيتون يُعصر في معاصر خاصّة، والعصرة الأولى ينتج منها زيت الطعام، ومن الثانية زيت الاستحمام، ومن الثالثة زيت الإضاءة، وما يتبقى بعد ذلك من قشر فكان يستعمل وقودًا[3].

وفي الأساطير الإغريقية أنّ الربة (أثينة) هي التي أدخلت شجرة الزيتون في إقليم أتيكة، في وقت لم تكن قد نبتت بعد في أيّ جهة أخرى من بلاد الإغريق. وكان إكليل الزيتون البري هو الجائزة المفضّلة منذ الدورة الأولى للألعاب الأولمبية في عام 776 ق.م[4]. وتنمو هذه الشجرة في أيّ جزء من بلاد الإغريق تصلح فيها التربة لزراعته، ولكنّها ازدهرت في أتيكا خاصّة، حيث أصبح الزيت أهم سلع التصدير حتى إنّ صولون (**SOLON**) عندما حرّم تصدير كلّ المنتجات استثنى زيت الزيتون[5]. وثمّة حقيقة هامّة تتّصل بالزيتون، فهو لا ينضج إلا بعد مدّة طويلة من غرس أشجاره التي لا تعطي محصولاً كاملاً إلا بعد ستة عشر أو ثمانية عشر عامًا، وقد لا تعطي أجود محصول إلا بعد أربعين عامًا[6]. ولهذا كانت أشجار الزيتون كالغابات، من العسير زراعتها إلا في ظلّ حكومة مركزيّة قويّة وعند قوم أوتوا من الصبر قدرًا كبيرًا. وهذا يفسّر التقدّم البطيء الذي أحرزته زراعة الزيتون في الأيام الأولى، والصعوبات التي لقيها كلّ من صولون وبسستراتوس عندما شجّعت الحكومة انتشاره، ومن المحتمل أنّ زراعته ما كانت لتنتشر انتشارًا واسعًا لولا أنّ بسستراتوس منح ملاك الأراضي قروضًا زراعيّة[7]. وثمّة ملاحظة أخيرة عن الزيتون، وهي أنّه كان نعمة أسبغتها الطبيعة على

[1]- ألفرد زيمرن، الاقتصاد عند الإغريق في القرن الخامس ق.م، م.س، ص48.

[2]- هوميروس، الإلياذة 18ـ 595 حول استعمالهم الزيت في حفظ الملابس وطراوتها.

[3]- ألفرد زيمرن، الاقتصاد عند الإغريق في القرن الخامس ق.م، م.س، ص49.

[4]- ومن ثم أصبح غصن الزيتون رمزاً للسلام، بمعنى أنه يحتاج إلى فترة سلام طويلة تحت ظل حكومة قوية تكفل الأمن والاستقرار.

[5]- بلوتارخوس: العظماء، ترجمة: ميخائيل بشارة داود، لا ط، القاهرة، دار النهضة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، المجلد الأول، ص24.

[6]- ألفرد زيمرن، الاقتصاد عند الإغريق في القرن الخامس ق.م، م.س، ص52.

[7]- أرسطو: الدستور الأثيني، ترجمة: أوغسطينس بربارة البوليسي، إصدار اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (الأونيسكو)، بيروت، 1967، ج2، ص16.

أتيكا، ولكنّه كان نقمة عليها في بعض الأحيان، ذلك أنّ إتلاف مزرعة من مزارع الزيتون لا يعني -كما يحدث في حالة حقل من القمح- ضياع دخل سنة واحدة، بل ضياع رأس المال كلّه، ولهذا أصيبت أتيكا بأضرار فادحة بسبب التخريب الذي أحدثه الفرس بأراضيها في الحروب الميدية (490ـ 467 ق.م) والإسبرطيون في الحرب البلوبونيزية (431 ـ 404 ق.م[1].

وإلى جانب محاصيل ثالوث البحر المتوسّط يعرّفنا هوميروس بمجموعة أخرى من المحاصيل وردت في ملحمته (**الأوديسة**) من خلال وصفه لأحد بساتين الفاكيانس بقوله:

«كان هناك بستان واسع خارج الفناء مساحته أربعة أفدنة، وهو يمتدّ إلى الأبواب الخارجيّة وله سور من الشجيرات على كلا الجانبين، وكانت فيه أشجار باسقة خضراء كأشجار الكمثرى، والرمان، والتفاح، المثقلة بالثمار اللامعة الملساء والتين الحلو المذاق، والزيتون الوفير»[2]. ووجدت بعض الزراعات التي تدخل في الصناعة كالكتان والقنب[3].

واهتمّ الإغريق بتربية أسراب النّحل التي كانت تجد في المراعي غذاءً وفيراً وتنتج العسل اللازم الذي كان ضروريًّا لحياة الإغريق. فالعالم المادي الإغريقي (ديمقريطس) عندما سئل عن سرّ عمره الطويل الذي امتدّ مئة وتسعة أعوام أجاب «**بأنّه كان يأكل عسل النّحل في كلّ يوم، وأنّه كان يستحمّ بالزيت**»[4]. ومن جهة أخرى، كان العسل يقوم عند الإغريق مقام السكر في الوقت الحاضر.

ثالثًا: أثر البيئة الجغرافية في تكوين المواطن الإغريقي

ذكرنا سابقًا أنّ الظّروف الجغرافيّة التي جزّأت بلاد الإغريق إلى مناطق منعزلة أو شبه منعزلة، هي التي أدّت إلى ظهور المجتمعات القبليّة الممزّقة، ممثّلة في دويلات المدن

---

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص41؛ توكوديدس، تاريخ الحرب البلوبونيزية، م.س، 3، 26، 3، حول قطع أشجار الزيتون في الحرب البلوبونيزية بين أثينة وإسبرطة حيث يقول: «إنهم دمروا ما قد نبت منه في الأجزاء التي دمروها من قبل».

[2]- هوميروس، الأوديسة، النشيد السابع؛ توكوديدس (الغابة) 4ـ 69ـ 2.

[3]- لم تعرف بلاد الإغريق القطن والكتّان إلا بمقادير قليلة. وأما عن الفواكه فقد عرفت منها بلاد الإغريق التين والتفاح والكمثرى والرمان وأشجار البرتقال والليمون. أما الطماطم لم تكن معروفة. وأما المشمش والخوخ لم يُعرفا إلا بعد الإسكندر. انظر: ألفرد زيمرن هامش، ص 54.

[4]- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، لا ط، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1953، الجزء الثاني من المجلد الثاني، حياة اليونان، ص 204.

الإغريقية. ولكن ظاهرة انقسام بلاد الإغريق نتيجة للعوامل الجغرافية إلى مناطق تكاد كلٌّ منها أن تكون منعزلة عن الأخرى لها عوامل إيجابيّة وعوامل سلبية:

1. **العوامل الإيجابيّة**: تتمثّل في أنّ الدويلات التي قامت في هذه المناطق كانت صغيرة في حجمها، وفي عدد سكانها، وهو عدد كان لا يزيد كثيراً في أفضل الأحوال على 30 ألف شخص.. وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا الوضع هي توافر الفرصة للاحتكاك الدائم أو اليومي بين هؤلاء المواطنين، وكان هذا الاحتكاك مجالاً خصبًا لمناقشة كلّ الأمور المتعلّقة بالمجتمع في جوانب نشاط مختلفة تتناول فيه الفئات والطبقات المختلفة هذه الجوانب بالرأي والرأي الآخر، والنتيجة الطبيعية لكلّ هذا هي **تبلور الرأي** العام في كلّ هذه المجتمعات الصغيرة بسرعة لا تتوافر في مجتمعات الدول الكبيرة، كما كان الحال في الممالك والإمبراطوريات الشرقيّة على سبيل المثال. وقد كان تبلور هذا الرأي العام هو العامل الذي أدّى إلى التطوّر السريع في نظم الحكم أو النظم السياسيّة في بلاد الإغريق، بحيث عرفت هذه البلاد سلسلة من هذه النظم المتطوّرة دائمًا انتقلت بها في حدود زمنيّة بسيطة من النّظام الشعبي أو الديمقراطي كما سنرى لاحقًا.

وقد استمسكت الدويلات الإغريقية كلّها بحياة الاستقلال، وأشاد مفكرو الإغريق بهذا النّظام وعدّوه النّظام الوحيد الذي يستطيع أن يعيش في ظلّه الإنسان الحرّ، وأنّه يمثّل أرقى نموذج للمجتمع الإنساني المتحضّر.. وقد ساعد الانقسام السياسي والتنافس بين الدويلات الإغريقية، على نضوج الفكر السياسي بين الإغريق وازدهار الحضارة الإغريقيّة.

2. **العوامل السلبيّة**: تتمثّل في أنّ انقسام الإغريق مثلما كان مبعثًا لنضجهم، كان مصدرًا لضعفهم، ذلك أنّهم بدّدوا جانبًا كبيراً من طاقاتهم في منازعات وحروب داخليّة كان مصدرها هذا التنافس.. فما حصل في البلاد الإغريقية كلّها كان يحصل ضمن كلّ دويلة بمفردها. وأكثر الدول عند الإغريق تتكوّن من ثلاث مناطق مختلفة هي: الشواطئ، والسهول، والجبال. وسكان كلّ منطقة لهم طراز خاص في معيشتهم وتفكيرهم. فالسهول كان يسكنها أصحاب الأراضي وأتباعهم من الفلاحين، وعلى الشواطئ يكثر التجار وأصحاب السفن وصيادو الأسماك والعمال والبحارة، وفي الجبال يعيش الرعاة والحطابون وأصحاب الكروم وعمال المناجم[1].

[1]- أرسطو، الدستور الأثيني، م.س، ج4، ص13.

إنّ كلّ قسم من هؤلاء السكان يؤلّف طبقة اجتماعيّة معيّنة تتعارض مصالحها الاقتصادية وآراؤها السياسية مع مصالح الطبقات الأخرى وآرائها. وقد كان النّزاع محتدمًا بين هذه الطبقات ولا سيّما في دويلة أثينة، إذ انتظمت في أحزاب سياسيّة مختلفة وظلّ المشرّعون يحاولون تأمين التوازن بينها وإخضاعها لنظام دستوري يكفل حقوقها جميعًا، ويضمن الرخاء والحريّة لأفرادها، ومن هنا نشأت لدى فلاسفة الإغريق، فكرة البحث عن المثل الأعلى للمدينة الفاضلة.

رابعًا: الآجورا (AGORA) وأثرها في تطوّر الفكر الحضاري الإغريقي

كانت (**الآجورا**) أهمّ المنظّمات الرئيسيّة التي تجذب اهتمام المواطن الإغريقي وتدعوه إلى قضاء جلّ يومه فيها، وهي تعني: «**الساحة العامّة، وهي بكلّ بساطة، مركز الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في دويلة المدينة الإغريقية بعد أن تشكّلت، ليس من أجل المنافسة والجدل فحسب، ولكن من أجل البيع والشراء**»[1]. وإنّ تلك الساحة لم تكن وليدة مدّة محدّدة، وإنّما كانت وليدة تطوّر حضاريّ وسكّانيّ نشأ بنشأة المدن وتطوّرها حتى في مراحل تكوينها الأولى منذ فترة تكوين مجتمعات القرى، وفيها وجد الإغريق المتنفّس الوحيد لاستعراض آرائهم وأفكارهم بعضهم مع بعض، وأخذوا من الساحة العامّة موقعًا مميّزًا لعرض مبادئهم ونظرياتهم الفلسفيّة، ما أوجد روح الجدال والمنافسة بين المواطنين الإغريق الذين تباروا في عرض نظرياتهم الفلسفية والجدال في صحّتها.. وفي هذه الساحات العامّة بدأ انتشار الشعر والأدب وتكاثرت أماكن الشعراء والأدباء، وتطوّر من ذلك المسرح النقديّ التراجيديّ والكوميديّ الذي بدأ يُظهر مساوئ الأنظمة الحاكمة بوساطة المسرحيات الهزليّة والنكات الهادفة، ثم بدأت مرحلة الخطابة تأخذ مجراها عبر الساحة العامّة داخل المدن الإغريقية في منحى حماسي، ما جعل من الضروري على الفرد أن يُلِّمَ بشؤون مدينته السياسية والاجتماعية. وفي الحق أنّ الإغريقي لم يكن رجل أسرة، بل كان كما سمّاه أرسطو حيوانًا مدنيًّا (**POLITIKON ZOON**)[2]، أي شغوفًا في حياة المدينة والوقوف على أحوالها والمشاركة في تدبير شؤونها ومناقشة سياستها.

[1]- خليل سارة، تاريخ الإغريق، منشورات جامعة دمشق 2006، ص 61.

[2]- أرسطو: السياسة، ترجمة: أوغسطينس بربارة البوليسي، إصدار اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت، 1957، 1، 1، 9، 1253 آ.

خامسًا. الموقع الجغرافي الخاصّ لمقاطعة أتيكا وعاصمتها أثينة:

قبل حديثنا عن تاريخ أثينة وحضارتها وتطوّرها السياسي ودورها القيادي لبلاد الإغريق، يجب علينا أن نبيّن بوضوح الرقعة التي قامت عليها أثينة[1] التي تُعتبر الدويلة الوحيدة من كلّ الدويلات الإغريقيّة التي طابقت مقاطعة أتيكة (**ATTIKA**) جميعًا، على الرغم من تمزّق سطحها بالجبال والتلال. وقد تركّزت في هذه المقاطعة أجمل الصفات الطبيعية وأفضلها، التي امتازت بها بلاد الإغريق، فهي تقع في وسط شبه جزيرة الإغريق وترتبط بآسية الصغرى بمجموعة من الجزر، وهي برية وبحرية في آن واحد، إذ تمتدّ ضمن بحر إيجة وتشغل سواحلها مكانًا واسعًا في حوض هذا البحر الذي كان دومًا مركزًا لتلاقي الحضارات وتفاعلها، والذي هيّأ جميع الظروف المناسبة لمقاطعة (**أتيكة**)؛ لأجل السيادة الاقتصادية والسياسية والفكرية، وجعل منها خلاصة بلاد الإغريق؛ لأنّ هذه المنطقة (**أي منطقة بحر إيجة**) تُعتبر من أصلح البقاع على وجه الأرض للحياة البشريّة وتمازج الأفكار والشعوب. وتفيد كلمة (**أتيكة**) نفسها معنى (**بلاد ساحلية**) ولا تزيد مساحتها الإجمالية على 2600 كم^2، أي ربع مساحة لبنان، ومساحة بلاد الإغريق 131,944 أي 20% تقريبًا من مساحة بلاد الإغريق كلّها.

1. أقاليم أتيكا

تنقسم هذه المقاطعة من الوجهة الجغرافيّة إلى ثلاثة أقاليم طبيعيّة: الإقليم الجبلي، والإقليم السهلي، والإقليم الساحلي. وتفسّر تضاريس أتيكة بناءً على هذه الأقاليم، أصل الأحزاب الأثينية واتّجاهاتها ـ كما سنرى لاحقًا ـ؛ فحزب الجبل (**DIAKRIOI**) الذي يضمّ من يسكنون في سفوح جبلي بنتيليكوس وهيميتيوس، والمنطقة المتاخمة لهما، كان قوامه من الرعاة الفقراء الذين لم يكن لديهم ما يكفي أود عيشهم، فانحصر همّهم في تغيير الأوضاع السياسيّة لتحسين أحوالهم. وأمّا حزب السهل (**PEDIAKOI**) فكان قوامه سكان السهول، وهم كبار ملاك الأراضي، الذين انحصر هدفهم في الاحتفاظ بالسلطة الرئيسيّة. وأمّا حزب الساحل (**PARALIOI**) فكان أنصاره من سكّان البلاد المتاخمة للبحر، الذين يمثّلون المصالح التجاريّة، ويشكّلون موقفًا وسطًا أو متوازنًا بين الحزبين الآخرين.

[1]- اسم أثينة في الإغريقية أثيناي (Atenae) وأثيناي هو اسم الربة (Atene) في حالة الجمع أو في حالة ظرف المكان، ويقال أن صخرة الأكروبول نفسها كانت تسمى أثينة. ومن الواضح أنه اسم قديم سابق على مجيء الإغريق إلى البلقان لأن نهايته تشير إلى أنه اسم غير هندي - أوروبي. انظر: عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص159.

2. المزايا الجغرافيّة لاقليم أتيكا

ومن المزايا الجغرافيّة والطبيعيّة التي تمتّعت بها مقاطعة (**أتيكة**)، وجعلتها تختلف عن غيرها من المقاطعات الإغريقية الأخرى، أنّ موقعها الجغرافي المهمّ أهّلها لإحراز السيادة أو الزعامة في البحر، وأن تكون السبّاقة إلى زعامة بلاد الإغريق، بفضل ما أتيح لسكّانها من التجارب والخبرات الطويلة في فنّ الملاحة والسياسة واشتراك جميع المواطنين في خلق حضارة حيويّة نشطة، ولم يكن في وسع غيرها من المدن الأخرى أن ينافسها في هذا المركز لضيق أراضيها وقلّة مواردها وانقسامها على نفسها وتفشّي القرصنة فيها، وهي عوامل لا تساعد على إحراز الزعامة.

وميزة أخرى تمتّعت بها مقاطعة أتيكة، وهي أنّ عاصمتها أثينة (**ATHENAE**) نشأت في مكان لا يفوقه مكان آخر في ميزاته، فهذه المدينة تقع في داخل أوسع منطقة صالحة للزراعة وتلتقي عندها طرق المواصلات. وقرب أثينة من ميناءي (فاليرون وبيريه) كان كفيلاً بترجيح كفّتها على أيّ بلدةٍ أخرى في أتيكة إذا ما اتّجه سكّانها إلى البحر والتجارة. ولذلك استطاعت أثينة في مرحلة مبكرة من تاريخها أن تفرض نفسها مقرًّا لحكومة مركزيّة تهيمن على مقاطعة أتيكة. وقد ساعدها على ذلك أنّ موارد أتيكة لم تتبدّد بالخصومات والنزاعات، وإن كانت موجودة بطبيعة الحال؛ لأنّها لم تكن دمويّة كما كانت في المدن الأخرى، ولم تكن بتلك الحدّة بحيث لم تترك مجالاً لقيام أنواع أخرى من الصراع والتنافس، ونعني بذلك الصراع الفكري الخلاّق الذي كان ضروريًّا وحيويًّا للإنتاج الفكري والنشاط العقلي، فكانوا يميلون جميعًا إلى التحلّي بالعقل وإلى القدرة على الانسجام والتوافق بين مختلف الطبقات والأحزاب. وهكذا توافرت لأثينة من حيث كانت عاصمة لإقليم متّحد من القوى البشريّة والثروة الاقتصاديّة ما يؤهّلها لأن تتقدّم على غيرها من المدن في زعامة بلاد الإغريق، ولا سيّما أنّ مقاطعة أتيكة كانت في مأمن من الغزوة الدوريّة، إمّا بسبب جدب أراضي أتيكة كما يقول توكوديدس[1]، وإمّا بفعل انتصار أتيكة على الدوريين الذين ارتدّوا على أعقابهم وانحرفوا جنوبًا إلى سلسلة جبال البلوبونيز، في تلك الغزوة التي قلبت، كما أشرنا إلى ذلك

[1]- توكوديدس، الكتاب الأوّل، ص 90.

سابقًا، أوضاع المقاطعات الأخرى وجعلتها تتأخّر عن الحضارة أجيالاً طويلة بفعل الخراب والدمار الذي لحق بها، وهذا ما لم يحصل في أتيكة.

سادسًا: العامل الديني وتكوين نظام دويلة المدينة الإغريقيّة في مرحلة التمهيد

تبدأ هذه المرحلة في الفترة (1900ـ 1100 ق.م)، أي مع بداية العصر الهللادي الوسيط، وهي بداية عصر الهجرات الإغريقية (**الأخائيين والأيوليين والأيونيين**)، ويسمّى هذا العصر (**بالعصر الباكر لتاريخ الإغريق**)، وتنتهي مع زمن اندثار ميكيناي نتيجة الغزوة الدوريّة في عام (1100 ق.م) أي في نهاية العصر الهللادي الحديث الذي يتّفق مع نهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد.

3. الأسرة

نرى أنّ العامل الأساسي الممهّد لظهور دويلة المدينة الإغريقية هو **(ديانة العصر الباكر)، أي ديانة الأسرار أو الأسلاف** -التي كان من أبرز خصائصها الاستقلال الديني لكلّ أسرة من حيث العبادة، والشعائر، والدفن، والإله- وكانت ديانة كلّ أسرة تختلف عن غيرها من الأسر الأخرى، فلكلّ منها آلهتها وعباداتها وكاهنها وحاكمها، ولم يكن لأيّ سلطة خارجة عن نطاق الأسرة الحقّ في تنظيم عبادتها وعقيدتها، لم يكن هناك كاهن غير الأب، وباعتباره كاهنًا لم يكن يُعترف بأيّ رئاسة أخرى فوق رئاسته، وهو المُفسّر الوحيد لديانتها، وله وحده سلطة تعليمها ولكن لأبنائه فقط، وكانت الشعائر وعبارات الدعاء والأناشيد التي كانت جزءًا جوهريًّا من الديانة، ميراثًا وملكًا مقدّسًا للأسرة، لم تكن تشرك أحدًا فيه، وكان محرّمًا عليها الكشف عن هذا الميراث الديني للأجانب والغرباء، أي كلّ شخص خارج نطاق الأسرة الديني. وكانت السلطة السياسية في الأسرة ملازمة للسلطة الكهنوتية، وإنّ الوالد باعتباره رئيسًا للعبادة المنزليّة كان في الوقت نفسه قاضيًا وملكًا، أي جمع بين يديه السلطتين الكهنوتية والسياسية. وعلى هذا المبدأ يمكن القول: إنّ السلطة السياسيّة كانت مستمدّة من الديانة، أو من عبادة الموقد كما يقول أرسطو. فالديانة هي التي أوجدت الملك، وهي التي أوجدت رئيس الأسرة في المنزل. فلذلك لم يكن الملوك في حاجة للقوّة الماديّة أي للجيش

والسلاح لفرض عروشهم بالقوّة؛ لأنّ العقائد الدينيّة هي التي تعاضدهم وتساندهم، وكان من قوّة سلطانها على النفس، أن كانت مقدّسة ومصانة[1].

4. العشيرة

فالنّظام في المجتمع الإغريقي في العصر الباكر هو (**نظام الأسر**)، وكانت الديانة تحرّم أن تختلط أسرتان وأن تمتزجا معًا، ولكن كان من الجائز أن تجتمع أسر عدّة، ولكن دون أن تضحي بدياناتها الخاصّة؛ لتحتفل بعبادة مشتركة فيما بينها، ولتكوّن فيما بعد نظام (**العشيرة**) المكوّن من أسر عدّة، الذي يسمّى في اللّغة الإغريقية فراتريه (**PHRATRIE**). ويقوم هذا النّظام على التوسّع في الفكرة الدينية، والانتقال من العبادة الفرديّة إلى العبادة الجماعية لمجموعة من الأسر، تصورّت عبادة أعلى من عبادتها الخاصّة، مشتركة فيما بينها جميعًا، أقاموا لها مذبحًا وموقدًا، ونظّموا عبادة مشتركة فيما بينهم. وكان لكلّ عشيرة زعيم يسمّى فراترياخوس (**PHRATRIARCHOS**) وظيفته الأساسية أن يترأّس القرابين، وربمّا كانت اختصاصاته أكبر من ذلك. إذًا، كان في هذه الحالة عبادة مشتركة للعشيرة لمجموعة من الأسر، وكان أعضاء العشيرة كلّهم يتحدّرون من جدّ مشترك حسب قول المؤرّخ الإنكليزي جورج غروت الشهير بدراساته حول تاريخ الإغريق إذ يقول: «**إنّ جميع الأتراب الأعضاء في الفراترية يعتبرون أن لهم إلهاً واحداً هو جدهم المشترك**»[2]. ولكي يكون الإنسان عضوًا في عشيرة، كان لا بدّ أن يكون مولودًا من زواج شرعي في إحدى الأسر التي تتكوّن منها العشيرة، إذ إنّ ديانة العشيرة كديانة الأسرة لم تكن تنتقل إلا عن طريق الدم[3]. وكان من حقّ العشيرة واجب الثأر لقتل أحد أعضائها، ولذا كان يقع على عاتقها واجب ثأر الدم.

5. القبيلة:

وكما كوّنت مجموعة من الأسر (**العشيرة**) كوّنت مجموعة من العشائر القبيلة (**PHYLAE**)، وسارت على المنهج نفسه الذي سارت عليه (**العشيرة**) إذ احتفظت كل عشيرة

[1]- G. Grote A History of Greece. Vol 1- 13, vol, 3. London 1846 - 1856, p. 54 - 55.

وهو جورج غروت (1794 ـ 1871) مؤرخ إنكليزي كبير مؤلف كتاب من عدة مجلدات اسمه (تاريخ اليونان).

.Ibid, vol. 3. P 58 - 59 - 31

[2]- ديموسيثنيس ضد ماكارتاتوس 13 ـ 15، ثم إيسايوس، ميراث فيلوكتيموس 21 ـ 22.

[3]- هوميروس، الإلياذة، م.س، ج2، ص362 و688؛ الأوديسة، م.س، ج19، ص177؛ هيرودوت، م.س، ج4، ص161، ج5، ص68، 69 (حول القبائل القديمة).

بديانتها الخاصّة، لتحتفل بعبادة مشتركة فيما بينها، ولتكوّن فيما بعد نظام (**القبيلة**) المكوّن من عشائر عدّة. وكانت لهذه القبيلة ديانة مشتركة أوسع شمولاً من سابقتها (**ديانة العشيرة**)، وكان إله القبيلة من نفس طبيعة إله العشيرة وإله الأسرة، ومنه كانت تستمدّ القبيلة اسمها، ويسميه الإغريق (**HEROS EPONYMOS**)، وكان يُخصّص له في كلّ عام يوم واحد عيدًا له، واحتفال ديني يشترك فيه كل أعضاء القبيلة[1].

وكان لكلّ قبيلة زعيم يسمّى فيلوباسيليوس (**HILOBASILEUS**) يُنتخب من بين النبلاء الأوباتريد (**eupatrides**) وبذلك تكون القبيلة مجتمعًا مستقلاً بحدّ ذاته، ولم تكن هناك أي سلطة اجتماعيّة فوقها.

6. المدينة:

وكما اتّحدت عشائر عدّة وكوّنت القبيلة، اتّحدت قبائل عدّة لتكوّن (**المدينة**)، على أن تحترم كلّ قبيلة ديانة الأخرى؛ لأنّه لم يكن في استطاعة قبيلتين أن تندمجا في قبيلة واحدة، لأنّ ديانتهما تتعارضان في ذلك. فلذلك كوّنت هذه القبائل المتّحدة فيما بينها ديانة عامّة، وإلهًا مشتركًا يشترك في عبادته جميع أعضاء المدينة.

نستنتج من ذلك أنّ العشيرة تكوّنت من أسر عدّة، والقبيلة من عشائر عدّة، والمدينة من قبائل عدّة، فضلاً عن أنّ الأسرة والعشيرة والقبيلة والمدينة ما هي إلا مجتمعات تتشابه فيما بينها تشابهًا دقيقًا، وولد بعضها من بعض بطريق سلسلة من التحالفات. وأنّ كلّ واحدة من هذه المجموعات لم تفقد شخصيّتها أو استقلالها. لقد كانت هناك مجموعة من العبادات الصغيرة، نشأت منها وفوقها عبادة مشتركة، وجمهرة من الحكومات الصغيرة في وظائفها نشأت منها وفوقها حكومة عامّة مشتركة[2].

هذه هي حالة المجتمع الإغريقي في المرحلة الباكرة من تاريخ الإغريق، فالديانة كانت في الأصل هي السبب في ارتباط الجماعة السياسية، وهي التي تعزّز صلة النّسب بين أعضاء الجماعة، وهي السبب التمهيدي لظهور دويلة المدينة.

[1]- فوستيل دي كولانج: المدينة العتيقة، ترجمة: عباس فيومي، لا ط، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1950، ص168.

[2]- هوميروس، الإلياذة، م.س، ج2، ص53، 84.

سادسًا: العامل السياسي وتكوين نظام دويلة المدينة الإغريقيّة في مرحلة التكوين

في هذه الفترة تبدأ المرحلة الثانية من نظام تكوين دويلة المدينة الإغريقية، فإذا كان العامل الديني هو المقوّم الأساسي لنشوء دويلة المدينة في المرحلة الأولى، فإنّ العامل السياسي هو المقوّم الأساسي في المرحلة الثانية التي تبدأ زمن اندثار الحضارة الميكينيّة عام 1000 ق.م، إذ مرّت بلاد الإغريق بحقبةٍ من التخلخل والتخلّف، الذي جاء نتيجة طبيعيّة لغزو القبائل الدوريّة، الذي أصاب المجتمع الإغريقي بشيء من التدمير والتخلخل مدّة قرنين من الزمن حتى 800 ق.م، وسمّيت هذه الفترة **بالعصر المظلم (القرنين العاشر والتاسع ق.م)**؛ بسبب ركود الأوضاع والدمار الذي لحق بالمنطقة وغموض المصادر في هذه الفترة. ولكن هذا الوضع ما لبث أن بدأ بالانحسار منذ القرن الثامن ق.م، بعد أن أخذت الأمور تستقرّ في هذا المجتمع، إذ استقرّ الغزاة إلى جانب السكّان الأصليين من أهل البلاد، وبالتدريج أخذوا يندمجون معهم ليتوصّل المجتمع الجديد إلى صيغة من التعايش والتنظيم يستطيع من خلالها أن يتابع مسيرته من حيث الحيوية والقدرة على التآلف والاستعداد للحضارة، رغم جميع الفظائع التي نتجت عن الغزوة الدوريّة.

وقد كانت الصيغة الأولى التي استقرّت عليها مناطق المجتمع الجديد هي تجمّعات سكّانية (**SYNOIKISMOI**) قبليّة في تكوينها، وكان كلّ تجمّع من هذه التجمّعات القبليّة يتكوّن من مجموعة من الملّاك الكبار للأراضي الزراعيّة والرعويّة الذين يحيط بهم أتباعهم. وكان صاحب أكبر مساحة من الأراضي يرأس التجمّع القبلي الذي يكون فيه، ويتّخذ لقب الملك (**BASILEUS**). وكان إلى جانبه مجلسان:

أحدهما يضم الأعيان أو الأرستقراطيين من رؤساء القبائل والعشائر يسمّى مجلس الشورى (**BOULE**). ولهذا المجلس قوّته وفاعليّته في التأثير في سير القرارات الرئيسيّة، وفي الإلياذة أن الملك (أجاممنمون) كان يبادر فوراً إلى دعوة مجلس الشورى ليشاوره في أمر طارئ (**كالحرب الطروادية**)[1]. فالمجلس كان العنصر الأرستقراطي في نظام الحكم،

---

[1]- ديونيسيوس الهاليكارناسي، تاريخ روما القديم، م.س، الكتاب الثاني، الفصل الثاني عشر (حول دور زعماء العشائر في هذا المجلس).

ويتّخذ القرارات النهائيّة في القضايا العامّة، ويشاور الملك بصورة متفاوتة من السّلطة حسب قوّة الملك أو قوّة هؤلاء الزعماء[1].

أمّا المجلس الثاني فيتألّف من سكان عامّة التجمّع، وهو الجمعيّة العامّة (**AGORA**). ومعنى هذه الكلمة الأصلي مركز الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والدينيّة أو (**السوق العامة**). أمّا في هذه الحالة وفي هذه الفترة، فكانت تعني المكان الذي يناقش فيه سكّان المدينة الشؤون العامّة لمدينتهم. وفي الحقيقة هذا المجلس لم يكن له أكثر من العلم بمجريات الأمور والموافقة على ما يتوصّل إليه الملك ومجلس الشورى من قرارات، أي لم يكن له فاعليّة في اتّخاذ أيّ قرار أو اقتراح، وفي الإلياذة كثير من مؤيّدات هذا الرأي[2].

أمّا الملك فكان يضمّ في يديه كلّ السلطات السياسيّة والعسكريّة والكهنوتيّة، وهو مصدر التشريعات والقائم على الأمور التنفيذيّة[3]. وهو الذي يرأس التجمّع السكاني، ويأخذ على عاتقه مهمّة توحيد التجمّعات السكانيّة، ويظهر في عدد من النصوص أنّه صاحب حقّ إلهي في العرش، وكبير الآلهة هو الذي يمنحه السلطان الواسع في الحكم.

على أنّ الدّور الأساسي الذي قام به الملوك، هو محاولة الربط بين هذه التجمعات السكانيّة أو القبليّة بشتّى الوسائل بالعنف أو بالسلام، وهو الذي مهّد الطريق لقيام المدن التي أخذ مفهومها يتطوّر تدريجيًّا، بحيث أصبح مفهوم المدينة (**POLIS**) لا يعني مجرّد مكان أو مساحة من الأراضي تكوّنها مجموعات من السّكان، وإنّما أخذ هذا المفهوم يقترب كثيراً من معنى النّظام السياسي الذي ينظّم سكان المدينة ويحدّد حقوقهم وواجباتهم والروابط التي تربط بينهم في المجالات كلّها. وقد فرض الواقع المعيشي بين التجمّعات السكّانيّة نفسه مسألة الترّابط بين هذه التجمّعات. فبلاد الإغريق تتكوّن من مجموعة من التكوينات الجبليّة والسهليّة والساحليّة، ومن الطبيعي أنّ كلاً من هذه التكوينات أو التقسيمات الداخلية له ميزاته واحتياجاته، فالأماكن الجبليّة لها بحكم تكوينها التضاريسي ميزات دفاعيّة وهجوميّة تفتقر إليها الأماكن السهليّة، ولكنّها في الوقت نفسه لا تصلح إلا للرعي الفقير، وتفتقر إلى

[1]- هوميروس، الإلياذة، م.س، ج2، ص211، 277.

[2]- أرسطو، السياسة، م.س، 3، 10، 1، 1285 ب.

[3]- بلوتارخوس، ثيسيوس، م.س، 24، الشرح 13.

المراعي الغنيّة والأراضي الزراعية التي تتميز بها السهول. والأماكن الساحلية، إن وجدت، كانت تحتاج إلى المناطق السهلية لتستكمل به مواردها المعيشيّة المحليّة التي تقوم أساسًا على الصيد وإلى النقاط الدفاعيّة التي تتميّز بها المناطق الجبليّة، وفي الوقت نفسه كانت الأماكن الساحلية تُعدُّ المنفذ الطبيعي لأيّ هجرات أو تعامل تجاري مع الخارج وهكذا.

إذًا، حاجة كلّ تقسيم إلى التقسيمات الأخرى، هي التي طرحت فكرة الاتّحاد أو التوحيد بين هذه التقسيمات في كلّ منطقة، وقد أدّى الملوك دورًا كبيرًا في هذا المجال، إذ ربطوا بين هذه التجمّعات بحيث تتحوّل كلّ مجموعة من التجمّعات السكانيّة إلى مدينة صغيرة تتّسع تدريجيًّا بتعدّد محاولات التوحيد. وكانت هذه المحاولات تمرّ بفترةٍ قد تطول أو تقصر من التجربة أو الخطأ قبل أن تصل إلى تحقيق التوحيد النهائي للمنطقة.

سابعاً: نشأة أثينة وتوحيد أتيكة

بدأ المجتمع الأثيني بالظهور في عهد الحكم الملكي، ففي هذا العهد بدأ توحيد المجتمعات الصغيرة في شبه جزيرة أتيكة داخل إطارٍ سياسيٍّ موحّد لتتكوّن منه المدينة. وكنّا قد رأينا سابقًا أنّ العشيرة تكوّنت من أسر عدّة، والقبيلة من عشائر عدّة، والمدينة من قبائل عدّة. وكان الرّابط الديني هو العامل الأساسي في عمليّة التوحيد، وهذا ما حصل في نشأة مدينة أثينة وتكوّنها. يقول بلوتارخوس: «**إنّ أتيكة كانت مقسّمة في الأصل إلى الأسر التي هي من العصر البدائي (أي من القرن الرابع عشر ق.م)**»[1]. وكانت كلّ أسرة تعيش في منطقة مستقلّة استقلالاً تامًّا عن غيرها من الأسر، وتسود هذه الأسر ديانة الأسر، أي لكلّ منها ملكها وديانتها وآلهتها الخاصّة[2].

ويقدّر بلوتارخوس عدد هذه الأسر بنحو المئة أسرة تعيش منعزلة بعضها عن بعض ولا تعرف فيما بينها أي رباط ديني أو سياسي، فلكلّ منها منطقتها، وكثيراً ما كان يحارب بعضها بعضًا، وكانت منفصلة الواحدة عن الأخرى إلى حدّ أنّ الزّواج فيما بينها لم يكن يُسمح به دائمًا[3]. وكانت أكبر هذه الأسر أسرة الملك **كيكروبس (CECROPUS)**، وكان أعضاء هذه

[1]- باوسانياس 1: 15، 1.

[2]- بلوتارخوس، ثيسيوس 13.

[3]- توكوديدس، تاريخ الحرب البلوبونيزية، ج2، ص15.

الأسرة يسكنون صخرة الأكروبوليس التي وجدت عليها مدينة أثينة، وكانت آلهتهم الخاصّة بهم أثينايا (**ATHNE**).

ولكن الحاجات الاجتماعيّة من جهة، والعواطف الدينيّة من جهة أخرى قد قرّبت بين هذه الأسر، وبدأت تتّحد تدريجيًّا في مجموعات صغيرة، وبمضي الزمن اختزلت هذه الأسر المئة في نحو اثني عشر اتّحادًا. وتنسب الأساطير الإغريقية إلى الملك **كيكروبس** عمليّة التوحيد والتغيير الذي انتقل به شعب أتيكة من حالة الأسرة الأبويّة إلى حالة أكثر اتّساعًا، وهي حالة الاتّحاد. ولم يكن كيكروبس يحكم سوى اتّحاد واحد من مجموع الاتّحادات الاثني عشر، وكانت الأحد عشر الأخرى مستقلّة تمامًا، ولكلّ واحدة منها إلهها ومذبحها ونارها المقدّسة ورئيسها[1].

وفي البحث عن سبب توحيد هذه الأسر، ربمّا يكون الاتّحاد اختياريًّا تفرضه الحاجات الاجتماعية أو الدينية، وأحيانًا تفرضه قوّة عُليا من جانب قبيلة أو إرادة قويّة من جانب ملك إحدى الأسر. ولكن في كلّ الأحوال، الرابط الديني كان أقوى روابط عمليّة التوحيد، إذ لم يكن خفيًّا على الأسر أو القبائل التي تجمّعت لتكوين اتّحاد أو مدينة ما، أن توقد نارًا مقدّسة وأن تتّخذ ديانة مشتركة[2].

وبعد أجيال عدّة حصلت مجموعة (**كيكروبس**) تدريجيًّا على أهميّة أكبر من باقي المجموعات أو الاتّحادات، وكان من نتيجتها أن خضعت الاتّحادات الأخرى لهذه المجموعة، ولكن مع تحفّظ واحد، وهو احتفاظ كلّ اتّحاد بكهنوته ومعبوده الوراثي[3]، إلى أن تطوّرت عبادة (**أثينايا**) الآلهة الخاصّة بمجموعة (**كيكروبس**) تدريجيًّا وانتهت بأن اتّخذت من اسمها السيادة على الاتّحادات الأحد عشر الأخرى.

في هذه الأثناء ظهر **ثيسيوس** (**THESEUS**) نحو منتصف القرن الثالث عشر ق.م، وهو حفيد (**كيكروبس**) وجمع المجموعات الاثنتي عشرة في مدينة وكتلة سياسية واحدة، وعدّ السكان جميعًا مواطنين أثينيين. ويطلق المؤرّخون الإغريق على هذه الوحدة اسم

---

[1]- فوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، م.س، ص167.

[2]- باوسانياس 1، 38.

[3]- توكوديدس، تاريخ الحرب البلوبونيزية، ج2، ص15؛ باوسانياس، 8، 2، 1.

(**سينويكيزموس**SYNOIKISMOS) أي الجوار المدني. وكانت عمليّة التوحيد هذه آخر حلقة من حلقات التوحيد، بعد محاولات مريرة على سبيل التجربة في عهد ملوك آخرين سابقين حقّقت نسبًا متفاوتة من التكتّل بين عدد من المجتمعات الصغيرة التي كانت تتكوّن منها شبه الجزيرة.

والواقع أنّ **ثيسيوس** قد نجح في جعل هذه المدن تتّخذ في جميع أتيكة عبادة مشتركة هي عبادة الآلهة (**أثينايا**)، وبذلك اشترك كلّ الإقليم منذ ذلك الوقت في الاحتفال بقربان الباناثينايا (**PANATHENEES**)، أمّا قبل عهده فقد كان لكلّ قريةٍ نارها المقدّسة وبيت نارها بريتانيون (**PRYTANEE**) وبانتشار عبادة (**أثينايا**) في القرى المجاورة أصبح من السّهل توحيدها جميعًا تحت رعاية هذه الآلهة التي سُمّيت المدينة الجديدة باسمها مع الاحتفاظ بالآلهة الأخرى. ولكن بعد عمليّة التوحيد أصبح بيت نار أثينة هو المركز الديني لكلّ أتيكة[1]. وحينئذ تأسّست الوحدة الأثينية، فمن الناحية الدينيّة احتفظت كلّ ناحية بعبادتها القديمة لكنّها اتّخذت جميعًا عبادة مشتركة، ومن الناحية السياسيّة احتفظت كلّ واحدة برؤسائها وقضاتها وحقّها في الاجتماع، ولكن كان فوق هذه الحكومات المحليّة حكومة المدينة المركزية[2].

وصفوة القول، إنّ هذا الاتّجاه السياسي للاثني عشر اتّحادًا في أتيكة هو الذي مهّد الطريق لمكانة أثينية. ولا شكّ في أنّ الذي فرض مثل هذا الاتّحاد ونفّذه كان سياسيًّا بامتياز. فهذا أوّل الأعمال السياسيّة الكبيرة التي قام بها الأثينيون الذين كانوا على عبقريّة فطريّة في شؤون الحكم والسياسة. وقد توافرت الظروف المناسبة، لا سيّما التفاعل الحضاري، التي مهّدت الطريق لوصول المدينة إلى غايتها، ذلك أنّ الأثينيين ابتعدوا قدر المستطاع عن البغضاء والعداوة، وكانوا يميلون بصفةٍ عامّة إلى معالجة المشاكل الاجتماعية بالطرق السلمية والتحلي بالعقل والفكر معًا، فكانوا يؤلّفون كتلةً شبه متماسكةٍ من البشر تمتاز بالانسجام وتميل إلى التّسامح وحسن المعاشرة وتعمل على تقدّم الحضارة.

[1]- يقول بلوتارخوس وتوكوديدس: إن ثيسيوس حل بيت النار (بريتانيون) المحلي وأبطل مناصب القرى، وعلى كل حال فهو إن كان قد حاول ذلك فإنه لم ينجح، إذ إنّنا لا زلنا نجد العبادات المحلية والمجتمعات وملوك القبائل بعده بزمن كبير انظر: هيرودوت، م.س، ج1، ص143.

[2]- فوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، م.س، ص339.

ثامناً: العامل الاقتصادي وتكوين نظام دويلة المدينة في مرحلة التطوّر

إذا كان المقوّم السياسي لدولة المدينة الذي يدور حول توحيد التجمّعات السكّانية القبليّة هو الذي أدّى الدّور الأوّل في عصر الحكم الملكي، واتّسمت مرحلة تكوينه بسمات دينيّة وقبليّة، فإنّ القرن الثامن ق.م شهد تطوّرًا جديدًا، وبدأت تبرز إلى السطح مقوّمات اقتصاديّة وعسكريّة. فبعد أن انتهى دور الملوك الأساسي في توحيد مجموعات القبائل في المدن، وبعد أن استقرّ وضع هذه المدن في كيانات سياسيّة، لم يعد للملوك دور يتميّزون به من غيرهم من كبار رجال المدينة، وهم زعماء القبائل والعشائر التي تكوّنت منها المدن الإغريقية، وإنّما أصبح الملك في الواقع واحدًا من أفراد الطبقة الأرستقراطية التي تتكوّن من هؤلاء الزعماء، دون أن يتميّز عن بقيّة هؤلاء الأرستقراطيين في شيء.

وهكذا، بعد أن انتهت الفترة التكوينيّة لمجتمعات المدن الإغريقيّة، أصبح المقوّم الاقتصادي هو الذي يدفع تطوّرها السياسي، فأخذ أفراد الطبقة الأرستقراطية منذ القرن الثامن ق.م تقريبًا يزحفون على سلطات الملك تدريجيًّا في هذه المدن ويحاولون انتزاعها الواحدة بعد الأخرى سواء أكانت هذه السلطات عسكريّة أم سياسيّة أم تنفيذيّة أم قضائيّة، ولكن دون أن يلحقوا بسلطاته الكهنوتيّة أيّ أذى؛ **لأنّه كان لا بدّ من ملك للديانة ولسلامة المدينة**. حتى إذا جاء القرن السابع ق.م، كانت الحكومات الملكيّة قد سقطت في أغلب المدن الإغريقية لتحلّ محلّها حكومات جماعيّة أساسها الطبقة الأرستقراطية من زعماء القبائل والعشائر الذين يسيطرون على المورد الاقتصادي الرئيسي، وهو الأرض، واستعاضوا عن التنظيم السابق، بتنظيم آخر وجديد أطلق عليه المؤرّخون اسم عهد الأراخنة (**ARCHNTAT**) أي النّظام الأرستقراطي. وأحدثت ثلاث وظائف رئيسيّة كوّنت فيما بعد السلطة التنفيذيّة للحكومة، وانتقلت إليها بعض السلطات التي كان يقوم بها الملوك سابقًا، وهذه الوظائف من حيث الأهميّة: الحاكم(**ARCHON**) والقائد العسكري (**LEMARCHOS**) والملك (**BASILEUS**). ونلاحظ هنا أنّ الملك جاء في المرتبة الأخيرة من حيث الأهميّة، بسلطات كهنوتية فقط؛ لأنّه هو الذي يمثّل المدينة تجاه الآلهة، ويشرف على القصور والمعابد. وبذلك يكون لقب الملك قد فقد معناه الأصلي إذ انتزعت منه كلّ السلطات، ماعدا الكهنوتيّة للأسباب التي ذكرناها، وأصبح يُطلق على إحدى الوظائف الحكوميّة التي ينتخب صاحبها لمدّة عام مثل غيره من الحكّام.

لقد كان للعامل الاقتصادي الذي هيمن على الحياة السياسية في البلاد، سببًا رئيسيًّا في توسّع الحروب، ومحاولات الهيمنة ونشوء المستعمرات، والتي كان ينظر إليها على أنّها مصدر للثروات.

وفي نهاية المطاف يمكن القول: إنّ النّظام العشائري كان يقترب من نهايته منذ القرن الثامن ق.م، وبدأ مجتمع جديد آخر في تقدّم مستمرّ يومًا بعد يوم، وتطوّرت الدولة بصورة ملحوظة، وأخذت كلّ الأنظمة العشائرية السابقة تتهاوى تحت ضغط وضربات النظام الديمقراطي.

تاسعاً: تأثير العامل الديني في النّظام السياسي

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ أساس ولادة دولة المدينة كان مؤسّسًا على نظام عشائري-ديني من الأسرة، العشيرة، القبيلة، المدينة. ومن اتّحاد الأسر تكوّنت العشيرة، ومن اتّحاد العشائر تكوّنت القبيلة، ومن اتّحاد القبائل تكوّنت المدينة. وكان العامل الديني هو الأساس في عمليات التوحيد هذه. ويجب أن ننوّه إلى ملاحظة هامّة، وهي تأثير العامل الديني في النّظام السياسي القائم في هذه الفترة، الذي كان بدوره قائم على العامل الديني؛ فالديانة هي التي كانت تحدّد قواعده وتنظّم أموره، ولم تكن الديانة تسمح باقتسام السّلطة الكهنوتيّة. فالملك هو رئيس العبادة، وهو الذي يشرف على الموقد ويقدّم القربان ويتلو الدّعاء ويرأس الاحتفالات وإقامة الموائد الدينيّة، ويقول أرسطو في هذا الخصوص «**ليست العناية بالقرابين للمدينة تابعة لكهنة مخصوصين، بل لأولئك الرجال الذين يتلقّون وظيفتهم من الموقد والذين يسمونهم ملوكًا، وهناك سدنة بيوت النار، وفي مكان آخر أراخنة وذلك طبقاً للعادة الدينية**»[1]. ويُستدلّ من كلام أرسطو على أنّ الألفاظ الثلاثة **ملك، سادن بيت النار، أرخون**، ظلّت لفترة طويلة مترادفة. وقد بيّن الكتّاب القدماء بوضوح التزام الملك بالصفة الدينية؛ ففي (**أيسخيلوس**)، على سبيل المثال، توجّه بنات داناؤس الخطاب إلى ملك أرجوس بهذه العبارات: «**أنت السادن الأعلى لبيت النار، وأنت الذي تسهر على موقد هذا الإقليم**»[2].

---

[1]- أرسطو، السياسة، م.س، 6، 5، 11، 1322 ب.

[2]- ايسخيلوس، مسرحية المتضرعات؛ لطفي علي عبد الواحد وافي: الأدب اليوناني القديم، لا ط، مصر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، دون تاريخ، مسرحية المتضرعات، ص 375، 369.

ويرينا **هوميروس** أنّ الملوك هم الذين يشرفون بشكلٍ دائمٍ على الاحتفالات الدينيّة، ومن **ديموسيثنيس** نعرف أنّ ملوك أتيكا القدماء كانوا يقومونَ بأنفسهم بجميع القرابين التي تنصّ عليها ديانة المدينة، ومن **كسنوفون**، أنّ ملوك إسبرطة كانوا هم رؤساء الديانة اللاكيدايمونية أي (**الإسبرطية**)[1].

إنّ السلطة السياسيّة في الأسرة ملازمة للسلطة الكهنوتيّة، وإنّ الوالد باعتباره رئيسًا للعبادة المنزليّة كان في الوقت نفسه قاضيًا وملكًا، أي جمع بين يديه السلطتين الكهنوتية والسياسية. لذلك كان الكاهن الأكبر في المدينة هو أيضًا الملك، فالمذبح الديني هو الذي يمنحه الوظيفة حسب تعبير أرسطو[2]. وقد نتج من اختلاط الديانة بالسياسة وبالعدل وبالحرب، أن أصبح الكاهن هو نفسه بحكم الضرورة ملكًا وقاضيًا وقائدًا عسكريًّا، ويقول أرسطو: «**لملوك إسبرطة ثلاثة اختصاصات: يقدمون القرابين، ويتولون القيادة في الحرب، ويقومون بالقضاء**»[3].

إذًا، يمكن القول إنّ السّلطة السياسيّة كانت مستمدّة من الديانة، أو من عبادة الموقد كما يقول أرسطو، فالديانة هي التي أوجدت الملك، وهي التي أوجدت رئيس الأسرة في المنزل. فلذلك لم يكن الملوك بحاجة للقوّة الماديّة، أي للجيش والسلاح لفرض عروشهم بالقوّة؛ لأنّ العقائد الدينيّة هي التي تعاضدهم وتساندهم، وكان من قوّة سلطانها على النفس، أن كانت مقدّسة ومصانة.

[1]- ديموسيثنيس ضد نيأيرا 74ـ 81، كسنوفون، دستور اللاكيدايمونيين 13 ـ 14، هيرودوت، م.س، ج6، ص57؛ أرسطو، السياسة، م.س، 3، 9، 2، 1285 آ.

[2]- أرسطو، السياسة، م.س، 6، 5، 11، 1322 ب.

[3]- م.ن، 3، 9، 2، 1285 آ.

الخاتمة

نستخلص مما سبق أنّ النظام العشائري الأثيني في المرحلة الهللاديّة قد ارتكز إلى الأسس التالية:

1ـ طقوس دينيّة مشتركة، وحقّ الكهنة بوجه الحصر في ممارسة الشعائر المقدّسة تكريمًا لإله معيّن، من المعتقد أنّه جدّ العشيرة المشترك، ويُطلق عليه بحكم هذه الصفة لقب خاص.

2ـ مكان مشترك للدفن.

3ـ الواجب المتبادل في تقديم العون والحماية السائدة ضدّ أعمال العنف.

4ـ الحقّ والواجب المتبادلان في بعض الأحوال كالزواج داخل العشيرة، ولا سيّما عندما يتعلّق الأمر بيتيمات أو وريثات.

5ـ امتلاك أموال مشتركة تحت إشراف (زعيم).

6ـ تتكوّن مجموعة من العشائر من قبيلة واحدة لها أعياد مقدّسة مشتركة تتكرّر بانتظام ويرأسها زعيم القبيلة **Phylobasileus**)) يُنتخب من بين النبلاء الأوباتريد (**Eupatrides**).

7ـ حساب الأصل وفقًا للحقّ الأبوي.

8ـ منع الزواج داخل العشيرة باستثناء الزواج من وريثات، كون الزواج خارج العشيرة هو القاعدة، ولم يكن لأحد أن يتزوّج داخل عشيرته.

9ـ حقّ العشيرة في التبنّي، ولكن شرط مراعاة الشكليات العامّة، وعلى سبيل الاستثناء فقط.

10ـ الحقّ في انتخاب الزعماء وعزلهم، ولم يرد في أيّ مكان أنّ هذه الوظيفة كانت تتنقل بالوراثة في عائلات معيّنة، إذ لم تكن توجد وراثة صارمة للوظيفة[1].

---

[1]- جورج غروت: تاريخ اليونان، المجلدات 1 ـ12، المجلد الثالث، لندن 1869، ص 54 ـ 55؛ أنجلس، فريدريك: أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، ترجمة: الياس شاهين، موسكو، ص 129 ـ 130.

ويضيف ماركس إلى ذلك، بأنّه على الرغم من أنّ اليونانيين كانوا يشتقّون عشائرهم من الميثولوجيا، كانت هذه العشائر أقدم من الميثولوجيا التي خلقتها بنفسها مع آلهتها وأنصاف آلهتها[1].

وفي الختام يمكن القول: إنّ مثل هذه الأوضاع الاجتماعيّة والسياسيّة المتزمّتة لم تظل على حالها كما بدأت، وإنّما تقلّصت وتزلزلت أركانها تدريجيًّا بفعل الثورات الاجتماعية والسياسية، والتي من المؤكّد بدأت منذ القرن السابع ق.م، حيث بدأ مثل هذا التنظيم الاجتماعي والسياسي المتزمّت بالانهيار تدريجيًّا وسط المنازعات المحتدمة في سلبيات وتجاوزاته، إلى أن اختفت معظم مبادئه وشكلياته في النهاية ولكن بعد قرون عدّة.

وتعود الأسباب التي أدّت إلى دمار مثل هذا النّظام إلى عاملين اثنين:

العامل الأوّل: التغيير الذي حدث في الآراء على مرّ الزمن تبعًا للتطوّر الطبيعي في العقليّة الإنسانيّة، والذي ألغى العقائد القديمة، فانهارت معها البيئة الاجتماعيّة التي أقامتها هذه العقائد.

العامل الثاني: وجود طبقة من النّاس كانت موجودة خارج نظام المدينة أو الديانة، وكان مثل هذا الوضع الاجتماعي يؤلمها، وترى أنّه من مصلحتها محاربته وتدميره. وفعلاً قامت هذه الطبقة بمحاربته حربًا لا هوادة فيها، ونجحت في الوصول إلى ما كانت تطلبه، وما كانت تبتغيه في نفسها[2].

وعندما ضعفت مثل هذه العقائد التي تأسّس عليها هذا النظام الاجتماعي- السياسي، وأصبحت مصالح سواد النّاس مناوئة لهذا النّظام، كان من المحتّم أن يسقط وينهار في النهاية، وهذا ما حصل في كلّ المدن، إذ لم تنج من هذا التغيير أو التبديل أي مدينة إغريقية، حتى إسبرطة المتزمّتة نفسها لم تكن في منأى عن هذا التغيير الذي حصل في كلّ المدن الإغريقية. ولكن مظاهر هذا التغيير لم تكن كلّها في فترةٍ واحدةٍ بالنسبة لمختلف المدن، وإنّما كانت في فترات متفاوتةٍ تبعًا لظروف كلّ مدينة وإشكالياتها.

[1]- أنجلس، فريدريك: أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، ص130.

[2]- فوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، م.س، ص317، 318.

وقد تجلّى هذا التغيير من البدايات الأولى لظهور المجتمع الإغريقي الأسري حتى الوصول إلى مرحلة النّظام الديمقراطي في ثورات عدّة سلميّة رئيسيّة. وعلى الرغم من سلبيات النظام العشائري، إلا أنّ النّظام الديمقراطي أيضًا هو بدوره لم يخلو من هذه السلبيات، حيث يمكن وصف الديمقراطية الأثينية بأنّها أضيق الديمقراطيات وأكملها في التاريخ، لقد كانت أضيقها لقلّة عدد من يشتركون في امتيازاتها، وأكملها لأنّها تتيح لجميع المواطنين على قدم المساواة فرصة السيطرة على التشريع وتصريف شؤون الدولة؛ لأنّ نظرةً خاطفةً على أصول بعض الدساتير الإغريقية وإصلاحاتها تدفعنا إلى القول: إنّه على الرغم من الدعاية السياسية الواسعة لهذا النّظام، وعلى الرغم من أنّ بعض المؤرّخين يبالغون في القول لدرجة ادّعاء بعضهم أنّ الديمقراطيّة الأثينيّة كانت أكمل نظام استطاع البشر وضعه حتى ذلك العهد، وهو كلام صحيح إلى حدّ ما، لكن النّظام الأثيني لم يختلف كثيراً في جوهره عن النّظام الإسبرطي، فكلا النظامين أعطى أقليّة السكّان حقوق المواطنة ومنعها عن الأكثريّة. وقد تعامت الديانة الأثينية عندما اتّهمت النّظام الإسبرطي بالرجعيّة والقسوة. وادّعت بأنّ النّظام الأثيني كان رمز العدالة الاجتماعية، فقد حرم النّظام النساء والعبيد والصنّاع والحرفيين وهم غالبية السكّان من حقوقهم المشروعة، وخصّ الامتيازات بأقليّة سيطرت على الجمعية الشعبيّة (**الإكليزيا**) ومجلس الشورى (**البولي**).. وتناسى النّظام أنّ جمهرة العامّة التي لم تتمتّع بحقوقها كانت هي جسد الدولة الحقيقي ودرعها في النوائب، وأنّهم هم الذين استعذبوا الموت في سبيل دويلتهم وأنّهم هم الذين دفعوا الثمن غاليًا في جميع المناسبات[1].

[1]- خليل سارة، تاريخ الإغريق، م.س، ص393ـ 394.


مقدونيا
ألبانيا
تسالونيكي
فولوس
ميتليني
تركيا
أثينا
اليونان
البحر الأبيض المتوسط


Bulgaria
F.Y.R.O.M.
Albania
Thessaloniki
Greece
Turkey
Ionian Sea
Aegean Sea
Athens
Crete
Mediterranean Sea


MACEDONIA
THRACE
Philippi
Thessalonica
Beroea
Troas
ACHAIA
AEGEAN SEA
ASIA
Corinth
Athens
Ephesus
CRETE
St-Takla.org

المصادر والمراجع

1. أرسطو، الدستور الأثيني، ترجمة: أوغسطينس بربارة البوليسي، إصدار اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (الأونيسكو)، بيروت، 1967.

2. أرسطو، السياسة، ترجمة: أوغسطينس بربارة البوليسي، إصدار اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت، 1957.

3. إرفين شرودينجر، الطبيعة عند الإغريق، ترجمة: عزت قرني، مراجعة: محمد صقر خفاجة، القاهرة، دار النهضة العربية، 1962.

4. ألفرد زيمرن، الاقتصاد عند الإغريق في القرن الخامس ق.م، ترجمة: عبد المحسن الخشاب، القاهرة، 1953.

5. ايسخيلوس، مسرحية المتضرعات، لطفي علي عبد الواحد وافي، الأدب اليوناني القديم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، دون تاريخ، مسرحية المتضرعات.

6. باوسانياس 1: 15، 1.

7. بلوتارخوس، العظماء، ترجمة: ميخائيل بشارة داود، دار النهضة المصرية العامة للكتاب، 2002.

8. توكوديدس، تاريخ الحرب البلوبونيزية، ترجمة: دينا الملاح - عمرو الملاح، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 2003.

9. جورج غروت، تاريخ اليونان، لندن 1869.

10. خليل سارة، تاريخ الإغريق.

11. خليل سارة، دراسات في الاقتصاد اليوناني في القرنين الخامس والرابع ق.م، منشورات جامعة دمشق، 1988.

12. ديونيسيوس الهاليكارناسي، تاريخ روما القديم، الكتاب الثاني، الفصل الثاني عشر (حول دور زعماء العشائر في هذا المجلس).

13. سيد أحمد علي الناصري، الإغريق، ط2، القاهرة، 1985.

14. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976.

15. فوستيل دي كولانج، المدينة العتيقة، ترجمة: عباس فيومي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1950.

16. محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، الطبعة الأولى، دمشق 1969.

17. هوميروس، الإلياذة 18ـ 595 حول استعمالهم الزيت في حفظ الملابس وطراوتها.

18. هوميروس، الأوديسة، النشيد السابع، ثم توكوديدس (الغابة).

19. هيرودوت، ترجمة: عبد الإله الملاح، إصدار دار الثقافة، أبو ظبي، 2001.

20. ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، 1953.

21. G. Grote A History of Greece. Vol 1- 13, vol, 3. London 1846 - 1856.

الفصل الخامس

اقتصاد

* التجارة في كريت وفي الحضارة الآخية في العصور المبكرة
* الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الآخيّة
* الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الكريتيّة -الមينويّة

التجارة في كريت وفي الحضارة الآخية في العصور المبكرة

حسان عبد الحق[1]

كريت هي إحدى جزر البحر الأبيض المتوسّط، وتمثّل جزءًا من بلاد الإغريق، قامت فيها حضارة مبكرة، وحدث تفاعل بينها وبين حضارات الشّرق الأدنى القديم. وأُطلق على حضارتها اسم الحضارة المينوية نسبة إلى الملك مينوس الذي سيطر على كريت، أو إلى اللقب الذي كان يُطلق على ملوكها (مينوس)، والذي يماثل لقب فرعون. وعرفت هذه الحضارة اسمين آخرين: حضارة كريت والحضارة الإيجية. وامتهنت كريت التجارة في العصور المبكرة، وأصابت ثراءً كبيراً، وقد ساعدتها على ذلك مجموعة من العوامل التي سنتحدث عنها لاحقًا. ولسوء الحظ، كانت التّجارة هي سبب سقوطها؛ إذْ دخلت في منافسة تجاريّة مع الموكينيين، انتهت بحرب بين الطرفين، وكانت الغلبة للموكينيين.

فكيف كانت الحياة التجارية في كريت فضلاً عن الزراعة والصناعة وتربية الماشية، عمل الآخيون بالتجارة، وارتبطوا بعلاقات تجاريّة مع البلدان المجاورة، وحصل نوع من تبادل السّلع بين الطرفين.

فكيف كانت الحياة التجارية في كريت؟

أوّلاً: التجارة في كريت

1. موقع كريت وأثره في علاقاتها التجارية

تشغل جزيرة كريت موقعًا هامًا بين قارات العالم الثلاث (آسيا وأوربا وإفريقيا)[2]، وهي إحدى

---

[1]- أستاذ مساعد في جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ.

[2]- ابتهال عادل إبراهيم الطائي، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، ط1، عمان، دار الفكر، 2014، ص32.

جزر البحر الأبيض المتوسط، تقع في الجزء الشرقي منه، وتبلغ مساحتها 8287 كم تقريبا[1]. وبفضل موقعها، استطاع ملكها المينوس تأسيس مملكته في منطقة بحر إيجة[2]، والسيطرة على هذا البحر[3]. وأكسبها موقعها القدرة على الاتّصال بالحضارات المجاورة أيضًا، وحدث نوع من التأثير المتبادل بينهما، فمن جهة الجنوب تحدّها مصر القديمة (تبتعد حوالي 550 كم عن مصر)، وتحاذي الساحل الليبي من جهة الشرق، وتعتبر ليبيا المدخل الطبيعي إلى كريت عن طريق الساحل الجنوبي لسهل ميسارا[4]، ومن جهة الشمال يحدّها بحر إيجة، وكانت مدخلاً لها[5]، وكان يضم بحر إيجة العديد من الجزر الإغريقية، التي سيطرت عليها كريت.

وتعدّ العلاقات التّجاريّة أحد أوجه الاتّصال الحضاري بين كريت وبين الحضارات المجاورة السابقة؛ إذْ كانت تقوم هذه الجزيرة بدور كبير في الملاحة البحرية، وتفوّقت تجاريًّا، ومما ساعدها على ذلك موقعها، وسيطرتها على جزء كبير من حوض البحر الأبيض المتوسط. وبحكم موقعها في وسط البحر، كانت تشكّل محطّة هامّة على الطرق التجاريّة البحريّة، وحلقة اتّصال بين مراكز الحضارات في الشرق الأدنى وشواطئ إيطاليا واسبانيا، وكان أسطولها يحمل البضائع متجهًا نحو ليبيا القديمة ومصر وساحل بلاد الشام (الساحل الفينيقي)، وآسيا الصغرى[6]. وعلى الرغم من امتلاكها هذا الموقع الجغرافي المتميّز، إلاّ أنّه لا يعتبر السبب الوحيد الذي جعلها تتميّز تجاريًا، فهناك الكثير من الأسباب التي سنشير إليها في العنوان التالي.

2. أسباب امتهان كريت للتجارة والعوامل المساعدة

من خلال العودة إلى طبيعة بلاد الإغريق وتضاريسها عامة، وكريت خاصة، يمكن تحديد

[1]- Tulard J., histoire de la Crète, Paris, 1979, p.5.

[2]- ديورانت، ول وايرل: قصة الحضارة-حياة اليونان، ترجمة محمد بدران، لا ط، بيروت، د.ت، الجزء الأول من المجلد الثاني 6، ص 14.

[3]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ط3، دار الفكر، 1983، ج1، ص40.

[4]- رجب عبد الحميد الأثرم، دراسات في تاريخ الإغريق وعلاقته بالوطن العربي، ط2، بنغازي، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2002، ط2، ص43.

[5]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارة كريت حتى قيام الإسكندر الأكبر، ط2، القاهرة، دار النهضة العربية، 1976، ط2، ص33.

[6]- رفعت جمال عبد الهادي، وفاء محمد: أوربا منذ أقدم العصور (اليونان)، لا ط، جدة، دار الشروق، ص22.

عدد من الأسباب التي ساعدت كريت على امتهان التجارة وتفوّقها في هذا المجال. وهناك أسباب أخرى تتعلّق بالبحر الأبيض المتوسّط، وبالبلدان التي ارتبطت معها بعلاقات تجاريّة. سنحاول دراسة هذه العوامل مجتمعة لنتمكّن من فهم سبب تفوّقها تجاريًّا.

أ. الأسباب الجغرافية

تتصف بلاد الإغريق بأرضها القفرة، قليلة الخصوبة، ومن الناحية التضاريسية، هي ذات طبيعة جبلية[1]؛ إذْ تشغل الجبال الوعرة ثمانين بالمئة من مساحتها[2]، مما صَعّب الاتّصال بين مختلف مناطقها، فقد كوّنت الجبال عوائق طبيعيّة، أسهمت في تقسيمها إلى وديان وسهول معزولة بعضها عن بعض[3]، لا تزيد مساحتها عن خمس المساحة العامة لليونان[4]. وأعاقت الجبال الجريان الآمن للأنهار أيضًا، مما حال دون استخدامها في الملاحة النهريّة، أو كطرق مواصلات مائيّة للربط بين المناطق التي تمرّ منها[5]. وأمام هذه المشكلة اضطر الإغريق إلى استخدام البحر كطريق مواصلات للربط بين مدنهم[6].

وكذلك الأمر بالنسبة لكريت، فقد كانت تتصف بالصفات نفسها التي تتّصف بها بلاد الإغريق، فهي جزء منها، إنّها منطقة جبليّة، تكثر فيها المرتفعات، وتنحصر بين هذه المرتفعات ممرات ضيّقة، ولسوء الحظ، لم تؤدِ وظيفتها على نحو جيّد فيما يتعلّق بالمرور؛ بسبب ضيقها، إذْ لا يمكن عبورها بسهولة، خاصّة في فصل الشتاء، حيث تتساقط الثلوج فوقها، وتتراكم فيها بكميات كبيرة[7]، مما يجعل مسألة المرور منها معقّدة جدًا. ولم يكن سهلاً فتح طرق جديدة وتعبيدها[8]. وإضافة إلى الجبال، هناك مناطق سهليّة في كريت، مساحتها صغيرة، وتتركّز على

[1]- أبو اليسر فرح، الشرق الأدنى في العصرين الهللينيستي والروماني، ط1، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2002، ص15.

[2]- حنين جودة، جغرافية العالم الإقليمية، لا ط، الاسكندرية، منشأة المعارف، 1998، ص589.

[3]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي 1، لا ط، بيروت، دار النهضة العربية، 1976، ص23.

[4]- رفعت عبد الهادي ، أوربا منذ أقدم العصور، م.س، ص13.

[5]- الشمري، هزاع بن عيد: مختصر جغرافية العالم، لا ط، الكويت، 1975، ص 299.

[6]- رفعت عبد الهادي ، أوربا منذ أقدم العصور، م.س، ص16.

[7]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص23.

[8]- م.ن، ص42.

الساحل، وتمتدّ نحو الدّاخل، تربتها رقيقة، وغير صالحة لزراعة إلا بعض المحاصيل[1]. وكان الاتّصال بين الساحل والدّاخل صعبًا في كريت، بسبب الجبال المرتفعة.

ومن خلال هذا العرض البسيط نلاحظ أنّ طبيعة بلاد الإغريق وتضاريسها بما فيها جزيرة كريت، خلقت عائقًا أمام الأنشطة الاقتصاديّة الداخليّة، ما فرض أنماطًا معيّنةً من الاقتصاد، فعدم صلاحيّة الأنهار للملاحة، وعدم توفّر طرق بريّة مناسبة، كان يعيق الاتّصال بين المناطق، مما يحول دون إقامة تجارة داخليّة ناجحة تُغني النّاس عن الأنشطة الخارجية. والجدير بالملاحظة أنّ الزراعة كانت تعاني من مشاكل أيضًا. وعليه، لا يمكن الاعتماد عليها في إقامة اقتصاد متكامل. ونتيجة لذلك، طفا على السّطح الاقتصاد الرعوي في كريت، إذْ كانت تكثر فيها القطعان[2]، ومما ساعد على ذلك أنّ الجبال احتلّت المساحة الأكبر منها، واحتوت على مراعي للماشية.

وفي ظلّ هذه الظّروف لا نعتقد أنّ كريت كانت قادرة على بناء اقتصاد قويّ، فهي تعاني من قلّة الموارد الداخليّة، ولا تتوفّر لديها الإمكانيات لذلك، ما دفعها إلى البحث عن مصادر أخرى للرزق، فلم تجد أمامها إلا التجارة مع الدول المجاورة عبر البحر، واللاّفت للانتباه أنّها كانت تمتلك كلّ مقوّمات النّجاح، ففضلاً عن موقعها المتميّز الذي تحدّثنا عنه سابقًا، كانت سواحلها طويلة، مما سمح بإقامة أكبر عدد ممكن من المرافئ. ويتّصف ساحل كريت بكثرة التعرّجات، ومليء بالخلجان[3]، التي كانت تُكوّن مرافئ طبيعية[4]. وكانت المرافئ محاطة بالجبال، مما حماها من الاعتداءات الخارجية.

وما ساعد على ظهور التجارة الكريتية وتنشيطها كثرةُ الجزر في بلاد اليونان، فقد كانت السفن تمشي على هديها[5]، فهي التي ترشدهم إلى مصر وآسيا، وإلى بلاد الإغريق ذاتها[6]، مما يوفّر لها

---

[1]- الشمري، مختصر جغرافية العالم، م.س، ص299.

[2]- Tulard J., op. cit, p.8.

[3]- أحمد عبد العظيم، بلاد العرب وإفريقيا في خرائط اليونان والرومان، بحث مقدم للندوة الدولية: العرب في إفريقيا قبل الإسلام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، المغرب 20-22 يناير 2015، ص 2.

[4]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص33.

[5]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص25.

[6]- كيتو، ه: الإغريق، ترجمة: عبد الرزاق يسري، لا ط، القاهرة، دار الفكر العربي، 1962، ص 34.

وصولاً آمنًا وسهلاً. ويمكن أن نصفها بنقاط العلام التي كان يهتدي المسافر بها إلى المكان الذي يسافر إليه. ومما أعطى هذه الجزر أهمية فيما يتعلّق بهذه المسألة، جهل الكريتيين أو الإغريق بشكل عام بالبوصلة والخرائط[1]، وعلى ذلك كانت المرشد الأساسي لهم.

ب. الأسباب المناخية

وهناك عوامل أخرى، أحدها يتعلّق بالبحر الأبيض المتوسّط، فقد اتّصف هذا البحر بمياهه الهادئة أغلب أيام السنة، وبخلوّه من حركات المدّ والجزر القويّة[2]، ما وفّر إقلاع ورسو آمنين للسفن على الشواطئ[3]. وكان يخلو من الشعاب المرجانية التي تعيق حركة السفن، ويمتاز بكثرة مرافئه الطبيعيّة التي كانت تحمي السفن من الأنواء[4]. وكان الضباب نادرًا في البحر المتوسط[5]، ما يوفّر الإبحار الآمن للسفن. وكان لهذه الميزات دور كبير في تنشيط حركة الملاحة بين كريت، وبين المناطق الأخرى التي ترتبط معها بعلاقات تجاريّة. وكان للمناخ دور في تسهيل حركة الملاحة، ففي فصل الصيف كانت تهبّ رياح شماليّة من المرتفعات[6]، تسهّل حركة السفن المتوجّهة من كريت إلى مصر.

ج. الأسباب الاقتصادية

ولدينا أسباب أخرى تتعلّق بالمحاصيل الزراعيّة، والصناعة. كانت كريت تنتج القمح والشعير والكرمة[7] والزيتون كمحاصيل رئيسية، وكانت لديها معاصر لإنتاج زيت الزيتون، وكان الإنتاج وفيرًا، ويزيد عن حاجتها، غير أنّ إنتاجها من القمح لم يكن يكفيها، ما دفعها لاستيراد القمح، وكانت تصدّر مقابله الفائض من الزيت[8]. وفي هذه الحالة يمكن القول: إنّ الإنتاج الزراعي كان عاملاً منشطًا للحركة التجاريّة الكريتية تصديرًا واستيرادًا. واشتهرت

---

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص27.

[2]- عبد العظيم، أحمد، بلاد العرب وإفريقيا في خرائط اليونان والرومان، م.س، ص3.

[3]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص14.

[4]- الديناصوري، جمال الدين: جغرافية العالم، دراسة إقليمية، لا ط، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصرية، 1970، ج1، ص375.

[5]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص12.

[6]- Tulard J., op.cit, p.5.

[7]- Tulard J., op.cit, p.8.

[8]- عبد السلام شلوف، نصوص ونقوش من ليبيا، مركز جهاد الليبيين، 1994، ص 31.

كريت ببعض الصناعات (صناعة الفخار، وصناعة المعادن، والأحذية، والحلي، والتحف[1]) وكان عندها فائض في الإنتاج، ما جعلها تبحث عن أسواق لتصديره، ونستنتج من ذلك أنّ الصناعة الكريتيّة شكّلت عاملاً من عوامل إقبال كريت على التجارة. ويجب ألّا ننسى أنّ كريت كانت تحتاج إلى مواد أوّليّة (الذهب، الفضة، اللازورد، النحاس، العاج[2]) للقيام ببعض الصناعات، ما دفعها للبحث عنها في الحضارات المجاورة، مما ساعد على تطوير الحركة التجاريّة الكريتيّة. والجدير بالذكر أنّ كريت كانت غنيّة بالغابات، مما وفر الخشب اللازم لصناعة المراكب والسفن المستخدمة في النقل[3].

د. الأسباب السياسية

ورغم وجود الكثير من الأسباب التي دفعت كريت لامتهان التجارة الخارجية البحرية، باعتقادنا ما كان لهذه الخطوة أن تتمّ لولا تبنّي هذه الجزيرة مبدأ السّلم في حياتها، ومما يدل على ذلك خلوّ مدنها من القلاع والأسوار والأبراج الدفاعية. وهذا يعني أنّ الشعب الكريتي كان ميّالاً للسلم[4]، لا سيما بعد أن انحصرت السلطة بيد المينوس الذي منع التمردات[5]، لامتلاكه شخصيّة عسكريّة قويّة جدًا. وكلّ ذلك كان يدعم مشاريعها التّجارية الخارجيّة. وكما نعرف الحروب تستهلك طاقات الدّول عادةً، وتمنعها من التركيز على مشاريعها الحضاريّة، مثل التجارة وغيرها.

ومن خلال الاطّلاع على العلاقات التجاريّة بين الكريتيين وغيرهم (انظر لاحقًا)، نستنتج أنّ الشّخصيّة الكريتيّة كانت تقبل الانفتاح على الآخر، ما جعلها تقبل التّواصل مع الأطراف الأخرى، وقد ساعد ذلك على نشوء التجارة الكريتية وتطوّرها. وهناك من يصف الشخصيّة الإغريقية بالنّرجسيّة والطموحة، وهذا ما دفعها للبحث عن الثروة، وهذا الوصف -حسب هذا الرأي- ينطبق على الكريتيين؛ لأنّهم يمثّلون جزءًا من الإغريق. ومن وجهة نظرنا هذا الأمر لا يتعارض مع مسألة الانفتاح على الآخر، فالاثنان يكمّلان بعضهما.

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص26، 34.

[2]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص63.

[3]- عكاشة، علي؛ الناطور، شحادة؛ بيضون، جميل: اليونان والرومان، ط1، إربد، دار الأمل للنشر والتوزيع، 1991، ص24.

[4]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص36.

[5]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص21.

وإضافة إلى انفتاح الكريتيين على الآخر، نعتقد أن كان لديهم الرغبة في اقتباس الكثير من الإبداعات الحضارية، التي عرفها الآخر، ومما يؤكّد ذلك أنّ الحضارات التي اتّصلوا معها تجاريًّا كانت مراكز إشعاع حضاري، لا سيّما الساحل الفينيقي، ومصر، وبلاد الرافدين، ويمكن الأخذ عنها الكثير من التطوّرات الحضاريّة.

3. العوائق أمام الأنشطة التجارية

على الرغم من توفّر الكثير من العوامل التي ساعدت على تنشيط التجارة الخارجية وإنجاحها في كريت، إلّا أنّه لا يمكن نفي وجود معوقات أعاقتها، وحدّت من حركتها أحيانًا. ومن هذه العوائق الرياح الشمالية[1] القادمة من المرتفعات في فصل الشتاء، والتي كانت تهبّ على ساحل كريت الجنوبي مسبّبةً عواصف شديدة، أدّت إلى تعطيل حركة الملاحة فيه. والجدير ذكره أنّ الرياح الشمالية التي كانت تهبّ على كريت صيفًا، كانت تدفع السفن إلى مصر، وتعتبر هذه الرياح نافعة، غير أنّها في بعض الأحيان تتحوّل إلى رياح قويّة تعيق حركة السفن[2]. وعلى الرغم من فائدة ضعف حركة المد والجزر، وضعف الرياح، إلا أنّهما سببّا متاعب للملاحين عند الخروج من الموانئ إلى عرض البحر[3]؛ لأنّ السفن كانت تحتاج إلى قوّة تدفعها لتتمكّن من الإقلاع.

وبرزت على سواحل المتوسط مشاكل أخرى، أعاقت حركة الملاحة أيضًا، ومن أهمّها القراصنة، الذين ظهروا في منطقة بحر إيجة خاصة[4]، وشكّل هؤلاء خطرًا كبيرًا على حركة السفن باعتراضها في الذهاب والإياب[5]. ولم يقف ملوك كريت مكتوفي الأيدي أمام هذا الخطر؛ إذْ قام الملك مينوس بتطهير البحر من القراصنة لحماية أسطوله[6]. ويدل ذلك على

[1]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص26.

[2]- جان فركوتيه، قدماء المصريين والإغريق، العلاقة بين الشعبين منذ أقدم الأزمنة إلى نهاية الدولة الحديثة، ترجمة: محمد علي كمال الدين، كمل دسوقي، لا ط، القاهرة، دار النهضة العربية، 1960، ص20-21.

[3]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص14.

[4]- Tulard J., op.cit, p.8.

[5]- الأثرم، دراسات في تاريخ الإغريق وعلاقته بالوطن العربي، م.س، ص19.

[6]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، ط1، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1980، ص32.

خطورة القراصنة، والأرباح الكبيرة التي كانت تحققّها التجارة في آن معًا، فلولا ذلك ما تدخّل الملك بنفسه لمعالجة هذه المشكلة، فعلى ما يبدو كان أكثر المتضرّرين من قرصنتهم، وأكبر المستفيدين من إزالة خطرهم.

4. النّظام المتّبع في تبادل السلع

لم يُستعمل النّقد إلا في فترات متأخّرة في حوض البحر الأبيض المتوسط، وتحديدًا في عام 700 ق.م من قبل ملوك ليديا[1]. ويبدو أنّ كريت تبنّت نظام المقايضة[2] في العمليات التجارية، الذي كان شائعًا في العالم القديم قبل اختراع النّقد. وبموجبه كان الطرفان يتبادلان السلع[3]، إذْ كان كل طرف يعطي الطرف الآخر ما يتوفّر لديه من منتجات، وبهذه الحالة يحصل الطرفان على ما ينقصهما من سلع. ومما يدلّ على التزام كريت بهذا النّظام، مقايضة نبيذها، وزيتها بالنحاس المصري[4].

وعرفت الحضارات القديمة مقاييس معيّنة لوزن هذه المواد، ففي بلاد اليونان استُخدم التالنت كمقياس للوزن، ويعادل 30 كغ تقريبًا[5]، ويبدو لنا أنّ كريت استخدمته كبقيّة جزر اليونان، ومما يدلّ على استخدامه العثور فيها على تالنتات قبرصيّة. وفضلاً عن التالنت، استخدمت كريت الشاقل، وكان المقياس الأساسي لديها، وتأثّرت بالمكاييل والأوزان الآسيوية والمصرية[6]، وربما يعود ذلك إلى العلاقات التجارية مع هذه الشعوب. ونعتقد أنّ كريت التزمت بالأوزان التي كانت مستخدمة في الحضارات الأخرى؛ لأنّ العلاقة التجاريّة بين طرفين، ولا يمكن تبني أوزان طرف واحد دائمًا عند إجراء عمليّة التّبادل التّجاري. وربمّا استخدمت الجرار الضخمة في المبادلات التجارية، فمن المحتمل أنّها كانت تحتوي على كمّية معيّنة متعارف عليها -بين البائع والشاري- من المادة التي سيتم مقايضتها بمادة أخرى،

[1]- ألفرد زيمرن، الحياة العامة اليونانية، ترجمة: عبد المحسن الخشاب، ط2، القاهرة، 2009، ص363.

[2]- سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص36.

[3]- ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية، ترجمة: محمد عبد القادر محمد وزكي اسكندر، ط2، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص300.

[4]- فركوتيه، قدماء المصريين والإغريق، م.س، ص22.

[5]- فيصل عبد الله، مرعي، عيد: المدخل إلى تاريخ الحضارة، جامعة دمشق، 2007-2008، ص 185.

[6]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص42.

والدليل على ذلك العثور على جرار ضخمة في قصر المينوس، كانت مخصّصة للحبوب والزيت والنبيذ، التي كان الملك يجبيها كضرائب[1]. وعلى الأرجح كانت الضرائب محدّدة، ولكي تُضبط جيدًا، تم استخدام هذه الجرار. وكما ذكرنا سابقًا، كانت كريت تُصدّر النبيذ والزيت، وبما أنّ الكميّة التي تحتويها الجرار كانت معروفة ومحدّدة، فمن المحتمل أنّها كانت تستخدمها كمكيال لهذه المواد عند القيام بمقايضتها بمواد أخرى.

5. علاقات كريت التجارية مع الدول الأخرى

أ. مع مصر

لقد أقام المصريون علاقاتٍ تجاريّةً مبكرة مع كريت، وكما ذكرنا من قبل، يعتبر البحر الأبيض المتوسط هو الطريق الرئيسي الذي كان يربط بين كريت ومصر. وكانت الرياح الشمالية-التي تهبّ على كريت- تقوم بدفع المراكب المتوجّهة من كريت إلى مصر[2].

وكان المصريون يطلقون على كريت أسماءً مختلفة، ولعلّ أقدمها الجاونبو (3000 ق.م)، الذي يعني جزر البحر الأبيض المتوسط، أو سكان بحر إيجة[3]. وفي عهد الدولة الوسطى أطلقوا على سكانها اسم الكفيتو[4]، وسكان جزر وسط البحر[5]، وظلّ اسم الكفيتو مستخدمًا في عصر الدولة الحديثة.

ويعتقد البعض أنّ العلاقات بين الطرفين تعود إلى عصر ما قبل الأسرات، فقد تم العثور على بعض الأدوات الإيجية التي تؤكد ذلك[6]. وشهدت هذه العلاقات انطلاقتها الحقيقية في العصر المينوي الباكر (عصر الدولة المصرية القديمة)، واستمرّت في العصر المينوي المتوسّط (عصر الدولة الوسطى في مصر)، ووصلت إلى ذروتها في العصر المينوي المتأخّر (عصر الدولة المصرية الحديثة)؛ إذْ تذكر النّصوص المصريّة أنّ ملوك بلاد الكفيتو وجزر

---

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص25.

[2]- فركوتيه، قدماء المصريين والإغريق، م.س، ص20-21.

[3]- Gardiner. A. H, Ancient Egyptian on Masxica, Oxford, 1941, p. 205- 206.

[4]- الطائي، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، م.س، ص41.

[5]- Giardiner, op, cit, p 207.

[6]- سليم حسن، مصر القديمة، لا ط، القاهرة، 1975، ج2، ص 256.

البحر العظيم كانوا يُحضرون الهدايا والقرابين للملوك العظماء من الأسرة الثامنة عشرة في عصر الإمبراطورية[1].

وامتازت هذه العلاقات بقوّتها، وسببها تجاري بالدرجة الأولى على الأرجح، ومما يؤكّد ذلك قائمة الصادرات، والواردات المصرية، فقد استوردت مصر من كريت الفضّة الخام، لحاجتها لها في صناعتها، وهذا المعدن لم يكن متوفّرًا في كريت، فقد جلبته من جزر مجاورة، ثم صدّرته إلى مصر[2]، وصدّرت الأواني إليها أيضًا[3]. وكانت تستورد مصر النبيذ وزيت الزيتون أيضًا، اللذين كانا يتوفّران بكثرة في كريت، وكانت كريت تأخذ بدلاً منهما النحاس المصري[4]. وفضلاً عن العاج الذي كانت تحصل عليه كريت من ليبيا، من المحتمل أنّها حصلت على كميّة إضافية من مصر، فالعاج من المواد الخام التي كانت تبحث عنها كريت[5]، لتستخدمها في صناعتها، وكما هو معروف هذا المنتج كان يأتي من إفريقيا، ومصر هي جزء من إفريقيا[6].

وكان الأسطول التجاري الكريتي الذي يحمل البضائع الكريتية للمصريين، ينطلق من ميناء كومو[7]، غير أنّه لا يتوجّه إلى مصر مباشرة، بل إلى سواحل بلاد الشام (الساحل الفينيقي)، التي مثّلت محطة للتبادل التجاري بين الطرفين، والسبب في ذلك أنّ السفن الكريتية لا يمكن أن تقطع المسافة مباشرة إلى مصر؛ لأنّها كانت بدائية[8]، ولا تحتمل قوّة الأمواج، فكان لزامًا عليها الالتجاء إلى الساحل الفينيقي، الذي تحولت موانئه إلى مركزاً للتبادل التجاري بين الطرفين[9]. وكذلك الأمر بالنسبة لمصر، فقد كانت تنقل بضائعها إلى

[1]- الطائي، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، م.س، ص41.

[2]- Sandrs. N. K, The Sea Ppeople Warrios of the Ancient Meditereanean 1258- 1152 B. C., London, Thamed,s and Hudison, 1978, p 57.

[3]- عكاشة، علي، الناطور، شحادة، بيضون، جميل، اليونان والرومان، م.س، ص21.

[4]- فركوتيه، قدماء المصريين والإغريق، م.س، ص22.

[5]- الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص 36.

[6]- فيصل إحميم، عبد الكريم شكمبو، النشاط الاقتصادي في المدن الفينيقية، مدينة صور أنموذجاً، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الشهيد حمه الخضر-الوادي، 2017-2018، ص 20.

[7]- Tulard J., op.cit, p.11.

[8]- الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص39.

[9]- جريمال نيقولا، تاريخ مصر القديمة، ترجمة: ماهر حويجاتي، ط2، القاهرة، دار الفكر، 1993، ص85؛ الهذال، حصة تركي: المؤثرات الحضارية الفينيقية في الحضارة اليونانية، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 43، ملحق 3، 2016، ص 1563.

الساحل الفينيقي، ومنه تُنقل السلع إلى كريت. وكانت مدن الساحل الفينيقي (بيبلوس، صيدا، صور، أوغاريت) معدّة على نحو جيّد للقيام بهذا الدور، فقد كانت موانئها تشهد حركة تجارية نشيطة، وفضلاً عن ذلك، ارتبطت بعلاقات مع الطرفين، مما جعلها تقوم بدورها على الوجه الأكمل كحلقة اتّصال بينهما. ويُعتقد أنّ العلاقات التجاريّة غير المباشرة اقتصرت على الفترات المبكرة، وأصبحت مباشرة خلال عصر الدولة الحديثة المصرية، أو قبل بقليل، وذلك بعد أن أصبح الأسطول المصري على درجة عالية من القوّة[1]. ومماّ يُؤكّد أنّها أصبحت مباشرة ما قاله هوميروس عن السفن التي تنطلق إلى مصر من ميناء فايستوس: **تحمل قوة الريح والأمواج إلى أرض مصر السفن ذات المقدمات القاتمة**[2]. ومن وجهة نظرنا، لقد ارتبط هذا التطوّر بالازدهار السياسي الذي خلق ازدهارًا اقتصاديًّا في البلدين، فقوّة مصر السياسيّة ساعدتها على إنشاء أسطول قوي، مكّنها من السيطرة على شرقي المتوسّط، وكذلك الأمر بالنسبة لكريت، التي سيطر ملكها (المينوس) على بحر إيجة[3] وسواحل اليونان، وأنشأ أسطولاً قويًّا، وأنشأ الكثير من الموانئ في البحر الأبيض المتوسط[4]. ونعتقد أنّ شخصيّة المينوس كانت قريبة جدًا -من حيث القوّة والسطوة- من شخصيّة الفرعون المصري، فربمّا تأثّر الأوّل بالثاني من خلال العلاقات بين الطرفين، وتم الوصول إلى نتائج متشابهة على المستوى التجاري. ونعتقد أنّ السفن شهدت تطوّرًا تقنيًّا مكّنها من الوصول مباشرة إلى الوجهة التي تقصدها، فكما ذكرنا سابقًا، بدائيّة السفن الكريتية جعلتها غير قادرة على مقاومة قوّة الأمواج، ما جعلها تلجأ إلى الساحل الفينيقي، ربمّا حُلّت هذه المشكلة بتطوير السفن، وجعلها أكثر مقاومة، وملائمة للظروف. ويجب ألاّ ننسى أنّ قوّة مصر خلال هذه الفترة خلقت نوعًا من السلام في منطقة المتوسط، وأفادت كريت من هذه الظروف لتطوير العلاقات التجارية أكثر معها[5]، وكما ذكرنا أعلاه، تقرب الكريتيون من الفراعنة بتقديم الهدايا، ويعتبر ذلك إشارة إلى تفوق مصر على هذا الصعيد، ورغبة كريت بالاستفادة من هذا الوضع، ومن قوة العلاقات التجارية بين الطرفين. ويبدو لنا أنّ علاقة كريت التجارية

---

[1]- الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص-39 40.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص25.

[3]- م.ن، ص13.

[4]- Papadakis N. A., History of Crete Throughout Centuries, Heraklion, Crete, 26- 6- 2017, p.3.

[5]- الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص41.

مع مصر كانت أهم من علاقتها مع غيرها، وهذا ما جعل أحد الباحثين[1] يعتقد أنّ انهيار العلاقات التجارية بين كريت ومصر بعد موت أخناتون، هو الذي حرم ملوك كريت من مصدر الثراء، مما أدّى إلى سقوطها.

ومما يشير إلى العلاقات التجاريّة بين الطرفين العثور على الكثير من الأواني والمصنوعات الكريتية في مصر[2]، والمصنوعات المصرية في كريت[3]، والتي تعود إلى الحقب التي أشرنا إليها سابقًا. ومنها تلك التي تؤرّخ بالعصر المينوي الباكر[4]، كالأواني المرمريّة المصريّة في كريت، والأباريق الكريتية المزوّدة بمصبّ، والتي تشبه أباريق صُنعت في مصر، ما يدلّ على أنّها ربمّا أتت من مصر، أو أنّها ذات أصل كريتي، واقتبست مصر صناعتها من كريت من خلال العلاقات بين الطرفين، وهناك أواني اكتُشفت في مقبرة سقارة، شبيهة بأواني ظهرت في قصر كنوسوس. ولدينا أدلّة تعود إلى العصر المينوي الوسيط، ومن بينها غطاء آنية مرمرية مصرية، اكتشف في قصر كنوسوس، نُقش عليه اسم الملك خيان (1663 ق.م) أحد ملوك الهكسوس[5]. ومن الشواهد التي تؤكّد استمرار العلاقات في العصر المينوي المتأخر، مشهد منقوش في مقبرة يصور الكريتيين وهم يقدمون الهدايا للملك المصري، ومنها أواني ذات طابع كريتي، مزينة بتقنية الحز، ولها قاعدة ومقابض جانبية[6]. وفضلاً عن ذلك، عُثر في مصر على قطع فنية نقشت على سطوحها أشكال ذات أصل إيجي كريتي، مثل الكائن الخرافي الغرفين (حيوان بجسم أسد، وله جناح ورأس عقاب)، وهذا يعني أنّ مصر استوردت هذه القطع من كريت، أو أنّها تأثّرت فنيًّا بكريت من خلال علاقتها التجارية بها، وانعكس ذلك على فنونها، وفي كلتا الحالتين تعتبر هذه القطع دليلاً على وجود علاقات تجارية.

لقد انقطعت العلاقات بين الطرفين في مطلع القرن الرابع عشر بعد أن سقطت كريت على يد الموكنيين[7]، الذين شغلوا الموقع نفسه الذي كانت تشغله كريت، وارتبطوا بعلاقات

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص44.

[2]- الطائي، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، م.س، ص 44.

[3]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص90.

[4]- Evans. A, the Palace of Minos at Knossos, Vol I, New York, 1964, p 80- 81.

[5]- عكاشة، علي، الناطور، شحادة، بيضون، جميل، اليونان والرومان، م.س، ص 11.

[6]- Bury, A History of Greece, London, Macmillan and Com 3th, 1951, p 6.

[7]- Papadakis N. A., History of Crete Throughout Centuries, Heraklion, Crete, 26- 6 -2017, p.7.

تجارية مع المناطق نفسها أيضًا.



آنية مرمرية مصرية اكتشفت في مدينة كاليفيا الكريتية (٢٠٠٠ -١٦٠٠ ق.م)



قطعة من كأس كريتي مكتشف في مصر (١٩٠٠ -١٧٥٠ ق.م)



غطاء آنية مرمرية نقش عليها اسم ملك الهكسوس خيان (١٦٣٣ ق.م)، اكتشف في قصر كنوسوس



آنية مينوية اكتشفت في أحد القبور في مصر (١٦٠٠ -١٥٠٠ ق.م)



آنية كريتية على شكل إبريق اكتشفت في مصر (١٦٠٠ -١٥٠٠ ق.م)



أمفورة مرمرية مصرية تعود إلى فترة تحوتمس الثالث (العصر المينوي المتأخر)، اكتشفت في كريت، ويعتقد أنّها هديّة أرسلت من تحوتمس الثالث إلى أحد حكام كريت.



مشهد من مقبرة رخميرع وزير تحوتمس الثالث يصور سفراء كريتيين يقدمون الأواني كهدية للملك، ولهذا المشهد أهمية؛ لأنّه يصوّر لنا الأواني الكريتية التي كانت تنقل من كريت إلى مصر عبر العمليات التجارية.



القسم العلوي من فأس، اكتشف في مقبرة ملكية في طيبة، ويعود إلى عصر أحمس الأول (١٥٥٠- ١٥٢٥ ق.م)، وفي أسفله يظهر كائن اسطوري كريتي (الغرفين)، ويعتبر ذلك إشارة إلى وجود علاقات تجارية بين كريت ومصر.

ب. مع ليبيا

عرف الإغريق ليبيا منذ زمن بعيد، فقد ورد ذكرها في ملحمة هوميروس عندما تحدّث عن ثروتها الحيوانيّة، وخصوبة أراضيها[1]. وربطت الملحمة بينها وبين كريت، وكان ذلك عندما روى أحد أبطال الملحمة المسمّى أوديسيوس شيئًا عن مغامراته لشخص فينيقي يدعى يومايوس؛ إذْ قال له إنّه هرب من مصر إلى فينيقيا، فطلب منه الفينيقي أن يذهبا معًا إلى ليبيا، لكنّه رفض وذهب إلى كريت[2].

وهناك دلائل طبيعيّة تؤكّد قيام علاقات بين الطرفين، وهي ذات طبيعة تجاريّة على الأرجح. أُعطيت كريت موقعًا جغرافيًّا متميّزًا بالنسبة لليبيا؛ إذْ تقع بمحاذاة الساحل الليبي الشرقي، وتقدر المسافة الفاصلة بينهما ب 225 كم. وامتازت السواحل التي تربط بين المنطقتين بكثرة الموانئ التي كانت ترسو فيها السفن[3]. وفضلاً عن ذلك، امتاز الطريق الذي كان يسلكه التجار الكريتيون بسهولته، فقد كان ينطلق من جزيرة ثيرا في كريت متّجهًا نحو السواحل الليبية[4]، وكانت تستغرق الرحلة -عبر هذا الطريق- يومين. ومن المهاجرين إليها تاجر جلود، زاول مهنة صناعة القماش والجلود، وعلّمها لليبيين، وكان ذلك في العصر المينوي الوسيط[5]. وهذا يؤكّد أنّ الهدف من العلاقات اقتصاديّ تجاريّ بالدرجة الأولى. وممّا نشّط الحركة التجاريّة بينهما، الجالية الكريتية المقيمة في مصر، التي استغلّت قربها جغرافيًّا من ليبيا، فأقامت علاقات تجارية معها. وكان بإمكان الكريتيين الوصول بسهولة من ليبيا إلى مصر بفضل التيّارات القويّة التي كانت تتحرّك بمحاذاة السواحل الغربية من الغرب إلى الشرق[6]. ويعتبر هذا من العوامل الإضافيّة التي جذبت كريت إلى ليبيا. ويمكن وصف ليبيا بأنّها كانت إحدى البوابات المنفتحة على مصر.

[1]- كمال سالم زريق، المصادر التاريخية وأهميتها في دراسة العلاقات الليبية الإغريقية، مجلة كلية الآداب، جامعة قارينوس، العدد 53، 2011، ص -168 169.

[2]- عبد السلام شلوف، العهد الإغريقي في قورينايقا في ضوء إصداراته القانونية، جامعة قاريونس، بنغازي، 1992، ص 38.

[3]- غزال، أحمد حسن: ملاحظات حول التأثيرات الليبية في مقابر سهل ميسارا جنوب جزيرة كريت في الألف الثالثة ق.م، مجلة كلية الآداب، جامعة بنغازي، العدد 7، 1975، ص -291 292.

[4]- رجب عبد الحميد الأثرم، العلاقات الليبية اليونانية قبل تأسيس قوريني عام 631 ق.م، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، مركز جهاد الليبيين، العدد 2، 1990 ص 93.

[5]- كمال سالم زريق، المصادر التاريخية وأهميتها في دراسة العلاقات الليبية الإغريقية، م.س، ص169.

[6]- م.ن، ص170 - 171.

ومن الدلائل الأثريّة المؤكّدة على المبادلات التجارية بين الطرفين، الأختام المكتشفة في البلدين، ففي ليبيا عُثر على قطعة من ختم كريتي، وفي كريت اكتُشفت مجموعة من الأختام الليبية المصنوعة من العاج[1]. وكما نعرف، الأختام لها وظيفة تجارية، فقد كانت تستخدم لدمغ البضائع المستوردة والمصدرة. ويؤكّد ذلك على قيام علاقات تجاريّة منظّمة بين الطرفين.

واستوردت كريت العاج من ليبيا، والثيران، ونبات السلفيون الطبي، والتوابل[2]. وصدّرت إلى ليبيا الجواهر المصنوعة من الحجر الكريم، والأواني البرونزية، والفخار على شكل كؤوس، ومزهريات، وأباريق[3].



نماذج من الجواهر المينوية التي كانت كريت تصدرها إلى ليبيا وغيرها من المناطق

ت ـ مع الجزر الإغريقية الأخرى

أشرنا سابقًا إلى أنّ الملك مينوس طهّر منطقة المتوسّط من القراصنة، وكان هذا الملك يمتلك أسطولاً خاصًّا تجاريًّا بحريًّا، وسيطر على جزر الكوكلاديس[4]، وأصبحت كريت سيّدة بحر إيجة الذي تأثّرت جزره بالحضارة الكريتية[5]، وبفضل قوّتها استطاع تجّارها

[1]- كمال سالم زريق، المصادر التاريخية وأهميتها في دراسة العلاقات الليبية الإغريقية، م.س، ص173.

[2]- الأثرم، العلاقات الليبية اليونانية، م.س، ص69.

[3]- كمال سالم زريق، المصادر التاريخية وأهميتها في دراسة العلاقات الليبية الإغريقية، م.س، ص173.

[4]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، م.س، ص 32.

[5]- الطائي، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، م.ن، ص41.

الدخول إلى هذه الجزر[1]، التي أقامت علاقات تجارية مع كريت، فقد استوردت الفخار الكريتي، وصدّرت إلى كريت الأدوات المعدنيّة خاصّة الفضّة، والزجاج الطبيعي والرخام[2].

وقامت بنشاطات تجاريّة مع جزر أخرى، مثل جزيرة ميلوس التي كانت تشتهر برخامها[3]، وزجاجها الأسود، وأقامت علاقات تجارية مع جزيرة أثيرا، وجزيرة باروس التي كانت غنيّة بالرخام والمرمر[4]، وجزيرة ناكسوس، وجزر أخرى، وكانت تستورد من الجزر وتصدر إليها البضائع المختلفة[5].

ونستنتج هنا أنّ القوّة العسكريّة والسياسيّة لكريت هي التي فرضت هذا النّوع من العلاقات التجارية، فمن خلالها طهّرت البحر من القراصنة، ونعتقد أنّه بفضلها تمكّنت من فرض نوع من المبادلات التجارية التي كانت في صالحها على الأرجح. وممّا يؤكّد ذلك، فرضها الضرائب على الجزر الأخرى[6]؛ إذْ تؤكّد هذه الضرائب على أنّ هناك طرفًا قويًّا (كريت) يتحكّم بأطراف أضعف منه (الجزر الأخرى).

ث. مع قبرص

تشغل جزيرة قبرص موقعًا هامًا في البحر المتوسط، مما سمح لها بإقامة علاقات تجاريّة مع الحضارات المجاورة، وكان لكريت نصيب من هذه العلاقات، التي بدأت تنشط منذ العصر البرونزي المبكر، أي قبل دخول كريت بعصر بناء القصور الكبيرة. وكانت قبرص غنية جدًا بالنّحاس[7]، مما دفع كريت لاستيراده منها[8]، وكانت بحيرة تيكي المالحة تمثّل الميناء الذي كان يستخدم لتصديره إلى كريت، وإلى غيرها من المناطق.

وبحسب المكتشفات الأثريّة، كانت كريت تُصدّر فخّارها إلى قبرص، وربمّا بعض المصنوعات المعدنيّة، فقد عثر فيها على قطعة فخارية تصوّر شخصًا يقفز على ظهر ثور

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص43.

[2]- محمد السيد غلاب، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافية والتاريخ، لا ط، بيروت، دار العلم للملايين، 1969، ص181.

[3]- كيتو، الإغريق، م.س، ص34.

[4]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص32.

[5]- Richter G. M, Greek Art, Brildes Rosenbaum, Vienna, 1977, p 16.

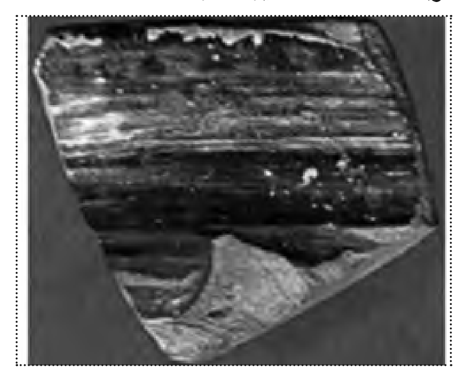
[6]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص 24.

[7]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص33.

[8]- أحمد عتمان، جزيرة قبرص، جزيرة الجمال والألم منذ القدم إلى اليوم، لا ط، القاهرة، 1997، ص30.

شقلبة[1]، ومماّ يؤكّد أنّ هذا الفخّار ذا أصول كريتية العثور على مشهد مماثل في كريت، وعثر على شفرات خنجر كريتي في لابيثوس، وآخر في قونوس، ويؤرّخ الاثنان بالعصر المينوي الوسيط[2]. ومن الدلائل الأخرى على المبادلات التجارية، التالنتات القبرصية المكتشفة في كريت، والآنية الكريتية الصقيلة المكتشفة في قبرص[3].

لقد كانت قبرص غنيّة بالأخشاب[4]، وربمّا كانت كريت تستورد هذه المادة منها، لكن هذه المسألة تحتاج إلى بعض المناقشة. ذكرنا سابقًا أنّ كريت كانت تصنع سفنها من أخشاب غاباتها، غير أنّ أحد الباحثين[5] يخالف هذا الرأي، وحجّته في ذلك أنّ أشجار الغابات في بلاد اليونان كانت صغيرة، وغير صالحة لصناعة السفن. لا نعتقد أنّ هذا الرأي صحيح؛ لأنّ كريت هي جزيرة في البحر، ولا يمكن أن تحقّق انطلاقتها التجارية الأولى إلا بالاعتماد على ما يتوفّر لديها من أخشاب، لكي تتمكّن من صناعة السفن التي تمكّنها من الاتّصال بالآخرين لأوّل مرّة. ومن المحتمل أنّها احتاجت إلى كميات إضافيّة من الأخشاب عندما توسّعت في تجارتها، وبنت أسطولاً كبيراً، وسيطر على جزر بحر إيجة، وهذه الكميات كانت متوفّرة في قبرص، فربمّا حصلت عليها منها.



كسرة من قشرة كأس فخاري كريتي، اكتُشفت في مدينة إنكومي القبرصية

---

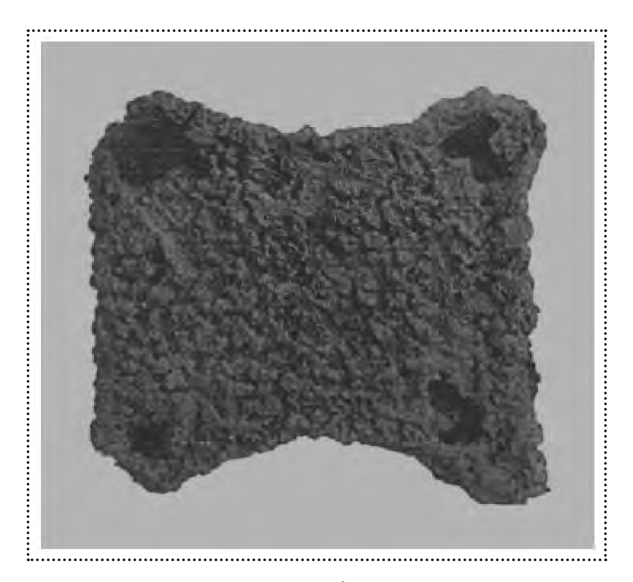
[1]- كوتريل، ليونارد، الموسوعة الأثرية، م.س، ص392.

[2]- أحمد عتمان، جزيرة قبرص، م.س، ص30، 50.

[3]- م.ن، ص31.

[4]- م.ن، ص64.

[5]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص-34 35.



سبيكة نحاسية من قبرص، اكتُشفت في مدينة تيليسوس الكريتية

ج. مع المدن السورية القديمة

لقد أقام الإغريق علاقات تجاريّة مع العديد من المدن السوريّة القديمة، ومنها مدن ساحل بلاد الشام، أو الساحل الفينيقي، أو المدن الفينيقية كما أسماها هؤلاء، وتشغل هذه المدن المناطق الساحليّة من سورية ولبنان وفلسطين. وكان لهذه المدن خبرة واسعة في البحر، وعملوا بالتجارة البحرية، وأسّسوا لأنفسهم مستعمرات تجاريّة[1]. وتوفّرت في هذه المنطقة كلّ المقوّمات التي جذبت الكريتيين، وغيرهم من الإغريق إليها، فهي حلقة اتّصال مع مصر وآسيا الصغرى ومنطقتي دجلة والفرات[2]. ومن جهة أخرى كانت سوقًا لتصريف بضائعهم. وفضلاً عن أهميّة الساحل الفينيقي التجارية، كان يوفّر الأمن والحماية للسفن الكريتية، فقد كان لزامًا عليها محاذاته أحيانًا طلبًا للأمان[3].

ومن الأمثلة على هذه العلاقات، علاقة كريت بيبلوس (جبيل)، فقد أسفرت التنقيبات

---

[1]- الهذال، المؤثرات الحضارية الفينيقية في الحضارة اليونانية، م.س، ص1561.

[2]- انطوان مورتكات، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب: توفيق سليمان، علي أبو عساف، قاسم طوير، لا ط، دمشق، مطبعة الإنشاء، 1967، ص250.

[3]- سليم عادل عبد الحق، مؤتمر الآثار في البلاد العربية، المنعقد في دمشق سنة 1947، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1948، ص 70.

الأثرية عن اكتشاف مجموعة من الأواني الفضيّة الكريتية في أحد القبور الملكية، الذي يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويبدو أنّ صناعة الأواني الفضيّة كانت مزدهرة في كريت؛ إذْ عثر في مدينة جورنيا على كأس من الفضة مصقولة صقلاً فنيًا جميلاً[1]. وتمّ الكشف في جبيل عن آنية فخارية كريتية أيضًا، تؤرّخ بالفترة الواقعة بين عامي 1800 و1700 ق.م. وهذا يعني أنّ التجارة استمرّت بين الطرفين في القرن الثامن عشر.

وأقامت علاقات تجاريّة مع أوغاريت أيضًا[2]، وقد بدأت هذه العلاقات منذ عام 1900 ق.م (العصر المينوي الوسيط)، وممّا يؤكّد قيامها المكتشفات الأثرية في أوغاريت[3]، ومن بينها أواني وقطع فخارية كريتية، كانت تستخدم في الحياة اليومية[4]. ومن الأمثلة عليها آنية فخارية جدرانها رقيقة، رُسم على سطحها الخارجي أشكال حلزونية وأزهار ذات لون أبيض على خلفية سمراء، وتتشابه هذه التزيينات مع تزيينات فخار نوزي، ذي الأصول الكريتية، والذي سنتحدث عنه لاحقًا. ولدينا آنية أخرى ملوّنة باللّونين الأحمر والأسود، ومطليّة بمادة لامعة، وتؤرّخ هاتان الآنيتان بالقرن الثامن عشر ق.م[5]. وهناك آنية فخارية ثالثة، تعود إلى العصر المينوي الوسيط، يُعتقد أنها مستوردة من مدينة ماليا في كريت، وكانت تُستخدم لسكب السائل المقدّس أثناء تأدية الطقوس الدينية[6]. ويبدو أنّ علاقة كريت بأوغاريت كانت قويّة جدًا، ومما يؤكّد ذلك وجود ما يسمّى بالحي الإيجي في مدينة أوغاريت العائدة إلى عصر البرونز الحديث (1600-1200 ق.م)[7]، فمن المحتمل أنّه كان مخصّصًا للجالية الكريتية، التي كانت تعمل بالتجارة، أو بحرف أخرى، وإذا لم تكن الجالية كريتية ربما كانت جالية إيجية أخرى ورثت علاقة كريت بأوغاريت.

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، ص34.

[2]- إياد يونس، الحياة الاقتصادية في أوغاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، 2000، ص 136.

[3]- فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: جورج حداد، لا ط، بيروت، 1958، ج1، ص67.

[4]- جمال حسن حيدر، أوغاريت التاريخ والآثار، ط1، اللاذقية، دار المرساة، 2003، ص27.

[5]- سليم عادل عبد الحق، مؤتمر الآثار في البلاد العربية، م.س، ص70.

[6]- Matoïan V., «Ougarit, porte méditerranéenne de l’Asie», in P. Bordreuil, F. Ernst-Pradal, M.G. Masetti-Rouault, H. Rouillard-Bonraisin (éds), Les écritures mises au jour sur le site antique d’Ougarit (Syrie) et leur déchiffrement 1930 - 2010, Commémoration du quatre-vingtième anniversaire du déchiffrement de l’alphabet cunéiforme de Ras Shamra-Ougarit, AIBL, Paris, 2013, p.121.

[7]- Ibid, p.95, fig.1.

ومن خلال هذا العرض نلاحظ أنّ الأدلّة الأثرية تشير إلى أنّ العلاقات بين الطرفين تعود إلى النّصف الأوّل من الألف الثاني، غير أنّنا نرجّح عودتها إلى الألف الثالث ق.م، ودليلنا على ذلك الدّور الذي كان يقوم به الساحل الفينيقي كوسيط تجاري بين كريت ومصر منذ العصر المينوي الباكر، وربما قبل هذا العصر، وكنّا قد أشرنا إلى الأدلّة الأثرية التي تثبت ذلك.

ومن المحتمل أنّهم أقاموا علاقات تجاريّة مع مدينة ألالاخ (تل عطشانة) الواقعة شمالي سورية، وقبل أن نتحدّث عن الأدلة التي تشير إلى ذلك، نودّ أن ننبّه على أنّ ألالاخ كانت محطة هامة على طرق القوافل التجاريّة القادمة إلى الشرق الأدنى من جزر بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط[1]، وعلى ذلك، هناك احتمال قويّ لوجود علاقات تجاريّة مباشرة بين الطرفين. وممّا يقوّي هذا الاعتقاد الأدلّة الأثريّة، التي تعود إلى أكثرٍ من سوية أثرية. ففي السوية السابعة، اكتُشف قصر[2]، يحتوي على بعض الترتيبات (انظر لاحقًا)، التي تشبه ترتيبات قصر كنوسوس في كريت، ويعتبر هذا إشارة إلى قيام علاقات بين الطرفين، وعلى الأرجح هي علاقات ذات طابع تجاري، نظرًا لموقع ألالاخ الجغرافي، الذي أعطاها الميزة التجارية. ولدينا دليل آخر يتمثّل بفخار نوزي ذي الأصل الكريتي، الذي أشرنا إليه سابقًا، بدأ هذا الفخار بالظهور في السوية الرابعة (1447–1370 ق.م)، واستمر في السويتين الثالثة (1370-1347 ق.م) والثانية[3]، والجدير بالذكر أنّ ألالاخ كانت تحت السيطرة الحورية الميتانية خلال عصر السوية الرابعة[4]، ووقعت بيد الحثيين في فترة السوية الثالثة[5].

ومن خلال هذا العرض السريع نستنتج أنّ العلاقات التجارية استمرت خلال العديد من فترات ألالاخ، واللافت للانتباه أنّ هذه الفترات تختلف عن بعضها فيما يتعلق بالعنصر

[1]- ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية، م.س، ص194.

[2]- عمار عبد الرحمن، مملكة ألالاخ، دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية، مركز الباسل للبحث والتوثيق الأثري، دمشق، 2007، ص12.

[3]- لم يستطع وولي تحديد تاريخ دقيق للسوية الثانية، ويرى أن تاريخ هذه السوية والسوية الأولى يمتد من 1347 إلى 1194 تاريخ سقوط مدينة ألالاخ علي يد شعوب البحر. انظر: وولي، ليونارد: ألالاخ مملكة منسية، ترجمة: فهمي دالاتي، لا ط، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1992، ص173.

[4]- عيد مرعي، «مملكة ألالاخ»، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان 71-72، 2000، ص40.

[5]- عبد الرحمن، عمار، مملكة ألالاخ ، م.س، ص152.

البشري الذي كان يدير العمليّة التجاريّة، ففي عصر السوية السابعة كانت ألالاخ تتبع لمملكة يمحاض الأمورية[1]، وفي الفترتين اللاحقتين كانت تحت السيادة الحورية والحثية، ومن المؤكّد أنّ العمليات التجاريّة كانت تتّم باسم هذه القوى، وليس باسم ألالاخ ذاتها، والجدير بالذكر أنّ كريت لم تكن طرفًا في هذه العلاقات في كلّ الفترات، ولمعرفة حقيقة هذه العلاقات يجب العودة إلى فترة ازدهار التجارة الكريتية. يُعتقد أنّ التجارة الكريتية وصلت إلى ذروة ازدهارها في عام 1450 ق.م (العصر المينوي المتأخر)[2]، وفي عام 1400 ق.م بدأت بالانحسار لتحلّ محلّها التجارة الإغريقية الموكينية، التي انتشرت على نحو واسع في الفترة الواقعة ما بين 1400 و1350 ق.م، ووصلت إلى بعض مدن الساحل الفينيقي[3]، ونستنتج هنا أنّ الحضارة الموكينية ورثت التجارة الكريتية، وعلى ذلك من المحتمل أنّها هي التي ارتبطت بعلاقات تجاريّة مع ألالاخ في الفترات التي تلت العام 1400 ق.م، ومما يؤكّد ذلك وصولها إلى الساحل الفينيقي الذي كان حلقة الاتّصال الأساسيّة مع العالم السوري القديم. ويبدو أنّها كانت متأثّرة بالبضائع الكريتية، لا سيّما الفخار الذي استمرّت بتصديره إلى المناطق الأخرى.

وفي كامد اللوز في لبنان عُثر في أحد القبور على آنية كريتية، على شكل إبريق كروي، له مقبض، ومزود بمصب شبيه بمنقار الطير، ومزين بأشكال ظهر على فخار ألالاخ (الأشكال الحلزونية)، ويعود هذا الإناء إلى الطبقة P4d-c المؤرخة بالفترة الواقعة بين عامي 1480 و1340 ق.م[4]، وهذا التاريخ يعاصر الفترة التي ظهر خلالها فخار نوزي ذو الأصل الكريتي في ألالاخ، وهذا يعني أنّ النّشاط التجاري الكريتي كان في أوجه مع المدن الشامية خلال هذه الفترة.

---

[1]- عيد مرعي، «مملكة ألالاخ، م.س، ص 37.

[2]- عكاشة، الناطور، بيضون، اليونان والرومان، م.س، ص24.

[3]- الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص42.

[4]- Højen Sørensen A., «An update on the chronological value of Minoica in the Levant and Cyprus», **dans** Warburton, David A. **(dir),** Time's Up! Dating the Minoan Eruption of Santorini. Acts of the Minoan Eruption Chronology Workshop, Sandbjerg November 2007**,** Aarhus Universitetsforlag, 2009, p.270.



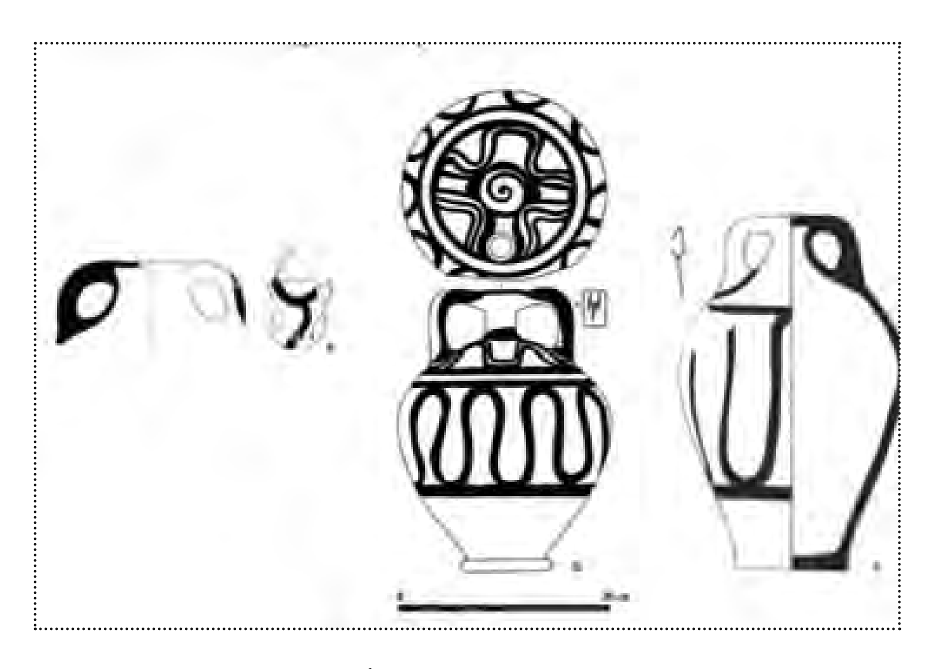
إبريق فضي كريتي من أحد قبور جبيل يعود إلى القرن التاسع عشر ق.م



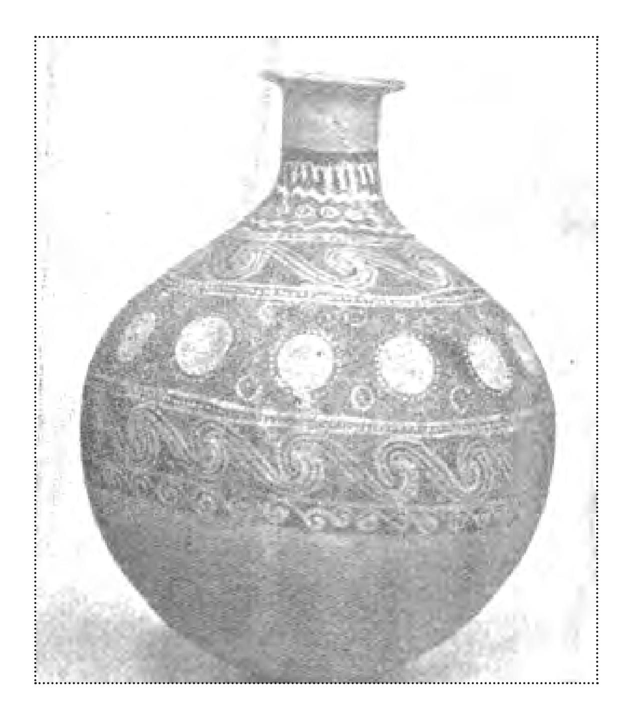
كسرة من آنية فضية اكتُشفت في أحد قبور جبيل، زُخرفت بأشكال حلزونية، وهذه الأشكال ذات أصل الكريتي، نُقشت على الفخار المصدر إلى مدن سورية ورافدية.



آنية فخارية كريتية من مدينة جبيل (١٨٠٠-١٧٠٠ ق.م)



جرار كاملة وكسرات من جرار مينوية كريتية اكتشفت في أوغاريت تشير إلى علاقات تجارية بين الطرفين.



آنية فخارية كريتية مكتشفة في ألالاخ من نمط فخار نوزي



إبريق كريتي من كامد اللوز في لبنان (١٤٨٠-١٣٤٠ ق.م)

ح. مع بلاد الرافدين

تتوفّر الكثير من الأدلّة المؤكّدة، التي تشير إلى قيام علاقات تجاريّة بين كريت وبلاد الرافدين، لكنّها كانت تتم عبر الوسيط التجاري، المتمثّل بالساحل الفينيقي. فقد كان هذا الساحل بمثابة الجسر الذي يربط بين كريت وبلاد الرافدين. وهذه الأدلّة المؤكّدة تعود إلى الألف الثاني ق.م. وهناك معلومات غير مؤكّدة تشير إلى قيام علاقات بين الطرفين في عصر شاروكين الأكادي؛ إذْ ذكرت بعض النصوص التي تعود إلى هذا الملك أنّه استطاع احتلال العديد من المدن السورية، ومن المحتمل أنّه سيطر على سوريا الشمالية[1]، ووصل إلى سواحل المتوسط (البحر الأعلى)[2]، ويذكر بعض أنصاره أنّه عبر المتوسّط إلى بلاد القصدير (لعلّها جزيرة قبرص أو السواحل الجنوبيّة لآسية الصغرى) وإلى جزيرة كريت لاحتلالها[3]. لا يتوفّر لدينا نص مكتوب يؤكّد وصوله إلى هذه المناطق فاتحًا، فربمّا أشاع أنصاره هذه الأخبار لإذاعة صيته، وإظهار عظمته، وربمّا يكون الأمر مقتصرًا على علاقات تجارية، والدليل على ذلك العثور على أختام أكادية في قبرص[4].

وأيًا تكن طبيعة العلاقة بين كريت، وبين الأكاديين، تعتبر المعلومات السابقة إشارة إلى رغبات رافدية بإقامة علاقات مع كريت لأسباب اقتصادية تجارية، ودليلنا على ذلك إقامة علاقات تجارية بينها وبين الطرف الرافدي في الألف الثاني، والتي ربمّا كانت ترجمة لأحلام رافديّة قديمة، أو استمرارًا لعلاقات قديمة تعود إلى العصر الأكادي. وتعتبر أوغاريت إحدى المحطّات التجارية التي كانت مركزًا لتبادل البضائع بين العالم الرافدي، وكريت في النّصف الأوّل من الألف الثاني ق.م. ويُعتقد أنّ بابل أقامت علاقات تجاريّة مع كريت؛ إذْ عُثر في كريت على أختام اسطوانية بابلية[5]، لكن لا تتوفّر لدينا معلومات عن طبيعة هذه العلاقات، غير أنّها تعتبر إشارة قويّة لوجود تعامل تجاري بين الطرفين، ووصول تجار بابليين إلى

[1]- الهذال، المؤثرات الحضارية الفينيقية في الحضارة اليونانية، م.س، ص1563.

[2]- Margueron J.C., , Mari - Métropole de l'Euphrate. Editions Picard et ERC, Paris, 2004, p. 310.

[3]- أحمد ارحيم هبو، تاريخ الشرق القديم، بلاد ما بين النهرين (العراق)، ط1، صنعاء، دار الحكمة اليمانية، 1996، ص16؛ أحمد عتمان، جزيرة قبرص، ص50.

[4]- رشيد، فوزي: سرجون أول امبراطور في العالم، الموسوعة الذهبية 1، ط1، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، 1990، ص34.

[5]- عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، م.س، ص90.

كريت؛ لأنّ وظيفة الختم الرئيسية هي تحديد صاحب الملكية، ولكي يُحدّد صاحبها يجب أن يكون حاضرًا.

وتعدّ ماري إحدى المدن الرافدية التي أقامت علاقات تجارية مع كريت أيضًا[1]، وتعطينا معلومات تفصيليّة أكثر من بابل، فقد ورد في إحدى وثائق أرشيفها أن موانئ أوغاريت كانت نقطة التقاء بين البضائع الكريتية وتجار ماري[2]. ونفهم من هذه الوثيقة أنّ البضائع الكريتية لم تنقل إلى ماري بواسطة تجار من أوغاريت، بل كان يتم اللّقاء مباشرة بين التجار الكريتيين والماريين، ومن المؤكّد أنّ أوغاريت كانت تحصل على عائدات من هذه المبادلات التجارية كنقطة التقاء بين مختلف الأطراف. ومن المحتمل أنّ البضائع الكريتية كانت تصل إلى مناطق أخرى من بلاد الرافدين عبر ماري؛ لأنّ ماري كانت تلعب دورَ الوسيط التجاري بين سورية وبلاد الرافدين، فقد كانت تنقل الكثير من البضائع السورية إلى العالم الرافدي، وقد أخذت هذا الدور بفضل موقعها الجغرافي المتميّز بين المنطقتين. وفضلاً عن الوثيقة السابقة، مما يؤكّد إقامة العلاقة بين الطرفين انتقال بعض المؤثّرات المعمارية من ماري إلى كريت[3] (انظر لاحقًا بالتفصيل). وتجدر الإشارة إلى أنّ حمورابي البابلي دمر ماري في عام 1761 ق.م[4]، ولم تعد الحياة لها بعد هذا التاريخ، وهذا يعني توقف العلاقات التجارية مع كريت.

وتوقف الحياة في ماري، لا يعني توقف التجارة الكريتية مع بلاد الرافدين، فقد استمرّت البضائع بالتدفّق إليها عبر الساحل الفينيقي، فمنه كانت البضائع الكريتية تصل إلى الحوريين الذين أسّسوا مملكتهم في شمالي بلاد الرافدين في منتصف الألف الثاني ق.م[5] (المملكة الحورية-الميتانية 1475–1350 ق.م)، ومن الأمثلة عليها الفخار الكريتي، الذي أُطلق عليه اسم فخار نوزي نسبة إلى مدينة نوزي التي اكتشف فيها هذا النّوع من الفخار، وهو عبارة عن

---

[1]- عبد الله، فيصل؛ مرعي، عيد: تاريخ الوطن العربي القديم: بلاد الرافدين، جامعة دمشق، -2013 2014، ص306.

[2]- Matoïan V., op.cit, p. 99.

[3]- حسان عبد الحق، العمارة الملكية في بلاد الرافدين من عصر سلالة أور الثالثة إلى نهاية العصر البابلي القديم (2112 – 1595 ق.م)، ط1، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، 2019، ص492.

[4]- Huot J.L., Une archéologie des peuples du Proche-Orient, Des hommes des palais aux sujets des premiers empires (II - I millénaire av. J.-C.), tome II, Edition Errance, Paris, 2004, p.30.

[5]- مورتكات، انطوان، تاريخ الشرق الأدنى القديم، م.س، ص211.

أكواب طويلة، ظهرت عليه تزيينات على شكل ضفائر، وأشكال حلزونية، ونباتات، وزهور، شبيهة بتلك التزيينات التي ظهرت على الفخار الكريتي، وتعتبر هذه التزيينات دليلاً على أصوله الكريتية[1]، وعلى نشوء علاقات تجارية بين الطرفين. ومما يؤكد انتماء هذه التزيينات إلى الفن الكريتي ظهورها على بعض آثارها، لاسيما الأشكال الحلزونية التي نُقشت على نصل فأس اكتشف في ماليا إحدى مدن كريت، والذي يعود إلى الفترة الواقعة بين 2000 و1500 ق.م[2]. ونعتقد أنّ الدولة الحورية-الميتانية حصلت على البضائع الكريتية بشكل مباشر عبر ساحل المتوسط؛ لأنّها توسّعت في مطلع القرن الخامس عشر نحو الغرب باتّجاه سواحل المتوسط[3].

وظهر هذا النّوع من الفخار في تل بيلا الواقع شمالي نوزي خلف الموصل، وفي عاصمة الكاشيين (دور-كوريجالزو) التي تقع في منطقة بعيدة نحو الجنوب[4]. ونستنتج أنّ فخار نوزي، ذا الأصل الكريتي، لم ينتشر في نوزي فقط، بل وصل إلى مناطق رافدية أخرى، وهذا يعني أنّ البضائع الكريتية انتشرت في مناطق واسعة من العالم الرافدي، لكن لا نعلم كيف كان يصل إلى هذه المدن، هل كان يتم ذلك عبر علاقات تجارية خاصة ربطت كلّ مدينة على حدا مع الجانب الكريتي عبر الوسيط التجاري الفينيقي؟ أم إنّه كان ينتقل من مدينة إلى أخرى؟

وقد يقول قائل: إنّ هذا الفخّار لا يعتبر دليلاً مؤكّدًا على قيام علاقات تجارية مع نوزي وغيرها من المدن الرافدية والسورية الأخرى، فربّما دخلت التأثيرات الفنيّة -بطريقة أو أخرى- إلى هذه المدن، وانعكست على صناعة الفخار، فظهرت تزييناته شبيهة بتزيينات الفخار الكريتي. هذا الانتقاد صحيح ومنطقي، لكن ما يجعلنا نستبعده استبعادًا مطلقًا رمزيّة النّقوش التي نقشت على سطحه، لا سيّما زهرة الزنبق التي كانت تمثّل رمزًا ملكيًا يتعلّق

[1]- Mallowan, White-Painted Subartu Porttery, In Mélanges syriens offerts à Monsieur René Dussaud, II, Paris, 1939, P.887- 894.

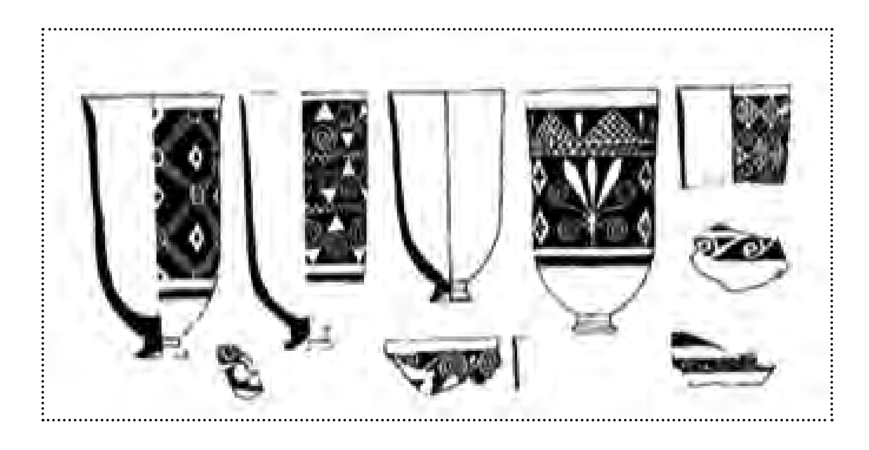
[2]- ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية، م.س، ص362.

[3]- مرعي، مملكة ألالاخ، م.س، ص 40.

[4]- سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، ترجم:ة محمد طلب، ط1، دمشق، دار دمشق، -1992 1993، ص-243 244.

بالمينوس[1]، ونتساءل هنا: هل من المعقول أن تقوم مدن ذات سيادة ولها حكامها، بنقش رموز تتعلّق بملوك آخرين؟ الأحرى بها أن تزينه برموز تتعلّق بها، وهذا يعني أنّه استجلب من الخارج عبر عمليات تجارية.

ويبدو أنّ البضائع الكريتية وصلت إلى آشور أيضًا؛ إذ عثر في معبد عشتار -الذي بناه توكولتي نينورتا الأوّل- على مزهرية فخارية مينوية من النّوع المسمّى الإناء ذي العنق، والجدير بالذكر أنّ تاريخ المعبد الذي اكتشفت فيه لا يتطابق مع أي فترة من فترات الحضارة المينوية[2]؛ إذْ بني في فترة متأخّرة، فكما هو معروف توكولتي نينورتا الأوّل حكم في النّصف الأوّل من القرن الثالث عشر، ويُفسّر وجودها في المعبد على أنّها إرث من فترة أقدم، تعاصر إحدى فترات الحضارة المينوية، لكن لا يمكن تحديدها بدقّة. وعلى أية حال تعتبر هذه الآنية إشارة إلى قيام علاقات تجارية بين كريت، والدولة الآشورية في إحدى حقبها.



فخار نوزي ذو الأصل الكريتي (أكواب طويلة نقشت عليها زخارف كريتية متنوعة)

---

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص25.

[2]- Højen Sørensen A., op.cit, p. 271.



مزهرية فخارية مينوية اكتُشفت في معبد عشتار الذي بناه توكولتي نينورتا الأول في آشور

6. انعكاس التجارة على مختلف مناحي الحياة في كريت

أ. انعكاسها على بناء المدن وأوابدها

ازدهرت الحضارة الكريتية المينوية، ومن مظاهر ازدهارها تأسيس بعض المدن، التي كان عددها كبيراً، وامتازت هذه المدن بفخامتها، فقد كانت تحتوي على قصور، وبيوت فارهة على شكل فيلات، وكانت تربطها بعضها ببعض شبكة من الطرق، ومن أهمّها الطريق الذي كان يربط كنوسوس بفايستوس[1].

نرجّح وعلى وجه قطعي أن تكون التّجارة بما حقّقته من أرباح، هي العامل الأساسي الذي أعطى الفخامة لهذه المدن، ولدينا دليلان على ذلك، الأوّل يتمثّل بضعف الموارد الداخليّة في كريت (أشرنا إلى ذلك سابقًا)، التي لا يمكن الاعتماد عليها في هذا التطوّر الحضاري، فلو استثنينا التجارة نلاحظ أنّ الاقتصاد الكريتي هو اقتصاد رعوي زراعي، وهذا الاقتصاد لا يستطيع القيام بمشاريع ضخمة، والثاني إقبال المدن إقبالاً كبيراً على امتهان التجارة البحرية، واحتوائها على مرافئ لتصدير السلع واستيرادها، ومن الأمثلة على ذلك مدينة كنوسوس التي تمتّعت بموقع ممتاز مكّنها من الاتّصال ببحر إيجة،

[1]- Amos. H.D, and A.G.P. Lang. The Greeeks these were. Chester Springs, PA: London, Dufour Editions. INC, 1997, p 15.

والبحر الأبيض المتوسّط، مما جعلها مركزًا تجاريًّا هامًّا[1]، وقامت بتصدير مختلف السلع واستيرادها، وانعكس ذلك على كتلتها المعمارية، ومن أشهر أبنيتها قصر كنوسوس الذي يُعتبر تحفة فنية. وكذلك الأمر بالنسبة لماليا التي تقع على الشاطئ الشمالي لكريت، فقد أصابت ثراءً كبيراً من خلال التجارة؛ إذْ عثر فيها على كميات كبيرة من الذهب، وشيّد فيها قصر شبيه بقصر كنوسوس[2]. وينطبق ذلك على مدينة فايستوس، التي اشتهرت بمينائها، وبتجارتها، فجمعت ثروة كبيرة، ويتّضح لنا ذلك من خلال قصر أميرها الذي كان يشبه قصر كنوسوس أيضًا[3].

ولم يقتصر أثر التجارة في تطوير المدن معماريًّا على ما حقّقته من أرباح فقط، بل كان لعملية الاتّصال مع الأطراف الأخرى بغرض المبادلات التجارية دور في ذلك، فمن خلال هذا الاتّصال حصلت كريت على خبرات انعكست على النواحي المعمارية، وخير مثال على ذلك قصرا كنوسوس وماليا، اللذان تأثّرا بقصر ماري الملكي الذي شُيّد في نهاية الألف الثالث ق.م، ويبرز هذا التأثّر باتباع النّمط المعماري الذي تبنّاه الماريون في بناء قطاع المخازن الذي كان يحتوي على حجرات ضيّقة وطويلة ومتلاصقة ببعضها بعضًا[4]. وتأثّرت العمارة المينوية بعمارة ألالاخ؛ إذْ عثر في قصر كنوسوس على لوحات جدارية، شبيهة باللوحات الجدارية المكتشفة في قصر ياريم ليم في ألالاخ[5] العائد إلى السوية السابعة[6]، ويذكر وولي[7] أنّ قصر ألالاخ أقدم من قصر كنوسوس بنحو قرن من الزمن، وكنّا قد أشرنا سابقًا إلى قيام علاقات تجارية بين ألالاخ وكريت، وقد تكون هذه العلاقات هي التي نقلت هذه الخبرات إلى كريت.

[1]- Amos H.D, and A.G.P. Lang., op. cit, p12.

[2]- ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية، م.س، ص362.

[3]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص25 – 26.

[4]- حسان عبد الحق ، العمارة الملكية في بلاد الرافدين، م.س، ص492.

[5]- ليونارد وولي ، ألالاخ مملكة منسية، م.س، ص64.

[6]- م.ن، ص63.

[7]- م.ن، ص64.

ب. انعكاسها على الحياة الاجتماعية

انعكست التّجارة على الحياة الاجتماعيّة، فقد أدّى ازدهارها إلى ظهور فوارق طبقيّة في المجتمع، ومن العلامات التي تشير إلى ذلك طبقة التجار الأغنياء، التي ظهرت في العصر المينوي الوسيط، وقد عاش هؤلاء التجار حياة مترفةً، وبنوا لأنفسهم القصور على غرار قصر التيه في كنوسوس[1].

ومما يشير إلى ترف هذه الطبقة لباس نسائها، فقد صوّرت بعض اللوحات الجدارية في كنوسوس نساءً يرتدين ثيابًا تشير إلى درجة عالية من الرفاه، وكانت شبيهة بالثياب التي ترتديها النساء في القرن العشرين، ومن الأمثلة على ذلك باريسيسة كنوسوس[2]، وهي امرأة كريتية، صورتها إحدى اللوحات الجدارية، وقد شبّهها أحد العلماء بالمرأة الباريسية لجمالها وزينتها ورشاقتها[3]. وتتّضح لنا صورة التأثير التجاري أكثر في المجتمع بالتعرف على نوعيّة المجوهرات ومادتها التي كانت تتزين بها النساء، مثل دبابيس الشعر الذهبية، والمشابك التي نُقشت عليها بالذهب حيوانات، أو أزهار، أو رؤوس من البلور أو المرمر، وأقراط مزينة بخيوط من الذهب، وأساور، وخواتم من فضة وأحجار كريمة (عقيق وجزع وجمشت) وذهب[4]. لا يمكن اقتناء هذه الأشياء إلا في حال توفر ثروة كبيرة، ومصدر هذه الثروة -كما نعرف- هو التجارة البحرية.

ومن مظاهر الترف الناتج عن عائدات التجارة، الولائم التي كانت تُعد في القصور الملكية الكريتية، فقد كان أفراد العائلة الملكية يجتمعون في وليمة ملكيّة يقدّم فيها الطعام في صحاف من الذهب والبرونز[5].

---

[1]- الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، م.س، ص40.

[2]- فؤاد جرجي بربارة، الأسطورة اليونانية، منشورات الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2014، ص 9.

[3]- عكاشة، الناطور، بيضون، اليونان والرومان، م.س، ص26.

[4]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص-22 23.

[5]- م.ن، ص19.

ت. انعكاسها على الحرف

لقد ذكرنا سابقًا أنّ كريت عرفت الكثير من الحرف (صناعة الخزف، والمجوهرات[1]، وصناعة الفخار، وصهر وصب المعادن، وصياغة الذهب والفضة، وصناعة الأختام، والأحذية، والحلي، والتحف[2]، وتكرير الزيت)، وهذه الحرف تعتمد على مواد أوّليّة محليّة (تكرير الزيت والفخار)، ومواد أوّليّة مستوردة (معظم الحرف). وفي حديثنا عن العلاقات التجارية لاحظنا أنّ الكريتيين كانوا يبحثون عن المواد (النحاس المصري والقبرصي، والعاج الليبي، والفضة من إحدى الجزر الإيجية) التي كانت تدخل في هذه الصناعات، وفي الوقت نفسه كانوا ينقلون الفائض من إنتاجها إلى الدول الأخرى (قبرص، مصر، الساحل الفينيقي، ليبيا). ونستنتج أنّ العمليات التجارية هي التي أحيت الصناعة الكريتية، بتوفير المادة الأوّلية لها، وتسويق إنتاجها.

ثانيًا: التجارة في الحضارة الآخية

1. السلع

امتهن الآخيون التجارة على غرار الكريتيين، وكانوا يتاجرون مع مدن اليونان الأخرى، ومصر وكريت[3] وفينيقية، ومن البضائع التي كانوا يستوردونها من البلاد الأخرى المعادن، كالنحاس والقصدير والفضة والذهب[4] والحديد[5] والمصنوعات العاجية والبرونز والرقيق والأقمشة[6]. والغريب في الأمر أنّ أرضهم كانت غنيّة بالمعادن، لكنّهم لم يستخرجوها بل آثروا استيرادها كما نلاحظ، ونتساءل ما هو السبب الذي دفعهم إلى ذلك؟ لا نستطيع أن نقدّم سببًا مؤكّدًا لذلك، لكن من المحتمل أنّهم كانوا يجهلون طرق استخراجها، أو أنّ استخراجها كان صعبًا ومكلفًا، وربّما لم يكن لديهم عدد كافٍ من العمال للقيام بهذا

---

[1]- Papadakis N. A., History of Crete Throughout Centuries, Heraklion, Crete, 26 -6 -2017, p.5.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص -34 35.

[3]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، م.س، ص51.

[4]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص90.

[5]- ديورانت، المرجع السابق، ص 89.

[6]- ممدوح درويش مصطفى، إبراهيم السايح، : مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، 1 - تاريخ اليونان، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1998/ 1999، ص 13.

العمل، مما جعلهم يبحثون عنها في مناطق أخرى؟. وفي حديثنا عن التجارة المينوية لم نلحظ وجود الحديد بين البضائع المتاجر بها، والسبب في ذلك أنه لم يكن مُكتشفاً في تلك الفترة، ولم يُكتشف إلا في الفترة التي ظهر فيه الآخيون، وكان لعملية استيراده أثر كبير على الاقتصاد الآخي، إذْ كان يُستخدم لصناعة الأدوات الزراعية[1]، فلولا فاعليته وتلاؤمه مع هذه الصناعة لما استخدمه الآخيون في هذا المجال وكانوا آثروا استخدام البرونز كبديل عنه، والذي كان شائعًا خلال وقبل ظهورهم على المسرح السياسي.

2. الطرق التجارية

لقد عانى الآخيون من مشاكل عند استخدامهم للطرق البرية، فكما ذكرنا سابقًا بلاد اليونان ذات طبيعة جبلية وعرة، ولم تكن الطرق صالحة للتنقل، وفضلاً عن ذلك، كثرت المستنقعات التي أعاقت النقل البري، وكانت الأنهار تخلو من الجسور المخصّصة للعبور، ما جعل المشكلة أكثر تعقيدًا، لقد حاول الآخيون تجاوز هذه المعوقات قدر المستطاع. وعلى الرغم من أنّهم صنعوا العربات[2]، التي كان من المفترض استخدامها في النقل البري، لتجاوز هذه المشكلة، إلا أنّهم آثروا استخدام البغال والحمير[3] والرجال لنقل البضائع على ظهورهم عبر الطرق الجبلية الوعرة، وقد يكون سبب ذلك عدم صلاحية هذه الطرق للعربات؛ لأنّ العربة تحتاج إلى طريق أكثر اتّساعًا، ويجب أن يكون مستويًا ومعبدًا، وأقل وعورة من الطرق التي يسير عليها الإنسان والدواب. ومن وجهة نظرنا، إعداد هكذا طرق وتأهيلها كان بحاجة إلى إمكانيات مادية كبيرة ربّما لم تكن موفرة؟. ونستنتج من ذلك أنّ العربة لم يكن لها فعاليّة كبيرة في النّقل البري من جهة، ومن جهة أخرى هذا الحل (استخدام الطريق البري) كان جزئيًّا، ولم يحل المشكلة من جذورها، ومما يؤكّد ذلك استخدامهم للبحر كطريق تجاري، وتفضيلهم له على الطريق البري، غير أنّه كان يعاني من مشاكل أيضًا، والتي تتمثّل بالقراصنة والزوابع[4]. وعندما تحدّثنا عن التجارة الكريتية، ذكرنا أنّ الملك مينوس تخلّص من القراصنة بالقوّة العسكريّة، وأصبح

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص89.

[2]- م.ن، ص91.

[3]- فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، م.س، ص51.

[4]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص91.

بحر إيجة آمنًا، غير أنّ هذه المشكلة -كما نلاحظ- ظهرت مجدّدًا، وهذا يعني أنّ التجارة أخذت بالتراجع في الحضارة الآخية، وبدأت تفقد بريقها المينوي القديم، ونعتقد أنّ من أسباب تراجعها امتهان بعض الأمراء مهنة القرصنة من أمثال أوديسيوس الذي كان يتفاخر بأنّه عندما كان عائدًا من طروادة قام بنهب مدينة إسمروس وملأ منها سفينة بالطعام، وتوجه إلى مصر عبر نيلها مرتكبًا أعمال قتل ونهب وسلب وسبي فيها أيضًا[1]. وعلى الرغم من هذه المعوقات، كانت التجارة البحرية أكثر شيوعًا في الحضارة الآخية بسبب كثرة الموانئ الطبيعية[2]، فهذه الميزة ـ من وجهة نظرنا ـ تمثّل عنصر جذب للتجار لسلوك الطريق البحري عوضاً عن الطريق البري الوعر؛ لأنّه كان بوسع السفن أن تحطّ رحالها في أي ميناء لأخذ قسط من الراحة قبل المتابعة. ويجب ألاّ ننسى أنّ الطريق البحري لم يختره الآخيون بالمفاضلة مع الطريق البري في كثير من الأحيان، بل كان لزامًا عليهم سلوكه؛ لأنّ بلاد اليونان هي عبارة عن جزر مبعثرة في البحر الأبيض المتوسط، ولا يمكن أن تتصل ببعضها إلا عبر البحر. ومن جهة أخرى، التجارة الآخية لم تقتصر على بلاد اليونان، فقد أقام الآخيون علاقات تجارية مع فينيقية، ومصر، وكما ذكرنا في حديثنا عن التجارة في كريت لا يمكن الوصول إلى هذه المناطق إلا عبر البحر، وهذا يعني أن الطريق البحري كان إجبارياً، ويُذكر أن السفن المحملة بالبضائع والمسافرين، كانت ترسو ليلاً في موانئها[3]. ويمكن تفسير ذلك بأنّ المسير ليلاً في البحر كان خطرًا، فمن المحتمل أن تتوه السفينة، لعدم قدرة الملاحين على تمييز نقاط العلام التي ترشدهم إلى هذه المنطقة وتلك، وكنا قد أشرنا إلى هذه النقاط في حديثنا عن التجارة الكريتية.

3. النّظام المتبع في التبادل التجاري

وكما هي الحال عند الكريتيين، لم يعرف الآخيون النقد؛ لأنّه لم يكن قد اخترع بعد، وتبنوا نظام المقايضة في العمليات التجارية، وكانوا يستخدمون البقر والثيران كوحدة قياس أساسيّة، ومن بضائعهم سبائك الحديد والبرونز والذهب. وصنعوا سبيكة ذهبية وزنها 57

[1]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص94.

[2]- م.ن، ص91.

[3]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص91.

رطلاً، وأطلقوا عليها اسم التالنت أي الوزنة. وكانت الثروة لا تقاس بكمية المعادن، بل بقطعان الماشية وعدد رؤوسها[1]. والسبب في ذلك أن المعدن قد يفقد قيمته في حال حدوث أي تغييرات اقتصادية[2]، ويجب ألاّ ننسى أن الماشية تتكاثر ويزداد عددها، وبذلك تزداد أرباح أصحابها، في حين تبقى المعادن على حالها، وفي حديثنا السابق عن كريت ألمحنا إلى أن بلاد الإغريق كانت تحتوي على مراعي شاسعة، والاقتصاد الرعوي ناجح فيها، مما يجعل مسألة اعتماد الماشية كمصدر للثروة مسألة منطقية. ومن خلال هذه العملية نستنتج أن الآخيين لم يهملوا الاقتصاد الرعوي وركزوا عليه، ولو دققنا بالأمر قليلاً نلاحظ أن الغاية من ذلك تجارية بحتة، لأن القطعان كوحدة قياس هي أشبه بالمال الذي كان يستخدمه الآخيون في عملية التبادل التجاري، ولم نلحظ هذا التقليد التجاري عند الكريتيين الذين كانوا يقايضون مادة بأخرى حسب الحاجة (النحاس المصري مقابل الزيت الكريتي)، وكان لديهم مقاييس ومكاييل تحدثنا عنها سابقًا.

الخاتمة

من خلال معالجتنا لموضوع التجارة في كريت نستنتج أنّها كانت النّشاط الاقتصادي الأكثر أهميّةً، ولم يكن لها أن تصل إلى ما وصلت إليه من نجاح لولا توفّر الكثير من المقوّمات الداخليّة، والخارجيّة التي ساعدت على ذلك. وبغرض التجارة، ارتبطت كريت بسلسلة من العلاقات مع الحضارات المجاورة، أثرت في حضارة كريت، فالتّجارة لم تنقل البضائع فقط بل نقلت الأفكار، وخير دليل على ذلك الكتابة الهيروغليفية المصرية التي أثّرت في الكتابة الكريتية. وبفضل التجارة حقّقت كريت ثراءً فاحشًا انعكس على حياة الناس، الذين صاروا يعيشون في مدن فخمة ومنظمة، وامتلك بعضهم بيوتًا فارهة، وكان يحكمهم ملوك يقيمون في قصور فخمة تأثرت بالعمارة الملكية الرافدية والسورية. وكما أنّ التّجارة هي التي جلبت الحياة والرفاه إلى الكريتيين، هي التي جلبت لهم الشقاء والموت؛ إذْ يعتقد أنّه قبل سقوط كريت، دخلت هذه الأخيرة في منافسة مع الموكينيين للسيطرة على التجارة، وانتهت المنافسة بحرب انتصر فيها الموكينيون، فأفل نجم كريت.

[1]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، م.س، ص-91 92.

[2]- ديورانت، قصة الحضارة، م.س، ص91.

أمّا في الحضارة الآخية فكانت التجارة أحد الأنشطة الأساسية فيها، لكن لا يمكن مقارنتها بتجارة كريت، فقد كانت التجارة الكريتية أكثر انضباطًا وتنظيمًا، بسبب قوّة شخصيّة المينوس الذي قضى على أعمال القرصنة، في حين كانت القرصنة مهنة بعض الملوك الآخيين، وهذا من شأنه تأخيرها.

المصادر المراجع

المراجع العربية

1. إحميم، فيصل، شكمبو، عبد الكريم، النشاط الاقتصادي في المدن الفينيقية، مدينة صور أنموذجاً، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الشهيد حمه الخضر-الوادي، 2018-2017.

2. رجب عبد الحميد الأثرم، العلاقات الليبية اليونانية قبل تأسيس قوريني عام 631 ق.م، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، مركز جهاد الليبيين، العدد 2، 1990.

3. رجب عبد الحميد الأثرم، دراسات في تاريخ الإغريق وعلاقته بالوطن العربي، دار الكتب الوطنية، ط 2، بنغازي، 2002.

4. بربارة، فؤاد جرجي، الأسطورة اليونانية، منشورات الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2014.

5. جودة، جودة حنين، جغرافية العالم الإقليمية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1998.

6. حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد، ج 1، بيروت، 1958.

7. حسن، سليم، مصر القديمة، ج 2، القاهرة، 1975.

8. حيدر، جمال حسن، أوغاريت التاريخ والآثار، دار المرساة، اللاذقية، 2003، ط 1.

9. الديناصوري، جمال الدين، جغرافية العالم، دراسة إقليمية، ج 1، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1970.

10. ديورانت، ول وايرل، قصة الحضارة - حياة اليونان، الجزء الأول من المجلد الثاني 6، ترجمة محمد بدران، بيروت، د.ت.

11. رشيد، فوزي، سرجون أول امبراطور في العالم، الموسوعة الذهبية 1، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1990، ط 1.

12. كمال سالم زريق، المصادر التاريخية وأهميتها في دراسة العلاقات الليبية الإغريقية، مجلة كلية الآداب، جامعة قارينوس، العدد 53، 2011، ص-167 176.

13. زيمرن، ألفرد، الحياة العامة اليونانية، ترجمة عبد المحسن الخشاب، ط 2، القاهرة، 2009.

14. عبد السلام شلوف، العهد الإغريقي في قورينايقا في ضوء إصداراته القانونية، جامعة قاريونس، بنغازي، 1992.

15. شلوف، عبد السلام، نصوص ونقوش من ليبيا، مركز جهاد الليبيين، 1994.

16. الشمري، هزاع بن عيد، مختصر جغرافية العالم، الكويت، 1975.

17. ابتهال عادل إبراهيم الطائي، تاريخ الإغريق منذ بزوغه وحتى نهاية عصر الإسكندر المقدوني، دار الفكر، عمان، 2014، ط 1.

18. عبد الحق، حسان، العمارة الملكية في بلاد الرافدين من عصر سلالة أور الثالثة إلى نهاية العصر البابلي القديم (2112 – 1595 ق.م)، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2019، ط 1.

19. عبد الحق، سليم عادل، مؤتمر الآثار في البلاد العربية، المنعقد في دمشق سنة 1947، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1948.

20. عبد الرحمن، عمار، مملكة ألالاخ، دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية، مركز الباسل للبحث والتوثيق الأثري، دمشق، 2007.

21. عبد العظيم، عبد العظيم أحمد، بلاد العرب وإفريقيا في خرائط اليونان والرومان، بحث مقدم لندوة الدولية: العرب في إفريقيا قبل الإسلام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، المغرب 20-22 يناير 2015.

22. عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، المدخل إلى تاريخ الحضارة، جامعة دمشق، 2007-2008.

23. عبد الله، فيصل، مرعي، عيد، تاريخ الوطن العربي القديم: بلاد الرافدين، جامعة دمشق، 2013-2014.

24. عبد الهادي، جمال، رفعت، وفاء محمد، أوربا منذ أقدم العصور (اليونان)، دار الشروق، جدة.

25. أحمد عتمان، جزيرة قبرص، جزيرة الجمال والألم منذ القدم إلى اليوم، القاهرة، 1997.

26. عكاشة، علي، الناطور، شحادة، بيضون، جميل، اليونان والرومان، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، 1991، ط 1.

27. عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني، العصر الهيلادي 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.

28. محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ج 1، دار الفكر، 1983، ط 3.

29. غزال، أحمد حسن، ملاحظات حول التأثيرات الليبية في مقابر سهل ميسارا جنوب جزيرة كريت في الألف الثالثة ق.م، مجلة كلية الآداب، جامعة بنغازي، العدد 7، 1975.

30. غلاب، محمد السيد، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافية والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، 1969.

31. فرح، أبو اليسر، الشرق الأدنى في العصرين الهللينيستي والروماني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2002، ط 1.

32. فركوتيه، جان، قدماء المصريين والإغريق، العلاقة بين الشعبين منذ أقدم الأزمنة إلى نهاية الدولة الحديثة، ترجمة محمد علي كمال الدين، كمل دسوقي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1960.

33. كوتريل، ليونارد، الموسوعة الأثرية، ترجمة محمد عبد القادر محمد، زكي اسكندر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ط 2.

34. كيتو، ه، د، الإغريق، ترجمة عبد الرزاق يسري، بيروت، دار الفكر العربي، 1962.

35. لويد، سيتون، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، ترجمة محمد طلب، دار دمشق، دمشق، 1992-1993، ط 1.

36. مرعي، عيد، مملكة ألالاخ، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان 71-72، 2000.

37. مصطفى، ممدوح درويش، السايح، إبراهيم، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، -1تاريخ اليونان، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1999/1998.

38. فوزي مكاوي، تاريخ العالم الإغريقي وحضارته من أقدم العصور حتى عام 322 ق.م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1980 ، ط 1.

39. مورتكات، انطوان، تاريخ الشرق الأدنى القديم، تعريب توفيق سليمان، علي أبو عساف، قاسم طوير، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1967.

40. سيد أحمد علي الناصري، الإغريق تاريخهم وحضارتهم، من حضارة كريت حتى قيام الإسكندر الأكبر، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976، ط 2.

41. نيقولا، جريمال، تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر حويجاتي، دار الفكر، القاهرة، 1993، ط 2.

42. هبو، أحمد ارحيم، تاريخ الشرق القديم، بلاد ما بين النهرين (العراق)، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، 1996، ط 1.

43. الهذال، حصة تركي، المؤثرات الحضارية الفينيقية في الحضارة اليونانية، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 43، ملحق 3، 2016، ص -1561 1574.

44. وولي، ليونارد، ألالاخ مملكة منسية، ترجمة فهمي دالاتي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1992.

45. يونس، إياد، الحياة الاقتصادية في أوغاريت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، 2000.

المراجع الأجنبية

1. Amos. H.D, and A.G.P. Lang. The Greeeks these were. Chester Springs, PA: London, Dufour Editions. INC, 1997.

2. Bury, A History of Greece, Macmillan and Com 3th, London, 1951.

3. Evans. A, The Palace of Minos at Knossos, Vol I, New York, 1964.

4. Gardiner. A. H, Ancient Egyptian on Masxica, Oxford, 1941.

5. Højen Sørensen A., «An update on the chronological value of Minoica in the Levant and Cyprus», **dans** Warburton, David A. **(dir),** Time's Up! Dating the Minoan Eruption of Santorini. Acts of the Minoan Eruption Chronology Workshop, Sandbjerg November 2007**,** Aarhus Universitetsforlag, 2009.

6. Huot J.L., Une archéologie des peuples du Proche-Orient, Des hommes des palais aux sujets des premiers empires (II - I millénaire av. J.-C.), tome II, Edition Errance, Paris, 2004.

7. Mallowan, White-Painted Subartu Porttery, In Mélanges syriens offerts à Monsieur René Dussaud, II, Paris, 1939, P.887-894.

8. Matoïan (V.), «Ougarit, porte méditerranéenne de l'Asie», in P. Bordreuil, F. Ernst-Pradal, M.G. Masetti-Rouault, H. Rouillard-Bonraisin (éds), Les écritures mises au jour sur le site antique d'Ougarit (Syrie) et leur déchiffrement 1930-2010, Commémoration du quatre-vingtième anniversaire du déchiffrement de l'alphabet cunéiforme de Ras Shamra-Ougarit, AIBL, Paris, 2013.

9. Sandrs. N. K, The Sea Ppeople Warrios of the Ancient Meditereanean

12581152- B. C., Thamed,s and Hudison, London, 1978.

10. Papadakis N. A., History of Crete Throughout Centuries, Heraklion, Crete, 262017-6-.
11. Richter G. M, Greek Art, Brildes Rosenbaum, Vienna, 1977.
12. Tulard J., histoire de la Crète, Paris, 1979.

الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الآخيّة

حسام غازي[1]

مقدمة

تعدّ الحضارة الآخيّة (Achaens) أولى حضارات بلاد اليونان القارية، وهي تؤرّخ على نحو 1600 إلى 1100 ق.م، وتمّ التّعرّف عليها بدايةً من خلال ملحمتي الإلياذة والأوديسة، اللّتان تُنسبان للشاعر اليوناني هوميروس [القرن الثامن الميلادي]، واللّتان كانتا تشكّلان المصدر الأساسي للمعلومات عن الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الآخيّة قبل التوصّل إلى فكّ رموز الكتابة التخطيطيّة B في عام 1952 م من قبل كلّ من فنتريس (M. Ventris) وتشادويك (J. Chadwick)؛ حيث قدّمت النّصوص العائدة لهذه الكتابة معلومات هامّة عن طبيعة النّشاط الاقتصادي في القصور الملكيّة الآخيّة. وفضلاً عن ذلك فقد قدّمت اللّقى الأثريّة المتنوّعة، التي عُثر عليها في شبه جزيرة البلوبونيز ومناطق بحر إيجة وشواطئ البحر المتوسط، قدّمت معلومات جيّدةً يمكن مقاطعتها مع نصوص الكتابة التخطيطية B لإعادة بناء تصوّر واضح ـ إلى حدٍّ ما ـ عن طبيعة النّشاط الاقتصادي الذي كان سائدًا في الحضارة الآخيّة.

أوّلاً: مصادر دراسة الحياة الاقتصاديّة

يُمكننا دراسة الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الآخيّة من خلال نوعين من المصادر، وهما المصادر الكتابيّة والمخلّفات الأثريّة:

1. المصادر الكتابيّة

تنقسم المصادر الكتابية التي تعنينا هنا إلى نوعين، وهما: المباشرة وغير المباشرة. ويقصد بالمباشرة نصوص الكتابة التخطيطية B والنصوص الحثيّة والمصريّة، أمّا المصادر غير المباشرة فيقصد بها ملحمتي الإلياذة والأوديسة.

---

[1]- قسم الآثار-كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق.

أ. المصادر الكتابيّة المباشرة

وتتمثّل كما قلنا سابقًا بنصوص الكتابة التخطيطيّة B والنصوص الحثيّة والمصريّة:

- **نصوص الكتابة التخطيطيّة B:** تمّ التّعرّف على هذه الكتابة بدايةً من خلال النصوص التي عَثر عليها إيفانس في قصر كنوسوس، وبعدها توالت الاكتشافات؛ حيث عُثر في عام 1939 م على مجموعة أخرى من النصوص العائدة لهذه الكتابة في قصر بيلوس (Pylos)، وعُثر بعدها على نصوص أخرى في العديد من المواقع اليونانية [الشكل: 1] ومواقع جزيرة كريت، ليبلغ عدد النصوص المكتشفة نحو 5000 نص، جاء أغلبها من قصر كنوسوس الذي عثر فيه على نحو 3000 نص[1]، ويليه قصر بيلوس الذي قدر عدد النصوص المكتشفة فيه بنحو 1200 نص[2]، وتمّ التّوصّل إلى فكّ رموز هذه الكتابة في عام 1952 م، وذلك من قبل كلّ من فنتريس (M. Ventris) وتشادويك (J. Chadwick)[3]، وتبينّ أنّها تمُثّل شكلاً قديمًا من الكتابة اليونانيّة. وتشير الدراسات إلى أنّ تلك النّصوص كانت عبارة عن وثائق خاصّة بالقصور الملكية[4]، وتضم معلومات عن طبيعة النّشاط الاقتصادي الخاص بتلك القصور، والدور الذي كان يمارسه القصر في الحياة الاقتصادية للمناطق التابعة له، وتوثّق أيضًا نوعيات السلع وكمّياتها المخزّنة في مستودعات تلك القصور، وحركة دخول البضائع وخروجها إلى تلك المستودعات، والحصص التي كانت توزّع على العاملين في القصر، كما توثق الملكيات الزراعيّة وطبيعتها وموقعها، وعدد رؤوس الماشية ونوعيتها، وتبينّ لنا تلك الوثائق طبيعة عمل بعض الحرفيين والمنتجات التي كانوا ينتجونها، وهي تفصّل في بعض الأحيان مراحل الإنتاج والمشرفين

---

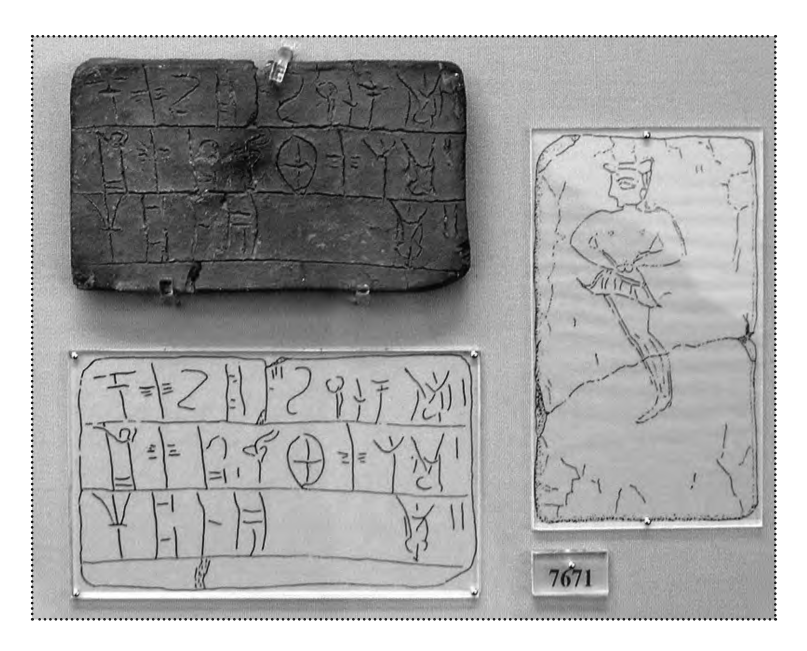
[1]- نشرت نصوص الكتابة التخطيطية B التي عثر عليها في قصر كنوسوس في أربع مجلدات، للاطلاع راجع:
CHADWICK J. et al.: Corpus of Mycenaean Inscriptions from Knossos, 4 vol., Cambridge, 1986–1998, (en) J. T. Killen ET J.-P. Olivier, the Knossos Tablets, a Transliteration, Fifth Edition, Salamanque, 1989.

[2]- نشرت نصوص بيلوس العائدة للكتابة التخطيطية B في مجلدين، للاطلاع راجع:
BENNETT E. L. ET OLIVIER J.-P.: The Pylos Tablets Transcribed, 2 vols, Rome, 1973 ET 1976.

[3]- CHADWICK J.: The decipherment of Linear B, Cambridge University Press, Canto Edition 2003, PP. 67- 80.

[4]- TREUIL R. et al: Les Civilisations égéennes du Néolithique et de l'Âge du Bronze, Paris, Presses universitaires de France, 2e édition refondue, 2008, P. 339- 430.

عليها، وبخاصة في مجال الصناعات النسيجيّة... ولكن يغيب عن تلك الوثائق التدوينات الخاصّة بالتّبادل التجاري، سواء الداخلي أو الخارجي، كما تغيب عنها التدوينات الخاصّة بطبيعة النّشاط الاقتصادي الذي كان يمارسه العامّة خارج نطاق إدارة القصر، وباختصار تلقي تلك النّصوص الضوء على طبيعة النّشاط الاقتصادي الذي كانت تمارسه إدارة القصر، وكذلك الأشخاص المشرفين على هذا النّشاط، ولكن تبقى معرفتنا بطبيعة هذا النّشاط محدودةً؛ لأنّ جميع النّصوص المكتشفة هي وثائق أوّليّة لأغراض مؤقّتة؛ إذ لم يتم العثور على أية نصوص تمثّل التقارير السّنويّة لعمل الورش أو الكميات المنتجة سنويًّا من المحاصيل الزراعيّة[1]...



الشكل 1: نص من الكتابة التخطيطية B محفوظ في المتحف الوطني للآثار في أثينا.

- **النصوص الحثية:** وهي النصوص التي عُثر عليها في موقع بوغازكوي -مدينة حاتوشا الأثرية عاصمة الحثيين- من قبل البعثة الأثرية الألمانية العاملة تحت إشراف فنكلر في عام 1906 م، وهي ألواح طينيّة منقوشة باللغتين الأكادية والحثية،

[1]- OLIVIER J. P.: L’économie des royaumes mycéniens, Dossiers d’Archéologie n° 195, 1994, P. 50- 65.

يُقدّر عددها بنحو عشرة آلاف رقيم فخاري، ومعظمها باللّغة الحثية، وهي تشكل جزءًا من الأرشيف الملكي الحثي الذي أصبح المصدر الأساسي لمعرفة تاريخ الحثيين وحضارتهم. وكانت بعض تلك الألواح، العائدة للفترة الواقعة بين أواسط القرن الرابع عشر ونهاية القرن الثالث عشر ق.م، قد أشارت أكثر من مرّة إِلى مملكة الآخيَاوة (Achiyyawa)[1] المذكورة في الإلياذة[2]، وعلاقاتها بالإمبراطورية الحثيّة[3]، وأشارت تلك النصوص أيضًا إِلى ازدياد قوّة الآخيين في منتصف القرن الثالث عشر ق.م، وذكرت أنّ الملك الحثي توداليا الرابع [1250-1220 ق.م] اضطرّ إِلى محاربتهم مدّةً طويلة، وأنّهم كانوا خصومًا أقوياء بقيادة ملكهم آتاريسياس أي أتريوس -والد آغَاممْنُون- ويزاحمون الحثيين، ويسعون إِلى التّوسّع والاستيلاء على بعض جزر بحر إِيجه وجزيرة قبرص التي تمكّنوا من السّيطرة عليها في أواخر عهد الإمبراطورية الحثيّة.

- **النصوص المصريّة:** تشير حوليات الملك تحتمس الثالث أنّ رسل ملك تاناجو (Tanaju) ـ نحو 1437 ق.م ـ قدّموا هدايا للملك المصر من أجل إقامة علاقات دبلوماسيّة معه، وذلك عندما شنّ هذا الأخير حملة على سورية، وورد ذكر تاناجو أيضًا في أحد نقوش معبد أمنحتب الثالث الجنائزي، وذكر فيه قائمة بمدن تاناجو ومناطقها، ومن بين تلك المدن كانت مدينة ميكيناي[4]. وتتحدّث النّصوص المصريّة الأحدث عهدًا عن تحرّكات الآخيين ـ من بين أقوامٍ أخرى ـ نحو شواطئ القسم الشرقي للبحر المتوسط[5]، وجاء فيها أنّ مجموعة من الشعوب هاجمت مصر عن طريق البحر مرتين، كانت إِحداهما عام 1221 ق.م، أي قبل سقوط الإمبراطورية الحثية، وكان بين المجموعة التي حاولت أن تغزو الشواطئ المصرية قوم أسماهم

[1]- GUTERBOCK HANS G.: The Hittites and the Aegean World: Part 1. The Ahhiyawa Problem Reconsidered. American Journal of Archaeology. Archaeological Institute of America. 871983 ,2/, P. 133–138.

[2]- GUTERBOCK HANS G.: Hittites and Akhaeans: A New Look. Proceedings of the American Philosophical Society. American Philosophical Society.1984, 128 /2, P. 114.

[3]- HUXLEY GEORGE LEONARD: Achaeans and Hittites, Oxford: Vincent Baxter Press, 1960, P. 22.

[4]- KELDER JORRIT M.: The Egyptian Interest in Mycenaean Greece. Jaarbericht, Ex Oriente Lux (JEOL), 2010, P. 125–126.

[5]- Ibid. P. 125- 140.

المصريون [آخيَاوَاشَة] أي الآخيين. وورد في القائمة، التي خلّد بها الفرعون مفتاح انتصاره على جدران معبد الكرنك، ذكر للأسرى الذين وقعوا في يد جنوده، ومن بينهم أسرى آخيَاوَاشَة. أمّا الهجوم الثاني فكان عام 1190ق.م، أي عام سقوط الدولة الحثية أو بعده بقليل، وحاول المهاجمون خلاله اجتياح مصر من جهة الشمال الشرقي، وكان من بينهم مجموعة تدعى دَانونَا، وهم الدَانَانيُّون، وهو اسم متّفق عليه على أنّه مرادف لفرع من الآخيين المذكورين في الإِلياذة.

ب. المصادر الكتابية غير المباشرة

تتمثّل بشكل أساسيٍّ بملحمتي الإلياذة والأوديسة، اللّتان تنسبان للشاعر اليوناني هوميروس [القرن الثامن الميلادي]، واللّتان كانتا تشكّلان مصدر المعلومات الأساسي عن الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الآخية قبل التّوصّل إلى فكّ رموز الكتابة التخطيطية B. تتألّف ملحمة الإلياذة من 25000 بيت، ويرجح أنّ ظهورها يعود إلى منتصف القرن الثامن ق.م، وهي تنقسم إلى أربعة وعشرين جزءًا، تُعالج فيها حادثة واحدة من السنة العاشرة للحرب بين الحلف اليوناني والحلف الطروادي، وتمتدّ هذه الحادثة طوال واحد وخمسين يومًا [1]. أمّا الأوديسة، فتتألّف من 12200 بيت، وتنقسم إلى أربعة وعشرين جزءًا يسرد فيها الشّاعر رحلات تيه الملك أوديسيوس، ومغامراته وعودته السعيدة إلى موطنه في جزيرة إيثاكه التي كان قد غادرها قبل عشرين عامًا ليشارك في حملة ملوك اليونان وجيوشهم وأبطالهم في مواجهة طروادة[2].

2. المخلّفات الأثريّة

ويقصد بها اللّقى الأثريّة المتنوّعة العائدة للحضارة الآخية، التي عثر عليها في شبه جزيرة البلوبونيز ومناطق بحر إيجة وشواطئ البحر المتوسّط، وتساعدنا تلك اللّقى في إعادة بناء تصوّر شبه واضح عن طبيعة النّشاط الاقتصادي الذي كان سائدًا في الحضارة الآخية، أي أهمّ المنتجات الزّراعيّة وما يشتقّ منها من منتجات، والصناعات الحرفيّة مثل

[1]- راجع: هوميروس: الإلياذة، ترجمة: أحمد عتمان بالإشتراك مع لطفي عبد الوهاب يحيى والسيد عبد السلام البراوى، منيرة كروان، عادل النحاس، ط2، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2008 م، العدد 2/750.

[2]- راجع: هوميروس: الأوديسة، ترجمة: دريني خشبة، ط1، بيروت- القاهرة – تونس، دار التنوير، 2013 م.

التعدين والفخّار والأدوات الزّراعيّة والملابس... ومصادر المواد الخام اللاّزمة للتصنيع... وتساعدنا تلك اللّقى أيضًا في تحديد مناطق التّبادل التجاري وطبيعة هذا التبادل، والأهم من ذلك فقد ساعدتنا تلك اللّقى -خاصّة الأواني الفخارية- في تحديد المراحل الرئيسة لتطوّر النّشاط الاقتصادي للحضارة الآخية؛ حيث اقترح فيريمارك (A. Furumark) عام 1941 م بالاعتماد على دراسة الأواني الفخارية المكتشفة في مواقع الحضارة الآخية تسلسلاً زمنيًّا لهذه الحضارة العائدة لعصر البرونز الحديث[1]، فقسّمها إلى ثلاث مراحل رئيسة تغطّي الفترة من نحو 1650 ق.م إلى 1030 ق.م، وتأتي أهميّة هذا التسلسل الزمني من كونه ما زال معتمدًا حتى الآن من قبل العديد من الباحثين في الحضارة الإغريقية[2]، وفيما يلي عرض لتلك المراحل مع نتائج تأريخها بالكربون المشع C 14:

1 - الهللادية الحديثة 1: تؤرّخ على نحو 1650 إلى 1600 ق.م.

2 - الهللادية الحديثة 2: تؤرّخ على نحو 1600 إلى 1410 ق.م، وتنقسم بدورها إلى مرحلتين هما:

أ- الهللادية الحديث [2 A‏-1600 1470 ق.م].

ب- الهللادية الحديثة [2 B‏-1470 1410 ق.م].

3 - الهللادية الحديثة 3: تؤرّخ على نحو 1410 إلى 1030 ق.م، وتنقسم بدورها إلى ثلاثة مراحل هي:

أ- الهللادية الحديثة [3 A‏-1410 1315 ق.م]: وتنقسم أيضًا بدورها إلى مرحلتين هما:

الهللادية الحديثة [3 1A‏-1410 1370 ق.م].

الهللادية الحديثة [3 2A‏-1370 1315 ق.م].

ب- الهللادية الحديثة [3 B‏-1315 1190 ق.م]: وتنقسم أيضًا بدورها إلى مرحلتين هما:

---

[1]- للاطلاع على تفاصيل التسلسل الزمني الذي وضعه فيريمارك راجع:

FURUMARK A.: Mycenaean Pottery, vol. II Chronologie, 1941.

[2]- TREUIL R. et al, Op. Cit, 2008, P. 352.

الهللادية الحديثة [3 1315 B 1-1225 ق.م].

الهللادية الحديثة [3 1225 B 2-1190 ق.م].

ج- الهللادية الحديثة [3 1190 C-1030 ق.م]: وتنقسم أيضًا بدورها إلى ثلاثة مراحل هي:

الهللادية الحديثة [3 1130 -1190 1C ق.م].

الهللادية الحديثة [3 1070 -1130 C 2 ق.م].

الهللادية الحديثة [1030 -1070 3 C 3 ق.م].

ثانيًا: المقوّمات الاقتصادية

استوطن الآخيون في شبه جزيرة البلوبونيز، التي تؤلف اليوم الجزء الجنوبي من بلاد اليونان، وتعرف أيضًا باسم شبه جزيرة المورة، وتبلغ مساحتها نحو 22 ألف كيلو متر مربع، ويحيط بها بحر إيجه من الشرق، والبحر المتوسط من الجنوب، والبحر الإيوني من الغرب، وترتبط مع بلاد اليونان القارية بمضيق كورنثة الذي يحدّه خليج سارونيك من الشّرق وخليج كورنثة من الغرب. تتألّف شبه جزيرة البلوبونير من سهول داخليّة وساحليّة أهمّها سهول مسينيا وسهل لاكونيا، وتقطع تلك السهول سلاسل جبليّة كثيرة تصل مساحتها إلى نحو نصف مساحة شبه الجزيرة، ويبلغ ارتفاع أعلاها نحو 1400 م عن سطح البحر، وبشكل عام يسود فيها المناخ المائل إلى الجفاف، وتغلب فيها التربة الجبليّة البنيّة، وتغلب في المنخفضات الساحليّة التربة اللحقية. والآن إذا تأمّلنا جغرافيّة شبه جزيرة البلوبونيز وبيئتها ومناخها في محاولة لاستخلاص المقوّمات الاقتصاديّة لحضارة الآخيين، نلحظ أنّه على الرغم من كثرة الجبال وقلّة المساحات الصالحة للزراعة، فقد شكّلت الزّراعة والرعي الموردين الرئيسيين لاقتصاد الآخيين. وبالنسبة للصناعات الحرفيّة، فنلحظ افتقار شبه جزيرة البلوبونيز للمعادن الخام. أمّا بالنسبة للتّجارة، فنلحظ تمتّع شبه جزيرة البلوبونيز بموقع جغرافيّ جيّد في الجغرافيّة اليونانيّة، ولكن تقف جزيرة كريت بموقعها ونفوذها عائقًا أمام توسّع الآخيين في حوض البحر المتوسّط. وبالتالي، إنّ الآراء القائلة بنشوء الحضارة الآخية

بشكل مستقلّ قد تكون صحيحة، ولكن جزئيًّا، وربّما تكون المقوّمات السابقة الذكر كافية لنشوء حضارة، ولكن حضارة محليّة محدودة في الكثير من جوانبها وينقصها التماس مع الجارة الحيوية [كريت] لاقتباس المعارف، التي اقتبستها كريت بدورها وبشكل تدريجي من الشرق، وبالفعل هذا ما تؤكّده لنا المكتشفات الأثرية العائدة للمرحلتين الهلاديتين الحديثتين 1 و2، إذ كانت الحضارة الآخية خلال تلك المرحلتين متأثّرة بالحضارة الكريتيّة، وقد شهدت نتيجةً لهذا التأثّر تطوّرات مهمّة على كافّة الأصعدة، ولكن رغم ذلك لا يُمكننا الحديث عن حضارة آخية بالمعنى الحقيقي حتى المرحلة الهلادية الحديثة 3 1A [1]، وإذا تأمّلنا الأحداث التي أدّت لهذا النّهوض نلحظ أنّ أبرزها كان انهيار الحضارة الكريتية نتيجةً لغزوها من قبل الآخيين، الذين كانوا يطمحون للسيطرة على الموقع الاستراتيجي لجزيرة كريت، ومدّ نشاطهم ونفوذهم من البحر الإيجي إلى سائر أنحاء شرق البحر المتوسط، وباختصار يمكننا القول إنّ تطوّر البر الرئيسي لليونان كان يرتبط بدايةً بتطوّر جزيرة كريت موطن الحضارة الكريتية، التي أخذ الآخيون معظم معارفهم عنها، أمّا ازدهار الحضارة الآخية فكان مرتبطًا بشكل رئيسي بسيطرة الآخيين على جزيرة كريت ومدّ نشاطهم ونفوذهم من البحر الإيجي إلى سائر أنحاء شرق البحر المتوسط.

ثالثًا: النّشاط الاقتصادي في الحضارة الآخية

1. الزراعة

يتنوّع النّشاط الاقتصادي في الحضارة الآخية ما بين الزراعة والرعي والصناعة والتجارة، ولكن الزراعة كانت تمثّل النّشاط الاقتصادي الأكثر أهميّة، وكانت أكثر المزروعات شهرةً لديهم هي ما يُعرف بثالوث البحر المتوسط المتمثّل بالحبوب -وبخاصّة القمح والشعير[2]- والزيتون والكرمة[3]؛ إذ كان إنتاجهم من زيت الزيتون وفيرًا منذ المرحلة الأولى لقيام حضارتهم[4]، وفضلاً عن ذلك فقد عرف الآخيون زراعات عدّة أخرى ومنها الزعفران والكتان

[1]- TREUIL R. et al, Op. Cit, 2008, P. 353 -355.

[2]- Ibid. P. 423.

[3]- Ibid. P. 284.

[4]- BRUN J.-P.: Archéologie du vin et de l’huile. De la préhistoire à l’époque hellénistique, Paris, 2004, p. 77 -80.

والسمسم والخروع والخشخاش[1]، وكذلك الكزبرة والشمرا والكمون والنعناع، ولكن لم تشر تلك النّصوص إلى طبيعة استخدامها، هل كانت تستخدم كتوابل؟ أم كانت تستخدم لأغراض طبية؟ وبالمقابل لم يرد في نصوص الكتابة التخطيطية B أي ذكر للخضراوات، ولكن البقايا الأثريّة تشير إلى أنّهم كانوا يستهلكون العدس والفول والحمص والبازيلاء[2]. وفيما يتعلّق بالأشجار المثمرة، فتشير المصادر إلى تنوّعها لديهم، وهذا ما يمكن أن نستنتجه من خلال وصف هوميروس في ملحمته الأوديسة لأحد بساتين الفاكيانس: [كان هناك بستان واسع خارج الفناء مساحته أربعة أفدنة، وهو يمتدّ إلى الأبواب الخارجيّة وله سور من الشجيرات على كلا الجانبين، وكانت فيه أشجار باسقة خضراء كأشجار الكمثري، والرمان، والتفاح، المثقلة بالثّمار اللّامعة الملساء والتين الحلو المذاق، والزيتون الوفير، وأثماره لا تنقطع لا في الصيف ولا في الشتاء][3]. أمّا بالنسبة لملكيّة الأراضي الزراعيّة، فقد كان لديهم نوعان من الملكيّة، الأوّل تمثّله الأراضي العامّة التي تملكها الدولة والتي كانت حرية التصرّف بها محصورة بالملك وفق إرادته؛ حيث كان يقتطع منها لذويه وقواده أمثال قائد الجيش وأتباع الملك وكذلك حصص ولاة المدن التابعة له، أمّا النّوع الثاني من الملكية فتمثّله الأراضي الخاصّة التي تملكها العشيرة والأسرة وليس الأفراد، وكان رئيس الأسرة يُشرف على إِدارتها، ولكنّه لا يستطيع بيعها. وتذكر أشعار الإِلياذة أراضي واسعة تسمّى المشاعة يتصرّف بها الملك، إلّا أنّها في الحقيقة مُلْكٌ مشترك للجماعة، يحقّ لكلّ فرد أن يرعى فيها ماشيته. وتذكر لنا الأوديسة أيضًا أنّ هذه الأراضي المشاعة قد قسّمت فيما بعد وبيعت إلى الأغنياء أو بالأحرى اغتصبت واستملكت من قبل الأقوياء وأصحاب النّفوذ. كما تشير ألواح بيلوس إلى وجود قوائم لتسجيل مقدار المحاصيل المختلفة بأنواعها ونصيب القصور والمعابد منها[4].

2. تربية الحيوانات

وإلى جانب هذا النّشاط الزّراعي المميّز فقد اهتمّ الآخيون بتربية الحيوانات، وبخاصّة

[1]- TREUIL R. et al. Op. Cit., 2008, P. 423.

[2]- Ibid. P. 425.

[3]- انظر: هوميروس، الأوديسة، م.س، النشيد السابع.

[4]- خليل سارة، تاريخ الإغريق، لا ط، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2013/2014 م، ص182.

الأغنام والماعز والخنازير والثيران، وهذا ما نلحظه من خلال نصوص بيلوس التي تشير إلى نحو 10000 رأس من الأغنام، و2000 رأس من الماعز، و1000 خنزير، ونحو 20 ثور[1]. وفضلاً عن ذلك فقد كانوا يهتمّون بتربية الخيول التي كانوا يستخدمونها في جرّ العربات الحربية[2]، والكلاب التي كانت تؤمّن الصيد والحراسة، والطيور التي كانوا يأكلون لحومها ويربّونها في ساحات البيوت. ونضيف إلى ما سبق وبحسب ما ورد في الإلياذة والأوديسة أنّهم كانوا يصطادون السمك والغزلان والخنازير والأرانب.

3. الصناعة

بالنسبة للصناعة، فقد تميّز الحرفيون الميسينيون بتصنيع المعادن والمنسوجات والعطور والأواني الفخارية والأختام والمجوهرات، إضافة إلى الإنتاج المرتبط بالزّراعة مثل زيت الزيتون، وتشير المكتشفات الأثرية إلى وجود تأثير واضح للحضارة الكريتية في بداية العصر الهللادي الحديث، وتظهر لنا ألواح بيلوس وجود تخصّص صناعيّ مهنيّ دقيق، وتخبرنا عن وجود نجّارين وبنّائين وصنّاع سفن وسباكي برونز وصانعي فخار وصائغي ذهب[3]، وتخبرنا أيضًا بوجود تخصّص في العمل، إذا كان ينتمي كل عامل إلى فئة محدّدة، وله مكان محدّد في مراحل الإنتاج، وبخاصّة في حرفة صناعة النسيج، كما تخبرنا أنّ قسمًا مهمًّا من الإنتاج الصناعي كان يتمّ إنتاجه تحت إشراف إدارة القصر؛ إذ عثر على العديد من المباني التي كانت تخدم كورش للحرفيين بالقرب من القصور الملكية، ومثال على ذلك الورشة المكتشفة بالقرب من قصر ميكيناي، التي كانت مخصّصة لتصنيع الأشياء العاجيّة والفخاريّة والحجريّة[4].

كانت المنسوجات من الصناعات المعروفة في بلاد اليونان، ولم تشهد هذه الصناعة أيّ تغيّر تقنيّ خلال العصر الهللادي الحديث، ولكنّها شهدت تطوّرًا مهمًّا من إدارة الإنتاج الذي

---

[1]- TREUIL R. et al. Op. Cit. 2008, P. 424.

[2]- Ibid. P. 424.

[3]- خليل سارة، تاريخ الإغريق، م.س، ص182-183.

[4]- DARCQUE P.: L’habitat mycénien, Formes et fonctions de l’espace bâti en Grèce continentale à la fin du IIe millénaire avant J.-C., Paris, Ecole française d’Athènes, Éditions de Boccard, 2005, P. 286- 288.

أصبح تحت إشراف القصر الملكي[1]، وتساعدنا النصوص المكتشفة في كنوسوس على تتبّع مراحل الإنتاج جميعها، الذي يديره مجموعة من موظفي القصر، وزّعت عليهم المهام، التي كانت تبدأ أوّلاً بتربية قطعان الأغنام، والإشراف على جزّ أصوافها، ثمّ نقل الصّوف إلى الورش الحرفيّة ليتمّ توزيعه على النسّاجين الذين كانت غالبيتهم من النساء، وبعد الانتهاء من عمليات النسج تحسب الكميات المنتجة وتُدوّن ويتمّ تخزينها في مستودعات القصر، وتشير النّصوص إلى أنّه كان هناك نحو 900 من العمال الذين يعملون بقطاع النسيج، وكانوا موزّعين على ثلاثين ورشة[2].

وكان التعدين من الحرف المميّزة في الحضارة الآخية - الميسينية، وتشير نصوص بيلوس إلى وجود نحو 400 عامل في مجال التعدين، تتوزّع ورشهم على نحو 25 منطقة من الإقليم[3]، وتشير تلك النصوص أيضًا إلى أنّه كان يتمّ توزيع المعادن عليهم لتصنيعها بمعدل 3,5 كيلوغرام من البرونز بشكل وسطي لكلّ حدّاد، وكان ذلك يتمّ بشكلٍ روتينيّ كجزء من عمل الجهة المشرفة، والحال نفسه أيضًا في مجال المنسوجات والمنتجات الأخرى، وفيما يتعلّق بالأجر الذي يتقاضوه، فهو غير معروف بسبب عدم ورود أي معلومة عن ذلك في النصوص. كما تشير نصوص قصر كنوسوس إلى وجود نشاط خاص بصناعة السيوف. أمّا بالنسبة لمنتجاتهم المعدنيّة فكان أبرزها بحسب المكتشفات الأثرية: الأواني المعدنيّة المتنوّعة والأسلحة [الشكل: 2] والحلي والمجوهرات.

[1]- NOSCH M.-L.: The Mycenaean Palace- Organized Textile Industry, dans M. Perna et F. Pomponio (dir.), The Management of Agricultural Land and the Production of Textiles in the Mycenaean and Near Eastern Economies, Naples, 2008, p. 135- 154.

[2]- TREUIL R. et al. Op. Cit. 2008, P. 427.

[3]- OLIVIER J. P. Op. Cit. 1994, P. 59.



الشكل 2: سيوف وكؤوس معدنية تعود للحضارة الآخية.

وكانت أهم الأواني المعدنيّة المنتجة هي أواني المائدة الذهبية [الشكلين: 3 و4] والفضية التي كانت منتشرة كثيراً منذ بداية المرحلة الهللادية الحديثة، وقد عثر على الكثير منها في المقابر[1]، وهي متنوّعة الأشكال، منها الأواني المحفورة ومنها المرصّعة والمطليّة، التي كان بعضها يُستخدم للشرب مثل الكؤوس بمقبض أو مقبضين، ومن بين نماذجها المميّزة كأسان أسطوانيان عثر عليهما في أحد قبور مقبرة فافيو (Vaphio)، وهما مزخرفان بزخارف منحوتة مستلهمة من الزخارف الكريتية، نحت على الأوّل مشهد يصوّر القبض على ثور بري، في حين حفر على الآخر مشهد لثيران تجرّ عربة حربيّة. أمّا بالنسبة للمجوهرات، فقد قدّمت مقابر ميكيناي العائدة للمرحلة الهللادية الحديثة 1 مجموعة من المجوهرات المتأثّرة في تصنيعها بالتقاليد الكريتية مثل التيجان المرصّعة بأوراق ذهبيّة[2]، وقد تطوّرت صناعة المجوهرات خلال المراحل اللاّحقة، فأنتج الحرفيون جواهر متنوّعة الأشكال من الذهب، ومن أبرزها وريقات ذهبية معدّة ليتمّ خياطتها على القماش، وخواتم ذهبيّة، ودبابيس مصنّعة

[1]- TREUIL R. et al. Op. Cit., 2008, P. 276- 277.

[2]- Ibid. P. 274- 275.

من الذهب أو العاج، وخاصة في بداية المرحلة الهللادية الحديثة، ولكن مع مرور الوقت أصبحت الدبابيس البرونزية هي الأكثر رواجًا.



الشكل 3: كأس ذهبي بمقبض، يعود لنحو 1500 سنة ق.م، ويؤرخ للمرحلة الهللادية الحديثة 2، وهو محفوظ في المتحف البريطاني.



الشكل 4: كأس ذهبي بمقبض من مقبرة فافيو، يعود للحضارة الآخية، وهو محفوظ في المتحف الوطني للآثار في أثينا.

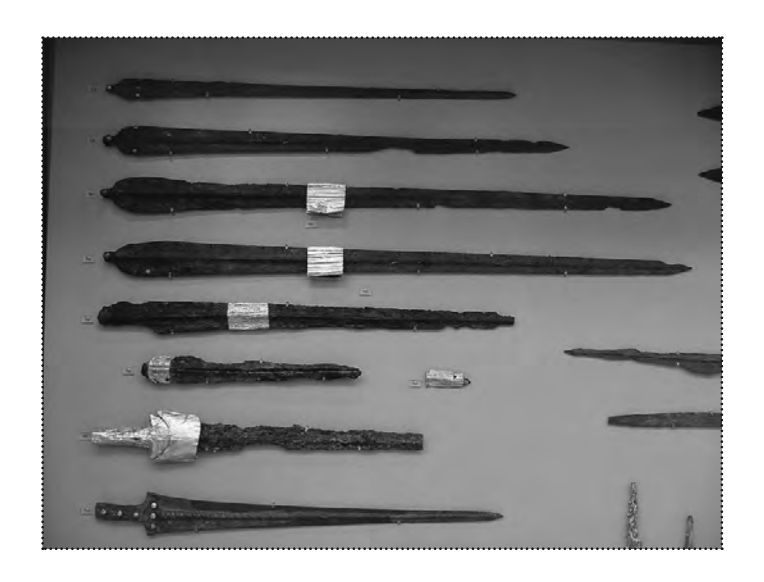
وفيما يخصّ الأسلحة، فقد عثر على الكثير منها في المواقع الميسينية[1]، ويمُكننا التّعرّف على أنواعها أيضًا من خلال الرسوم الجدارية، والرسوم الموجودة على جدران الأواني الفخاريّة، وكذلك من خلال بعض النّصوص الكتابيّة، وتشير تلك المصادر مجتمعة إلى أنّهم أتقنوا صناعة الخوذ [الشكل: 5] والدروع ثمانيّة الشكل، أو النّصف أسطوانية الشكل، والسيوف [الشكل: 6]، والخناجر القصيرة [الشكل: 7]، ورؤوس الرماح ورؤوس السهام، وكانت معظم تلك الأسلحة مصنوعة من البرونز، وفضلاً عن ذلك فقد صنع الآخيون العربات الحربيّة واستخدموها بشكل واسع على الرغم من طبيعة مناطقهم الوعرة[2].



الشكل 5: خوذة دفاعيّة عُثر عليها في أحد قبور ميكيناي، وهي تعود للمرحلة الهلادية الحديثة 3.

[1]- Ibid. P. 271- 274.

[2]- Ibid. P. 415.



الشكل 6: سيوف آخية عُثر عليها في أحد قبور موقع ميكيناي، وهي تعود للمرحلة الهللادية الحديثة 1.



الشكل 7: خنجر مزخرف برسم دلفين عُثر عليه في أحد قبور موقع بروسيمنا، وهو يعود للمرحلة الهللادية الحديثة 2.

كان إنتاج الأواني الفخارية أيضًا من الحرف المميّزة عند الآخيين، وتقدّم لنا النّصوص الكتابيّة قوائم بالحرفيين التابعين للقصر في هذا المجال، ولكن لا يُعرف الكثير عن ورش التصنيع الخاصّة بإنتاج الفخّار. كان يتمّ إنتاج الفخّار من أجل توظيفه فيما يخدم النّشاط الاقتصادي في القصر؛ إذ كان يستخدم لتخزين الأغذية ونقلها، ولتوزيع حصص الإعاشة والقرابين المقدّمة للآلهة، وكان أيضًا يستخدم للأغراض اليوميّة مثل الطهي وتناول الطعام

والشراب، وقد خصّصت الأواني المزخرفة الفخمة للتصدير؛ حيث عُثر على الكثير منها في مواقع قبرص [الشكل: 8] وصقلية وسواحل بلاد الشام وآسيا الصغرى ومصر. ويتميّز الفخّار الميسيني بعجينته النّاعمة، وبزخارفه المرسومة باللّون الأحمر أو البرتقالي أو الأسود، وبتنوّع أشكاله التي كان أبرزها: الجرار، والأباريق، والأواني المفتوحة الفوهة المستخدمة لمزج النبيذ بالماء، والكؤوس المسمّاة كؤوس الشمبانيا. ويعود الظهور الأوّل للفخّار الميسيني إلى المرحلة الهللادية الحديثة1؛ إذ كان يتمّ إنتاجه في جنوب شبه جزيرة البلوبونيز، وكانت النماذج المنتجة شديدة التأثّر بفخّار كريت، وفيما بعد تطوّرت صناعة الفخّار الميسيني كثيراً، وخاصّة خلال المرحلة الهللادية الحديثة 3 B [الشكل: 9]؛ حيث ظهرت نماذج جديدة مميّزة، ومنها الأواني ذوات الأرجل الطويلة، وبخاصّة كؤوس النبيذ. أمّا بالنّسبة للزخارف، فكان يغلب فيها اللوالب والأزهار، مع وجود بعض الأواني المزخرفة بمشاهد عربات حربية، وأواني مزخرفة بمشاهد حيوانيّة مثل الثيران والعصافير... وفي نهاية المرحلة الهيللادية الحديثة فقد الفخار الميسيني تجانسه الذي عرفه منذ ظهوره، وبدأت تظهر أنماط محلية متنوّعة[1].



الشكل 8 : آنية فخارية تعود للحضارة الآخية عثر عليها في قبرص، محفوظة في المتحف البريطاني.

[1]- HIGGINS R.: L'Art de la Crète et de Mycènes, Minoan and Mycenaean Art, Paris, Thames, Hudson, 1995, P. 184- 188.



الشكل 9: جرّة فخارية عُثر عليها في ميلوس، تعود للمرحلة الهللادية الحديثة 3، محفوظة في متحف اللوفر.

وإلى جانب الصناعات الحرفيّة سابقة الذكر، فقد صنع الآخيون أختام متنوعة[1]، يمكن ارتداؤها كقلادة أو سوار أو كخاتم، وكانت تستخدم بالدرجة الأولى لدمغ السّلع، وكان أغلبها على شكل حبّة العدس أو اللوزة، وهي مصنّعة من الأحجار النادرة كالعقيق والستياتيت، وأحيانًا من العاج أو الكهرمان، وكان بعضها أيضًا مصنوعًا من الذهب، وخاصّة الأختام العائدة للمرحلة الهللادية الحديثة 1، التي كانت متأثّرة بالأنماط الكريتيّة. وفيما يتعلّق بطبعاتها، فقد كان أغلبها يحمل مشاهد حربيّة، وبعضها يجسّد مشاهد دينيّة، وابتداء من المرحلة الهللادية الحديثة 3 أصبحنا نلحظ ظهور طبعات أختام على شكل أزهار ودوائر.

وإضافة إلى ما سبق تشير النصوص الكتابية إلى وجود بعض الورش الخاصّة بصناعة الزيوت العطرية[2]، وتشير أيضًا إلى وجود ورش خاصّة بصناعة الذهب والعاج، وبإنتاج زيت الزيتون...

---

[1]- Ibid. P. 118- 122.

[2]- TREUIL R. et al. Op. Cit. 2008, P. 59.

وأخيراً بالنسبة للتجارة، نلحظ ندرة الوثائق المكتوبة المتعلّقة بها[1]، ولكن يمُكننا من خلال تتبّع تواجد الأواني الفخاريّة الميسينيّة، يمُكننا أن نرسم خطوط التجارة الآخية داخل مناطق اليونان وخارجها؛ إذ كان الآخيون يُصدّرون تلك الأواني معبّأةً بالزيت أو العطور، وفي أحيان أخرى كانت تصدّر فارغة لقيمتها الجمالية، وبالاعتماد على تواجد تلك الأواني يمُكننا القول إنّ التّجارة الآخية كانت قد امتدّت لتطال جميع مناطق شبه جزيرة البلوبونيز، وبخاصّة مدينة تيرنس وكورنثة وأميكلاي وبيلوس، وكذلك إقليم أتيكا وبخاصة مدينة أثينا وإليوسيس وأورخومينوس[2]. أمّا على صعيد التجارة الخارجية، فقد امتدّت تجارتهم غربًا إلى صقليّة وجنوبي إيطالية ومالطة، وامتدّت شرقًا حتى الساحلين الغربي والجنوبي لآسيا الصغرى، وإلى جزيرة رودوس، وجزيرة قبرص التي أسّسوا فيها مستعمرة آخية، وامتدّت أيضًا إلى مصر وفلسطين ولبنان والساحل السوري، لا بل تغلغلت أيضًا في الداخل السوري، وخاصة بعد زيادة نفوذ الآخيين في أوغاريت؛ حيث عُثر على آثار آخية في مملكة آلالاخ وقطنة وقادش، كما تغلغلت تجارتهم في المناطق الساحلية الممتدّة من بيبلوس [جبيل] إلى خليج عكا، ويبدو أنّ التّجّار الآخيون أنشؤوا في القرن الثالث عشر ق.م مستودعًا للبضائع في تل أبو حوام بالقرب من يافا، وتغلغلت تجارتهم أيضًا في الداخل الفلسطيني حتى أريحا في وادي نهر الأردن، ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ نفوذهم في المناطق الفلسطينيّة اللبنانيّة كان محكومًا بالعلاقة مع مصر، التي كان نفوذها قد توطّد في الساحل الفينيقي ولا سيما في مدينة بيبلوس، التي كانت مركزاً حيويًّا لتصدير الأخشاب إلى مصر[3]. وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ هذا النّشاط التّجاري المميّز لم يتمكّن الآخيون من بلوغه إلّا بعد إضعاف نفوذ كريت، وانتقال الدّور المميّز الذي كانت تلعبه إلى الآخيين. وفيما يخصّ المنتجات التي كانت يصدّرها الآخيون، فقد كان أبرزها الأواني الفخارية المعبّأة بالزّيت أو بالعطور وأحيانًا الفارغة، أمّا المواد والمنتجات التي كانوا يستوردونها فكان أبرزها النّحاس من قبرص الذي كان يُصدّر إلى بلاد الإغريق على شكل سبائك كبيرة، والذهب من مصر، والعاج من سورية،

[1]- Ibid. P. 444- 445.

[2]- خليل سارة، تاريخ الإغريق، م.س، ص183.

[3]- م.ن، ص183 - 184.

والنبيذ من الساحل الفينيقي[1]. وتجدر الإشارة أخيرًا إلى أنّ الآخيين كانوا يعدّون البقر وحدة قياسيّة للتبادل التجاري، وكانوا يستخدمون أيضًا سبائك الحديد أو البرونز أو الذهب أو النحاس كوحدات للتعامل بدلاً من النّقود.

رابعًا: إدارة النّشاط الاقتصادي

تشير نصوص الكتابة التخطيطية B إلى أنّ الآخيين كانوا مقسّمين إلى دويلات صغيرة، تبسط كلّ منها سيطرتها على منطقة محدّدة، وتحكمها من خلال القصر الملكي وما يتبع له من مؤسّسات، وكان من أبرز تلك الدويلات ميكيناي وكنوسوس وبيلوس وطيبة... وتشير النصوص أيضًا إلى أنّ نظام الحكم في تلك الدويلات كان ملكيًّا، وكان الملك يلقب وا نا كا (WA-NA-KA)، وقد ورد هذا المصطلح في نحو 40 نص من نصوص الكتابة التخطيطية B، ونقش أيضًا على أربع أواني، ويفهم من تلك النّصوص بأنّ الملك كان يتمتّع بصلاحيات واسعة على الأصعدة كافة، فهو الذي كان يعينّ وينقل الموظفين الإداريين، وهو الذي يختار الحرفيين للعمل في القصر[2]... ويقف إلى جانب الملك في إدارة شؤون القصر مجموعة من الشخصيات المهمّة، بعضهم له صفة عسكريّة، وبعضهم الآخر له صفة دينيّة، في حين كان يشرف قسم ثالث منهم على إدارة النّشاط الاقتصادي في القصر؛ إذ كان يتبع للقصر مجموعة من المؤسّسات المختصّة بإدارة نشاطه الاقتصادي. إذًا، كان هذا هو حال الإدارة المركزيّة للقصر، أمّا بالنسبة للمناطق التابعة لها، فقد وردت في النّصوص الكتابية مصطلحات للتعريف بأشخاص تابعين للقصر ويشرفون على مناطق تابعة له؛ حيث تخبرنا النّصوص أنّ أراضي بيلوس كانت مقسّمة إلى مقاطعتين كبيرتين[3]، أطلق على الأولى اسم (DE- WE-RA KA- RA- I-JA) وهي عبارة عن الأراضي القريبة المحيطة ببيلوس، وأطلق على الثانية اسم (PE- RA – KO- RA- I- JA) وهي عبارة عن الأراضي البعيدة المحيطة بمدينة (RE-

[1]- خليل سارة، تاريخ الإغريق، م.س، ص-184 185.

[2]- TREUIL R. et al. Op. Cit. 2008, P. 412.

[3]- SAKELLARIOU M. and DOUMAS C.: THE AEGEAN WORLD: THE MIDDLE AND LATE BRONZE AGE (2100–1100 BC). In: A. H. Dani, J.-P. Mohen, J. L. Lorenzo, V. M. Masson, T. Obenga, M. B. Sakellariou, B. K. Thapar Zhang Changshou, S. J. De Laet. History of Humanity – Vol. 2: From the Third Millennium to the Seventh Century B. C., l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris, et Routledge, Londres, 1996, P. 411.

(U- KO- TO- RA)[1]. وتقسّم هاتان المقاطعتان بدورهما إلى مقاطعات عدّة أصغر، ويتبع لكلّ منها مجموعة من القرى الصغير. ولأجل إدارة تلك المناطق يبدو أنّ الملك كان يعيّن مسؤولاً يدعى (KO – RE- TO) أي محافظ، ويعيّن أيضًا نائبًا له يدعى (PRO- KO- RE- TO) يقوم بمساعدة المحافظ في عمله. وتجدر الإشارة إلى أنّ تلك المصطلحات قد وردت أيضًا في ألواح كنوسوس[2]. ويرد أيضًا في نصوص الكتابة التخطيطية B مصطلح (QA- SI- RE- U) ولكن معناه غير محدّد بشكل جيّد، ويُفهم من تلك النصوص أنّه كان يتعلّق بوظيفة يمتلك أصحابها صلاحيات متنوّعة في إدارة المقاطعات أو في إدارة النّشاط الحرفي[3]. وتشير نصوص الكتابة التخطيطية B إلى أنّ المجموعات العاملة في المجال الاقتصادي كانت تنقسم إلى مجموعتين: الأولى تعمل كمؤسّسة لحساب القصر، ويمُكننا التّعرّف على طبيعة نشاطها من خلال النصوص الكتابية، ويمُكننا أيضًا من خلال تلك النّصوص أن نميّز بين الشخصيات المهمّة المرتبطة بالقصر مباشرةً، والشخصيات التي تشرف على القرى والبلدات أي التي تمارس نشاطها خارج القصر، كما تخبرنا تلك النصوص بوجود أشخاص آخرين يشغلون منصبًا وسيطًا، أي يخدمون القصر في مهام محدّدة ولكنّهم لا يشكّلون جزءًا من إدارته[4]. أمّا المجموعة الثانية فكانت تعمل لحسابها الخاص، ولكن لم يرد في النّصوص الكتابية أية معلومات عن طبيعة نشاطها الاقتصادي. أمّا بالنسبة لحجم الدّور الذي كان يلعبه القصر في إدارة النّشاط الاقتصادي، فقد كان يعتقد في وقت من الأوقات أنّه كان لمؤسّسات القصر سيطرةٌ كبيرةٌ على النّشاط الاقتصادي، وأنّها كانت تلعب الدّور الرئيسي في إنتاج المواد وإعادة توزيعها[5]، ويستند أصحاب هذا الرأي في تصوّرهم هذا على ما تقدّمه نصوص الكتابة التخطيطية B، ولكن إذا تأمّلنا تلك النّصوص نلحظ أنّها لا توثّق إلّا النّشاط الاقتصادي الخاص بالقصر، وبالتالي فهي لا تلامس إلا نشاط مجتمع النخبة، أما بالنسبة للنّشاط الاقتصادي الخاص بعامة الشعب فلم ترد عنه أية معلومات في

[1]- TREUIL R. et al. Op. Cit. 2008, P. 418.

[2]- Ibid. P. 414.

[3]- CARLIER P.: La royauté en Grèce avant Alexandre, Strasbourg, 1984, P. 108- 116.

[4]- CARLIER P.: « qa-si-re-u et qa-si-re-wi-ja », dans R. Laffineur et W.-D. Niemeier (dir.), Politeia: Society and State in the Aegean Bronze Age vol. II, Aegeum 12, Liège, 1995, P. 355- 364.

[5]- FINLEY M.: The Mycenaean Tablets and Economic History, Economic History Review 10, 1957, P. 128- 141.

نصوص الكتابة التخطيطية B، وهذا يدفعنا إلى القول إنّه حتى الآن لا يُمكننا بناء تصوّر واضح عن حجم الدّور الذي كان يلعبه القصر في إدارة النّشاط الاقتصادي للحضارة الآخية، وإنّ كلّ ما يُمكننا قوله بموجب المعلومات التي تقدّمها تلك النصوص هو أنّ المؤسّسات الاقتصاديّة التابعة للقصر كانت تعمل لخدمة الملوك والنخبة، وتوفّر لهم مصدرًا للثروة ووسيلة للسيطرة على السكان، ويُمكننا القول أيضًا بشيءٍ من الحذر إنّ النّشاط الاقتصادي في القصور الآخية تمت إدارته من قبل الكتبة، الذين لا يبدو أنّهم كانوا محترفين، بل إداريين يمكنهم القراءة والكتابة[1]، ونضيف أيضًا أنّ المحفوظات التي تمّ العثور عليها كانت تمثّل عمل بضع عشرات من هؤلاء الكتبة على الأكثر [مئة في كنوسوس، وخمسون في بيلوس]؛ إذ كانوا يقومون بتوثيق دخول المنتجات وخروجها إلى مستودعات القصر، وتوزيع العمل على الحرفيين، والعناية بتوزيع الحصص الغذائية. إذًا، لم تُقدّم نصوص الكتابة التخطيطية B أيّ دليلٍ ملموس على أنّ المؤسّسات التّابعة للقصر كانت تؤطّر المجتمع الميسيني وتشرف بشكل منظّم وشاملٍ على حياته الاقتصاديّة[2]، وكل ما يمُكننا قوله في هذا الشأن هو أنّ الاستراتيجية الاقتصاديّة لمؤسّسات القصر كانت موجّهة نحو تلبية احتياجات معيّنة مثل إعاشة النخب الذين يشغلون مناصب إدارية ومكافأتهم، وتزويدهم بالسلع التي يحتاجونها، وإدارة المنتجات الاستراتيجية للدولة، وبخاصة الأسلحة، وربمّا ضمان فوائض لمواجهة النّقص المحتمل في مستودعات القصر، وأيضًا الاستثمار في منتجات مربحة مثل الزيت والمنسوجات.

---

[1]- TREUIL R. et al. Op. Cit. 2008, P. 414- 415.

[2]- CARLIER P., Op. Cit. 1984, P. 119, 124, 132.

الخاتمة

إذًا، نشأت الحضارة الآخية في شبه جزيرة البلوبونيز، واستمرّت لمدّة خمسة قرون، وكانت في بدايتها [المرحلتين 1 و2 من الهللادية الحديثة] متأثّرة بالحضارة الكريتيّة، ثم تطوّرت تدريجيًّا حتّى بلغت ذروتها في المرحلة الهللادية الحديثة 3، وبالتحديد بعد تحقيق الآخيين لطموحهم في السيطرة على جزيرة كريت، ومدّ نشاطهم ونفوذهم من البحر الإيجي إلى سائر أنحاء شرق البحر المتوسط. وبالتالي، اتّسمت المرحلة الأولى من تاريخ هذه الحضارة بنشاطها الاقتصادي المرتكز بشكل أساسي على الزّراعة والرعي، وبشكلٍ ثانوي على الصناعة المتأثّرة بالحضارة الكريتية، في حين اتّسمت المرحلة اللّاحقة [المرحلة الهللادية الحديثة 3] بنشاطها الاقتصادي المرتكز على التّجارة، مع استمرار الدّور المميّز للزّراعة والرعي، والحضور المميّز للصناعات الحرفية ذات التقاليد الآخية. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا التّصوّر الذي قمنا ببنائه عن النّشاط الاقتصادي للحضارة الآخية غير مكتمل؛ لأنّ النّصوص العائدة للكتابة التخطيطية B لا توثّق إلّا النّشاط الاقتصادي الخاص بالقصور الآخية، وبالتالي فهي لا تلامس إلا نشاط مجتمع النخبة، أمّا بالنّسبة للنّشاط الاقتصادي الخاص بعامة الشعب فلم ترد عنه أية معلومات في تلك النّصوص. إذًا، لا يُمكننا، بناءً على المعطيات العلميّة الحاليّة، بناء تصوّر نهائيّ عن الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الآخيّة، كما فعل بعض الباحثين، بل إنّ كلّ ما يُمكننا قوله بناءً على المعطيات الحاليّة أن هذه الحضارة نشأت متأثّرة بالحضارة الكريتيّة، وازدهرت بعد سيطرتها على كريت ومدّ نشاطهم ونفوذهم من البحر الإيجي إلى سائر أنحاء شرق البحر المتوسط، وضعفت نتيجةً لحرب طروادة، وبدأت بالانهيار مع بدء تدفّق القبائل الدورية إلى مناطق الإغريق على شكل موجات، مستغلّين ضعف الآخيين الذين أنهكتهم حرب طروادة؛ حيث انقضّوا على أماكن الحضارة الآخية ودمّروها ووضعوا نهاية لهذه الحضارة في عام 1100 ق.م. وبالتالي استغلّ الفينيقيون تلك التوتّرات التي شهدتها مناطق الإغريق، وفرضوا سيطرتهم البحرية في بحر إيجة، بينما دخل الإغريق في عصرهم المظلم.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

1. خليل سارة: تاريخ الإغريق، منشورات جامعة دمشق، 2014/2013 م.

المراجع المترجمة للعربية

1. هوميروس: الإلياذة، ترجمة أحمد عتمان بالإشتراك مع لطفي عبد الوهاب يحيى، السيد عبد السلام البراوى، منيرة كروان، عادل النحاس، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008 م، الطبعة الثانية، العدد 2/750.

2. هوميروس: الأوديسة، ترجمة دريني خشبة، طبعة دار التنوير الأولى، بيروت -القاهرة- تونس، 2013 م.

المراجع الأجنبية:

1- BENNETT E. L. et OLIVIER J.-P.: The Pylos Tablets Transcribed, 2 vols. Rome, 1973 et 1976.

2- BRUN J.-P.: Archéologie du vin et de l'huile. De la préhistoire à l'époque hellénistique, Paris, 2004.

3- CARLIER P.: La royauté en Grèce avant Alexandre, Strasbourg, 1984.

4- CARLIER P.: « qa-si-re-u et qa-si-re-wi-ja », dans R. Laffineur et W.-D. Niemeier (dir.), Politeia: Society and State in the Aegean Bronze Age vol. II, Aegeum 12, Liège, 1995.

5- CHADWICK J.: The decipherment of Linear B, Cambridge University Press, Canto Edition 2003.

6- CHADWICK J., GODART L., KILLEN J. T, OLIVIER J.-P., SQCCONI A. et SAKELLARKIS I.: Corpus of Mycenaean Inscriptions from Knossos,

4 vol., Cambridge, 1986–1998, (en) J. T. Killen et J.-P. Olivier, The Knossos Tablets, A Transliteration, Fifth Edition, Salamanque, 1989.

7- DARCQUE P.: L'habitat mycénien, Formes et fonctions de l'espace bâti en Grèce continentale à la fin du II[e] millénaire avant J.-C., Paris, Ecole française d'Athènes, Éditions de Boccard, 2005.

8- FINLEY M.: The Mycenaean Tablets and Economic History, Economic History Review 10, 1957.

9- FURUMARK A.: Mycenaean Pottery, vol. II Chronology, 1941.

10- GUTERBOCK HANS G.: The Hittites and the Aegean World: Part 1. The Ahhiyawa Problem Reconsidered. American Journal of Archaeology. Archaeological Institute of America. 871983 ,2/.

11- GUTERBOCK HANS G.: Hittites and Akhaeans: A New Look. Proceedings of the American Philosophical Society. American Philosophical Society, 1984, 128 /2.

12- HIGGINS R.: L'Art de la Crète et de Mycènes, Minoan and Mycenaean Art, Paris, Thames, Hudson, 1995.

13- HUXLEY GEORGE LEONARD: Achaeans and Hittites, Oxford: Vincent Baxter Press, 1960.

14- KELDER JORRIT M.: The Egyptian Interest in Mycenaean Greece. Jaarbericht, Ex Oriente Lux (JEOL), 2010.

15- NOSCH M.-L.: The Mycenaean Palace-Organised Textile Industry, dans M. Perna et F. Pomponio (dir.), The Management of Agricultural Land and the Production of Textiles in the Mycenaean and Near Eastern Economies, Naples, 2008.

16- OLIVIER J. P.: L'économie des royaumes mycéniens, Dossiers d'Archéologie n° 195, 1994.

17- SAKELLARIOU M. and DOUMAS C.: THE AEGEAN WORLD: THE MIDDLE AND LATE BRONZE AGE (2100–1100 BC). In: A. H. Dani, J.-P. Mohen, J. L. Lorenzo, V. M. Masson, T. Obenga, M. B. Sakellariou, B. K. Thapar Zhang Changshou, S. J. De Laet. History of Humanity – Vol. 2: From the Third Millennium to the Seventh Century B. C., l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris, et Routledge, Londres, 1996.

18- TREUIL R., DARCQUE P., POURSAT J.-C. et TOUCHAIS G.: Les Civilisations égéennes du Néolithique et de l'Âge du Bronze, Paris, Presses universitaires de France, 2e édition refondue, 2008.

الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الكريتيّة-المينويّة

حسام غازي[1]

مقدمة

تعدُّ الحضارة الكريتية/المينوية (Minoan) إحدى أشهر الحضارات القديمة في بلاد اليونان، وهي تؤرّخ بحسب مكتشفها آرثر ايفانس (A. Evans) على نحو 3000 إلى 1200 ق.م، وتؤرّخ بحسب نيكولاوس أفلاطون (Nikolaos Platon) على نحو 3100 إلى 1100 ق.م. سميت بالمينوية نسبةً إلى بيت مينوس (Minos) وهو البيت الحاكم الذي سيطر على جزيرة كريت لفترةٍ طويلة، كما عُرفت باسم الحضارة الكريتيّة نسبةً إلى جزيرة كريت، وعرفت أيضًا باسم الحضارة الإيجيّة نسبةً إلى بحر إيجة. ويعود الفضل في اكتشاف هذه الحضارة للآثاري البريطاني آرثر إيفانس الذي قام بين عامي 1900 و1905 م بالتنقيب في موقع قصر كنوسوس[2] [الشكل: 1]، كما تمكّن من اكتشاف كثير من معالم حضارة عصر البرونز في كريت، ونظرًا لأهميّة النّتائج التي توصّل إليها فقد عملت في الجزيرة العديد من البعثات الأثرية بغية كشف معالم هذه الحضارة، التي عدّها الباحثون الغربيون مدخلاً لفهم تاريخ الإغريق بمختلف جوانبه بما فيها الحياة الاقتصاديّة موضع اهتمامنا حاليًا.

أوّلاً: مصادر دراسة الحياة الاقتصادية في الحضارة الكريتية

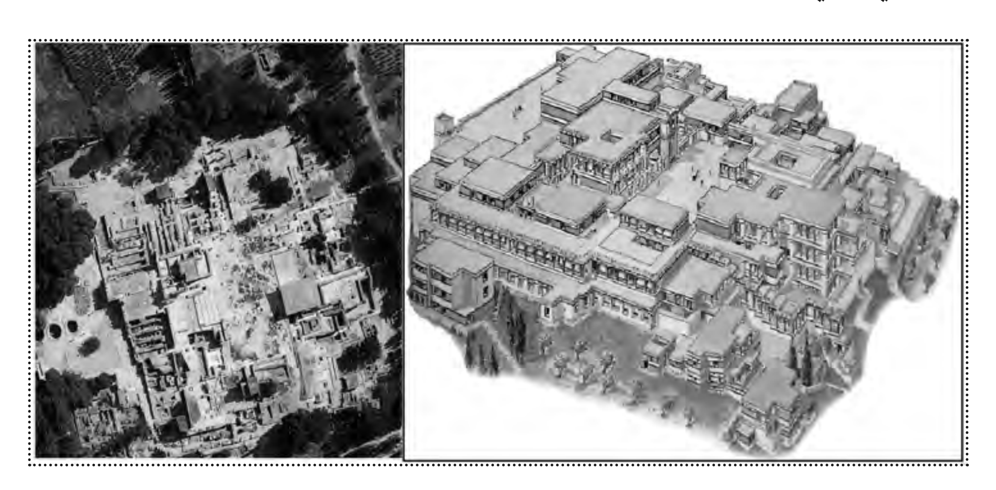
يُمكننا دراسة الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الكريتيّة من خلال نوعين من المصادر هما: المصادر الكتابيّة والمخلّفات الأثريّة، وبالنّظر في تلك المصادر والتأمّل فيما تقدّمه لنا من معلومات، نلحظ أنّ المصادر الكتابيّة ما زالت حتى الآن نادرة، ولا تقدّم إلّا إشارات

---

[1]- قسم الآثار كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة جامعة دمشق.

[2]- ALEXIOU S.: La Civilisation Minoenne, Héraklion Crète, 1980, P. 7.

عامّة عن طبيعة النّشاط الاقتصادي في الحضارة الكريتية، في حين أنّ المخلّفات الأثرية داخل كريت وخارجها توفّر لنا معلومات قيّمة تساعدنا إلى حدٍ كبير في إعادة تصوّر النّشاط الاقتصادي الذي ساد طيلة فترة الحضارة الكريتية:



الشكل 1: إلى اليسار صورة جوية لأطلال قصر كنوسوس، وإلى اليمين مجسم لقصر كنوسوس.

1. المصادر الكتابية

تقتصر تلك المصادر على بعض الإشارات الواردة في الكتابات الإغريقية والمصرية، فعلى سبيل المثال يذكر هوميروس في الأوديسة أنّ هناك في وسط البحر بلاد غنيّة راقية تسمى كريت، يسكنها أناس لا يحصى عددهم، وفيها تسعون مدينة. ويتكلّم أرسطو عن موقع كريت الممتاز في البحر المتوسط بين فينيقية وإيطاليا ومصر واليونان، ويقول إنّ ذلك مما ساعد ملوك مينوس على السيطرة في بحر إيجة. كما يرد في النصوص المصرية ذكر لشعوب هانيبو أي الشعوب المحاطة بالمياه، ويرد أيضًا ذكر جزر كفتي أي كريت[1]، وهذا يشير إلى وجود علاقات تجاريّة مبكرة بين هاتين المنطقتين. أمّا فيما يتعلّق بالكتابة الكريتية المكتشفة في كريت وبعض مناطق بحر إيجة، والتي كان من المفترض أن تكون مصدر معلوماتنا الأساسي عن الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الكريتية، فقد ميّز منها آرثر

[1]- STIER H. E.: Grosser Atlas zur Weltgeschichte, Westermann publi. Braunschweig, 1985, P. 9.

إيفانس نموذجين، أطلق على الأوّل اسم الكتابة التخطيطية A، وأطلق على الثاني اسم الكتابة التخطيطية B[1]، وبعد الدراسة تبينّ أنّ الكتابة التخطيطية B كانت قد ظهرت في نحو عام 1375 ق.م، وهي تعود للحضارة الميسينية، وتقدم معلومات كافية عن معظم جوانبها. أما الكتابة التخطيطية A، فتعود للحضارة الكريتية، وقد ظهرت في نحو عام 1900 ق.م، واستمرّت على الأرجح حتى عام 1400 ق.م[2]، وعلى الرغم من كثرة النصوص المكتشفة إلا أنّ جهود العلماء لم تفلح حتى الآن في فك رموزها، وبانتظار فك تلك رموز ليس لدينا من سبيل للتعرّف على الحياة الاقتصادية في الحضارة الكريتية إلا المخلفات الأثرية المكتشفة في جزيرة كريت وخارجها.

2. المخلّفات الأثريّة

يقصد بها اللّقى الأثرية - أواني فخارية وخزفية، أسلحة، حلي، لوحات فنية.. التي عثر عليها في جزيرة كريت والمناطق التي كانت على علاقة تجارية معها، وبخاصة شبه جزيرة اليونان وقبرص ومصر وبلاد الشام وشواطئ آسيا الصغرى، حيث تساعدنا تلك المكتشفات في إعادة بناء تصوّر واضح إلى حدٍّ ما عن مصادر المواد الأوّليّة، وأنواع الصناعات الحرفية التي اشتهرت بها كريت، والمناطق التي كانت على علاقة تجارية مع كريت، ونوعيّة المنتجات التي صدّرتها كريت لتلك المناطق، ونوعيّة المواد المستوردة منها، وطريقة التبادل التجاري.

ثانيًا: عصور الحضارة الكريتية ومراحلها

اعتمد آرثر إيفانس على تلك المواد –وبخاصة الفخار المكتشفة في جزيرة كريت- في بناء تسلسل زمني للحضارة الكريتية، فقسّمها إلى ثلاثة عصور، وقسّم كلّ منها بدوره إلى ثلاثة أدوار[3]:

- العصر المينوي القديم: يؤرخ على نحو 3000 إلى 2000 ق.م، ويقسم إلى ثلاثة أدوار

[1]- VASSILAKIS A.: La Crète minoenne: Du mythe à l'histoire. Athènes, Adam, 2000, P. 117.

[2]- VANDENABEELE F.: La chronologie des documents en linéaire A. BCH, Vol. 109, no 1, 1985, p. 3- 20.

[3]- لمزيد من المعلومات عن التسلسل الزمني الذي وضعه إيفانس للحضارة الكريتية/المينوية راجع:
ALEXIOU S., Op. Cit., 1980. VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000.

هي: الدور الأوّل [3000 - 2800 ق.م] والثاني [2800 - 2400 ق.م] والثالث [2400 - 2000 ق.م].

- العصر المينوي الأوسط: يؤرخ على نحو 2000 إلى 1580 ق.م، ويقسّم إلى ثلاثة أدوار هي: الدور الأوّل [2000 - 1900 ق.م] والثاني [1900 - 1750 ق.م] والثالث [1750 - 1580 ق.م].

- العصر المينوي الحديث: يؤرخ على نحو 1580 إلى 1200 ق.م، ويقسم أيضًا إلى ثلاثة أدوار هي: الدور الأوّل [1580 - 1450 ق.م]، والثاني [1450 - 1400 ق.م]، والثالث [1400 - 1200 ق.م].

وفي عام 1958م تمّ اقتراح تسلسلٍ زمنيٍّ جديدٍ للحضارة الكريتيّة من قبل نيكولاوس أفلاطون (Nikolaos Platon)، قُسّمت بموجبه حضارة كريت إلى أربع مراحل، وذلك وفقًا للمراحل التي مرَّ بها القصر، ووفقًا للمخلّفات الأثرية المكتشفة، مع الأخذ بعين الاعتبار التسلسل الزمني للحضارة المصرية القديمة[1]، وهذه المراحل هي:

ـ مرحلة ما قبل القصر: تؤرخ على نحو 3100 إلى 2000/1900 ق.م، وهي تطابق العصر المينوي القديم بأدواره الثلاثة، والمرحلة A من الدور الأوّل (MM 1A) من العصر المينوي الأوسط. وتتزامن هذه المرحلة أيضًا مع فترة حكم الأسرات المصريّة من الأسرة الرابعة حتى الأسرة العاشرة، وقسم مهمّ من فترة حكم الأسرة الحادية عشر. وبحسب نيكولاوس أفلاطون فقد انتهت عصور ما قبل التاريخ في الجزيرة نحو عام 2600 ق.م، أي مع بداية استخدام المعادن في التصنيع، أمّا المرحلة المؤرّخة من عام 2600 ق.م حتى بداية تشييد القصر الأوّل في كنوسوس فتعرف بمرحلة ما قبل القصر.

ـ مرحلة القصر الباكر: تؤرخ على نحو 2000/ 1900 إلى 1700 ق.م، وهي تطابق المرحلة B من الدور الأول (MM 1 B) من العصر المينوي الأوسط، والدور الثاني منه، أي من تشييد القصر الأوّل في كنوسوس حتى تدميره في نحو عام 1700 ق.م. وهي تتزامن مع القسم الأخير من فترة حكم الأسرة الحادية عشر، وتتزامن أيضًا مع فترة حكم الأسرة الثانية عشر.

[1]- لمزيد من المعلومات عن التسلسل الزمني الذي وضعه نيكولاوس أفلاطون للحضارة الكريتية/المينوية راجع:
NIKOLAOS PLATON: La Civilisation égéenne. Éditions Albin Michel (Fr), 1981 puis réédité en 2000 en 2 tomes. COSTIS DAVARAS: Cnossos et le musée d'Héracleion, Editions Hannibal, Athènes, 1957.

ـ مرحلة القصر الحديث: تؤرخ على نحو 1700 إلى 1430 ق.م، وهي تطابق الدور الثالث من العصر المينوي الأوسط، والدور الأوّل من العصر المينوي الحديث، أي من المرحلة التي بدأ فيها إعادة بناء القصر حتى تدميره نهائيًّا في نحو عام 1400 ق.م. وتتزامن هذه المرحلة أيضًا مع فترة حكم الأسرات المصرية من الأسرة الثالثة عشر حتى الأسرة الثامنة عشر.

ـ مرحلة ما بعد القصر: تؤرخ على نحو 1430 إلى 1100 ق.م، وهي تغطّي الفترة المؤرّخة من بداية الدور الثاني من العصر المينوي الحديث حتى نهاية الدور الثالث، أي عصر الحضارة الميسينية، التي تم خلالها هجر القصور الرئيسيّة في الجزيرة، واضمحلال الحضارة الكريتيّة لمصلحة الحضارة الميسينيّة. إذًا، تقع هذه المرحلة بأكملها خارج نطاق الحضارة الكريتية، وبالتالي فهي خارج نطاق اهتمامنا الحالي الذي ينصبّ على دراسة الحياة الاقتصادية خلال المراحل الثلاث السابقة فقط.

إذًا، اتّبع نيكولاوس أفلاطون تصنيفًا مختلفًا إلى حد ما عن التصنيف الذي وضعه آرثر إيفانس للحضارة الكريتية، ولكن في جميع الأحوال يمُكننا من خلال هذين التصنيفين تتبّع مراحل تطوّر النّشاط الاقتصادي في الحضارة الكريتية، وذلك لكون توصيفهما مبنيًّا بشكل أساسي على تصنيف المخلّفات الأثريّة، التي هي مصدر معلوماتنا الأساسي عن الحياة الاقتصاديّة في الحضارة الكريتيّة.

ثالثًا: جغرافيّة كريت وبيئتها

تقع جزيرة كريت في القسم الشرقي من حوض البحر المتوسّط، في مفترق طرق بين أوروبا وآسيا وأفريقيا[1]، وهي تمثّل الحدّ الجنوبي لحوض بحر إيجه. تمتدّ هذه الجزيرة من الغرب إلى الشرق على مسافة 260 كم، وبعرض يراوح بين 10 و56 كم من الشمال إلى الجنوب، وتبلغ مساحتها نحو 8260 كم^2، وبذلك تمثّل أكبر جزيرة في قوس الجزر المحيطة ببحر إيجة من الجنوب. ويسود فيها مناخ البحر المتوسط.

[1]- WILLETTS R. F.: Ancient Crete. A Social History from Early Times until the Roman Occupation. London, Routledge and Kegan Paul; Toronto: University Press, 1965, P. 23.

إذا تأمّلنا جغرافيّة كريت وبيئتها في محاولة لاستخلاص المقوّمات الاقتصاديّة للحضارة الكريتية نلحظ فيما يخصّ الزّراعة أنّ المساحات الصالحة لزراعة المحاصيل الاستراتيجية -أهمها القمح- غير كافية إلا لسدّ حاجات الجزيرة، ولكن بالمقابل نلحظ وجود سفوح جبليّة واسعة لزراعة الزيتون والكرمة، وسفوح مرتفعة تكسوها غابات الأشجار البرية. أما فيما يتعلّق بالصناعات الحرفيّة فنلحظ افتقار الجزيرة للمعادن الخام، التي كان يقتصر وجودها على كميّة بسيطة من النحاس، كانت تنتج من منطقة أستيروسيا (Asteroussia) جنوب ميسارا، ولكن بالمقابل أيضًا نلحظ أنّ السّفوح التي كانت مكسوّةً بالكرمة والزيتون تكفي لتصنيع ما يسدّ حاجة الجزيرة من الزيت والنبيذ ويفيض عنها، كما أنّ وفرة الغابات ساعد الكريتيين على بناء أسطول ضخم سهّل لهم تجارتهم. أما بالنسبة للتجارة، فنلحظ تمتّع جزيرة كريت بموقع جغرافي مميّز يمكّنها من بناء شبكة مهمّة من العلاقات التجارية مع المناطق المجاورة، ويمكّنها أيضًا مع وجود أسطول قويّ من لعب دور الوسيط بين الشرق ومناطق بحر إيجة.

والآن، إذا استثنينا الموقع الجغرافي المميّز لجزيرة كريت، وتأمّلنا بقيّة المقوّمات الأخرى، نجد أنّها متوفّرة وبشروط أفضل في معظم المناطق الأخرى من بحر إيجة والعالم اليونان. وبالتالي هذا يدفعنا إلى القول إنّ الموقع الجغرافي المميّز لجزيرة كريت كان العامل الأساسي في نهوض الحضارة الكريتيّة. إذًا، يجب فهم الحضارة الكريتيّة كحضارة تجارية شديدة التأثّر بمحيطها الجغرافي، وأمام التفوّق الحضاري المبكر للشرق -مصر، بلاد الرافدين، بلاد الشام، الأناضول- على الغرب في عصر البرونز، يتوجّب علينا فهم هذه الحضارة في مرحلة نشوئها وازدهارها وسقوطها من خلال علاقاتها الشرقيّة، لا بمعزل عنها. ونضيف أيضًا أنّ الحضارة الكريتية -كما يصفها الباحثون الغربيون- ليست هي المدخل لفهم تاريخ الإغريق والغرب، بل هناك مرحلة أقدم منها، يدين فيها الغرب للشرق بالكثير من المعارف، وهي مرحلة العصر الحجري الحديث [النيوليت]، التي تحوّل فيها الإنسان من مستهلك سلبي [صيد والتقاط] إلى منتج إيجابي لخيرات الطبيعة، وذلك باكتشاف الزراعة والتدجين التي كان المشرق العربي القديم السبّاق إلى اكتشافهما خلال ما يُعرف بثورة العصر الحجري الحديث، ثم انتشرت منه إلى جميع أنحاء العالم، وبالتالي فإنّ دراسة تاريخ

أي منطقة يبدأ بفترة ملامسة سكّانها للمعارف الأولى المنطلقة من المشرق العربي القديم. وفيما يخصّ جزيرة كريت، فقد وصلتها تلك المعارف ضمن موجة الانتشار باتّجاه سواحل البحر المتوسط، وهذا ما تؤكّده المكتشفات الأثريّة ونتائج التأريخ بالكربون المشع 14 C. وبمزيد من التوضيح يجب دراسة النشاط الاقتصادي للحضارة الكريتية من خلال فهم موجات التأثير الشرقيّة على الغرب، فإذا كان انتشار الزراعة والتدجين من المشرق العربي القديم إلى الغرب قد مهّد للاستقرار والتحضّر خلال العصر الحجري الحديث، فإنّ دخول كريت ومناطق بحر إيجة في العصور التاريخية كان مرتبطًا من جهة بنضوج ثمار المرحلة الأولى من التأثيرات الشرقية، ومرتبطًا من جهة أخرى بمعرفتهم بالتعدين وليس بالكتابة التي تأخّروا في معرفة أشكالها الأولى نحو ألف سنة عن الشّرق. لقد عُرف معدن النحاس وطريقة استخدامه في الشرق منذ العصر الحجري الحديث، وتعمّم استخدامه خلال العصر الحجري النحاسي، ولكن لم يُعرف في كريت وبحر إيجة حتى عام 2600 ق.م، وذلك أيضًا ضمن موجة ثانية من انتشار المعارف الشرقيّة باتّجاه الغرب.

رابعًا: جزيرة كريت عشيّة الحضارة الكريتيّة/المينويّة

يرقى الاستيطان الأوّل في جزيرة كريت من وجهة نظر بعض الباحثين إلى أواخر العصر الحجري القديم [الباليوليت][1]، ويستند هؤلاء في رأيهم على بعض الأدوات العظمية والأدوات المصنوعة من قرون الحيوانات التي عُثر عليها في منطقة ريتيمنو (Rethym-no). وإن كان ما يزال هناك بعض الشكوك حول استيطان الجزيرة خلال العصر الحجري القديم، فإنّ استيطانها مؤكّد خلال العصر الحجري الوسيط [الميزوليت]، والدليل على ذلك الأدوات الأوبسيديانية المكتشفة في موقعي تريبتي (Trypti) وروس (Rousses) وإلى الشرق من مدينة هيراكليون[2]، وكذلك الرسوم المكتشفة في موقع أسفوندو سفاكيون[3] (As-fendou Sfakion). وفي نحو عام 8000/ 7000 ق.م دخلت كريت في العصر الحجري الحديث [النيوليت][4]، وبدأت تظهر فيها تدريجيًّا سمات هذا العصر مثل: استخدام الأدوات

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 70.

[2]- Ibid. P. 70.

[3]- Ibid. P. 71.

[4]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 13.

الحجريّة المصقولة، والأواني الفخارية، وظهور القرى الزراعيّة الأولى، وممارسة زراعة الحبوب والخضراوات، وتدجين بعض أنواع الحيوانات مثل الخراف والماعز والخنزير والكلب، وبدون أدنى شكّ كانت التطوّرات سابقة الذكر ناتجة عن انتشار النيوليت من منطقة المشرق العربي القديم باتّجاه الأناضول ثم شواطئ بحر إيجة وكريت. إذًا، اعتمد سكان جزيرة كريت في معيشتهم قبل العصر الحجري الحديث على الصيد والالتقاط، وبعد وصل موجة التأثيرات النيوليتية الشرقية خلال العصر الحجري الحديث أصبح اعتمادهم الرئيسي على الزراعة والتدجين. وكان لمعرفتهم بالزراعة والتدجين دورٌ مهمٌّ في تغيير نمط حياتهم؛ حيث استبدلوا حياة التنقّل في أرجاء الجزيرة بحثًا عن الطرائد بحياة الاستقرار في قرى زراعيّة صغيرة تطوّرت تدريجيًّا لتصبح مستوطنات ضخمة في بداية العصور التاريخيّة، ولكن ذلك لا يعني أنّهم هجروا المغائر التي كانوا يقطنوها خلال العصور السابقة، بل استمرّ بعضهم بالسكن فيها مثل مغارة ميانو (Mianou) وبريتيفولا (Pretyvola) وترابيزا (Trape-za). كما نلحظ أيضًا مع هذا التّبدّل في نمط الحياة حدوث تبدّل في الأدوات الحجريّة المستخدمة، فبدلاً من أدوات الصيد التي كانوا يستخدمونها سابقًا نلحظ ظهور أدوات حجريّة زراعيّة تتلاءم مع نمط الحياة الجديد، ونلحظ أيضًا وجود أدوات من الأوبسيديان وهو نوع من الحجر البراق الجميل غير متوفّر في الجزيرة. وبدأ أيضًا سكان جزيرة كريت خلال هذا العصر بنسج علاقاتهم التجاريّة الأولى مع المناطق المحيطة بجزيرتهم، وبخاصة مناطق بحر إيجة ومصر، ويمكننا أن نستدلّ على ذلك من خلال الفخّار الذي عثر عليه في شواطئ بحر إيجة، وهو مشابه لفخار فيستوس وكنوسوس المطلي بالأحمر والمصقول، ومن خلال استيراد كريت للاوبسيديان من ميلوس (Milos) ونيسّيروس (Nissiros)[1]، وكذلك من خلال الأوعية الحجريّة المصريّة العائدة لعصر ما قبل الأسرات التي عثر عليها في كنوسوس ضمن الطبقات العائدة لنهاية العصر الحجري الحديث [النيوليت]. إذًا، استوعبت مجتمعات كريت البدائيّة التأثيرات الشرقيّة بشكل تدريجي، وهذا ما تؤكّده نتائج أعمال البحث والتنقيب في المواقع الأثرية العائدة للعصر الحجري الحديث في الجزيرة، والتي تشير إلى وجود ستة مراحل تطوّريّة خلال ذاك العصر، تبدأ من نحو عام 8000/

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 77.

7000 ق.م وتنتهي بظهور الحضارة المينوية. وإذا تأمّلنا المكتشفات الأثريّة العائدة لتلك المراحل نلحظ أنّ مجتمعات كريت كانت قد بلغت عشيّة العصور التاريخية مرحلةً مهمّةً من التحضّر، يبرز من سماتها: معرفة الزراعة والتدجين، الإقامة في قرى زراعية، استخدام الأواني الفخارية، معرفة الملاحة البحرية، ممارسة التبادل التجاري مع بعض المناطق المحيطة بالجزيرة وفقًا لنظام المقايضة. وممّا لا شكّ فيه أنّ تلك المنجزات الحضاريّة كانت ثمرة الموجة الأولى من التأثيرات الشرقيّة. وإذا تأمّلنا المكتشفات الأثريّة العائدة للمرحلة الأولى من الحضارة المينوية نلاحظ أنّ السمات سابقة الذكر مطابقة تمامًا لما يمكن استخلاصه من سمات لهذه المرحلة، مع وجود فارق مهم يتمثّل بدخول استخدام المعادن إلى الجزيرة ضمن إطار الموجة الثانية من التأثيرات الشرقية على الغرب، وهذا يدفعنا إلى القول إنّ دخول جزيرة كريت ومناطق بحر إيجة في العصور التاريخيّة كان مرتبطًا من جهة بنضوج ثمار المرحلة الأولى من التأثيرات الشرقيّة، ومرتبطًا من جهة أخرى بمعرفتهم بالتعدين لا بالكتابة، وبمعنى آخر كان دخول جزيرة كريت بالعصور التاريخية ناتجًا عن تلاقح ثمار المرحلة الأولى من التأثيرات الشرقيّة مع معارف موجة التأثير الشرقية الثانية على الغرب والمتمثّلة بشكل أساسي بالتعدين.

خامسًا: الزراعة وتربية الحيوانات في الحضارة الكريتية

اهتمّ الكريتيون بالزّراعة كثيرًا، وبخاصّة الحبوب والخضراوات والزيتون والكرمة والتين؛ حيث زرعوا القمح والشعير والخضراوات في المناطق السهليّة ذات التربة اللحقيّة الخصبة، بينما تركّزت زراعة الزيتون والكرمة والتين في السفوح الجبليّة القليلة الارتفاع، ويعلوها في السفوح الجبليّة المرتفعة الأشجار البرية التي كانت تشكّل غابات كثيفة من السرو والصنوبر والبلوط والحور الذي كان أيضًا يكسو ضفاف الأنهار، كما كان ينبت في أراضيهم الكتان والزعفران والسمسم والنعنع والخشخاش والزعتر. وتشير نتائج أعمال التنقيب في مواقع الحضارة الكريتية إلى أنّهم أنتجوا زيت الزيتون والنبيذ منذ العصر المينوي القديم، ولكن لم يتمّ التّعرّف على أيّة مخازن أو أماكن متخصّصة بإنتاج تلك المنتجات الزراعية[1]. وحظيت الزراعة خلال العصر المينوي الأوسط باهتمام كبير، ويعود السبب في ذلك إلى تركّز القصور

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 94.

الأولى في أكثر سهول الجزيرة خصوبةً[1]، مثل قصر كنوسوس وفيستوس وماليا، التي كان يشرف حكام كلّ منها على النّشاط الاقتصادي في مناطق نفوذه؛ إذ تشير المتاجر الكبيرة المكتشفة في تلك القصور إلى وجود غنى واضح بالثروات الزراعيّة، وقد استمرّ هذا الغنى طيلة المرحلة اللاّحقة -مرحلة القصر الحديث- حيث كان الإنتاج الزراعي يكفي الاستهلاك المحلي للجزيرة، ويتمّ تصدير الفائض منه وبخاصة النبيذ وزيت الزيتون إلى العديد من المناطق ليتمّ مقايضتها بالمعادن التي يحتاجها حرفيو الجزيرة في التصنيع. وإلى جانب هذا النّشاط الزّراعي المميّز، مارس الكريتيون تربية الحيوانات داخل بيوتهم أو في مزارع خاصة، ومن أهمّها الأبقار والماعز والخنازير والخيول وكلاب الصيد والحراسة. كما مارسوا الصيد بنوعيّة البري والبحري لتأمين بعض حاجتهم من اللحوم، وكان من أبرز الحيوانات التي اصطادوها الغزال والأرنب والخنزير البري والأسماك، وكانوا يستطيبون أكل المحار، ومزج النبيذ بالعسل، ولكن لا نعلم إن كانوا قد قاموا بتربية النحل أم لا.

سادسًا: الصناعات الحرفيّة في الحضارة الكريتيّة

أنتج الصنّاع الكريتيون معظم المنتجات التي يحتاجها المجتمع الكريتي، وكان الاستيراد يقتصر على المواد الخام -وبخاصة المعادن- غير المتوفّرة في الجزيرة، والتي كان يتمّ مقايضتها بفائض إنتاج الجزيرة من زيت الزيتون والنبيذ والحلي وغيرها، ويمكننا من خلال المخلفات الأثرية التعرّف على أشهر الصناعات الحرفيّة التي أشتهر بها جزيرة كريت وهي الفخّار والتعدين:

بالنسبة للفخار، فقد عرف الكريتيون صناعته منذ العصر الحجري الحديث[2]، ثم طوّروها تدريجيًّا خلال عصر الحضارة الكريتيّة، ففي الدور الأوّل من العصر المينوي القديم أنتج الصنّاع الكريتيون أنماط عدّة من الفخار [الشكل: 2] أبرزها:

---

[1]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 23.

[2]- Ibid. P. 13.



الشكل 2: نماذج من الأواني الفخارية العائدة للعصر المينوي القديم، وأهمها الأواني من نمط فاسيليكي العائدة لنهاية الدور الثاني من العصر المينوي القديم.

فخار بيركوس (Pyrgos): أخذ هذا النّمط اسمه من موقع بيركوس، هو موقع أثريّ مينويّ يقع بالقرب من ميرتوس (Myrtos) على الشاطئ الجنوبي لجزيرة كريت، ويتميّز هذا النّمط بلونه الأسود والرمادي، وبالأشكال الخطيّة المصقولة التي تمثّل استمراريّة لنمط العصر الحجري الحديث[1]، وكان من أبرز الأواني المنتجة الكؤوس المخروطيّة المزدوجة الكبيرة، والأواني المزدوجة أو الثلاثية، والطاسات، والأواني الكروية، والأباريق الصغيرة، أما الزخارف فكان يغلب فيها العصابات والأشكال الهندسية وخاصة أنصاف الدوائر وخطوط الزكزاك[2].

فخار أجيوس أونوفريوس (Agios Onouphrios): وهو فخار مطلي، مزخرف بزخارف عامودية -باتّجاه قاعدة الآنية- على سطح بُنيٍّ غامق أو بُنيّ مُحّمر على طلاء مصقول بلونٍ

[1]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 15.

[2]- BETANCOURT P. P.: The History of Minoan Pottery. Princeton, N.J. 1985, P. 23.

فاتح، ومن أبرز الأواني المنتجة كانت الأباريق، والأنفورات المستخدمة لنقل الزيوت والنبيذ، والصناديق الأسطوانية الصغيرة، والمزهريات[1].

فخار ليفينا (Levina): وهو عبارة عن فخار مزخرف بزخارف خطية بيضاء على سطح بني أو بني فاتح.

وقد استمرّ إنتاج الأنماط السابقة خلال الدور الثاني من العصر المينوي القديم، ولكن ساد نمطان جديدان من الفخار خلال هذا الدور وهما:

فخار كوماسا (Koumasa): أخذ هذا النمط اسمه من موقع كوماسا، وهو موقع أثري مينوي يقع في سهل ميسارا، ويمثّل هذا النّمط نموذجًا متطوّرًا من فخار أجيوس أونوفريوس، ولكن مع أشكال أكثر تعقيدًا، وزخارف هندسيّة أكثر تنظيمًا مثل الخطوط المستقيمة والمثلثات المقلوبة والمعينات، وكذلك زخارف حيوانية أهمها الفراشات[2].

الفخار الناعم المُرمّد: وهو فخّار مزخرف بأشكال هندسيّة -المثلثات وأنصاف الدوائر- محفورة على السطوح المصقولة.

وفي نهاية الدور الثاني من العصر المينوي القديم كان النّمط السائد من الفخّار يُدعى فخار فاسيليكي (Vassiliki)، الذي يتميّز بأباريق تأخذ فوهتها شكل منقار الطائر، وأباريق بفوهة طويلة، وأواني الحليب، والأكواب نصف أسطوانية الشكل. وكانت سطوح تلك الأواني مطليّة بطبقة سميكة، ومبقعة ببقع ذات أشكال مختلفة، ناتجة عن سوء التحكّم بدرجات الحرارة أثناء عملية شي الآنية[3].

أما خلال الدور الثالث من العصر المينوي القديم، وكذلك الدور الأوّل من العصر المينوي الأوسط، فقد ظهرت أنماط جديدة من الفخّار مستوحاة من الأنماط القديمة، ومن أبرزها فخار لفكوس (Lefkos) الأبيض، المتطوّر عن فخار فاسيليكي، ويتميّز هذا الفخّار بسطوحه السوداء المصقولة، وبالزخارف البيضاء المنفذة على تلك السطوح، والتي تأخذ

[1]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 16.

[2]- BETANCOURT P. P., Op. Cit., 1985, P. 35.

[3]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 18.

أشكال الخطوط المنحنية، والأكاليل، ومخالب الإخطبوط، واللولب. ومن أبرز الأواني المنتجة كانت الأباريق والأكواب. وفي نهاية الدور الثالث من العصر المينوي القديم ظهر الفخار متعدّد الألوان، وأصبحت التشكيلات الزخرفيّة اللولبيّة الشكل هي النموذج السائد للزخرفة[1]، أما أنماط الأواني المنتجة فكان أبرزها الأباريق والكؤوس برجل.

تطوّرت صناعة الفخار كثيراً خلال العصر المينوي الأوسط، وخاصّة بعد استخدام الصنّاع الكريتيين لدولاب الفخار السريع، الذي جعل الأواني المنتجة أكثر نعومةً وتجانسًا من تلك التي كانت تصنع سابقًا باليد. ويمثّل هذا العصر ذروة إنتاج فخار كارامس (Karames) المتعدّد الألوان، الذي أخذ اسمه من مغارة كارامس المتوضعة على جبل أيدا بالقرب من قرية حالية تحمل الاسم نفسه أيضًا؛ حيث عثر على الجِرار الأولى العائدة لهذا النّمط[2]، وكانت تحتوي على بقايا أطعمة وسوائل، وكانت فيستوس وكنوسوس من أهم مراكز إنتاج فخار كارامس، وتم إنتاجه أيضًا من قبل حرفيي ماليا (Malia) وغورنيا (Gournia) وفاسيليكي. وتشير المخلّفات الأثريّة المكتشفة إلى تطوّر فخّار كارامس على أربع مراحل، وذلك بين عامي 2000 إلى 1600 ق.م، وهذه المراحل هي:

فخّار ما قبل كارامس: يعود لنهاية الدور الثالث من العصر المينوي القديم.

فخّار كارامس المبكر: يؤرخ على المرحلة B من الدور الأوّل من العصر المينوي الأوسط، ويستمرّ خلال المرحلة A من الدور الثاني من العصر المينوي الأوسط.

فخّار كارامس الكلاسيكي: يؤرخ على المرحلة B من الدور الثاني من العصر المينوي الأوسط، ويستمرّ خلال المرحلة A من الدور الثالث من العصر المينوي الأوسط.

فخّار كارامس الأخير: يؤرخ على بداية مرحلة القصر الحديث.

وفيما يتعلّق بالأنواع المنتجة من فخّار كارامس، فهي تصنّف إلى نوعين هما: الأواني المفتوحة الفوهة -بمقبض أو بدون مقبض- الكروية أو بجدران مستقيمة مثل الطاسات، والكؤوس، والصحون [الشكل: 3]، وقدور الطبخ والجرار... والأواني الضيقة الفوهة

[1]- BETANCOURT P. P., Op. Cit., 1985, P. 53.

[2]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 25.

مثل الأباريق [الشكل: 4]، والأكواب العميقة ذات البطن الكروي، والجرار، والأمفورات، والأواني التي تأخذ شكل حيوان ما.



الشكل 3: صحن فخاري من نمط كارامس، يعود لمرحلة القصر الباكر.



الشكل 4: إبريق فخاري من نمط كارامس، يعود لمرحلة القصر الباكر.

وتجدر الإشارة إلى أن صناع مركز فاسيليكي كانوا قد أنتجوا أفضل الأنواع المزخرفة من فخار كارامس، ويتميّز الفخّار الذي أنتجوه بتعدّد الألوان، وبزخارفه النباتيّة والحيوانيّة، وبالتشكيلات الزخرفيّة المعقّدة. وكانت سطوح الأواني مغطّاة بطلاء لامع أسود أو داكن، يشكّل الأرضيّة التي تنفذ عليها الزخارف إما باللون الأبيض أو اللون الأحمر المتدرج، ونادرًا ما كانوا يستخدمون اللّون الأرجواني أو البرتقالي أو الأصفر. وكانت تلك الأواني تحمل الكثير من التشكيلات الزخرفيّة أهمّها الخطوط المنحنية والمُموّجة والمتشابكة، وهذا ما ينتج تشكيلات متعدّدة الألوان، يتمّ ترتيبها عن طريق الالتواء أو التناوب في الاتّجاه[1].

استمرّ الصنّاع في بداية العصر المينوي الحديث بإنتاج أنماط فخار المرحلة السابقة، ولكن بدأت تلك الأنماط تفقد أهمّيتها تدريجيًّا لتحلّ مكانها الأنماط الجديدة الخاصّة بهذا العصر، وكانت أهم مراكز الإنتاج خلال هذه المرحلة هي كنوسوس وفيستوس وكيدونيا (Kydonia)، أمّا بالنسبة لأهم الأنماط فهي:

فخار بهيئة درع السلحفاة: وهو أوّل أنماط مرحلة القصر الحديث، ويتميّز بتزيين سطوح الأواني بزخارف مموّجة توحي بشكل درع السلحفاة[2]، ومن أبرزها الأمفورات والقدور والجرار والأباريق.

نمط الزهور: يتميّز هذا النّمط بزخرفة سطوح الأواني الفخّاريّة بالرسوم النباتيّة المتمثّلة بأوراق وأزهار بعض النباتات وخاصّة اللبلاب والزعفران وغصن الزيتون واللوالب الورقية والزنبق[3]...

النّمط البحري: يتميّز هذا النّمط بزخرفة سطوح الأواني الفخّارية برسوم حيوانيّة ونباتيّة بحريّة مثل نجمة البحر والإخطبوط والحبّار والإسفنج والشعب المرجانية والطحالب[4] [الشكل: 5]... وغالبًا ما يتمّ رسم عنصر واحد أو عنصرين من تلك العناصر بحجم كبير ثم يحاط بعناصر أخرى صغيرة[5].

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 113.

[2]- Ibid. P. 173.

[3]- Ibid. P. 175.

[4]- Ibid. P. 175.

[5]- Ibid. P. 175.



الشكل 5: آنيتان فخاريتان من النمط البحري، تعودان للعصر المينوي الحديث.

النّمط التجريدي والهندسي: يتميّز بزخارفه ذات الطابع الديني، والزخارف الهندسية، والزخارف التي تحاكي الأشياء المصنوعة من الحجر والمعدن...

النّمط المتناوب: وهو أسلوب مختلط، استخدمت فيه معظم الزخارف التي كانت سائدة في الأنماط السابقة، وكان يتمّ استخدامها من خلال تناوب العناصر بشكل منعزل على سطوح الأواني [الشكل: 6]، ومن أبرزها القلب والعقدة المقدّسة وشقائق النّعمان والزخارف الصخريّة غير المنتظمة والفؤوس المزدوجة ورؤوس الثيران[1]...

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 176.



الشكل 6: آنية فخارية كريتية من النمط المتناوب، تعود للعصر المينوي الحديث.

أمّا بالنسبة للتعدين، فقد بدأ الكريتيون باستخدام النّحاس لتصنيع أدواتهم وأسلحتهم في نحو عام 2600 ق.م[1]، وقد تعدّدت الفرضيّات حول كيفيّة انتقال تلك الصناعة إلى كريت؛ حيث رأى إيفانس أنّ المهاجرين المصريين هم أوّل من نقل هذه الصناعة إلى كريت[2]، في حين تقول فرضية أخرى إنّ صناعة النّحاس أتت إلى كريت عن طريق المستوطنين الذين قدموا إما من الأناضول أو شمال إفريقية، ولكن الدّراسات الأنتروبولوجيّة تشير إلى عدم وجود هجرات من تلك المناطق إلى كريت خلال تلك الفترة، بل إنّ جزيرة كريت وجميع مناطق بحر إيجة كانت مأهولة بسكان محليين صنفوا بسكان العصر ما قبل الهيليني، أو

[1]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 15.

[2]- TULARD J.: Histoire de la Crète, Paris, PUF, 1979, P. 20.

الإيجيين[1]. وبالنسبة لنا فإنّ معرفة الكريتيين لمعدن النّحاس وللتعدين بشكل عام كان نتيجةً لتعميم استخدامه في الشرق خلال العصر الحجري النحاسي، ثم انتشار المعارف الخاصة به خلال العصور التاريخيّة المبكرة من الشرق إلى الغرب بفضل التعاملات التجارية التي كانت قد تشكّلت بين كريت والشرق قبل معرفة الكريتيين للنحاس [2600 ق.م]، وهذا ما تؤكّده المكتشفات الأثريّة، أمّا بالنسبة للمكان الذي دخلت منه تلك المعارف إلى كريت، فخلافًا لجميع الفرضيات السابقة نقول: إنّ استخدام معدن النّحاس خلال العصر الحجري النّحاسي في الشرق كان يمثّل جزءًا مهمّا من النّشاط الاقتصادي، أي أنّ استخدامه كان معمّم على جميع المناطق من زاغروس إلى مصر، وبالتالي نرجّح انتقال طريقة استخدامه إلى كريت من أي منطقة كانت على علاقة تجاريّة مع تلك الجزيرة، ولكن لا يمكننا وفقًا للمعطيات العلميّة المتاحة تحديد منطقة بعينها؛ لأنّ جميع تلك المناطق -الأناضول، بلاد الشام، مصر- كانت مؤهلة ومرتبطة بعلاقات تجاريّة مع كريت، ولذلك من الخطأ تحديد منطقة بعينها أو ربط ذلك بموجات هجرة إلى الجزيرة . إذا تأمّلنا نتائج أعمال البحث والتنقيب الأثري نلحظ أنّ النّحاس كان ينتج في مرحلة متقدّمة من منطقة أستيروسيا جنوب ميسارا، وكان يتمّ استيراده أيضًا من الأناضول وقبرص، وقد ساعد الأسطول الكريتي على زيادة الاعتماد على المعادن بشكل كبير في التصنيع، حيث كان الكريتيون يستوردون الذهب من مصر[2] والأناضول، والفضة من سيكلاديز وكيليكيا[3]، والقصدير من إسبانيا أو الغال[4]. وبالنسبة لمعدن البرونز، فقد ارتبط انتشاره في مناطق بحر إيجة بالحركة التجاريّة الكبيرة فيما بين الأناضول وكريت وسيكلاديز وجنوب اليونان. تم استخدام معدن النحاس بدايةً لتصنيع خناجر صغيرة شبه مثلّثة الشّكل، ثمّ صنعوا منه الخناجر الطويلة المدعّمة بضلع في الوسط لتقويتها، واستخدم أيضًا لتصنيع المخارز التي كانت تستخدم في صناعة الجلود والملابس. وكان يتمّ استخدام البرونز في مرحلة ما قبل القصر لتصنيع الخناجر والسكاكين، وفي نهاية

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 94.

[2]- TULARD J., Op. Cit., 1979, P. 21.

[3]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 21.

[4]- TULARD J., Op. Cit., 1979, P. 22.

هذا المرحلة تطوّرت صناعته، وأتقن الكريتيون طريقة صهر المعادن وقولبتها[1]، حيث أصبحت السكاكين المصنّعة من البرونز أكثر طولاً وصلابةً، وتم استخدمه أيضًا لتصنيع أدوات جديدة للاستخدام اليومي مثل الفأس المزدوج والسكين والمنشار والكماشة[2]، وفي مرحلة القصر الحديث كان يستخدم البرونز لتصنيع تماثيل المتعبّدين التي كانت توضع في الأضرحة، كما كان يستخدم لتصنيع الأدوات المنزليّة التي عُثر على الكثير منها في البيوت والقصور مثل أحواض غسيل اليدين والسكاكين والقدور والأوعية... وكذلك المرايا ومشابك الشعر وشفرات الحلاقة. وفضلاً عن ذلك كان البرونز المادة الأساسيّة لصناعة الأسلحة طيلة المراحل الثلاث مثل الخناجر والسيوف ورؤوس الرماح... وبالنسبة لمعدن الفضّة، فقد كان يستخدم لتصنيع الحلي بالدرجة الأولى، واستخدم أيضًا رغم ندرته في تصنيع الخناجر. أما فيما يتعلّق بالذهب فقد استخدم لصناعة الحلي الفاخرة.

إذًا، كانت صناعة الفخّار والتعدين من أبرز الصناعات التي اشتهر بها الكريتيون، وفضلاً عن ذلك فقد عرف الكريتيون صناعات عدّة أخرى، ولكن نتيجةً لندرة المكتشفات الأثرية المتعلقة بها لا يمكننا الغوص في تفاصيلها. إنّ كل ما يمكن قوله بحسب المعطيات العلميّة المتاحة حاليًا هو أنّهم اهتمّوا بصناعة السفن، وهذا ما أشارت إليه بعض المصادر الكتابية ومنها ما ذكره المؤرخ ثوكيديديس عن مينوس أنّه كان يملك أسطولاً تجاريًّا بحريًّا وأنّه قد طهّر بحر إيجة من القراصنة[3]، ولكن لم يتم التعرّف حتى الآن على أي موقع أثري في كريت مخصّص لصناعة السفن، بل إنّ كلّ ما نعرفه هو أنّ كريت كانت غنيّة بالأشجار البرية التي كانت تشكّل غابات كثيفة على سفوح الجبال، ومن البديهي أن يكونوا قد قاموا بقطع تلك الأشجار ونقلها إلى الشواطئ القريبة لصناعة السفن. واهتمّ الكريتيون أيضًا بصناعة الملابس، وهذا ما يمكن أن نستشفّه من خلال بعض الأدوات النحاسيّة والبرونزيّة

[1]- DOUMAS C.: THE AEGEAN WORLD: THE EARLY BRONZE AGE (3000–1500 BC). In: A. H. Dani, J.-P. Mohen, J. L. Lorenzo, V. M. Masson, T. Obenga, M. B. Sakellariou, B. K. Thapar Zhang Changshou, S. J. De Laet. History of Humanity – Vol. 2: From the Third Millennium to the Seventh Century B. C., l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris, et Routledge, Londres, 1996, P. 403.

[2]- TULARD J., Op. Cit., 1979, P. 90.

[3]- THUCYDIDES: History of the Peloponnesian War, Translated by C. F. Smith. Loeb Classical Library, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1919, 1. 4.

مثل المخارز والإبر التي كانت مخصّصة لهذا النّوع من الصناعات، أمّا فيما يتعلّق بنوعيّة الملابس التي كانوا يرتدونها فيمكننا التعرّف على بعضها من خلال التماثيل واللوحات المكتشفة، وبتأمّل تلك الرسوم والتماثيل البشريّة يمكننا القول إنّه كان لديهم نوعين من اللّباس: الأول هو الزي العسكري الذي كان يرتديه الجنود، والثاني هو اللباس العادي الذي كان يرتديه عامة الناس. كان الرجال يرتدون ثوبًا يخفون به العورات، وكانوا يرتدون نطاقًا يلفّ الخصر ويضعون فيه خنجرًا، وهذا ما يبدو جليًا في رسوم العصر المينوي الأوسط التي يظهر فيها أفراد طبقة الأشراف وهم يخرجون بين الناس واضعين الخناجر في زنانيرهم، وكانوا يضعون على رؤوسهم إما عمامة أو طاقية، وفي الزي العسكري كانوا يضعون الخوذ. أمّا النساء فكنّ يرتدين ثيابًا تشبه كثيرًا الثياب المتعارف عليها في العصور الحديثة، وهي عبارة عن فسطان وصدرية، وكنّ أيضًا يرتدين برانيط جميلة جدًا ومتنوّعة الأشكال، ويكثرن من المجوهرات والزينة، وقد أطلق علماء الآثار على صورة إحدى السيدات الكريتيات اسم الباريسية لما يبدو عليها من الرشاقة والعناية بزي الثياب والزينة كأنّها إحدى فتيات باريس[1]. وإذا تابعنا التأمّل في تلك الرسوم الكريتيّة يمُكننا القول بشيءٍ من الحزر إنّ النّساء الكريتيات كنّ يساعدن الرجال في الكثير من الأعمال مثل صناعة الفخار وأعمال الفلاحة والصيد، إضافة إلى الأعمال المنزلية ونسج الثياب وطحن القمح[2].

سابعًا: التبادل التجاري

تقع جزيرة كريت كما قلنا سابقًا في القسم الشرقي لحوض البحر المتوسّط، وهي تمثّل مفترق طرق بين قارات العالم القديم آسيا وأفريقيا وأوربا، وهذا ما ساعدها إلى حدّ كبير في إقامة علاقات تجاريّة مبكرة مع مختلف المناطق المحيطة بها، وبالتالي تمكّن سكّانها منذ زمن مبكر من كسر عزلتهم، وجعلوا جزيرتهم ضمن منطقة التّفاعل الثّقافي، ممّا أدّى لتطوّر معارفهم في مختلف جوانب الحياة. تؤرخ أقدم العلاقات التجارية لجزيرة كريت على نهاية العصر الحجري الحديث، وهذا ما يستدلّ عليه من خلال حركة الأوبسيديان الذي كانت

[1]- محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، ط3، دمشق، دار الفكر، 1880م، ج1، ص48.

[2]- خليل سارة: تاريخ الإغريق، لا ط، دمشق، منشورات جامعة دمشق، 2013/2014 م، ص147-172.

كريت تستورده من ميلوس ونيسّيروس[1]، ومن خلال الفخار الذي عثر عليه في شواطئ بحر إيجة وهو مشابه لفخار فيستوس وكنوسوس المطلي بالأحمر والمصقول[2]، وكذلك من خلال الأوعية الحجرية المصرية العائدة لعصر ما قبل الأسرات التي عثر عليها في كنوسوس ضمن الطبقات العائدة لنهاية العصر الحجري الحديث. ومع دخول كريت في عصورها التاريخيّة تطوّرت علاقاتها التّجاريّة مع مختلف المناطق المحيطة بها مثل مناطق بحر إيجة والأناضول وآسيا الصغرى وسواحل بلاد الشام ومصر التي بقيت كريت على صلة وثيقة بها طيلة فترة الحضارة الكريتية[3]، وهذا ما تؤكّده المكتشفات الأثريّة في المواقع الكريتيّة والمصرية، حيث عثر على مزهريات حجريّة مصريّة من عصر الدولة القديمة في مقابر مرحلة ما قبل القصر المكتشفة في جزيرة موكلوس (Mochlos)، وكانت جزيرة موكلوس خلال تلك المرحلة ميناءً مهمًّا، ومستوطنة مينوية، وعثر على كسر فخارية لأواني من نمط كارامس -الذي كان سائدًا في كريت خلال مرحلة القصر الباكر- في موقع كاهون في مصر، وذلك ضمن الركام المحيط بأهرامات الأسرة الثانية عشر، عُثر على آنية فخاريّة كريتية من نمط كارامس في أبيدوس في مصر[4]، كما عثر على غطاء آنية حجريّة في كنوسوس ضمن طبقات الدور الثالث من العصر المينوي الأوسط، وهو يحمل شارة ملك الهكسوس حيان، وهذا يشير إلى أنّ بداية مرحلة القصر الحديث متزامنة مع فترة حكم الهكسوس لمصر، وعثر أيضًا في أحد قبور المرحلة الأخيرة من قصر كاتسمبا (Katsamba) على أمفورة من الألباتر تحمل شارة الفرعون تحوتمس الثالث من الأسرة الثامنة عشر[5]، وهذا يشير بدوره إلى وجود علاقات تجاريّة بين كريت ومصر خلال مرحلة القصر الحديث المتزامنة مع فترة حكم الأسرة الثامنة عشر لمصر.

لقد أدّى نقص المعادن في جزيرة كريت وحاجتهم لها في التصنيع إلى إقامة علاقات

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 77.

[2]- Ibid. P. 77.

[3]- SAKELLARIOU M.: THE AEGEAN WORLD. In: A. H. Dani, J.-P. Mohen, J. L. Lorenzo, V. M. Masson, T. Obenga, M. B. Sakellariou, B. K. Thapar Zhang Changshou, S. J. De Laet. History of Humanity – Vol. 2: From the Third Millennium to the Seventh Century B. C., l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris, et Routledge, Londres, 1996, P. 408.

[4]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 8.

[5]- Ibid. P. 8.

تجاريّة مع مختلف المناطق التي تنتجها؛ حيث ارتبط انتشار معدن البرونز في مناطق بحر إيجة بالحركة التجارية الكبيرة فيما بين الأناضول وكريت وسيكلاديز وجنوب اليونان[1]، وكان الكريتيون يستوردون النحاس من الأناضول وقبرص، والذهب من مصر[2] والأناضول، والفضة من سيكلاديز وكيليكيا[3]، والقصدير من إسبانيا أو الغال[4]. ففي مرحلة ما قبل القصر، كان للأسطول الكريتي الدور الأبرز في جعل الجزيرة تشغل موقعًا مهمًّا في بحر إيجة من خلال لعب دور الوسيط بين مناطق بحر إيجة والشرق، ولعبَ أيضًا دورًا مهمًّا في تعزيز التبادل التجاري بين كريت ومصر وبلاد الشام والأناضول وآسيا الصغرى[5]، وقد أدّى هذا النّشاط التّجاري بدوره إلى تطوّر العديد من الموانئ في كريت، ومثال على ذلك مينائي زاكروس (Zakros) وبالايوكاسترو (Palaiokastra) على الساحل الشرقي للجزيرة، ومينائي موكلوس وبسيرا (Pseira) على الساحل الشمالي اللذان أصبحا مركز التبادل التجاري الرئيسي مع الأناضول[6]. وكانت كريت تستورد المعادن بأنواعها من تلك المناطق وتُصدّر لها زيت الزيتون والنبيذ والمجوهرات، وذلك وفقًا لنظام المقايضة. وفي مرحلة القصر الباكر أصبحت علاقات كريت التّجاريّة أوسع نطاقًا، وأكثر أهميّةً من المرحلة السابقة، وتشير الأواني الفخارية الكريتيّة من نمط كارامس المكتشفة خارج كريت إلى أنّ تجارتها وثقافتها طالت مناطق ميلوس وليرن وإيجين وكوفونيسي، كما عثر على كميات مهمّة من الفخّار الكريتي في مصر وأوجاريت وبيبلوس[7]، وهذا يشير بدوره إلى أهميّة العلاقات التجاريّة التي كانت تربط كريت بتلك المناطق في مرحلة القصر الباكر. وتشير أيضًا المكتشفات الأثريّة العائدة لمرحلة القصر الحديث إلى استمرار العلاقات التجاريّة المميّزة مع مختلف المناطق المنتجة للمعادن.

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 94.

[2]- TULARD J., Op. Cit., 1979, P. 21.

[3]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 21.

[4]- TULARD J., Op. Cit., 1979, P. 22.

[5]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 29.

[6]- TULARD J., Op. Cit., 1979, P. 21.

[7]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 29.

ثامنًا: الأختام

بدأ الكريتيون باستخدام الأختام في النصف الثاني من مرحلة ما قبل القصر [2600 -2000 ق.م]، وكان ذلك نتيجةً للتطوّرات التي شهدها الاقتصاد الكريتي مع دخول المعادن ضمن نطاق الصناعات الحرفيّة؛ حيث شعر الكريتيون بحاجتهم إلى تنظيم تعاملاتهم التجاريّة، والحفاظ على الملكية، وتوثيق اسم الصانع على منتجاته، وتنظيم وثائقهم الإدارية، وتنظيم التسلسل الهرمي في السلطة[1]، فأخذوا فكرة الأختام عن المجتمعات الشرقيّة التي كانت السبّاقة بابتكارها؛ حيث ظهرت هناك منذ العصر الحجري الحديث، ومثال على ذلك الأختام المكتشفة في تل الكرخ[2] وتل الشير[3] في سورية. كانت الأختام في مرحلة ما قبل القصر تصنع من مواد طرية مثل العظم والعاج أو من حجر الستياتيت، وتمّ العثور على الكثير منها في المقابر المكتشفة في سهل ميسارا. وكانت أنماطها متنوّعة ومن أبرزها الأختام الحلقية، والأختام التي تأخذ شكل الزر، والأختام المخروطية والأسطوانيّة، وفي حالات أخرى كان بعضها يأخذ شكل حيوان ما وخاصةً القرد والثور والأسد والطير. أمّا طبعاتها المسطّحة، فكانت تأخذ شكل الخطوط أو الصلبات أو النجوم أو الأشكال لولبيّة مع تمثيل حيواني أو بشري في كثير من الحالات، وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ بعض الأختام العائدة لنهاية مرحلة ما قبل القصر كانت تحمل إشارات هيروغليفيّة، وهذا يشير إلى أنّ شكلاً من أشكال الكتابة كان يستخدم في تلك الفترة[4]. أمّا بالنسبة لأختام مرحلة القصر الباكر، فقد شهدت صناعتها تطوّرًا تقنيًّا مهمًّا، وذلك نتيجةً لتزايد خبرة الحرفيين الكريتيين في صناعة المعادن والحفر عليها، وهذا ما دفعهم إلى استخدام مواد أكثر صلابة في صناعة الأختام مثل العقيق واليشب والكريستال الصخري والهيماتيت[5]... وكان من أبرز الأنماط السائدة خلال تلك المرحلة شكل القرص وأختام بمقبض صغير، إضافة إلى بعض الأنماط التي كانت

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 93.

[2]- TSUNEKI A.: The Earliest Pottery Sequence of the Levant: New Data from Tell el-Kerkh 2 Northern Syria. Paléorient, 1996, 221/, p. 109- 123.

[3]-NIEUWENHUYSE O. et al.: The cord-impressed pottery from the Late Neolithic Northern Levant: Case-study Shir (Syria). Paléorient, 2012, vol. 38, n° 12-, p. 65- 77.

[4]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 21- 22.

[5]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 93.

معروفة سابقًا. أمّا طبعاتها فكانت تحتوي على إشارات هيروغليفيّة، ورسوم لخطوط أو دوائر، ورسومات رمزيّة، ورسومات نباتيّة وحيوانيّة وإنسانيّة مشابهة للرسوم التي كانت تزيّن فخّار كارامس، ومثال على ذلك الأختام المكتشفة في فيستوس[1]. وأخيرًا بالنّسبة لأختام مرحلة القصر الحديث، فقد كانت الأشكال الأكثر شيوعًا هي شكل اللوزة وحبة العدس. أمّا الطبعات فكانت تحتوي على مواضيع مستوحاة من الطبيعة مثل الأسماك والرخويات والطيور والثيران والأسود وأغصان النباتات وأسد يلتهم ثور، وفضلاً عن ذلك كانت طبعات بعض الأختام تجسّد مواضيع دينيّة مثل الاحتفالات الطقسيّة والمباني والأشياء المقدّسة والكائنات الشيطانية والمينوتور **[الشكل: 7]**، وفضلاً عن ذلك فقد عثر في كريت على مجموعة من الأختام المصرية[2].



الشكل 7: نماذج من أختام مرحلة القصر الحديث، عثر عليها في قصر كنوسوس.

تاسعًا: دور الاقتصاد في الحضارة الكريتيّة

كان للعلاقات التجاريّة التي نسجتها كريت مع المناطق المحيطة بها دورٌ مهمٌّ في جعلها ضمن منطقة التّفاعل الثّقافي لحوض البحر المتوسّط منذ منتصف الألف الثالث ق.م، وهذا ما أدّى إلى تطوّر معارف سكّانها في مختلف جوانب الحياة. ففي مرحلة ما قبل القصر كان

[1]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 28.

[2]- Ibid. P. 49.

استخدام المعادن في التصنيع من أهم المعارف التي اكتسبها الكريتيون، ومع تزايد الاعتماد على المعادن أسّس الكريتيون أسطولاً كبيراً لنقل تلك البضائع، ولعب هذا الأسطول دورًا مهمًّا في جعل الجزيرة تشغل موقعًا مهمًّا في بحر إيجة، وأسهم في تعزيز التبادل التجاري بين كريت والمناطق المحيطة بها، وبخاصة مصر وسواحل بلاد الشام والأناضول، وقد أدّى هذا النّشاط التجاري بدوره إلى تطوّر العديد من الموانئ في كريت، ومثال على ذلك مينائي زاكروس وبالايوكاسترو على الساحل الشرقي، ومينائي موكلوس وبسيرا على الساحل الشمالي اللذان أصبحا مركز التبادل التجاري الرئيسي مع الأناضول[1]، وبذلك كان القسم الشرقي من الجزيرة خلال مرحلة ما قبل القصر يمثل مركز الثّقل الحضاري في الجزيرة، وكان القسم الأكثر أهميّة وحيويّة فيها، في حين كانت كنوسوس خلال تلك الفترة تعيش حضارة أشبه بحضارة العصر الحجري الحديث. وفي هذه المرحلة أيضًا أصبحنا نلحظ تطوّر المجتمعات الزّراعيّة ومربي الحيوانات في سهل ميسارا، وأصبحنا تدريجيًّا نلحظ ندرة المناطق المنعزلة في الجزيرة[2]. ومع تعميم استخدام معدن البرونز في الجزيرة بدأ مركز الثّقل الحضاري ينتقل تدريجيًّا باتّجاه وسط الجزيرة، الذي أصبحت مستوطناته تنافس مستوطنات القسم الشرقي من الجزيرة، وهذا ما أدّى إلى تطوّر طريق تجاريّ يجتاز الجزيرة في وسطها، وكانت كنوسوس وفيستوس من أبرز محطاته، وهذا ما أسهم فيما بعد بنهوض هاتين المنطقتين، ففي مرحلة القصر الباكر، تطوّرت العديد من المناطق، وبخاصة الواقعة على طريق التجارة سابق الذكر في السهول الخصبة والغنية بمنتجاتها الزّراعيّة، وظهر في كلّ منها مبنى يحمل مواصفات القصر، وكان ذلك نتيجةً للتطوّر الاقتصادي والاجتماعي الذي وصلت إليه تلك المناطق، وقد أدّى ظهور تلك القصور إلى وجود قوى ما تطوّرت سلطتها تدريجيًّا، وأصبحت تشرف على مختلف جوانب الحياة لمجتمعاتها، ومن ضمنها النّشاط الاقتصادي[3]. وكانت القصور الأولى الأكثر أهميّةً هي قصر كنوسوس وفيستوس وماليا، التي تمّ تشييدها في الأماكن التجمعات الكبيرة العائدة لنهاية مرحلة ما قبل القصر[4]،

[1]- TULARD J., Op. Cit., 1979, P. 21.

[2]- WILLETTS R. F., Op. Cit., 1965, P. 47.

[3]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 104.

[4]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 23.

حيث كان قصر كنوسوس يهيمن على وسط شمال جزيرة كريت، وكان قصر فيستوس يهيمن على سهل ميسارا، في حين كان قصر ماليا يهيمن على المنطقة الممتدّة من وسط جنوب الجزيرة حتى ليرابترا[1]. ويبدو أنّ علاقة تلك القصور ببعضها البعض كانت وديّة ومبنيّة على التعاون، وبكل الأحوال لقد مهّد هذا التمركز إلى تشكّل قوى سياسية في تلك المناطق، تتبع التسلسل الهرمي ويقف على رأسها الملك، وفيما بعد أصبح قصر كنوسوس يهيمن على معظم الجزيرة. وفي نحو عام 1700 ق.م تم تدمير القصور الثلاثة سابقة الذكر، وكان ذلك على الأرجح نتيجة لهزّة أرضيّة أصابت كريت ومعظم مناطق الأناضول[2]، أو ربمّا كان ذلك نتيجةً لصراع بين القوى المهيمنة على القصور وخرجت كنوسوس منه منتصرة[3]. أمّا بالنسبة لمرحلة القصر الحديث فقد أعيد بناء القصور بعد الكارثة التي تعرضت لها الجزيرة في سنة 1700 ق.م، ويمثل القرنين التاليين أعظم مراحل ازدهار الحضارة المينوي، وقد ترافق هذا الازدهار مع ظهور عشرات القصور التي تتمتّع بنوع من الاستقلاليّة، وهذا ما أدّى إلى أضعاف السّلطة المركزيّة في الجزيرة[4]. وفي نحو عام 1400/1450 ق.م انهارت الحضارة المينويّة، ودُمّرت وأُحرقت مدنها وقصورها، وقد اختلف الباحثون حول الأسباب التي أدّت لهذا الدمار، ومن أهمّ الفرضيات المطروحة فرضيّة الغزو الميسيني ـ وهذا ما نرجّحه ـ الذي دمّر القصور والمدن المينوية وحطّم قوّتها ممّا هيّأ لهم الفرصة لمدّ نشاطهم ونفوذهم من البحر الإيجي إلى سائر أنحاء شرق البحر المتوسّط، ويستند هؤلاء الباحثون في رأيهم على المكتشفات الأثريّة والوقائع التاريخية التي تؤيّد هذا الرأي؛ حيث بدأت الحضارة الميسينيّة تطبع حضارة كريت بمؤثّراتها الخاصّة منذ منتصف القرن الخامس عشر ق.م، كما أنّ شعبًا غريبًا بجماجم مستديرة بدأ يطغى على السكان الأصليين أصحاب الجماجم المستطيلة اعتبارًا من منتصف القرن الخامس عشر ق.م.

[1]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 105.

[2]- ALEXIOU S., Op. Cit., 1980, P. 30.

[3]- VASSILAKIS A., Op. Cit., 2000, P. 134.

[4]- Ibid. P. 134.

الخاتمة

بناءً على ما سبق يُمكننا القول إنّ نشوء الحضارة الكريتيّة وازدهارها وسقوطها كان مرتبطًا إلى حدّ كبير بموقعها الجغرافي المميّز وبعلاقاتها التّجارية مع الشّرق؛ حيث كان نشوؤها ناتجًا عن وصول موجات التأثير الشرقيّة إلى كريت، والتي كان أوّلها انتشار الزّراعة التي مهّدت للاستقرار، والانتقال من حياة الصيد والالتقاط إلى حياة الزراعة والتدجين، وهذا ما أدّى لظهور القرى وتطوّرها تدريجيًّا حتى أصبحت في العصر المينوي القديم مستوطنات مهمّة، وخلال هذا العصر ـ المينوي القديم ـ وصلت موجة التأثير الشرقيّة الثانيّة المتمثّلة بالتعدين إلى جزيرة كريت، وبالتالي تعاظمت الأهميّة التّجاريّة لكريت، وخاصّة بعد امتلاكها لأسطول مهم، فأصبحت البوابة الأولى ـ بالنسبة لمناطق بحر إيجة ـ للتجارية مع الشرق، واستمرّت هذه الأهميّة خلال العصرين المينويين الأوسط والحديث، فظهرت القصور الأولى، ومراكز السلطة، ونهضت مناطق متعدّدة من الجزيرة بفضل وقوعها على الطرق التجارية... وكان ذلك نتيجةً لعلاقة كريت المتميّزة بقوى الشّرق، التي سمحت لأسطول كريت بحريّة الحركة في شواطئ البحر المتوسّط؛ إذ كانت كريت بالنسبة لهم البوابة الأولى لمناطق بحر إيجة، كما كانت كريت بالنسبة لمناطق بحر إيجة البوابة الأولى للتعامل التجاري مع الشرق. أمّا بالنسبة لسقوط كريت فكان نتيجةً لصعود نجم الميسينيين، وطموحهم بالسيطرة على الموقع الاستراتيجي لجزيرة كريت، من أجل مدّ نشاطهم ونفوذهم من البحر الإيجي إلى سائر أنحاء شرق البحر المتوسط.

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

1. خليل سارة: تاريخ الإغريق، منشورات جامعة دمشق، 2014/2013 م.

2. محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، دار الفكر، دمشق، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، 1880 م.

المصادر والمراجع الأجنبية

1. ALEXIOU STYLIANOS: La Civilisation Minoenne, Héraklion Crète, 1980.

2. BETANCOURT P. P.: The History of Minoan Pottery. Princeton, N.J. 1985.

3. COSTIS DAVARAS: Cnossos et le musée d'Héracleion, Editions Hannibal, Athènes, 1957.

4. DOUMAS C.: THE AEGEAN WORLD: THE EARLY BRONZE AGE (3000–1500 BC). In: A. H. Dani, J.-P. Mohen, J. L. Lorenzo, V. M. Masson, T. Obenga, M. B. Sakellariou, B. K. Thapar Zhang Changshou, S. J. De Laet. History of Humanity – Vol. 2: From the Third Millennium to the Seventh Century B. C., l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris, et Routledge, Londres, 1996, P. 403.

5. NIEUWENHUYSE O.: The cord-impressed pottery from the Late

Neolithic Northern Levant: Case-study Shir (Syria). Paléorient, 2012, vol. 38, n° 12-.

6. NIKOLAOS PLATON: La Civilisation égéenne. Éditions Albin Michel (Fr), 1981 puis réédité en 2000 en 2 tomes.

7. SAKELLARIOU M.: THE AEGEAN WORLD. In: A. H. Dani, J.-P. Mohen, J. L. Lorenzo, V. M. Masson, T. Obenga, M. B. Sakellariou, B. K. Thapar Zhang Changshou, S. J. De Laet. History of Humanity – Vol. 2: From the Third Millennium to the Seventh Century B. C., l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture (UNESCO), Paris, et Routledge, Londres, 1996.

8. STIER H. E.: Grosser Atlas zur Weltgeschichte, Westermann publi. Braunschweig, 1985.

9. THUCYDIDES: History of the Peloponnesian War, Translated by C. F. Smith. Loeb Classical Library, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1919, 1. 4.

10. TSUNEKI A.: The Earliest Pottery Sequence of the Levant: New Data from Tell el-Kerkh 2, Northern Syria. Paléorient, 1996, 221/.

11. TULARD J.: Histoire de la Crète, Paris, PUF, 1979.

12. VANDENABEELE F.: La chronologie des documents en linéaire A. BCH, Vol. 109, n° 1, 1985.

13. VASSILAKIS A.: La Crète minoenne: Du mythe à l'histoire. Athènes, Adam, 2000.

14. WILLETTS R. F.: Ancient Crete. A Social History from Early Times until the Roman Occupation. London, Routledge and Kegan Paul; Toronto: University Press, 1965.

هذا الكتاب

يهدف هذا المشروع إلى إعادة قراءة التاريخ الحضاري للغرب برؤية موضوعيّة تعتمد على التحليل والنقد، وذلك من خلال الغوص في أعماق هذه الحضارة والبحث عن أصولها وجذورها الأولى وامتدادها وتجلّياتها عبر القرون والعصور المختلفة وتسجيل مالها وما عليها؛ للاستفادة من الإيجابيّات والابتعاد عن الهفوات والسلبيّات سيما ونحن نعيش على أبواب تغييرات حضارية عالميّة تغيّر الخارطة الثقافية.

إننا لا نهدف من خلال هذا المشروع إلى إعادة كتابة تاريخ الغرب من جديد، إذ هذا أمر تكفّله الغرب بجدارة، بل إنّ هدفنا هو إعادة قراءة هذا التاريخ لإعادة رسم حاضرنا بالاعتماد على ثقافتنا وهويتنا الإسلاميّة .

نتمنّى لكم رحلة معرفيّة ممتعة...



المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
http://www.iicss.iq
islamic.css@gmail.com